الارامييــــون
فى العهــد القـــديم

للدكتور خالد الدسوقى
كلية البنات ـــ جامعة عين شمس

هنـــاك عبارة غامضة فى سفر عاموس (٩ : ٧) ترجع أصـــل الآراميين الى مكان يســـمى قير الذى يحتمـــل أن يكون بالقـــرب من عيلام (١) وذلك على الرغم من أن هذا المكان قد ذكر فى سفر عاموس (١ : ٥) والملوك الثانى (١٦ : ٩) باعتباره المكان الذى قدره الرب ليكون منفى أراميى دمشق • وتوحى العبارات التى وردت فى ســـفر عاموس بأنه بعـــد ما يقرب من خمســـمائة عام من اقامة الآراميين فى سوريا ، كانت لا تزال توجد رواية متداولة عن هجرة الآراميين تشـــبه الى حد كبير قصـــة خروج الاسرائيليين من مصر أو الفلســـطينين من كافتور (٢) كما تشير أيضا الى ما قد يؤدى اليه ســـلوكهم المعوج من نتائج وذلك بارجاعهم الى موطن أجدادهم • ليس هذا التهديد الا أثر من آثار ذكرى التهديد الذى وجه الى الاسرائيليين العصاه بارجاعهم ثانية الى مصر (٣) •

ومن ناحية أخرى فهناك مصـــدر خاص بأسفار موسى الخمســـة (التوراه) ذكر أن مكان اقامة الآراميين الأول هو «أرض بنىالمشرق»

---

(١) قارن ، أشـعيا ٢٢ : ٦ •

(2) Cf.. C.H. Gordon, JBL 74 (1955), p. 289.

(٣) قارن ، تثنيه ٢٨ : ٦٨ ، هوشـع ٨ : ٣١ •

(تكوين ٢٩ : ١) حيث يتقابل يعقوب مع لابان ، وعلى ذلك تعبر العبارة « أرض المشرق » بوجه الدقة فى العهد القديم عن الصحراء الواقعة الى الشرق من فلسطين وهى الصحراء السورية •

وتضع « قائمة الأمم » التى ذكرها العهد القديم (تكوين ١٠ : ٢٢ — ٢٣) آرام الجد الأول للآراميين فى عداد أبناء سام مع عيلام وآشور مبينة بذلك ازدياد أهمية الآراميين فى الشرق الأدنى القديم منذ الثلث الأول من الألف الأول قبل الميلاد • كما تذكر نفس القائمة أربعة أبناء لآرام هم : عوض وحول وجاثر وماسين الذين لا نعرف شيئا عن شخصيتهم ولا عن مواطنهم • ولكن « لفائف قمران » [٤] تحدد موطن هؤلاء « فيما وراء الفرات » • ولكن فى سلسلة أنساب ناحور (تكوين ٣٢ : ٢٠ — ٢٤) نجد أن آرام يعتبر حفيدا لناحور وابنا لقموئيل من ذرية زوجة ناحور وليس من محظيته وبهذا تضعهم فى بلاد النهرين وليس فى جنوب سوريا [٥] • كما أصبح آرام هنا أيضا مجرد ابن شقيق لعوص وليس أبا له •

ويصل العهد القديم آباء العبرانيين الأول بالآراميين ، فلم يذكر فقط أن ابراهام شقيق ناحور بل أن اسحاق ويعقوب قد تزوجا ابنتى أبناء عمومتهم بتروئيل ولابان الآراميين (تكوين ٢٥ : ٢٠ ، ٢٩ : ٢١) •• ويؤكد العهد القديم آرامية لابان اذ يعزى اليه العبارة الآرامية « يجر يهدوثا » والتى ترادف العبرية « جلعيد والتى تعنى « رجم الشهادة » (تكوين ٣١ : ٤٧) • كما جاء فى سفر التثنية (٢٦ : ٥) أن يعقوب الذى كان يطلق عليه اسرائيل لقب مرة « الآرامى التائه »[٩]

(4) Qumran Saroll II. 10.

(٥) انظر التعليقات على سفر التكوين فى :
H. Mazar, BA 25 (1962), 99.

(6) Cf. L. Koehler and W. Baumgartner, Hebreisches und Aramaeisches Lexikon zum alten Testament, 3rd ed. (Leiden, 1967), p. 2 b.

هذا بجانب أن أصل الاسمين اللذين يطلقان على ذلك الشعب قد اشتقا من آرام وعبر وقد نقل كلا من الاسمين متجاورين فى القوائم الخاصة بأبناء سام •

لقد تأثر كثير من المحدثين بما جاء فى العهد القديم ونادوا بانعدام وجود فوارق واضحة بين الآراميين والعبرانيين من ناحية الأصل أو المصدر الذى جاءوا منه ويؤكدون احتمالا أن الجنسين امتزجا على الحدود منذ البداية حينما كانت تعيش كل جماعة منهما عيشة الرعى فى الصحراء نفسها ، حتى أن القبائل الشمالية مثل « نفتالى » استطاعت أن تتحول من اسرائيلية الى سورية • وبجانب هذا يعللون الصلة القوية بين آباء العبرانيين والآراميين بأنهم يستطيعون ترسم ميلا آراميا واضحا فى قصة أبراهام وأسرته الذى أتى من حران الآرامية — على قولهم قبل أن تكون دمشق كذلك بزمن طويل [٧] •

ولكن اذا رجعنا الى المصادر الأخرى خارج العهد القديم لوجدنا أنه لم يكن لظهور الآراميين شأن كبير فى بلاد الرافدين والتى تشمل نهر الخابور وكلا ضفتى الفرات فى أقصى الغرب • ففى العهد القديم كانت هذه المنطقة تسمى « آرام — نهارايم » (آرام — النهرين أى الفرات ورافده الخابور) ولكن اذا رجعنا الى المصادر الأخرى التى يرجع تاريخها الى القرن الخامس عشر حتى القرن الثانى عشر قبل الميلاد نجد أن هذه المنطقة كان يطلق عليها اسم « نهارايم » فقط بينما

---

(٧) نجيب ميخائيل ابراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ٣ ص ٤٨٨ •

فى النصوص المصرية كانت تسمى « نهارينا » وفى الأكديمة « ناخريما أوناريما [٨] » •

وهكذا نجد أن ظهور الاسم المركب « آرام — نهارايم » وكذلك العلاقة المقترحة بين الآراميين وآباء العبرانيين يحتويان على مفارقة تاريخية حدثت تحت تأثير استيلاء القبائل الآرامية على منطقة الجزرة فى زمن لاحق أى فى نهاية الألف الثانية قبل الميلاد [٩] • بجانب هـذا فان جميـــع الآراء التى نادت بأن آباء العبرانيين الأول يرجعـــون فى أصلهم الى الآراميين قد لاقت الآن معارضة قوية [١٠] •

كما نجـــد فى العهد القديم أن آرام أو آرام — نهـــارايم كانت الموطن الأصـــلى لكوشان — رشـــعتايم أول من عادى اسرائيل أيام القضاه (قضاه ٣ : ٨ ، ١١ الذى يؤرخ فى حوالى عام ١٢٠٠ ق•م) أوبلعام الأقدم منه عهدا (تثنيه ٢٣ : ٤) • وهنا أيضا توجد مفارقة تاريخية حيث أن موطن أسلاف بلعام هو مدينة فتور التى تقـــع على

---

(٨) من أجل هذا الاسم وظهوره فى العهد القديم وفى المصادر الأخرى أنظر :

R. T. O'Collaghan, Aram Naharaim (Rome, 1948), pp. 131 ff.; J. J. Finkelstein, JNES 21 (1962), 73 ff; Cf. Kraeling, Aram and Israel, pp. 20 ff.

(9) Cf. B. Mazar, JNES 28 (1969), 78.

(١٠) كان أول من نادى بالأصول الآرامية لآباء العبرانيين الأوائل M. Noth

أنظر كتابه

Die Ursprunge des alten Israel im Lichte neuer Quellen (Koeln-Opladen, 1961).

وللآراء المعارضة ، انظر :

D. O. Edzard, ZA 22 (1964), 142 ff; M. Wagner VT Supplement, 16 (1967), 355 ff.

بعد حوالى ٢٠ كم جنوب قرقميش على الضـــفة الغربية للفرات • لقد أصبحت هذه المـــدينة فى حوزة الآراميين فى القرن العـــاشر أو فى النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد كما تدل عليه حوليات الملك شلمنصر الثالث خاصـــة السنة الثالثة من حكمه أى عـــام ٨٥٧ ق•م « أن مدينة أنا — أشور — أوتير — أصبات التى يسميها شـــعب خاتى (أى السوريون) بيترو (فيتور) والتى تقع على نهر ساجور على الجانب الآخر من نهر الفرات ومدينة موتكينو على هذا الجانب من الفرات اللتين أقامهما سلفى تيجلات — بيلزر واللتين استولى عليهما ملك أرض آرام بالقوة فى عهد أشور — رابى (١٠١٠ — ٩٧٠ ق•م) ملك آشور ، هاتين المدينتين قد أرجعتهما الى حالتهما السابقة » (١١) •

آرام — صوبة والحرب مع داود :

فى حوالى عام ١١٠٠ ق•م انتشرت القبائل الآرامية فى سوريا بل توغلت مثل الاسرائيليين فى شمال شرق الأردن • ولم يكن هنـــاك بد من قيام الاشتباك بين الجـــارتين الكبيرتين ، اسرائيل والدويلات الآرامية خاصة بعد قيام ملكة اسرائيل وعلى رأسها الملك شاؤل (١٠٢٠ — ١٠٠٠ ق•م) الذى حارب ملك آرام — صوبه (صمويل الأول ١٤ : ٤٧) وليس لدينـــا أية بيانات عن الحرب التى قامت بين شاؤل وملك صوبة واذا كان العهد القديم لم يذكر بقية أمراء المنطقة من الآراميين فغالبا ما كانوا خاضعين لملك صوبه • لقد أصبحت مملكة صوبة فى مركز يسمح لها بزعامة الآراميين فى جنوب سوريا وكانت صوبة عاصمة هذه المملكة وكانت تستمد ثورتها بما اشتهرت به من مناجم النحاس (١٢) •

---

(11) ARAB I, p. 603.

(١٢) والجـــدير بالملاحظة أن كلمة صـــوبه مشتقة من صهوبه بمعنى أحمـــر أو نحاس ويظن أن موقعها هو كالســـيس أو عنجر الحديثة جنوبى زحلة فى البقاع ، أنظر : Kraeling, Op. Cit. p. 40.

وكانت كالسيس (والكلمة يونانية معناها نحاس) فيما بعد عاصـــمة أبطوريا (المذكورة فى انجيل لوقا ٣ : ١) وهى مملكة عربية .

وفى بداية حكم داود (١٠٠٠ — ٩٦٠ ق٠م) بلغت مملــكة آرام — صوبه ذروة قوتها بقيادة هدد — عزر بن رحوب (صمويل الثانى ٨ ، ٣) والذى كان مواطنا من آرام — بيت — رحوب والذى يبدو أنه قام بتوحيد هذه المملكة مع صوبه • ويبدو أن آرام — بيت — رحوب كانت تقع فى وادى لبنان الجنوبى بينما كانت آرام — صوبة تقع فى الشمال ممتدة شمال شرق جبال لبنان الداخلية داخل الصحراء السورية تجــاه تدمر • وهكذا وضع هدد — عزر تحت يديه ممتلكات شاسعةتكونت منها امبراطورية ذات كيان سياسى مركب ضمت اليها فيما ضــمت آرام — دمشق ودويلات أخرى تابعـــة مثل مملكة آرام — بعكه فى الجــولان الأعلى وأرض طوب فى شمال شرق الأردن (صمويل الثانى ١٠ : ٦) أخبار الأيام الأول ١٩ : ٦ — ٧) أما فى الجنوب فقد وصـــل نفوذه حتى عمون بينما فى الشمال الغربى كانت توجد مملكة حماه التى كانت دائما تناصبه العداء (صمويل الثانى ٨ : ٩ — ١٠) •

ويعكس لنا نص شلمنصر الثالث السابق ذكره ذلك التوسع الذى أحرزه هدد — عزر فى الشمال الشرقى حتى نهر الفرات بل فيما وراء هذا النهر (صمويل الثانى ٨ : ٣ ، ١٠ : ١٦ ، الأخبار الأول ١٩ : ١٦) •• فقد جاء فى هذا النص ما يفيد أنه تحت حكم أشور — رابى الملك الآشورى المعاصر لهدد — عزر أن « ملك آرام » استولى على مدينـــة بترو ومدينة موتكنو وهى مناطق تقع على ضفتى الفرات جنوب قرقيش •• وفى نص مماثل فى حوليات آشور — دأن الثـــانى (٩٣٤ — ٩١٢ ق٠م) نجد أن الأماكن التى استولى عليها الآراميون تقـــع فى مناطق مختلفة ولكن يبدو أنها توجد شمال منعرج الفرات الأعلى ، أى المنطقة التى احتلتها فيما بعد قبيلة بيت — أدينى الآرامية [١٣] •

---

(13) Cf. Weidner, AFO 3 (1926), 151 ff ; E. Forrer, RLAI, 291.

فلو صح أن الملك الآرامى فى كلا الحولبتين هو هدد — عزر ، فيمكن ارجاع فتوحاته على طول نهر الفرات بين اعتلاء آشور — رابى العرش (١٠١٢ ق٠م) وحروب هدد — عزر ضد الملك داود التى حدثت فى أوائل القرن العاشر قبل الميلاد ٠

لقد وضع انتصار داود على هدد — عزر وحلفائه نهاية للامبراطورية الآرامية فى سوريا بحيث أصبحت جميع ممتلكاتها تخضع للادارة الاسرائيلية ٠ وفى الامكان اعادة ترتيب وقائع هذه الحرب زمنيا على الوجه التالى : —

١ — حرب اسرائيل الأولى ضد القوات العمونية والآرامية المتحالفة التى كانت قد وصلت الى سهل مؤاب (صمويل الثانى ١٠ : ٦ وما بعدها اخبار الأيام الأول ١٩ : ٦ وما بعدها) ٠

لقد كانت القوات الآرامية تتكون من قوات من آرامى « بيت — رحوب » و٢٠ ألف رجل من آرامى صوبه و١٠ آلاف رجل من معكه و ١٢ ألف رجل من طوب ٠ وتحرك جيش داود الاسرائيلى وعلى رأسه « يواب » ضد تحالف عمون وآرام ٠ ودارت المعركة تحت أسوار « ربه » عاصمة العمونيين (عمان الحالية) ٠ وانتظم العمونيين فى معركة بالقرب من الباب بينما عمل آراميو « صوبه » ورحوب وأهالى طوب ومعكة على القيام بحملة قوية وعلى ذلك كان جيش اسرائيل أن يقاتل فى جبهتين ٠ وقد كان يواب ماهرا فوزع قواته الى قسمين ٠ تقدم هو بنفسه لمواجهة الآراميين على رأس جماعة من المختارين بينما رأس خوه ابيشاى الفرق العمونية الأخرى ٠ وجاء فى العهد القديم ما يلى (صمويل الثانى ١٠ : ١١ — ١٤) : وقال (يوأب) أن قوى آرام على تكون لى منجدا وأن قوى عليك (أى على أخيه) بنوعمون أذهب لنجدتك ٠ تجلد ولنشدد من أجل شعبنا ومن أجل مدن الهنا وليضع الرب يهوا ما حسن فى عينه ٠ فتقدم يواب والشعب الذى معه

لمحاربة آرام فهربوا من أمامه • ولما رأى بنوعمون أنه قد هرب آرام هربوا من أمام ابيشاى وأتى الى أورشليم » •

٢ ــ معركة حيـــــلام :

(صمويل الثانى ١٠ : ١٥ وما بعدها ، أخبار الأيام الأول ١٩ : ١٦ وما بعدها) :

ولم يستطع الآراميون الاستمرار فى الحرب • فقرر هدد ــ غزر ابن رحوب ملك صـــوبه أن ينزل المعركة وشـــارك معه الآراميين من الجانب الآخر لنهر الفرات أى آراميو الرافدين • وهكذا تحرك آراميو الشمال وآراميو الجنوب ضد اسرائيل وكان شـــوباك قائد جيش هدد ــ عزر على رأس كل هـــذه الفرق ، فنظم مركباته الحربية ومترجلتـــه واصطف الآراميون للقاء داود وحاربوه وقابلهم عند حيلام (فى مكان ما شمال شرق الأردن) وهزم داود أعداءه وفقد الآراميون ٧٠٠ مركبة وأربعين ألف رجل وقتل شوباك فى المعركة • وذكر العهـــد القديم فى هذا الشأن بالاضافة الى ما سبق أن أشرنا اليه ما يلى : « فلما رأى جميع الملوك عبيد هـــدد ــ عزر أنهم أنكسروا أمام اسرائيل صالحوا اسرائيل واســـتعبدوا لهم وخاف آرام أن ينجـــدوا بنى عمان بعد » (صمويل الثانى ١٠ : ١٥ ــ ١٩) •

٣ ــ توغل داود داخل سورية :

ويقص العهد القديم غزوة أخرى لداود ضد الآراميين (صمويل الثانى ٨ : ٣ ــ ١٠ ، أخبار الأيام الأول ١٨ : ٣ وما بعدها) اذ فكر هدد عزر بن رحوب ملك صوبة أن « يذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات أى ليثبت سيطرته على آرامى ما بين النهرين • وكان قد تلقى من تلك الأقوام عونا عسكريا فى الحروب السابقة ، غير أنه يرغب الآن أن يقيم من الفرات الى الأردن اتحـــادا من الدويلات الارامية من الفرات حتى الأردن وكان يعمـــل على أن تكون صوبه عاصـــــمة تلك الامبراطورية

الارامية • ولـكن قضى داود على أحلامه وهزمه فأخـذ منه « ۱۷۰۰ فارس وعشرين ألف رجل وعرقب داود خيل جميع المراكب وتبقى مائة مركبة » وبالاضافة الى ذلك أخذ منه الدروع الذهبيـة التى كانت مع عبيد هدد عزر وقضى داود على آرامى دمشق المتحالفين مع هذا الملك فقتل منهم ۲۲ ألف رجل وأقام فى معسكرات فى آرام دمشق • ويبدو أن هذه الهزيمة التى الحقت بقوات آرام — دمشق حدثت أثنـاء تغيب هدد عزر فى منطقة الفرات • وبذلك اضطر الآراميون الى الخضـوع لداود ودفعوا له الجزية • وكان من ضمن الأسلاب التى استولى عليها داود كميات من النحاس الذى اشـتهرت به مملكة صوبة (كما فعـل الآشوريون فى زمن لاحق حينما انتصروا على آرام — دمشق) أخذها من ثلاث مدن سورية كانت تابعة لهدد عزر وهى طبحه وخون وبيروتاى[١٤] (صمويل الثانى ٨ : ٣ — ١٠ ، أخبار الأيام الأول ١٨ : ٣ ومابعدها •• وأشار نفس المصدر الى أن « توعى » ملك حماه كان عدوا لهـدد عزر ملك صوبه فلما علم بهزيمته أرسل يورام ابنه الى الملك داود ليسأل عن سلامته ويباركه لأنه حارب هدد عزر وضربه » وقدم له أوانى من فضه وذهب ونحاس • وقد وضحت عداوة ملك حماه لملك صوبه لأن هذا الأخير كان يعمل على احتلال المنطقة بينه وبين الفرات • وبارسال توعى هدايا الى داود اعتبره هذا الأخير مواليا له وقد تبين له أن حماية ملك اسرائيل لـه أقـل خطورة مـن جـاره القريـب • بـهذه الحروب الثلاث استطاع داود القضاء على قوة « صوبه » وهكذا اختفت هذه الملـكة من مسرح الأحداث لتحل محلها مملكة آرام — دمشق • ولكن يظهر اسم صوبه بعد ذلك على لبنـات من حماه منقوش عليها باللغـة

---

(١٤) مدينة بيروتاى هى اليوم بريتان جنوبى بعلبك .

الآرامية ولكن يبدوا أنه يشير الى منطقة داخل مملكة حماه [١٥] كما يظهر كاسم لولاية آشورية (صوباتو) فى أواخر القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد بعد سقوط مملكتى آرام — دمشق وحماه •

قيام مملكة آرام — دمشق :

هناك احتمال فى أن الآراميين قد استقروا فى أرض « أوبى » (وعاصمتها القديمة دمشق) خلال أو عقب الارتباك الذى نشأ بسبب الثورة الفلسطينية ضد مصر فى أخريات عهد اخناتون ثم اغارة الحيثيين على ميتانى وتقويض دعائم ملكها وكذلك عند تقدم العبرانيين نحو فلسطين وكانت الحدود بين العبرانيين والآراميين من ناحية شرق الأردن هى اليرموك وأما من ناحية الغرب فكانت الى الشمال فى أعلى وادى الأردن حتى الجبال حيث مقاطعة « أشير » التى تحاد الشاطىء الفينيقى [١٦] •

لقد تأسست مملكة آرام — دمشق فى الأيام الأخيرة من حكم سليمان (٩٦٠ — ٩٣٠ ق•م) على يدرزون بن اليداع الذى استخلص دمشق من اسرائيل واتخذها عاصمة له (الملوك الأول ١١ : ٢٣ وما بعدها) وهكذا أصبحت الدويلة الآرامية الرئيسية فى سوريا خلال القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد • وعن نشأة هذه المملكة ورد فى العهد القديم عنها مايلى : « وآثار الرب ملك صوبه • فجمع اليه رجالا وصار رئيس غزاه عندما كان داود يدمرهم فانطلقوا الى دمشق وأقاموا بها وملكوا فى دمشق • فصار فاتنا فى اسرائيل كل أيام سليمان » (الملوك الأول : ٢٣ ٢٥) • ولقد تسلمت دمشق من هذا التاريخ زعامة العالم الآرامى فى سوريا وقادت الصراع ضد

---

(١٥) قارن « حماه — صوبه » التى تغلب عليها سليمان فى أخبار الأيام الثانى ٨ : ٣ •

(١٦) نجيب ميخائيل ابراهيم ، المرجع فى سابق جـ ٣ ص ٤٨٨ •

العبرانيين حتى أنه جاء فى النصوص الآرامية القديمة أشارة الى ملك دمشق كان يطلق عليه لقب « ملك آرام » فقط وكان رزون هذا الآرامى السورى العدو الأكبر لاسرائيل • وقد امتدت مملكته من الفرات الى اليرموك جنوبا على حساب العبرانيين كما تاخمت الأراضى الآشورية فى الشمال واستطاعت أن تبسط سلطانها على سوريا الداخلية الى الى الشرق من لبنان وكذا على سوريا الشمالية وباشان فى بداية الألف الأولى وظل ملوكها يسيطرون على الاثنتنتى عشرة أمة صغيرة من حولهم وأفلحوا فى مقاومة ما كان يبذله الآشوريون من جهود لاخضاع سوريا لحكمهم (١٧) •

وكثيرا ما كان يشار الى هذه المملكة باسم « دمشق » أو « آرام » بصفة خاصة فى العهد القديم وفى المصادر الآشورية والنصوص الآرامية القديمة (كما فى شاهد بار — هدد وزاكير) (١٨) • وتشير وثائق العهد الآشورى الحديث الى هذه المملكة باسم « (شار) أيرى — شو » أى (أرض) حميره (١٩) وبالرغم من أن هذا الاسم قد تبادل مع اسم دمشق ، الا أنه يحتمل أنه يشير الى المملكة فى حد ذاته •

ولقد كانت هذه المملكة من أول الأمر آرامية ، فملوكها كانوا آراميين اتخذوا من دمشق مركزا لاشعاع حضارتهم يستطيعون منها أن يسهموا فى توجيه السياسة الدولية المعاصرة • ولعل دمشق تدين لموقعها بهذه الميزة • ذلك لأن وضعها الجغرافى استطاع أن يزود عنها بعض الوقت أطماع آشور من ناحية كما يسر لها الاتصال المباشر بالحضارات القريبة منها عن طريق الوديان والسهول وهى فى الوقت

---

(١٧) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ ١ •

(١٨) أنظر

F. M. Cross, BASOR 205 (1972), 36 ff.

(19) Cf. F. M. Tocci, RSO 35 (1960), 125 ff.

نفسه مركز هام لطرق القوافل الى الصحراء السورية وهى بذلك وسيط مباشر بين التجارة العربية والبابلية من ناحية وتجارة سوريا وفلسطين من ناحية أخرى • لقد جعل منها الآراميون دولة استطاعت أن تفرض نفسها منذ القرن العاشر ق•م على ما كان يجرى من أحداث وأن تقف على قدم المساواة مع غيرها من الدول بحيث أصبحت تستطيع أن تعدل من القوى حين كانت تحاوز الى أحد الجانبين وبحيث اكتسبت احترام جيرانها بفضل ما أظهرته من منعة وقوة وما وصلت اليه من مركز حضارى مرموق •

مملكة آرام — دمشق وموقفها من يهوذا واسرائيل وآشور :

لقد ساعد انقسام مملكة اسرائيل على قيام مملكة آرام — دمشق التى استغلت الى حد كبير المنازعات المستمرة بين يهوذا واسرائيل لصالحها ، كما أن التنافس بين المملكتين العبرانيتين قد أفسح الطريق أمامها لانجاز مشروعاتها العمرانية الكبيرة • ويعطينا العهد القديم (الملوك الأول ١٥ : ١٨ — ١٩) صورة واضحة عن هذا الموقف • فها هو أسا ملك يهوذا قد وقع فى خلاف مع ملك اسرائيل بعشا (فى الفترة من ٨٩٠ — ٨٨٠ ق•م) فيعتدى على أرضه ، ثم يعتمد على ملك دمشق الآرامى طالبا منه العون ضد عدوه • وكان ملك دمشق فى هذا الوقت هو « بنهدد بن طبريمون بن حزيون » • وقد أرسل أسا اليه الهدايا ومعها هذه الرسالة : « بينى وبينك تحالف وبين والدى ووالدك وهأنذا أرسل اليك هدية من الفضه والذهب ، اذهب واقطع علاقتك مع «بعشا » ملك اسرائيل لكى يتوقف عن حملى مالا أطيق » (الأخبار الثانى ١٦ : ٣) • والظاهر أن ملك دمشق قد وقع عهدا مع مملكتى يهوذا واسرائيل فى وقت واحد • وهكذا يخبرنا العهد القديم عن تسلسل أفراد الأسرة الذين حكموا آرام — دمشق (والاحتمال كبير فى أن يكون حزيون هو رزون مؤسسى المملكة المذكور

آنفا) [٢٠] كما يخبرنا أيضا عن المحالفات التي تمت في ذلك الوقت .
فالمحالفة الأولى كانت بين طبرمون ووالد آسا المدعو أبيجا ملك يهوذا والمحالفة الثانية بين بنهدد [٢١] وبعشا ملك اسرائيل وأخـيرا التحالف العسـكرى بين بنهدد ويهوذا والذى تبعه حملة آراميـة تمكنت من الاستيلاء على الجليل الشرقى من اسرائيل » فسمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التى له على مدن اسرائيل وضرب عيون ودان وآبل المياه وجميع مخازن مدن نفتالى (أخبار الأيام الثانى ١٦ : ٣ — ٤ ، ملوك أول ١٥ : ٢٠) ، ومعنى ذلك كل شمال مملكة اسرائيل . عند ذلك توقف بعشا عن الضغط على يهوذا ومضايقتها . وقد حفظ لنـا العهد القديم قصة نعمان قائد جيش « ملك آرام » (أى ملك دمشق) وكان قد مر به بعض البأس ، اذ أصيب ببرص فتوجه الى السـامرة طالبا الشفاء على يد النبى اليشع صانع العجائب (ملوك الثـانى ٥) وتدل هذه القصة على مدى ما وصل اليه نفوذ مملكة دمشق فى اسرائيل .. وهكذا استطاعت دمشق فى عهد بنهدد أن تصبح على رأس الدويلات السورية . وقد جاء اسم ملك دمشق هذا على لوح كشف عليه بالقرب من حلب وقد صور على أعلى اللوح الاله الفينيقى « ملقارت » ومعه النص الآرامى « لوح وضعها بن هـدد بى طبريمون بى حزيون ملك آرام ، من أجل ربه ملقارت ، لوح كرسه من أجله لأنه سمع صوته » .
وهناك احتمال كبير أن يكون ملك دمشق قد توغل فى أقليم حلب ، أما

---

(20) Cf. B. Mazar, BA 25, p. 104, N. 12.

الذى يعتقد أن حزيون هو الاسم الشخصى للملك بينما رزون لقبـه الملك حيث أن الكلمة العبرية « رزن » تعنى « حاكم ، أو امير » . وقارن أيضا :

I. J. Gelb, Glossa 2 (1968), 101.

(٢١) كلمة بنهدد أوبن هدد فى العبرية تقابلها بارهدد (أى ابن هدد) فى الآرامية .

كحليف أو كعدو لبيت اجوزى كما فعل ملك صوبه أيام حكم داود حينما قام بحملة الى الفرات ليعيدها لحكمه [٢٢] •

وفى أيام عمرى ملك اسرائيل (٨٨٥ — ٨٧٤ ق • م) ازداد الضغط الارامى على شمال اسرائيل حتى انه هدد وجودها نفسها • وفى العهد القديم فصله تشير عرضا الى أن والد بنهدد الثانى (بدون شك هو بنهدد الأول بن طبريمون) قد أخذ مدنا من والد اخاب أى من « عمرى » واخذ منه الحق فى اقامة أسواق فى السامرة عاصـــمته (الملوك الأول ٣٠ : ٣٤) ونرى عمرى انه رغم ازدياد قوة اسرائيل وازدهارها الا انه هــزم امام دمشق • وكان النزاع مســتمرا بين الدولتين وذلك بسبب مشاكل الحدود خاصة فى المنطقة المتــدة من شمال عبر الاردن الى ريموث — جلعد فى الجنوب والتى كانت تعتبر منطقة فاصلة يسكنها شعب خليط من الاسرائيليين والآراميين (قارن ، اخبار الأيام ٢ : ٢٣ ، ٧ : ١٤) فكثيرا ما تغيرت ملكية هذه المنطقــة أثنـــاء حكم أسرة عمرى فى اسرائيل ، هذا بالاضافة الى الأمــور السياسية والاقتصادية ، اذ أن حكومة آرام — دمشق كانت تســعى لأن يكون لها منافذ تجارية فى اسرائيل •

ولمـــا تولى آخاب الحكم (٨٧٤ — ٨٥٣ ق • م) بلغ النـــزاع اوجه ، ففى عام ٨٥٧ ق • م دخل بنهدد الثانى الى فلسطين بجيش كبير العدد وكان يصحبه اثنان وثلاثون ملكا • لقد اتحدث فيما يظهــر الأحزاب فى اتحاد كبير ضم جميع الأسر الآرامية صغيرها وكبيرها • وحوصر آخاب فى عاصمته السامرة ولم يستطع أن يجهز الاحاميــة بسيطة فلم يستطع المقاومة وقبل ما فرضه عليه ملك دمشق من جزية من الفضة والذهب وتمادى ملك دمشق فى طلباته من اسرائيل ففرض عليه أن يسلمه زوجاته وأطفاله • عندئذ رفض أخاب وعزم على عدم

---

(٢٢) عبد الحميد زايد الشرق الخالد ص ٣٥٤ •

تحقيق الرغبة الأخيرة • وفى وقت الظهيرة وبينما كان الآراميون يأخذون قسطا من الراحة ويتناولون الشراب فى مخيمهم باغتهم الاسرائيليون وقتلوا منهم الكثير وانهزم الآراميين وفروا وتركوا خيولهم ومركباتهم وفر بنهدد على فرس مع نفر من خيالته (الملوك الأول ٢٠ :١ — ٢١) وهكذا نجح اخاب فى صد الهجوم الآرامى عن عاصمته •

لقد استاء ملك آرام — دمشق من تلك الهزيمة ، ففى العام المقبل جمع جيشا جديدا واتجه نحو فلسطين وتقدم اخاب هذه المرة لمواجهة عدوه ، فتقابل الاثنان عند « افيق » فى الجولان الجنوبية وقد جاء فى (الملوك الأول ٢٠ : ٢٢ — ٣٤) « فنزل هؤلاء تجاه سبعة أيام • ولما كان اليوم السابع التحمت الحرب فقتل بنو اسرائيل من الآراميين مئة ألف رجل فى يوم واحد • وهرب الباقون الى افيق ، وحاصر بنو اسرائيل هذه المدينة واحتلوها سريعا • أخذ بنهدد يهرب من بيت الى بيت • أما عبيدة فشدوا مسوحا على متونهم وجاءوا الى ملك اسرائيل وقالوا : ان عبدك بنهدد يقول : اتوسل أن تستبقى نفسى • فقال اخاب : احى هو بعد ؟ انما هو اخى • فاستبشر بنهدد خيرا واستسلم • فاصعده اخاب على مركبته وقطع عهدا قال فيه بنهدد المدن التى أخذها أبى من أبيك اردها عليك وتجعل لك أسواقا فى دمشق كما فعل أبى فى السامرة فقال : وانا اطلقك بهذا العهد • وقطع له عهدا واطلقه » • وهكذا اعيدت الى اسرائيل المدن التى فى عبر الاردن التى كان بنهدد الأول قد استولى عليها كما منح التجار الاسرائيليون امتيازات فى دمشق كتلك التى كان يتمتع بها الآراميون فى السامرة • لماذا كان اخاب رحيما مع عدوه الخطير ؟ فالاسرائيليون دائما أصحاب منفعة ولابد انه كان وراء الصفح أهداف • ففى هذا الوقت كانت تجرى فى الشمال أحداث خطيرة • فقد

تولى شلمنصر الثالث الحكم بعد وفاة والده آشور ــ ناصر ــ ابلى الثانى وتمكن من القضاء على دويلة بيت ادين الآرامية ومن حالفها من الدويلات الأخرى كما سبق أن اشرنا ، فكان ذلك ايذانا بقرب الخطر الآشورى من آرام ــ دمشق ومن اسرائيل على حد سواء . ففى آرام ــ دمشق بدأ بنهدد الثانى يستعد لملاقاة الآشوريين فأعاد تنظيم جيشه ومملكته كما انه حول الدويلات التابعة له الى مجرد ولايات (قارن الملوك الأول ٢٠ : ٢٤ ــ ٢٥) معززا بذلك امبراطوريته[٢٣] . أما فى اسرائيل فقد شمل الذعر ملكها اخاب الذى أخذ يتقرب من بنهدد الثانى ملك دمشق .

ولمواجهة هذا الخطر الآشورى ، تكون تحالف من أثنى عشر ملكا كان منهم ارخولينى ملك حماه واخاب ملك اسرائيل ومؤاب وآدوم ويهذا والولايات الفينيقية الشمالية الى الشمال من جبيل عمون وقوى (أو قيليقيا) ووضع هذا التحالف تحت قيادة بنهدد الثانى (ربما هو نفسه اداد ــ ادرى المذكور فى المصادر الآشورية) . وكان أول لقاء بين المتحاربين عند قرقر عام ٨٥٣ ق.م فى أرض حماه . وكان الجيش الذى يقوده اداد ــ ادرى يتكون من ١٣٠٠ عجلة و١٢٠٠ من الفرسان و٣٠ ألف من المشاه ، بينما الجيش الذى يقوده اخاب يتكون من ٢٠٠٠ عجلة وعشرة آلاف من المشاه والذى بقيادة ارخولينى من ٧٠٠ عجلة و٧٠٠ فارس وعشرة آلاف من المشاه[٢٤] . ومن المحتمل أن القوة التى كانت تحت قيادة اخاب كانت تتضمن قوات مساعدة من قبل يهوشافاط ملك يهوذا (قارن الملوك الأول ٢٢ : ٤ ، والملوك الثانى ٣ : ٧) . وكان بعشا بن رحوب الملك الآرامى الآخر الذى اشترك فى هذه المعركة وكان من أرض اوجبل امانا والذى يغلب على الظن انها جبال لبنان الداخلية

---

(23) Cf. Mazar, BA 25, 609 ff ; and JBL 80 (1961), 25 f.

(24) ANET, p. 278

والتى ذكرت فى العهد القديم بهذا الاسم • وحيث أن بعشا يحتمل أنه قد ضم لحكمه منطقتين منفصلتين هما آرام بيت — رحوب والمنطقة الجبلية الى الشرق منها ، فقد أوكلت اليه فرقة واحدة من المشاة فقط • هذه هى موقعة قرقر الشهيرة على نهر العاصى التى تعد احدى المواقع الحاسمة تم خلالها اندحار حلف من اثنى عشر ملكا تكتلوا جميعا للوقوف فى وجه قوات العاهل الآشورى شلمنصر الثالث ولكنهم لم يفلحوا بل حاقت بهم جميعا الهزيمة •

ولعل المعركة التى ذكرت فى سفر الملوك الأول (٢٢) بين اخاب وبنهدد عند راموت جلعاد غير محتمل حدوثها بعد وقت قصير من معركة قرقر حيث أن حلف ملوك الغرب يبدو انه ظل قائما ليقابل شلمنصر الثالث مرة ثانية فى عام ٨٤٩ ، ٨٤٨ ، ٨٤٥ ق•م[٢٥] • ولكن الخيبة أصابت شلمنصر فى هذه الخطة لاخضاع سوريا واستطاعت آشور أن تدرك انها بغير اخضاع دمشق لا تستطيع أن تثبت أقدامها فى سورية ولم يكن من اليسير بالنسبة لواحدة من هذه الولايات أن تظهر ميلا لآشور لأن هذا كان يعنى بالضرورة تعرضها لقسوة دمشق وحزمها •

لقد كان حزائيل هو الذى قضى على اسرة بنهدد بعد أن اغتاله وتولى مكانه على عرش دمشق (الملوك الثانى ٨ : ٧ — ١٥) ربما بمساعدة آشور لتسنده فى اعتلاء العرش ولكن حالما أصبح ملكا على دمشق ظل على مقاومة آشور بأمل تثبيت مركزه واظهار قوته • لقد غير حزائيل سياسة دمشق تجاه اسرائيل فأخذ يناصبها العداء وذلك أيام ملكها يورام بن اخاب (٨٥٢ — ٨٤٢ ق•م) لأن حزائيل ملك دمشق كان يريد اعادة راموث جلعاد • لقد حدث الاشتباك بين الطرفين عند راموث جلعاد عام ٨٤٢ ق•م (الملووك الثانى ٨ : ٣٨ وما بعدها)

(25) Cf. A. Jepsen, AFO 14 (1942), 154 ff. ; J. M. Miller, JBL 85 (1966), 441 ff.

ومن المحتمل أن الحرب التى وقعت عند راموث جلعاد • بين اخـاب وبنهدد تعكس هذا الاشتباك الأخير • لقد جرح يورام أثناء المعـركة واجبر على العودة الى يزرعيل تاركا لقواده الاستمرار فى المعركة ضد الآراميين • ولم يذكر العهد القديم شيئا عما حدث لمدينة راموث جلعاد، ولكن من المحتمل أن حزائيل ملك دمشق قد استولى على هذه المدينـة ولكن يبدو أن يورام قد نجح أخيرا فى الاستيلاء على راموث جلعـاد لأنه لدينا اشارة بعد ذلك بفترة طويلة تقول « وكان يورام محافظا على راموث جلعاد » (الملوك الثانى ٩ : ١٤) وقد دافع عنها ملك دمشـق الجديد •

كان شلمنصر الثالث يتابع تطور الحوادث عن قرب وقد شغلته قوة الملك الجديد فقرر أن يضربه ضربة قوية خاصة بعد أن انفرط عقد تحالف ملوك الغرب • فقد قام فى عام ٨٤١ ق•م بحملة جاء وصفها فى الكتابات الآشورية : « فى سنتى الثامنة عشرة من الحكم عبرت للمرة السادسة عشرة الفرات •وقد اطمأن حزائيل (صاحب) اقليم دمشق الى جموع فرقة وعبأ وحداته فى عدد كبير • واتخذ جبل سانيرو (جبل حرمون) الذى يشرف على لبنـان حصـنا له ، فحاربته وانتصرت عليه وقتلت بالسلاح ٦٠٠٠ محاربا و(أخذت) ١١٢١ من مركباته و٤٧٠ من خيله وفى نفس الوقت أخذت خيامه (أى ثكناته) وحتى ينقذ حياته هرب فتبعته وحاصرته حيث كان يقيم فى دمشق وقضيت على بساتينه وذهب حتى دخل حوران فهدمت مدنه التى لا حصر لها ، اتلفت واحرقت وأخذت منها غنيمة كثيرة وتقدمت حتى جبل « بعال — راسى » (بعل القمة الذى يحتمل أن يكون جبل الكرمل) واقمت هناك شاهدا يحمل صورتى كملك• وفى نفس الوقت تسلمت الجزية من الصوريين والصيداويين ومن يهو ابن عمرى » • وفى عام ٨٣٨ ق•م جرد حملة جديدة ضـد اسرائيل : « فى السنة الحادية والثلاثين من حـكمى ، عبرت للمـرة الحـادية والعشرين الفراتوتقدمت نحو مدن حزائيل صاحب دمشق واستوليت

على أربع من مدنه وتسلمت الجـزية من الصـوريين والصـيداويين والجبلبيين »[٢٦] • هكذا هزم شلمنصر الثالث آرام ــ دمشق وملكها حزائيل الذى وقف وحيدا فى عام ٨٤١ و٨٣٨ ق•م بعد أن شـق الآشوريون طريقهم نحو دمشق مباشرة واضطر حزائيل الى الدفـاع عن نفسه فى عاصمته بل توغلوا فى حوران والجليل حتى جبل الكرمل • لقد قاسى حزائيل أثناء هاتين الحملتين ضربات كبيرة ولكن لم يستطع شلمنصر أن ينجح فى الاستيلاء على العاصمة ، ولم يتضح تماما ان كان قد حاول من جديد أن يعمل شيئا ضد دمشق حتى نهاية حكمه ، اذ يبدو أن آشور اضطرت بعد ذلك أن تعدل عن محاولة تحقيق أهدافها • وأيا ما كان الأمر فقد استفاد حزائيل من هذه الفترة التى زال فيها الضغط الآشورى ، فأصلح من أمره وجدد قوته وسعى الى استرداد اسرائيل • فتوجه ضد اسرائيل واستولى على عبر الأردن حتى نهر ارنون الذى يصب فى البحر الميت (الملوك الثانى ١٠ : ٣٢ ــ ٣٣) • ولمـا أصبح ملك دمشق سيدا على الاردن كله ، اتجه الى غرب اسرائيل بقصـد الاستيلاء على طرق التجارة مع مصر والجزيرة العربية فاستولى على جت فى اقليم فلسطين وبعد ذلك هدد بيت المقدس • وامام هذا الخطر اشترى يهواش ملك يهوذا سلامته بالذهب والفضة فاقتنع حزائيـل وعدل عن دخول اورشليم (الملوك الثانى ١٢ : ١٧ ــ ١٨) • لقد قاست مملكة اسرائيل كل هذه المخاطر ولاقت اذلالا كبيرا • ولم يذكر العهد القديم حوادث تلك الفترة بالتفصيل ولا نعرف الا ما حدث فى عهـد يهواحاز الذى جاء بعد ياهو عام ٨١٤ ق•م ولم يكن فى جيش اسرائيل سوى « خمسين فارسا وعشر مركبات وعشرة آلاف راجل لأنه أباده ملك آرام وجعلهم مثل التراب الذى يوطـأ » (الملوك الثـانى ١٣ : ٧ ، ٢٢) •

---

(26) ANET, p. 280.

لقد استطاع آراميو دمشق أن يحافظوا على مركزهم فى عهد بنهدد الثالث ابن حزائيل (الالوك الثانى ١٣ : ٣) الذى استطاع أن يكون حلفا كبيرا ضد زاكير ملك حماه ولعش • وكان زاكير قد اغتصب حماه ثم احتل منطقة لعش (ووهى منطقة بين حماه وحلب) ثم استولى على مدينة حزرك التى غالبا ما كانت عاصمة لعش وبذلك اختلت القوى فى الدويلات السورية نتيجة اطماع زاكير • فتحالفت ضده الدويلات الآرامية الأخرى والدولة الحيثية الجديدة تحت زعامة ملك آرام أى ملك دمشق • لم تتمكن الامبراطورية الآشورية من التدخل فى الفترة الضعيفة التى مرت بها وكان الصراع فى هذه الفترة قائما على قدم وساق بين الدويلات المختلفة فى سوريا • اجمع المتحالفون على مهاجمة زاكير فى حزرك فحاصرها الأعداء وكاد زاكير يستسلم أمام هذا الحصار لولا أن الهه حفظه[27] • ولكن سرعان ما فتر نشاط الآراميين مرة أخرى حينما جدد اداد — نيرارى الثالث ملك آشور (٨١٠ — ٧٨٣ ق•م) حملاته ضد الآراميين فى سوريا عام ٨٠٥ — ٨٠٢ ق•م مبتدئا بدمشق وملكها « مارى » (وهى كلمة آرامية تعنى « سيد » ومن المحتمل انها تشير الى بنهدد الثالث) الذى تلقى هجمة آشورية جديدة فاضطر للتسليم بعد حصار دمشق • وعلى شاهد عثر عليه حديثا فى تل الرماح سجل لنا آداد — نيرارى الثالث الجزية الكبيرة التى أخذها من آرام — دمشق والتى كانت تتكون من فضة ونحاس وحديد وأقمشة مختلفة الألوان وأقمشة من كتان واسرة من عاج ومقاعد من العاج المطعم بالذهب والمرصع بالأحجار الكريمة • كما سجل على نفس الشاهد حملة قام بها الى البحر المتوسط عام ٧٩٦ ق•م أو حملة ضد منطقة مانصوتى (فى وادى لبنان) عام ٧٩٦ ق•م • ومن بين الذين دفعوا الجزية للملك الآشورى « اواسو السامرى » أى الملك

---

(٢٧) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ٣٥٩ — ٣٦٠ .

يهواش ملك اسرائيل الذى يذكر لأول مرة فى المصادر الآشورية(٢٨) •
ولعل لقب هذا الملك « السامرى » يوحى بأن مملكته كانت فى بداية الأمر مقصورة على منطقة السامرة فقط نتيجة للغزوات الآرامية •

انتهز يهواش ملك اسرائيل (٧٩٨–٧٨٢ ق•م) فرصة ما حاق بدمشق على يد الآشوريين وبدأ يستعد للهجوم عليها • وجه يهواش الى بنهدد الثالث ثلاث ضربات متوالية تمكن بعدها من استعادة المدن التى كان الآراميون قد استولوا عليها من أبيه يهواحاز (الملوك الثانى ١٣ : ١٩ ، ٢٥) •

واصل يروبعام الثانى (٧٨ – ٧٤٣ ق•م) سياسة والده يهواش العدائية تجاه الآراميين الذين ازدادوا ضعفا على أثر الحملة التى وجهها شلمنصر الرابع (٧٨٢ – ٧٧٣ ق•م) ضد دمشق عام ٧٧٣ ق•م لقد نجح يروبعام فى استعادة كل شرق الاردن فارضا السيطرة الاسرائيلية على دمشق وذلك فى عهد تب ايل الذى تشير اليه نصوص التوراة كانما هواب رصين (اشعيا ٧ : ٦) وتقدمه تحت اسم طبيئل (الملوك الثانى ١٤ : ٣٥ ، ٢٨) •

وما أن تولى تيجلات – بيلزر الثالث عرش آشور (٧٤٤ – ٧٢٧ ق•م) حتى كان أول عمل قام به هو مهاجمة أورارتو والقوات الآرامية الأخرى فى أرباد وميليد وكركم وكموخ وقد هزم الآشوريون هذا الحلف الذى تزعمه سردور ملك اورارتو وحاصر تيجلات – بيلزر الثالث مدينة ارباد ثلاث سنوات حتى سقطت عام ٧٤٠ ق•م وأصبحت هذه البلاد مقاطعة آشورية وجاء بقية ملوك آرام مقدمين فروض الولاء والجزية للآشوريين وهم ملوك دمشق وصور وكموخ وقى

(28) S. Page, Iraq 30 (1968), 139 ff. ; J.A. Soggin, VT 20 (1920) 366 ff.

وقرقميش وكركم • ولكن اتحدت الدويلات السورية الأخرى ونظـم ازريو ، الذى اغتصب عرش سمال ، حركة العصيان ضد تيجلات بيلزر عام ٧٣٨ ق•م ، الذى لم ينتظر طويلا وانقض عليه واحتل كثيرا من المدن على شاطىء فينيقيا الشمالى وفى بلاد حماه وأمر باعدام ازريو وأعاد الى العـرش الملك الشرعى بنمو الثانى الذى سجل ابنه بر ــ ركب هذه الأحداث فى نقشين له وهكذا دخلت سمأل فى نطاق النفوذ الآشورى • وان ما وجد فى سمال من بقايا أثرية لهلاك بالنار وانقطاع كل ذكر لها فى مصادرنا ، يدلان فيما يبدو على انها لقيت نهاية فاجعة قبل مرور زمن طويل[٢٩] • وهكذا امتد سلطان تيجلات ــ بيلزر الثالث من فيليقيا الى صور والسامرة ودمشق حتى البلاد العربية •

لقد شهدت مملكة آرام ــ دمشق آخر ومضات مجدها فى عهـد آخر ملوكها المدعو رصينى الذى كان واحدا من الموالى الذين دفعوا الجزية لتيجلات ــ بيلزر الثالث عام ٧٣٨ ق•م ولكن سرعان ما يقـوم بثوره ويغزو شرق الاردن حتى راموث جلعاد جنوبا كما اغار على ايلات (الملوك الثانى ١٦ : ٦) • بعد ذلك أجبر بكاح ملك اسرائيل على أن ينضم الى صفه ثم أخذ يضغط على يوثام ملك يهوذا وابنه أحاز الذى استنجد بآشور حسبما ورد فى سفر الملوك الثـانى (١٥ : ٣٧ ، ١٦ : ٦ ، ٧ وما بعدها)« انا عبدك وابنك فاصعد وخلصنى من يد ملك آرام ويد ملك اسرائيل القائمين على » فهاجمهما وفى حملتين متتاليتين هزم تيجـلات ــ بيلزر الثالث بكاح فى السامرة عام ٧٣٣ ق•م ثم حاصر آرام ــ دمشق وملكها حتى أصبح مثل « عصفور فى قفصه » وأخيرا سقطت دمشق نفسها عام ٧٣٢ ق•م ونقل أهلها وفقد رصين عرشه بل دفـع حياته ثمنا لدفاعه عن مدينته (الملوك الثانى ١٦ : ٩) • وقد تفاخـر العاهل الآشورى بانه دمر ٥٩١ مدينة فى ست عشرة مقاطعة تابعـة

---

(٩) موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ص ١٧٩ •

لدمشق « وهدمها حتى أصبحت مثل الكثبان التى يتركها السيل »[٣٠]
وفى نقش عثر عليه حديثا فى نمرود يقول تيجلات بيلزر الثالث بعد هذه
الحروب المنتصرة « استعدت الى ممتلكات آشـــور (ارض بيت —)
حزائيل بأكملها من جبال (لبنان) حتى مدينة (راموث —) جلعـــاد
التى تقع على حدود أرض بيت عمرى ، وعينت عليها موظفين من جانبى
كحكام »[٣١] • وهكذا خضعت سوريا لسلطان آشور ما دامت أقوى
أقاليمها قد غدت خاضعة لها •

لقد قسمت آرام — دمشق بعد ذلك الى ولايات آشورية[٣٢] ،
دمشق فى الوسط وحـــوران وقارنينى (كارنايم فى العهد القـــديم)
وجلعاد فى الجنوب ومانصواتى فى الغرب وصوباتو فى الشـــمال •
لقد نشبت ثورات بعد ذلك فى دمشق عام ٧٢٠ ق•م وفى غيرها مـــن
المدن مثل السامرة وارباد وحماه وربما سمأل أيضا ولكنها أخمدت كلها
على يد سرجون الثانى الآشـــورى • وهكذا اختفت دويلات ســـوريا
الآرامية ، كما اختفت فى القرن السابق دويلات الآراميين فى بـــلاد
الرافدين •

لقد ترك تخريب مملكة دمشق التى شهدت عصرا زاهرا بالامس
القريب أثره فى نبوءات عاموس (١ : ٣ — ٥) واشعيا (١٧ : ١ — ٣)
وارميا (٤٩ : ٢٣ — ٢٧)[٣٣] •

---

(30) ARABI, p. 777.

(31) D. D. Wiseman, Iraq, 17 (1956), 120 ff ; H. Tadmor, IEJ 12 (1962), 114 ff.

Cf . B. Oded, JNES 29 (1970), 177 ff.

(٣٣) وعن النبوءات ضد آرام خاصة بنوءات عاموس ، انظر تعليقات مؤرخى العهد القديم مثل :

J. A. Soggin, Near Eastern Studies in Honor of W. F. Aleright (Baltimore, 1971), pp. 433 ff.

مدن ودويلات الآراميين فى سوريا وبلاد الرافدين

سمأل
قرقميش
أرباد
بتور
حلب
تل برسيب
بيت أديني
بيت يأخي
حران
بيت باخيان
جوزان
لورعلبرين
الالاخ
أوجماريت
قرقر
البحر المتوسط
حماه
بابلوص
آرام - صوبه
آرام - دمشق
بيت رحوب
دمشق
جبل بشري
لاقي
بيت هالوبي
خبيران
ماري
تدمر
آشور
بحيرة أورميا
الصحراء السوريه
معكه
اموث - جلعاد
حوران
عمون
مؤاب
بابل
بيت داكوري
بيت اموكاني
بيت ياكين
الخليج الفارسي

الاختصارات

AFO : Archin Für Orientforschung.

ARAB : D.D.Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, 1926.

BA : The Biblical Archaeologist.

BASOR : Bulletin of the American Schools of Oriental Research.

IEJ : Israel Exploration Journal.

JBL : Journal of Biblical Literature.

JNES : Journal of Near Eastern Studies.

RLA : Reallexikon der Assyriologie.

RSO : Rivista de gli Studi Orientali.

VT : Vetus Testamentum.

ZA : Zeitschrift dir Assyriologie.

قواعد الدبلوماسية البيزنطية

الدكتور رأفت عبد الحميد محمد
استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية آداب — جامعة عين شمس

أمام كل باحث فى التاريخ البيزنطى •• علامة استفهام كبيرة ، تقف بارزة بين التمرينات ••

علامة استفهام فرضتها أحداث التاريخ ••

فعلى امتداد ألف ومائة من السنين ، عاشت الامبراطورية البيزنطية ، وهى من هذه الناحية فقط ، وبغض النظر عن حضارتها الزاهرة ، التى هذبت بها أخلاق الشعوب القبلية النازحة الى منطقة البلقان ، وهدت بها خطى الحائرين عند الدانوب والبحر الأسود ، الى الحد الذى يتنافس فيها المتنافسون الآن ، من الروس واليونان ، يدعى كل منهم أنه الوارث الشرعى لها ، الضمين الحقيقى على تراثها !! نقول •• انها من ناحية الامتداد الزمنى فقط ، عبر أحد عشر قرنا من الزمان ، ما بين الرابع الى الخامس عشر ، تبز كل لداتها من الامبراطوريات التى عرفها التاريخ عبر العصور •

الا أن هذه القرون الطويلة ، لم تكن نغما موسيقيا حالما ، عزفه البيزنطيون على قيثارة السلام ، ليقدموا للعالم فى زمانهم ومن بعد حضارة متميزة ، بل كان عليهم — كما تقول المؤرخة ج• م• هسى J. M. Hussey فى كتابها « العالم البيزنطى »

أن يواجهوا فى صبيحة كل يوم بما يحتمه The Byzantine World عليهم الموقع الجغرافى ، جيرانا تختلف طرائق حياتهم ونماذج تفكيرهم، عما كان عليه البيزنطيون •

كانت الحدود الطويلة للامبراطورية البيزنطية ، التى راحت تتآكل مع الزمن ، بفعل ما يقضمه منها أولئك الجيران ، تفرض عليها مجاورة شعوب لها جذوره الحضارية كالفرس ، أو حضارتها القائمة الراسخة كالمسلمين • وشعوب ضاربة فى التخلف كالقبائل الجرمانية العديدة ، والهون والأفار والصقالبة ، والبلغار والمجيار ، والغز والكومان والبشناق •

كان هناك طامحون •• طامعون فى الوصول الى مركز الثقل الحضارى آنذاك •• البحر المتوسط ، أولئك هم الفرس ، وآخرون يقاتلون ، فيقتتلون ويقتلون من أجل الاستقرار على الأرض الرومانية ، والتمتع بقطوف خيراتها الدانية •• وأولاءهم الجرمان •

جماعات تطمح الى القفز على القسطنطينية نفسها ، كالنورمان • وأخرى يأكل الحقد قلبها وتود اسقاط الامبراطورية كلها •• كاللاتين•• وقبائل انقلبت الى دول تدعى وراثة بيزنطة ، وبيزنطة بعد على قيد الحياة •• كالبلغار •• الذين قاد ملكهم سيمون Symeon جيشه فى أوليات القرن العاشر ضد القسطنطينية ، وادعى فى جرأة حمل اللقب الامبراطورى ،ولم يكن هدفه اقامة مملكة منافسة لبيزنطة ، أو بديلة عنها ، بل أن يرفع نفسه على عرش القسطنطينية امبراطورا رومانيا • بل والصرب ، الذين سمى ملكهم ستفن دوشان Stephen Dusan نفسه فى أربعينيات القرن الرابع عشر (١٣٤٥) « سيد كل الامبراطورية الرومانية تقريبا »!! بعد أن راودته الأحلام حول امكانية خلع الامبراطور يوحنا الخامس باليولوجوس Ioamnes V Palaeologus وداعبته الآمال فى اعادة مجد روما القديم على يديه ، وكيف لا وهو يرى نفسه يسيطر

الى جوار المناطق التى كانت تحتلها القبائل الصربية أصلا ، على ألبانيا وابيروس وتساليا ومقدونيا ، بينما أمست بلغاريا تدور فى فلكه !

ومن قبل .. فى القرن الثانى عشر ، كاد فردريك بربروسا Frederick Barbarossa ملك ألمانيا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة (١١٥٢ — ١١٩٠) ، يعتبر نفسه خليفة قيصر وأوكتافيانوس أوغسطس وقسطنطين العظيم وجوستنيان ، رغم أصله الجرمانى ودولته القبلية ! ولذا نراه فى عام ١١٧٦ ينتهز فرصة الهزيمة التى لحقت بالامبراطر الرومانى فى القسطنطينية على يد سلطان قونية السلوجى ، عند ميريوكفالوم Myriocephalum فى آسيا الصغرى ، ليكتب بكل التشفى والاحتقار الى عاهل الرومان ذاك ، مانويل كومننوس Manuel Commenus (١١٤٣ — ١١٨٠) رسالة يجرده فيها من صفته الرومانية الشرعية ، ويصفه بأنه ملك اليونان Rex Grecorum وأنه هو ومملكته اليونانية Regnum Greciae جزء من امبراطوريته الرومانية !! أى امبراطورية فردريك بربروسا .

هكذا تبدو علامة الاستفهام كبيرة لأعين الدارسين للتاريخ البيزنطى ، اذا أضفنا الى ما سبق ، البابوية فى روما ، والتى ما فتئت تعمل للسيطرة على القسطنطينية ، كنيسة ودولة ، بحجة أنها بيعة مارقة وامبراطورية مهرطقة . كيف استطاعت الامبراطورية البيزنطية اذن أن تعمر كل هذه القرون ، وسط كل هذه الأخطار المحدقة ، التى تتهددها صبيحة كل يوم ؟!

ولا مندوحة عن القول ، ان الامبراطورية البيزنطية كانت تتمتع لفترات طويلة باستقرار سياسى بعيد عن التقلبات ، واستقرار اقتصادى بعيد عن الهزات ، وعملة ذهبية لها وضعها ومكانتها فى السوق التجارى العالمى ، وتحظى بجهاز ادارى كفؤ ، كان عونا كبيرا للسلطة الامبراطورية فى ادارة شئون الدولة ، فى ظل حكومة مركزية صارمة ، يجلس على

رأسها امبراطور ، يمثل فى الفكر السياسى الرومانى ، « نائب المسيح » Vicarious Christi على الأرض ، ويتبعه جيش كبير من الموظفين فى العاصمة ومختلف الولايات • ورغم ما كان يعترى هذا الجهاز من التعقيد ، الا أنه لم يفتقد المرونة • ولعل الكتاب الذى وضع فى منتصف القرن العاشر الميلادى بقلم امبراطورى « عن الادارة الامبراطورية » De Administrando Imperio دليل واضح على ما يمكن أن تحققه الادارة االناجحة من خدمات •

والى جانب هذا كله كانت الامبراطورية تنعم بتوافق يكاد يكون مستمرا بين السلطتين الزمنية والروحية ، بعد ن أمست الكنيسة فى بيزنطة دائرة من دوائر الحكومة ، وغدا أسقفها موظفا كبيرا لدى الامبراطور ، على عكس ما كان عليه الحال فى الغرب الأوروبى ، من الصراع السافر بين البابوية والامبراطورية ، حول السيادة العالمية ، والذى انتهى فى ستينيات القرن الثالث عشر ، بتوجيه الضربة القاضية للامبراطورية ، عندما سيق الملك الصبى كونرادينو Conradino آخر سلالة أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen الحاكمة فى ألمانيا ، الى الاعدام فى نابولى ، بايعاز من البابوية[1] •

ولا يغيب عن الذهن فى اطار هذه العوامل الايجابية ، ما شهدته بيزنطة طوال عصرها من استتباب النظام السياسى ، منذ رفع منه قسطنطين العظيم (٣٠٦ — ٣٣٧) القواعد فى القرن الرابع الميلادى ، بحيثلم تشهد ثورة حقيقة تستهدف قلب نظام الحكم ، وتغيير قاعدة النظام السياسى بشكل جذرى ، الا مرة واحدة ، هى التى حدثت فى

---

(١) راجع فى ذلك بحثنا اعنون : « السمو البلبوى بين النظرية والتطبيق » ، مجلة ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، المجلد الثالث ، القاهرة ١٩٨٥ •

عام ٥٣٢ فى القسطنطينية [٢] ، وان كنا قد شهدنا حركات تمرد متعددة ، الا أنها كانت موجهة ضد شخص الجالس على العرش ، ولم تكن تستهدف العرش نفسه •

ولنضع الى جوار هذا كله •• القسطنطينية ، العاصمة الامبراطورية ، باحتلالها لذلك الموقع الاستراتيجى الممتاز ، حيث تطوتها المياه بأذرع ثلاثة البسفور وبحر مرمره والقرن الذهبى ، فتوفر لها حماية طبيعية ، ضمنت لها وللامبراطورية الأمن العسكرى والبلغار والنورمان واللاتين ! لقد جاء زمان لم يبق فيه من بيزنطة الامبراطورية ، الا بيزنطة العاصمة ، كان هذا فى عام ٦٢٦ عندما حاصرها الآفار من الغرب ، وراح الفرس يشعلون نار ربهم على الشاطىء الأسيوى للبسفور قبالة القسطنطينية ، والجيوش البيزنطية تعمل فى الخارج تحت زعامة هرقل Heraclius (٦١٠ — ٦٤١) فى أرض فارس نفسها ، وأفلحت العاصمة فى الافلات من هذا الحصار ، بمناعة موقعها ، وقوة تحصيناتها ، ودبلوماسية ساستها •

اذن •• فالاستقرار السياسى فى الداخل والخارج ، والعمل الادارى الناجح ، والازدهار الاقتصادى ، وتأمين الطرق العالمية ، وضمان السيادة للعملة البيزنطية ، وتوجيه السياسة الاقتصادية فى السوق العالمى ، والتأييد المادى والمعنوى للجهود التى تبذلها الكنيسة الأرثوذكسية لنشر المسيحية بين شعوب البلقان الوثنية ، والتى تمهد تلقائيا لبسط النفوذ السياسى للامبراطورية على جيرانها ، كل هذا يحتاج

---

(٢) تعتبر هذه الثورة التى اندلعت ضد الامبراطور جوستنيان فى عام ٥٣٢ من أخطر الثورات فى تاريخ بيزنطة ، اذ شارك فيها السناتو والحرس الامبراطورى وحزبا الزرق والخضر وأصحاب الديانات المختلفة من الوثنين والمسيحيين على تعدد مذاهبهم وجموع الناس فى العاصمة ، وكادت أن تطيح فعلا بالنظام السياسى القائم . للمزيد من التفاصيل عن هذه الثورة — راجع بحثنا . . « الثورة الشعبية فى القسطنطينية ٥٣٢ » المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٣٢ — القاهرة ١٩٨٥ .

بلا ريب الى قوة عسكرية رادعة قادرة على تحقيقه ، ودبلوماسية ماهرة •

من هنا كان طبيعيا أن يوجه الأباطرة اهتمامهم الكامل الى الجيش ، ويعنون بتدريبه وتنظيماته وأسلحته ، وخططه العسكرية ، ولا غرابة اذن أن نجد جل أباطرة بيزنطة من العسكريين ، وأن معظمهم قادوا جيوشهم بأنفسهم • ووضع بعضهم رسائل تحتوى على دراسة قيمة عن الجيش فى زمانه ، مثل الامبراطور موريس Mauricius فى القرن السادس • وحتى هؤلاء المدنيين منهم ساهموا بفكرهم فى الاهتمام بالجيش البيزنطى ، فوضع ليو السادس Leo VI الحكيم فى أوائل القرن العاشر الميلادى ، كتابه عن « التاكتيكات » العسكرية ، وخلف ابنه قسطنين السابع آخر عن « الثغور » •

لقد كان الجيش بحق — كما يقول المؤرخ البيزنطى الذى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ميخائيل بسللوس Michael Psellus هو مصدر القوة الحقيقة للامبراطورية ، بينما يعبر عالم الدراسات البيزنطية ، نورمان بينز N. Baynes عن ذلك فى عبارة بليغة بقوله : « ليس تاريخ روما الا تاريخ الجيش الرومانى ، ولا يصدق اعتبار بيزطة وريثة روما فى شىء ، بقدر ما يصدق فيما يختص بسياستها العسكرية • لقد بنيت الامبراطورية وأمنت بفضل كتائبها » • وهذا ستفن رنسيمان Stephen Runciman يؤكد قائلا : « كان النظام الادارى ببيزنطة مرتبطا أرتباطا وثيقا بقواتها العسكرية ، فالأعداء يحيطون بالامبراطورية من كل جانب •• ولم يحدث قط أن الحكومة أحست لحظة واحدة أنها غير معرضة لخطر الغزو الأجنبى ، بل ان وجودها فى حد ذاته كان متوقفا على ضبط الشعوب المحيطة بها الضبط الصائب • وهذا يتوقف على جيش وأسطول يتصفان بالكفاية والاستعداد الدائم ، وعلى سياسة دبلوماسية يقظة لا تهدأ لحظة عن العمل ••• لقد قضت الضرورة على

البيزنطيين أن يصوغوا أنفسهم فى الوقت المناسب على أسس عسكرية ، وأن يولوا هذه الشئون العسكرية كل التفاهم وعلمهم • وكان ذلك كله فى مصلحتهم » • ويضيف •• « لقد كانت بيزنطة طوال العصور الوسطى بلدا تدرس فيــه أدوات القتــال ووســائل تنظيم الجيش والفنون الاستراتيجية بعناية كاملة ، وأخرجت بيزنطة سلسلة متصلة الحلقات من الكتاب العسكريين ذوى الاقتدار ، كما أن كثيرا من مؤرخيها كانوا يأخذون بطرف من الاهتمام بالشئون العسكرية ، ومنهم نستطيع أن نتعقب تطور تاريخ العسكرية البيزنطية » •

وقد يصبح الاعتماد على الجيش أمرا طبيعيا لبعض زمن ، وقد يطول ، لكن أن تظل الدولة فى حالة تعبئة عسكرية كاملة لزمن طويل ، خاصة اذا امتد هذا الزمن الى ألف ومائة من السنين ، فان هذا يعد ضربا من المستحيل ، وحرثا فى بحر ، لخزانة لابد أن تعلن افلاسها ، وروح معنوية لابد أن تنهار ، ومعين لابد أن ينصب من الموارد البشرية ، لقد ظل الامبراطور جوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) خمسا وعشرين سنة متصــلة يحارب فى الغرب الامبراطورى ، ومن أجل استرداد الولايات الرومانية الضائعة والواقعة فى قبضة الشعوب الجرمانية ، ويدفع خلالها جزية سنوية ضخمة لفارس ، فترك فى النهاية خزانة خاوية ، وولايات مقفرة خربة فى ايطاليا وأفريقيا ، وأخرى على شــفا الثورة والضياع كمصر وســوريا ، وجيشــا ممزقا ، ورغم أن جوستنيان كان دبلوماسيا بارعا !! وهذا هو باسل الثانى Basilius II (٩٧٦ ـــ ١٠٢٥) يشغل من القرن الحادى عشر سنواته الأولى حتى الثامنة عشرة ، فى حرب مع المملكة البلغارية ، ويذهب فى التــاريخ بشهرة « سفارح البلغار » Bulgaroctonos حتى اذا قضى نحبه بعد ذلك بسبع سنين ، هوت بيزنطة دفعة واحدة ، ولم تقم لها من بعد قائمة ، وان ظلت موجودة فى سجلات التاريخ حتى منتصف القــرن الخامس عشر ، ولم تكن السنوات المائة (١٠٨١ ـــ ١١٨٥) التى حكمها

آل كومننوس Comnenos الا بريقا •• ومض •• ومضى !!
وعندما أ مست السيادة فى آسيا الصغرى Asia Minor
للاتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر بعد ما تركت عام ١٠٧١ ،
فقدت بيزنطة الى حد كبير معينها الرئيسى فى تجييش الجيوش، وراحت
تولى وجهها شطر الغرب باحثة عن المرتزقة من الجنود •

فى مثل هذه الظروف •• وغيرها •• كان لابد لبيزنطة أن تستخدم
سلاحا آخر الى جانب القوة العسكرية ، كان له مضاؤه وتأثيره البعيد ،
أعنى الدبلوماسية • وقد برعت بيزنطة فى استخدام هذا السلاح خلال
العصور الوسطى ، حتى أصبح علما عليها ، وغدت هى بحق أستاذا فى
هذا الفن ، بعد أن وضعت له قواعده ومبادئه ، والتزم أباطرتها جميعا
— مع المرونة المطلوبة — بهذه القواعد ، حتى أحلها قسطنطين السابع
فى القرن العاشر مكانا مقدسا ، فوق منضدة مذبح أيا صوفيا
Hagia Sophia وأوصى ابنه وهويعظه أن يدخل فى روع الشعوب
التى يتعامل معها ، أن هذه القواعد قررتها العناية الالهية منذ عهد
قسطنطين الأول فى القرن الرابع • وعلى هذا النحو ، كان طبيعيا أن
يتحقق لبيزنطة بدبلوماسيتها ، الى جانب كل ما عرضنا له من عوامل
القوة ، بقاؤها عبر هذه القرون الطويلة من الرابع الى الخامس عشر •

لقد كان ضروريا — على حد قول دفورنيك(٣) Ovornik
— أن تعلم بيزنطة الكثير عن الشعوب المجاورة لها ، حتى يمكنها التعامل
معها من الناحيتين السياسية والعسكرية ، لذا كانت الدبلوماسية تعتبر
الحماية الحقيقية ضد أية مفاجآت قد تحدث ، خاصة وأن القوة
العسكرية للامبراطورية ، كانت تسير دائما ، منذ نهاية الربع الأول من
القرن الحادى عشر نحو التدهور • ومما لا شك فيه أن التوافق بين
العسكرية والدبلوماسية كان كفيلا بانقاذ الامبراطورية خلال أشد

(3) Ovornik, Origins of intelligence Services, pp. 165-166.

فتراتها تأزما ابان القرنين السادس والسابع ، على سبيل المثال • وساعد الأباطرة ليس فقط فى التغلب على كثير من الأزمات ، بل فى اعادة احياء مجد الامبراطورية خلال القرنين العاشر والحادى عشر •

لقد سارت الدبلوماسية البيزنطية جنبا الى جنب مع القوة العسكرية فى خطين متوازيين ، يعملان معا ، وقد يسبق أحدهما الآخر أحيانا ، لكنهما يمثلان جناحا السياسة البيزنطية الخارجية ، وكثيرا بل دائما ، ما عوضت الدبلوماسية النقص الذى كان يعتور القوة العسكرية فى معظم الأزمات ، ذلك أن الحدود الطويلة والتهديدات المستمرة من جانب أعدائها ، كما تقول المؤرخة « هسى »[٤] لم تكن تسمح لادارة الخارجية البيزنطية الا بوقت قليل تسترد فيه أنفاسها اللاهثة • ومن ثم كانت الدبلوماسية سلاح بيزنطة التقليدى المحبب اليها ، والذى أثبت فعاليته فى مناسبات عديدة • هى ان شئنا اذن بتعبير « أوبلنسكى »[٥] Obolensky واحدة من أشهر ما خلفته الامبراطورية البيزنطية من سمعة فى التاريخ الأوروبى » • ويضيف فى موضع آخر[٦] قائلا : « ليس هناك شك فى أن الدبلوماسية البيزنطية كانت بشكل عام ويقينى •• ناجحة • ولم لا •• وقد أنقذت الامبراطورية فى مواطن كثيرة من الغزو والدمار ، وجذبت جموعا من الوثنيين الى دائرة ضوء الحضارة اليونانية الرومانية ، وأضافت الى عالم المسيحية مساحات واسعة من الأراضى فى البلقان الى الشمال عند البحر الأسود • لقد كانت الدبلوماسية البيزنطية عاملاً من أهم العوامل فى التاريخ الأوروبى ، يرى أثرة بصورة واضحة فى الميراث الثقافى ، فشعوب أوروبا الشرقية تلقت الكثير من مبادىء السياسة الخارجية على يد ساسة بيزنطة ، وتعلم حكام هذه المنطقة فى العصور الوسطى الشىء الكثير من

---

(٤) العالم البيزنطى ، تأليف ج٠م٠ هسى ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد ، ص ٢٤٩

(5) C.M.H. IV, 1, p. 473.

(6) The prisciples and methids of Byzantine diplomacy, p. 61.

سادتهم ، بينما انتقلت بعض تقاليد الدبلوماسية البيزنطية ، عن طريق البنادقة ، الى الغرب الأوروبى •

ومن الغريب •• أنه على الرغم من هذا الدور الحيوى الذى لعبته الدبلوماسية البيزنطية فى السياسة الامبراطورية ، الا أنها كما يقول مؤرخنا سالف الذكر أوبلنسكى ، ما زالت ميدانا بكرا فى حاجة الى كثير من الجهد والدراسة • والمحاولات التى جرت فى هذا السبيل رغم أهميتها ، قليلة ، نخص منها بالذكر ما جاء ضمن كتابات « شارل ديل » عن الامبراطور « جوستنيان » ، و« رنسيمان » عن (رومانوس لكابنوس) و(رامبوا) عن « قسطنطين السابع » ، و « جيناكوبلوس » عن (السياسة الغربية لميخائيل الثامن) • وما كتبه « أويلنسكى » نفسه عن « الدبلوماسية البيزنطية » ، والذى قصر الحديث فيه عن السياسة البيزنطية تجاه الشعوب الواقعة على الحدود الشمالية للامبراطورية فى مناطق القوقاز وشبه جزيرة القرم ونهر الدانوب ، خلال القرن العاشر الميلادى ، مع دراسة للخلفية التى ارتكزت عليها هذه الدبلوماسية(٧) •

وفى ضوء هذه النقطة الأخيرة ، فانه مما يثير الانتباه ، أن أحد أباطرة بيزنطة الأدباء فى عصرها الذهبى ، ابان القرن العاشر ، أعنى قسطنطين السابع •• الأرجوانى المولد Constantiuus VII Porphyrogenitus أى المولود فى الأرجوان ، قد ترك ضمن ما ترك من مؤلفات ، كتابه الذائع « عن الادارة الامبراطورية » De Administrando Imperio وقد وضعه حوالى بين عامى ٩٤٨ — ٩٥٣ ، ووجهه الى ابنه الأمير الشاب رومانوس Romanus (الثانى فيما بعد) يهدف به الى تعليمه كيف يمكن أن يصبح حاكما أريبا ، وذلك بأن يضع بين يديه من خلال هذا الكتاب ، معرفة كاملة بالشعوب المجاورة للامبراطورية ،

---

(7) Id. ; Ibid. p. 46.

وكيفية التعامل معها ، « ... لأن المعرفة بهذه الشعوب ستكون دائما ذات فوائد عظيمة لك يا طفلى الحبيب ، وستنفك عندما تجد نفسك فى حاجة اليها ، فمن الصواب أن لا تكون جاهلا ، بل أن تكون لديك المعرفة الدائمة بالأجزاء التى تشرق عليها الشمس ، فكلها كانت فى وقت ما خاضعة للرومان »[8] .

ويمضى قسطنطين السابع قائلا : « ... أى بنى .. يجب أن تعلم الاختلافات القائمة بين كل شعب وآخر ، وكيف تعامل كلا منهم ، كيف تستميلهم وكيف تحاربهم ، انهم سوف يرتعدون أمامك لفرط حكمتك ، ويهربون كما يفرون خوف النار ! وسوف تطبق من الخوف شفاهم ، وتجرحهم كلماتك كالسهام فتؤدى بهم الى الموت »[9] .

كان قسطنطين السابع حريصا على أن ينقل الى ابنه خبرته السياسية التى كونها وهو بعد فى الظل قبل أن يغدو امبراطورا[10] ، فقد أريد له أن يظل قاصرا حتى الأربعين من عمره !! ولم تكن هذه السنوات الطوال التى قضاها تحت وصاية صهره القائد البحرى رومانوس لكابنوس Romanus Le Capenus لهوا وعبثا ، كما كان

(8) D.A.I. XLIII.

(9) Ibid. XLVII.

(١٠) أريد لقسطنطين السابع ان يظل طفلا قاصرا لفترة طويلة ، اذ وقع بعد وفاة أبيه ليو السادس تحت وصاية القائد البحر الشهير رومانوس لكابنوس ، الذى جعل من نفسه الامبراطور السيد وأنزل قسطنطين الامبراطور الشرعى الى مرتبة الامبراطور الشريك ، ووه النظام الذى كان سائدا فى بيزنطة خلال فترات كثيرة ، خاصة زمن الأسرة المقدونية . بل انه رفع أبناءه أيضا الى هذه المرتبة ، وظل يسير دفة الدولة ربع قرن (٩١٩ — ٩٤٤) وكف أيدى قسطنطين طوال هذه السنوات . وفى عام ٩٤٤ دبر أبناؤه مؤامرة ثم فياه القبض عليه ، فاستغل الامبراطور قسطنطين هذه الفرصة ، ولم يسمح لولدى رومانوس لكابنوس بأن يفرضا عليه من جديد سلطة أبيهما ، وأيده فى ذلك أهالى القسطنطينية الذين كانوا يتعلقون به ، فأعدمها عام ٩٤٥ . وهكذا تولى زمام السلطة وهو فى سن الأربعين !!

يتوقع الوصي ويتمنى ، لكنها كانت فترة تأمل وصمت ودراسة ، شغل نفسه خلالها بالوقوف على تفصيلات كل صغيرة وكبيرة لكل ناحية من نواحي الادارة ، بصورة لا تعرف الملل ، وفى كل ما دق من أمور البلاط ، وبلغت سمعته مرتبة عالية فى المجال الخارجي فى ميدان الدبلوماسية ، وعلى الصعيد الداخلى فى النواحى الثقافية ، وأبدى اهتماما زائدا بالفن والأدب والتاريخ والآثار ، يصفه المؤرخ جنكنز Jenkins [(١١)] فى دراسة مقارنة ، بعبارات بليغة بقوله : « ورث عن أبيه حب العلم والمعرفة ، فغدا بحق ابنا لوالده المثقف ليو السادس الحكيم ، ومثقفا من طراز فوطيوس[(١٢)] Bardas Photius أحب الكتب وهام بها وراح يجمعها من كل مكان من الامبراطورية وربما من خارجها • كان واحدا من البيزنطيين القلائل الذين أدركوا جيدا أسلوب ومعنى النثر الكلاسيكى • لقد كان على النقيض تماما من جده باسل الأول Barilius I X الذى لم يكن يستطيع الكتابة على الاطلاق (كان مجرد سائس للخيول قبل أن يغدو امبراطورا) ، وأبيه الذى كان يكتب بحذلقة ، وحفيده باسل الثانى الذى أوتى بسطة فى الجسم ، بينما لم ترق كتابته الى أبعد من مستوى صبى غر » •

واذا كانت منجزاته فى ميدان الثقافة تعد شيئا رائعا ، فان حمايته لمختلف الفنون تفوق الوصف ، واذا كان لابد من الحديث عن شيء ،

---

(11) D.A.I., general introduction by Jenkins, p. 7.

وراجع له أيضا Byzantium, the imperial centuries, p. 265

(١٢) يعتبر أعظ مرجالات القرن التاسع فى بيزنطة والغرب الأوروبى علما ومعرفة ، وقد عمل أولا أستاذا بجامعة القسطنطينية ، واتخذ من بيته ناديا أدبيا وعلميا ، ودون خلاصة ما كان يقرأه فى النادى من المؤلفت ، فترك بذلك مؤلفه الشهير الذى عرف بسم « المكتبة » Bibliotheca وقد أصبح بطريركا للقسطنطينية على عهد الامبراطور ميخائيل الثالث العمورى (٨٤٢ — ٨٦٧) ، وحاز شرهة واسعة أيضا من موقعه هذا بخلافه فى الرأى مع كنيسة روما حول الروح القدس فى الثالوث .

فليكن حول تشجيعه للتعليم والبحث • لقد كان متضلعا من الدراسات الكلاسيكية ، وتفهم ذكاؤه المفاهيم النظرية والتطبيقية للمعرفة ، المعرفة فى حد ذاتها ، والتى تعد ضرورة لمقدرة الرجل العملى للوصـول الى القرار الصـواب فى مختلف شـئون الحيـاة • وفى هذه الناحيـة والتى تتضمن بصورة رئيسـية دراسة التاريخ ، نجد أن قسـطنطين أعطاها اهتماما خاصا • فمن بين خريجى جامعة القسطنطينية ، التى كان هو المؤسس الثانى لها بعد القيصر برداس[١٣]
أختار موظفيه المدنيين ورجال الاكليروس • وقد أخضع ابنه رومانوس لمثل هذه الدراسة العملية • واذا كانت هذه المعرفة ضرورية للفـرد العادى فى ممارسة حياته اليومية ومتطلباتها ، فهى بالأحرى أشـد ضرورة لمن سيصبح حاكما • ولا شـك دفعه وسـاعده على ذلك أن بيزنطة بلغت فى عهده أوج مجدها السياسى والعسكرى ، وقمة رقيها الثقافى ، وأروع آياتها الفنية[١٤] •

لا غرابة اذن أن يتمخض عن هذا كله انتاج فكرى ضخم ، ينم عن شخصية موسوعية متكاملة ، تمثلت فى كتابه الهام جدا « عن الثغور » De Thematibus ومؤلفـه الـراقى « عن المراسـم » De Cermoniis aulae Byzantinae الذى يعد وصفا دقيقا لما كان عليه البلاط البيزنطي ، ويعتبر — كما يؤكد قسطنطين السابع نفسه فى مقدمته ، المظهر الخارجى والتجسيد المرئى للتناغم والانسـجام فى الداخل ، ونظاما للطقوس العامة ، يرفع من قدر العظمة الامبراطورية ، ويحدد أطر ومظاهر الحياة اليومية فى الدوائر الامبراطورية البيزنطية،

---

(١٣) هو خال الامبراطور ميخائيل الثالث ومستشاره ، قام بدور بارز فى اعادة تنظيم جامعة القسطنطينية ثانية ، بعد أن امتدت اليها يد الاهمال لفترة طويلة من الزمن بفعل الظروف العسكرية الخارجية التى تعرضت لها الامبراطورية •

(14) D.A.I., general introduction, by Jenkins, pp. 7-9.

ويقدم أنموذجا يحتذى لبلاط الملوك والأمراء الآخرين[١٥] • أما كتابه « عن الادارة الامبراطورية » De Administrando Imperio فهو عمل رائع فى فن السياسة ، ومقال خطيرة فى أصول الدبلوماسية ، وتصور دقيق لوجهة نظر القسطنطينية تجاه العالم المحيط بها ، سماه صاحبه ببساطة « من قسطنطين الى ابنه رومانووس » وعرفه التاريخ باسم « عن الادارة الامبراطورية » ، ومن ثم فقد كان من وجهة نظر الامبراطور عملا بالغ السرية top Secret ، وليس مسموحا بتداوله خارج القصر ، بل كان غير مسموح الا لعدد محدود جدا من الدبلوماسيين بالاطلاع عليه[١٦] • ويمكن تقسيم هذا العمل الى أقسام أربعة ، أولها مفتاح للسياسة الخارجية البيزنطية ، خاصة فى المنطقة المضطربة عند الحدود الشمالية ، والثانى درس فى فن الدبلوماسية ، والثالث وهو أطولها ، مسح شامل لمعظم الشعوب التى تحيط بالامبراطورية ، بدءا بالعرب فى الجنوب الشرقى ومن يحيطون بحوض البحر المتوسط والبحر الأسود ، وانتهاء بالأرمن على الحدود الشرقية• والرابع ملخص عن التاريخ الداخلى السياسى والادارى على حدود الامبراطورية[٦٧] •

والكتاب على هذا النحو يفصح عن الهدف الذى من أجله أقدم الامبراطور قسطنطين السابع على وضعه ، فهو يحاول أن يقدم لابنه خلاصة فكره وتجاربه وقراءاته فيما يتعلق بفن معاملة الشعوب ، التى كان على بيزنطة أن تحتك بها دائما ، راضية أم كارهة ، ونراه يلح بصورة واضحة على أن يعى ابنه رومانوس خبرة هذه السنوات ، فيقول: « ••• تفهم يابنى جيدا هذه الأمور ••• وكن حكيما ، فقد تتولى زمام الحكم يوما ما ، وسوف أراعى فيما أقدمه لك من موضوعات أن تكون

---

(16) Jlnkins, Byzantium, p. 260.

(17) D.A.I., general introduction, p. 10.

(١٥) هسى • العالم البيزنطى ، ترجمة دكتور رافت عبد الحميد ، ص ٣١٢ ، ٣٧٥ •

مفيدة قدر الطاقة ، وما يخصك منها واضح وفيه الأن للجميع ، ومن خلاله تستطيع أن تدبر وتوجه شئون الحكم فى هذا العالم ، وسيكون حديثى سهلا وبأسلوب مبسط ، ولا غرابة يابنى فى ذلك ، فلست أديبا لأقدم لك حديثا رائعا من طراز العصر اليونانى ، بأسلوب سام رفيع ، لكنه سيكون واضحا يصلح لكل حين • ومما أقدمه لك وأناقشه، سوف تتعلم الكثير من الأمور التى تنير لك الطريق • ان ما أقدمه — أى بنى — خلاصة خبرتى الطويلة ، يسهل عليك فهم الأمور وتدبر العواقب[١٨] •

ويجب أن لا ينصرف الذهن الى أن حديثنا الآن عما كتبه قسطنطين السابع ، يعنى أن الامبراطور قد ابتدع أساليب جديدة فى فن الدبلوماسية البيزنطية ، أو أضاف المزيد الى ما اتبعه الأباطرة الأسلاف، فقد كان العديد من أولئك الذين سبقوه ، وأولاء الذين من بعده أتوا ، أساتذة فى هذا الفن ، الى الحد الذى دفع مؤرخا مثل « أوبلنسكى » الى الحديث عن جوستنيان بقوله : « ان هذا الامبراطور هو الذى أورث خلفاءه مفهوم الدبلوماسية باعتبارها علما معقدا وفنا رائعا ، بحيث يصبح الضغط العسكرى والذكاء السياسى والمهارة الاقتصادية والدعاية الدينية ، أسلحة قوية فى السياسة الدفاعية للامبراطورية[١٩] • كل ما نعنيه اذن ، أن قسطنطين استلهم أحداث التاريخ وتجارب السابقين ، وسجل ذلك بنفسه فى قوله لابنه وهو يعظه : « يا بنى •• هذه هى الأحداث التى جرت فى أوقات مختلفة بين الرومان والأمم الأخرى ، وهى وقائع تستحق التسجيل ، وعليك قراءتها والعلم بها ، حتى اذا تصادف ووقعت مثلها أحداث فى ظروف مشابهة ، تصبح بمعرفتك السابقة قادرا على معالجتها »[٢٠] • ولا يعنى هذا أيضا التقليل من قيمة الدور الذى بذله قسطنطين السابع فى رصد هذه

(18) D.A.I. IV, p. 47.
(19) C.M.H. IV, p. 47.
(20) D.A.I. ,XLVI

القواعد وتصنيفها والتعامل معها بأسلوب فيه من الذكاء قدر ما به من الجدية ، فكفل لهذه القواعد البقاء ، وأحاطها بسياج من القداسة ، وان كان قد سجل خلاصة تجاربه الشخصية ابان فترة حكمه ، مع الشعوب النازلة فى المناطق الشمالية من الامبراطورية .

وكان طبيعيا اذن أن تحظى ادارة الخارجية البيزنطية برعاية تفوق بقية الادارات الأخرى فى الجهاز الحكومى ، فعلى ما يتوافر لديها من معلومات ، تتوقف سلامة الدولة وأمنها . وكانت المعلومات التى تنقلها السفارات والبعثات والتجار وغير ذلك من الوسائل الأخرى عن الشعوب المجاورة ، تصب كلها لدى جهة أنشئت لهذا الغرض عرفت باسم « ادارة شئون البرابرة » Scrinium barbarorum وربما يعود تاريخ انشائها الى القرن الخامس الميلادى ، وتركزت مهامها حول مراقبة الأجانب المقيمين فى العاصمة أو الوافدين اليها ، والاهتمام بالسفارات الخارجية القادمة الى القسطنطينية[21] . وقد ظل هذا الجهاز قائما حتى القرن الحادى عشر ، وان كانت سلطاته نفسها قد انتقلت منذ منتصف القرن الثامن الميلادى ، فى أخريات سنى حكم الامبراطور ليو الثالث الايزورى (٧١٧ — ٧٤١) الى يد موظف عرف باسم Logothete راحت أهميته تزداد باطراد حتى أضحى منذ القرن التاسع أهم منصب وزارى فى الامبراطورية[22] .

واطلاق هذا الاسم بالذات ، « ادارة شئون البرابرة » على جهاز له خطورته وأهميته فيما يتعلق بالعلاقات السياسية الخارجية لبيزنطة مع الشعوب المجاورة ، أمر له دلالاته البعيدة ، فقد انطلقت الدبلوماسية البيزنطية من مبدأ أساسى قائم على ما استقر فى الفكر الرومانى ، ارثا عن اليونان ، أن ما عداهم من الشعوب الخارجة عن نطاق نفوذهم

---

(21) Dvornik, op. cit., p. 174.

(22) Id.

السياسى وسلطانهم الحضارى ، وقبل هذا وبعده ، لسانهم ، محض « برابرة » Barbaroi يجب أن ينظر اليهم من عل • ولا يستثنى من هذه الشعوب الا الفرس والعرب فى بعض الأحيان ، فيحدثنا مؤرخ القرن الحادى عشر ميخائيل بسللوس ، والذى عمل وزيرا لخمسة من الأباطرة ، أن أحدهم وهو قسطنطين التاسع ، أمــره أن يكتب الى المستنصر بالله الفاطمى فى القاهرة ، رسالة تفيض بالمودة ، وتظهــر الخليفة المسلم فى صورة لا تقل عن الامبراطور البيزنطى مكانة بل لا مانع عنده من أن تعلوها حفاظا على مصــالح بيزنطة الســياسية والاقتصادية مع مصر ، ويعلق بسللوس على ذلك بقوله ، انه أبدى موافقته لعى ذلك أمام سيده ، فلما خلا الى نفسه ليكتب الرسالة ، حرص على أن يجعلها فى صورة غير التى أرادها الامبراطور ، لأن أحدا — فى اعتقاده — لا يمكن أن يطاول الرومان منزلة[٢٣] •

لقد قر فى ذهــن الرومان ، وبشىء من الاصرار ، أنهم الأمــة المتحضرة الوحيدة فى هذا العالم ، وأن ما عداهم من الشعوب يجب أن يكون فى خدمة أهداف الامبراطورية ، خاضعين لسيادتها أو دائرين فى فلكها ، قانعين بسيادة ملك الملوك Basileus باعتبارهم أغصالا ورعــايا ، ذلك دورهم ، وتلك فى الوقت نفســه مهمة الدبلوماســية البيزنطية[٢٤] • ولم يكن ذلك غريبا على جوهر الفكر السياسى الرومانى، الذى يؤمن أن حضارته تجمع أرقى ثلاثة عناصر ، التراث الرومانى بأحسن ما قدمهفى القانون والادارة ، والهللينية بأروع ما أبدعته فى اللغة والأدب والفلسفة ، والمسيحية بكل ما حملته من مبادىء • ومن ثم

---

(23) PSELL. Chron. VI 191.

وللمزيد من التفصيلات راجع للباحث : « مياخئيل بسللوس من خلال كتابه التاريخ الزمنى » Chronographia مجلة كلية الآداب — جامعة صنعاء ، العدد الثانى ١٩٧٩ ، ص ١٥١ — ٢٢٤ •

(24) Diehl, Byzantium, Greatnes and Decline, p. 54. XX

اعتقد البيزنطيون أن امبراطوريتهم فى جوهرها الحضارى تمثـــل « العالمية » Oikoumene يجلس على عرشـــها امبراطور يعـــد « السيد » الشرعى الوحيد والقانون الحى[٢٥] • هذا المعنى حرص على ابرازه مؤرخ القرن السادس أجاثياس Agathias عندما يكتب قائلا : « ان سيادة الامبراطور تسع العالم كله »[٢٦] ويؤكده بعـــد قرون أربعة ، الامبراطور قسطنطين السابع فى كتابه « عن المراسم » عندما يقارن بين سلطان الامبراطور فى نسقه وانســـجامه ، وحركة العالم فى تناغمه على يد خالقه »[٢٧] •

بل ان قسطنطين السابع يدعم هذا المعنى ويزيده وضوحا وهو يخاطب ولده بقوله : « أى بُنى •• ضع نصب عينيك كلماتى واحفـــظ جيدا ما آمرك به ، فتغدو فى الوقت المناسب قادرا على أن تســـتوحى من كنوز الأسلاف مدارج الحكمة ، ألا فلتعلم أن كل القبائل القاطنة فى الشمال قد طبعت على الشره للمال نفوسهم ، لا يقنعون أبدا ، تدور أعينهم وراء كل شىء نهما وطعما ، يرفعون عقيرتهم بقول واحد •• هل من مزيد ؟ ! لا يؤدون عملا الا لقاء ما هو أكثر منه مالا وأشد نفعـــا • مثل هذه الأشياء التى يلحفون فى طلبها ، ويدعوناها لأنفسهم فى قحة ، يجب أن يرد عليهم بقول معسول واعتذار مقبول)! »[٢٨] • ويستخدم قسطنطين السابع نعوتا قاسية فى وصفه لهذه القبائل بعد قليل ، حيث يصمها بـــ « المراوغة » و« والدناءة » •

وهذه النظرة التى راح قسطنطين السابع يلح عليها بصفة مستمرة فى كل صفحات كتابه » عن الادارة الامبراطورية » فى منتصف القرن

---

(25) Obolensky, Byzantine diplomacy, p. 52.
(26) Cited in, Ure, Justinian and his Age, p. 248.
(27) Cited in, Ure, Justinian an his Age, p. 248.
(27) Cited in, Obolensky, Byzantine diplomacy, p. 53.
(28) D.A.I., XIII

العاشر ، والامبراطورية البيزنطية فى أوج مجدها ابان عصرها الذهبى زمن الأسرة المقدونية ، نسمع رنينها فى القرون الأولى ، ويتـــردد صداها فى القرون التالية والامبراطورية تعالج سكرات الموت البطىء ! نجدها واضحة فى رسالة قسطنطين الأول التى كتبها الى مجمع صور عام ٣٣٥[٢٩] ، ورسالة ابنه قسطنطيوس Constantius سنة ٣٥٦ الى السكندريين[٣٠] ، ورسالة جوليان Iulianus الى باسل أسـقف قيسارية كبادوكيا فى آسيا الصغرى عام ٣٦٣[٣١] ، وجوســتنيان Iustinianus فى العديد من تشريعاته[٣٢] . ولم يكن المؤرخون البيزنطيون أقل حرصا من أباطرتهم على ابراز هذا المفهوم الذى يعـد جوهر الفكر السياسى الرومانى ازاء هذه الشعوب ، ابتداء من يوساب Eusebius القيسارى فى القرن الرابع[٣٣] ، ومرورا بالقرن السادس عند بروكوبيوس Procopius[٣٤] وميخائيل بسـللوس فى القرن الحادى عشر[٣٥] والأميرة أنا كومننا Anna Commena فى القرن الثانى عشر[٣٦] ونيقتاس الخونياتى Nicetas Chiniates فى القرن الثالث عشر[٣٧] . وغير هؤلاء وأولاء كثير .

ولا شك أن هذه النظرة قد شكلت بصورة أساسية طبيعة العلاقات بين الامبراطورية وجيرانها ، فالزوواج السياسى مثلا ، كان أحـــد

(29) SOCRAT. hstoria ecclesiastica, I, 34.
(30) ATHANAS. apologia ad Costantium, 30.
(31) IUL. epistola ad Basilium, (BASIL. ep. XL).
(32) IUL. epistola ad Basilium, (BASIL. ep. XL).
(33) EUSEB. Vita Constantini, IV, 56.
(34) PROCOP. de bello Persico 11, V. 29.
(35) PSELL. Chronographia, III, 9-10; IV 75, 90-91, 95, 153; VIII. 45, 63-67, 70.
(63) ANNA COMV. Alexiad, VIII. X.
(37) NICET. CHON. historia, pp. 757-763.

نقلا عن الدكتور اسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص ٣٤٤

الدعامات الرئيسية للدبلوماسية البيزنطية ، رغم أنه استخدم فى نطاق ضيق تماما ، خاصة اذا كانت العروس بيزنطية • فقد جرى التقليد بمنع زواج أميرات البيت البيزنطى الجالس على العرش ، من أحد ملوك أو أمراء أو زعماء الدول والقبائل الأخرى ، حتى لا تختلط الدماء البيزنطية « النقية » بغيرها •• أقل منها نقاء ! وان كان مسموحا بزواج الأباطرة من أميرات أجنبيات ، سعيا لاكتساب ولاء هذه الشعوب ، أو تحريضها ضد عدو يتأبط شرا للامبراطورية •

وكان التوجيه الذى وجهه قسطنطين السابع لابنه فى هذا السبيل واضحا ، « ••• اذا أقدم أحد من هذه القبائل المراوغة الدنيئة القاطنة فى الشمال ، (ويحددها هو بالخزر والأتراك والروس والسكيزيين) ، على طلب عقد زواج مع امبراطور الرومان ، بغية التحالف ، فان هذا المطلب الرهيب الذى لا يليق ، عليك أن ترده قائلاً : « ان تبعة مثقلة ألقيت على كواهل الأباطرة ، وتمثلت فى وصية لا مجال للشك فى صحتها ، حفرت على المنضدة المقدسة للكنيسة الجامعة فى أيا صوفيا ، بحيث لا يمكن لأى امبراطور رومانى أن يربط نفسه برباط الزواج ، مع أمة تختلف طبائعها وتقاليدها عما جبل عليه الرومان ، خاصة مع أولئك الوثنيين الذين لم يتناولوا سر المعمودية ، ويستثنى من ذلك الفرنجة وحدهم[٣٨] • واذا كان لابد من الاجابة عن سؤال حول ••

---

(٣٨) كان الفرنجة هم الشعب الجرمانى الوحيد من بين الجرمان الآخرين ، الذى تحول منذ البداية الى المسيحية الكاثوليكية ، التى أقرها المجمع المنعقد فى نيقية سنة ٣٢٥ ، وكان هذا التحول على عهد ملكهم « كلوفيس » Clovis فى أوائل القرن السادس الميلادى ، بينما اعتنقت بقية الشعوب الجرمانية الأخرى ، المسيحية فى صورتها الآريوسية . وقد أدى اعتناق الفرنجية للمسيحية الكاثوليكية الى آثار بعيدء المدى فى علاقات مملكتهم مع الابابويسة ، بلغت أوجها بتتويج ملكهم شارلمان امبراطورا بيد البابا فى ليلة عيد ميلاد عام ٨٠٠ . للوقوف على تفصيلات الخلاف العقيدى بين الآريوسية والنيقية (الكاثونيكية) راجع : دكتور رافت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الخامس .

لـماذا هؤلاء بالذات ؟ .. فانه يمكن القول انه نتيجة لتلك الشـهرة التقليدية التى حازتها تلك المنطقة ، والأصول النبيلة لهذه القبائل !! أما فيما عدا هؤلاء فانه ليس من سلطة أى امبراطور أن يقدم على مثل هذا ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، اذا يقع تحت طائلة الادانة باعتبـاره أصبح غريبا عن جماعة المسيحيين ، وتحق عليه الأناثيما (اللعنـة) ، حيث اعتدى على قوانين الأسلاف والشرائع الامبراطورية »[٣٩] .

واذا كان قسطنطين السابع قد استثنى الفرنجة من بين هـذه الشعوب ، لـما يذكره من « أصولهم لنبيلة » ، والتى يخالف بها الحقيقة عمدا ، اذ هم قبيلة من بين القبائل الجرمانية العديدة ، التى التصقت بها صفة « البرابرة » التى خلعها عليهم جميعا الرومان . الا أن الشىء الذى لم يذكره قسطنطين السابع ، والذى يعد تبريرا حقيقيا لهـذا الاستثناء ، هو أن ابنه رومانوس قد أقدم على الزواج فى عام ٩٤٤ من « برتا » Bertha ابنة « هيج » Hugh ملك ايطاليـا (٩٢٦ — ٩٤٧)[٤٠] ، وبينما يخصص فصلا كاملا من كتابه[٤١] للعودة بنسب من أصـهر اليه ، أعنى « هيـج » الى الامبراطور شـارلمان Carolus Magnus (Charlemagne) نجده ينحى باللائمة على سلفه الامبراطور الايزورى ، الذى زوج ابنه قسطنطين الخامس من ابنـة خان الخزر ، رغم ما حققته الدبلوماسية البيزنطية من نجاح فى هـذا السبيل ، اذ أدى هؤلاء الأصهار دورا كبيرا فى وقف تهديد المسلمين للحدود الشرقية للامبراطورية ، ليتفرغ الامبراطور لدرء الأخطار على الجبهة الشمالية . بل ان قسطنطين السابع لا يجد ما يحول بينه وبين خلع صفات وألقاب غير كريمة على ليو الثالث ، لما جلبه من » عـار «

---

(39) D.A.I., XIII

(40) Jenkins, Commentary on D.A.I. vol. 2, p. 83.
راجع تفصيلات ظروف هذه الزيجة فى C.M.H. vol. IIT, p. 139.

(41) D.A.I., XXVI.

ـ حسب تعبيره ـ على نفسه والامبراطورية ، ويصـــفه بأنه لم يكن مسيحيا قويما ، بل هرطوقا محطما للايقــونات[٤٢] ، ومن ثم لـــقى الحرمان الكنسى وقيد بقيود اللعنة ، لأنه « كيف يليق بالمسيحيين أن يربطوا أنفسهم برباط الزوواج مع أولئك الوثنيات ، بينما الكنسة تحرم ذلك وتعتبره شيئا نكرا » • ويمضى قسطنطين فى تساؤله : « ••• بل كيف يمكن للاباطرة الرومان الأشهار وهم النبلاء الحكماء أن يقبلوا هذا الأمر ؟ ! »[٤٣] •

واضح تماما من عبارات الامبراطور المولود فى الأرجوان ، مدى تأصل الفكر الرومانى حول دونية هذه الشعوب المجاورة للامبراطورية، خاصة عند حدودها الشمالية ، وهى المنطقة التى أضـــحت فى القرنين التاسع والعاشر ، تمثل مركز الأمن والتهديد لبيزنطة فى وقت واحد ، وتحظى بأهمية كبيرة لدى ادارة الخارجية البيزنطية • وكانت تمتد من

---

(٤٢) ذهب يو الثالث وابنه قسطنطين الخامس بشهرة واســـعة فى التاريخ ، لتوليهما زعامة حركة تحطيم الأيقونات icons أو الصور المقدسة .. ووكانت هذه الصور التى تمثل العذراء والمسيح والقديسين والشهداء، قد لقيت رواجا فى دور العبادة المســيحية والأديرة والدور الخاصة ، حيث ازدانت تلك الأماكن ، لكن خطورتها عمثلت فى أنها أضحت محور اجلال الى حد التقديس عند جموع المســيحيين ، وقد عد ليو الثـــالث ذلك ضربا مى الوثنية الجديدة تشوب المسيحية ، فأصدر أوامره بتحطيم الأيقونات فى كل كنحاء الامبراطورية . وكان ابنه قسطنطين الخامس أعنف منه فى هـــذا الاتجاه غ ولقى يلاهما العنت والمقاومة من جانب البـــابوية فى روما ، التى كانت من أشد المتحمسين لتقديس الصور . وأخذت هذه المشكلة أبعـــادا سياسية واقتصادية ، ونتائج عسكرية وادارية وفنية ابان القرنين الثامن والتاسع . أنظر :

Hefele, history of the councils of the chourch, Vol. 5.

وأيضا

Percival, the Seven ecumenical councils (in Nicene and post Vicene Fathers, vol. XIV.

راجع كذلك ، دكتور أسد رستم : حدب فى الكنائس • بيروت ١٩٥٨

(43) D.A.I., XIII.

ســــهول هنغاريا حتى بحر قزوين ، وتشـــمل جبال الكربات ومراعى الاستبس الروسية والأراضى الواطئة الى الشمال من القوقاز ، وتصل شمالا الى أنهار « الدنيستر » و « الدنيبر » و « الدون » ، وحتى منتصف الدانوب فى الغرب والفولجــا الأدنى فى الشرق ، وتضم من بين ما تضم قبــائل الآفار والصــقالبة والبلغار والمجيــار والروس واالبشــناق • ولا ريب أن هذه القبــائل كانت ما تزال على وثنيتهــا وبدايتها ، يباعد بينها وبين الامبراطورية البيزنطية ، الدين والحضارة، وان أخذت تتحول تدريجيا على يد مبشرين بيزنطيين الى المســيحية الأرثوذكسية ، ومن ثم كانت نغمة « الرومانية » أو « الدولة الوحيــدة المتحضرة فى العالم » ، عالية تماما فى كتابات قســطنطين السابع ، وهو يحدث عند هذه القبائل فى معرض الزواج السياسى ، « فلكل قوم — حسب تعبيره — عاداتهم وتقاليدهم التى يتميزون بها عن غيرهم ، ونظامهم الخاص بهم ، وعليهم اتباع الأعراف السائدة بينهم واحترامها والحفاظ عليها ، فكما أن كــل حيوان يحن الى فصيلته ، فــان على كل أمة أن ترتبط عن طريق الزواج ، ليس من أولئك الذين يخالفونها الأصل واللسان ، بل مع من ينتمون اليها ويتحدثون لغتها ، حتى يسود الوئام والتفاهم بين من هم على شاكلة واحدة » (٤٤) •

وليس معنى هذا أن التقاليد البيزنطية كانت تحرم تحريما قاطعا مثل هذه الزيجات ، فقد كانت تسمح — فى اطار دبلوماســية بارعة — بالزواج من أميرات بيزنطيــات لا ينتسبن الى الأسرة الجالســة على العرش ، كما حدث مثلاً من زواج أوتو الثانى Otto II ولى العهد الألمانى

---

(٤٤) .Id وللوقوف على خطورة الزواج من الأجانب كما تجســده التقاليد البيزنطية ، راجع تلك القصة التى يرويها قســطنطين السابع عن أهالى خرسون Cherson (حاليا سباستبول فى أقصى جنوب غرب شــبه جزيرة القرم) وبسبور Bosporus (وهى حاليا كرش الواقعة على المضيق الذى يربط بحر آزونى بالبحر الأســود) •• وذلك فى الفصل الثــالث والخمسين من كتابه .D.A.I

والمرشح لاعتلاء عرش امبراطورية الرومان فى الغرب بعد أبيه ، من الأميرة البيزنطيـــة ثيوفانو Theophano فى ستينيات القرن العاشر ، وزواج الأميرة ماريا لكابنـــا Maria Lecapena حفيـــدة الامبراطور رومانوس الأول لكابنوس من بطرس Petrus ملك البلغار • رغم أن هذه الزيجة الأخيرة كانت أكثر نفعا للامبراطورية بصورة مباشرة ، بعد اشتداد حدة العداء بينها وبين المملكة االبلغارية على عهد ملكها سيمون، الا أن قسطنطين السابع أعلن امتعاضه وسخطه على هـــذا الزواج ، ووجدها فرصة سانحة للتشهير بصهره رومانوس ، الذى أبقى عليـــه — كما أسلفنا — قاصرا حتى الأربعين من عمره •

كتب قسطنطين مخاطبا ابنه •• « فان سألوك — يعنى القبـــائل النازلة فى الشمال — كيف سمح اذن الامبراطور رومانوس لنفســـه ، أن يرتبط بعلاقة زواج مع البلغار ، معطيا يد حفيدته الى بطرس ملك بلغـــاريا ؟ ! فيجب أن يكون دفاعك : « لقد كان رومانوس امبراطورا شريكا [٤٥] وشـــخصا جاهلا ، ولم يكن أبدا فى يوم ما من بين أولاء الذين ولدوا فى الأرجوان ، ولم يرب على التقاليد الرومانية منذ كان ،

---

(٤٥) لم يكن رومانوس لكابنوس ينتمى للأسرة الجالسة على العرش، وهى الأسرة المقدونية التى أسسها باسل الأول المقدونى عام ٨٦٧ • وقد توارث أبناء الأسرة الحكم على النحو التالى : باسل الأول ، ليو السادس وقسطنطين السابع ، رومانوس الثانى ، باسل الثانى ، قسطنطين الثامن، زور وثيودورا • وفى خلال سن القصـــور الذى عاشه كل من قســـطنطين السابع وورومانس الثانى وباسل الثانى ، قفز الى العرش كأباطرة شركاء أوصياء على الامبراطور الشرعى ، عدد من القادة العسكريين الذين ينتمون الى العائلات الأرستقراطية الزراعية والعسكرية فى الوقت نفسه ، خاصة فى منطقة آسيا الصغرى • وكان من بين هؤلاء القـــائد البحرى رومانوس لكابنوس ، ثم نقفور فوقاس Nicephorus Phocas ويوحنا تزيمسكس Ioannls Tzimisces وعرف هؤلاء بالأباطـــرة الشركاء ، وهو النظام الســـياسى الذى عرفته بيزنطة كما أســـلفنا • وقد تحقق لبيزنطة على يد هؤلاء الشركاء الكثير من الانتصارات العسكرية الحاسمة فى الخارج •

ولا ينحدر من أصول نبيلة ، ومن ثم فانه نتيجة هـــذا كله كان فى كثير من تصرفاته يتسم بالحماقة والاستبداد • وفى هذا الأمر بصفة خاصة لم يبال بما تحرمه الكنيسة ، ولم يتبع أمر ووصية قسطنطين العظيم ، لكنه بما جبـــل عليه من مزاج عنيف وطبع حاد ، وبعد عن الفضـــائل ، ورفض لاتباع ما هو حق وصواب ، وعدم التزام بالتعاليم التى خلفها لنا الآباء ، تجاسر على أن يقدم على فعلته هذى ••• ومن ثم فان تلك التى أصـــبحت زوجة (يعنى ماريا لكابنـــا) لم تكن ابنة الحـــــاكم والامبراطور الشرعى ، بل ابنة من يأتى ترتيبه الثالث (يعنى طبعا بعد الامبراطور والامبراطور الشريك) ، وما زال فى مرتبـــة أدنى ، ولم يشارك بعد فى السلطة ، ولم يمارس أى عمل من أعمال الحكم » [46]! • ثم يتحـــــدث قسطنطين بعد ذلك عما أصـــاب الامبراطور رومانوس لكابنوس فى أخـــريات أيامه من المصـــائب ، حيث أمسى مكروها من السناتو والكنيسة ، وانتهى الأمر بمقتله » [47] •

على أن دفاع قسطنطين على هذا النحو ، عن التقاليد الرومانية ، لا يخلو ، بل يمتلىء ، بالتحامل على رومانوس لكابنوس ، ذلك أن زواج ماريا لكابنا من بطرس البلغارى ، أنقذ السلام فى البلقان خمســـــة وعشرين عاما ، وكان هـــذا فى حد ذاته عملا ســـياسيا بارعا ، بل ان قسطنطين نفسه لم يجد أمامه مفرا ، الا أن يلتمس العذر ، وان على استحياء ، لرومانوس فيما أقدم عليه ، لمـــا تم نتيجة هذه الزيجة من افتداء عدد من الأسرى ، بالاضافة الى أن البلغار كانوا قد تحولوا الى المسيحية • الا أنه يضع القاعدة الأساسية فى هذا الزواج السياسى باعتباره أحد عمد الدبلوماسية البيزنطية ، حين يؤكد بلا أى لبس أو غموض ، أنه حتى الاتفاق فى االعقيدة « لا يبيح زواجهم من أية أميرة

---

(46) D.A.I., XIII.

(47) Id.

من الأسرة الحاكمة ، سواء كانت صلة قرابتها من الدرجة الأولى ، أو حتى أبعد من ذلك ، ومهما أدى هذا الزواج من خدمات للحكومة !!(٤٨) •• ومن الغريب أن يؤكد الامبراطور ذلك بالحاح ، بينما يبارك زواج أخته « أنا » Anna من لويس الثالث ملك ايطاليا ، وزواج ابنه رومانوس من ابنة الملك هيج • ولا شك أن هذه الزيجات الثلاث ، رغم ما يقوله قسطنطين ، كانت عملا من أعمال الدبلوماسية البارعة والحتمية آنذاك (٤٩) •

ولن تمضى على ذلك سنوات قلائل ، حتى يقوم حفيده الامبراطور باسل الثانى ، بنقض هذه القاعدة والخروج عليها ، عندما يتعرض فى سنة ٩٨٨ للفتنة الداخلية التى أشعلها ضده بارداس فوقاس Bardas Phocas فى الوقت الذى كان البلغار يهددون حدود الامبراطورية ، والخليفة الفاطمى العزيز بالله يعد أسطوله لمهاجمة السواحل البيزنطية ، فلم يجد باسل الثانى أمامه الا الاستعانة بالأمير الروسى فلاديمير Vladimir الذى سير اليه قوة عسكرية قوامها ستة آلاف جندى ، ساعدته فى الخروج من هذا المأزق ، وكان ذلك مقابل الزواج من الأميرة « أنا » Anna أخت الامبراطور • ورغم أن باسل حاول أن ينكص على عقبيه ، التزاما بالتقليد البيزنطى ، بعد أن تم له القضاء على ثورة بارداس ، الا أن فلاديمير اضطره الى الوفاء بما عاهد عليه الأمير • وتم تعميد هذا العاهل الروسى وزواجه من الأميرة البيزنطية •

وفى القرن الثانى عشر ، أصهر الامبراطور يوحنا كومننوس الى البيت المالك الهنغارى ، بينما كانت أزواج ابنه مانويل كلهن من الغرب ، وأولاهن « برتا » Bertha من سولزباخ Sulzbach أخت زوجة كونراد الثالث الملك الألمانى • بل ان الامبراطور مانويل كومننوس هذا ، أقدم على وضع خطة دبلوماسية بارعة ، يستهدف بها ضم المجر الى

---

(48) Id.
(49) Jenkins, Byzantium, p. 262.

الامبراطورية ، وذلك بسعيه لزواج ابنته من الأمير « بيلا » Bela وريث العرش الهنغارى • ولم يحل دون اتمام هذه الزيجة ، الا مولد ابنه ألكسيوس (الثانى) •

ومن الملاحظ أن عدد الزيجات السياسية قد ارتفع فى أعقاب الحملة الصليبية الأولى ، بين البيت الامبراطورى ، والعائلات الملكية الصقلبية أو الغربية ، على خلاف ما كان سائدا فى القرون الأولى ، حيث كان التقليد البيزنطى مرعيا الى حد كبير من جانب الأباطرة • ويعود هذا بالطبع الى قدوم عدد من ملوك أوروبا وأمرائها الى الشرق مرورا بالقسطنطينية ، على رأس حملاتهم الصليبية ، وازدياد علاقتهم بالامبراطورية سلبا أو ايجابا ، فى الوقت الذى راحت فيه بيزنطية تحث الخطى نحو الانهيار ، ويزداد اعتمادها على الجند المرتزقة من الغرب الأوروبى خاصة الانجليز والاسكندنافيين بالاضافة الى الصقالبة ، ليشكل هؤلاء من بعد ، القوة الرئيسية للحرس الامبراطورى ، حتى عرفو باسم « الورنك » Varangians وأطلق ذلك أيضا على الطريق الذى كانوا يسلكونه الى القسطنطينية ، فذاع باسم « طريق الورنك » Varangian route • وعلى ذلك نرى أنه على الرغم من أن المبادىء الأساسية للدبلوماسية البيزنطية بقيت دون تغيير •• الا أنها كانت غالبا ما تتسم بالمرونة عند تطبيقها ، لتتمشى مع الظروف المتغيرة • وليس أدل على ذلك من أنه خلال القرن الرابع عشر• أقدم الامبراطور يوحنا السادس كانتاكوزينوس Ioannes VI Cantacuzenus فىظل الظروف السياسية المتدهورة فىالداخل،والصراع الدائر حول لعرش ، الى أن يعطى يد ابنته الى الأمير العثمانى المسلم أورخان Orchan ليحصل على عونه فى الحرب الأهلية الدائرة مع أسرة باليولوجوس Palaeologus

واذا كان الزواج السياسى بما أداه من خدمات للامبراطورية ، كدعامة من دعائم دبلوماسيتها ، يعطينا صورة جلية عن أطر الفكر

الرومانى الرومانى حيال هذه الشعوب ، فان جانبا آخر من جوانبه الدبلوماسية يدعم هذا الاتجاه ، ذلك أن الوفود الرسمية التى كانت تقدم على العاصمة الامبراطورية ، يأخذ بألبابها ثراء المدينة وبهاؤها ، وما كانت عليه من الترف فى الدور والقصور والكنائس والأبنية العامة، اذا يعمد الوفد البيزنطى المرافق لهؤلاء القادمين ، الى المرور بهم عبر أجمل شورع المدينة ، فاذا ما زاغت منهم الأبصار ، وبلغ بهم العجب مبلغه عند نهاية التطواف ، وجدوا أنفسهم وقد تمت استضافتهم فى قصر فخيم من القصور الامبراطورية • وقبل أن يفقوا يخلع عليهم الامبراطور الخلع الثمينة والهدايا [٥٠] وهذا هو أجاثياس Agathias يصف لنا قسطنطينية جوستنيان فى القرن السادس الميلادى بقوله ، انها كانت تزخر بالعديد من زعماء الشعوب المجاورة للامبراطورية ، تصحبهم نساؤهم وبنوهم وخاصتهم وخادموهم ، فتتمثل المدينة لأعين الرائين معرضا يضم أزياء الدنيا ، وألسنة الأمم جميعا !! يلقون الترحيب على أكمل وجه ، وهم يسيرون وسط العاصمة وقد امتطوا صهوات جيادهم ، يحف بهم الفرسان من حملة الأعلام ونافخى الأبواق فى منظر يأخذ بالألباب » [٥١] •

ولا شك أن هذه المظاهر البواقة ، كانت تترك بصماتها واضحة على هؤلاء الذين سرعان ما ينقلبون سفراء لبيزنطة لدى دولهم ، وليس أدل على ذلك مما نتناقله الروايات عن الأمير الروسى فلاديمير ، الذى قيل انه أرسل مبعوثيه الى الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، والأرثوذكسية فى القسطنطينية ، والمسلمين ، واليهود الخزر ، للوقوف على أى العقائد ينتهجون !! فلما عادوا وراحوا يقدمون تقاريرهم ، قال الذين جاءوا الى القسطنطينية ، « قادنا اليونان (البيزنطيون) الى الدور يعبدون فيها الله ، فلم ندر أفى السماء كنا أم على الأرض ؟ ! فاذا

(50) D.A.I., LIII.

(51) AGATH. historia, 172.

كانت الأخيرة ، فليس هناك ماهو أفخم ولا أعظم من ذلك ، ونحن أزاءه عاجزون عن الوصف •• كل ما يمكننا قوله أيها الملك •• ان الله يقيم وسط هؤلاء الناس [٥٢] ولا يقل ما جاء فى تقرير ليوتبراند Liutprand أسقف كريمونا Cremona الذى قدم مبعوثا من قبل الملك اللومباردى برنجار سنة ٩٤٩ ، فى رحلته الأولى الى القسطنطينية ، شيئا عن تلك الأسطورة !

ويفيض الكتاب الذى وضعه قسطنطين السابع « عن المراسم » De Cermoniis والكثير من فصول كتابه « عن الادارة الامبراطورية » بالصور الحية التى تصف استقبال القسطنطينية للعديد من وفود الدول الأجنبية والشعوب المجاورة التى كانت ترد اليها [٥٣] ، ومنها ندرك أن مظاهر الترحيب والاحتفال كانت تزداد مع القادمين من مناطق جديدة ترغب ادارة الخارجية البيزنطية فى كسب ولائهم ، من ذلك مثا ماحدث للأميرة الروسية أولجا Olga التى زارت القسطنطينية عام ٩٥٧ ، مصطحبة معها حاشية ضخمة وقسيسها جريجورى الذى كان يعلمها المسيحية فى « كييف » Kiev ، فقد دعيت لتتخذ مجلسها الى جوار الامبراطور ، وخلع عليها الكثير من الهدايا القيمة عند اجراء طقوس عمادها •

ومن الجدير بالذكر أن تعليمات ادارة الخارجية البيزنطية ، كانت صريحة بضرورة عدم السماح لأى سفير من هؤلاء ، أو قادم رسمى بالتجول فى المدينة وحده دون حرس أو وفد مرافق ، أو الاطلاع على شىء مما ترغب الحكومة فى اخفائه عن الأعين • ومن ثم كان لابد أن يحف بهم الحرس منذ قدومهم وحتى ارتحالهم عن القسطنطينية [٥٤] ،

---

(52) Dvornik, op. cit., p. 176.

(53) De Cermoniis, I, 89-90; II, 15, Cited in Dvornik, op. cit., p. 175.

(54) Dvornik. Loc. cit.,

مع الحرص على أن يبـــدو ذلك فى ظاهره نوعا من التكريم ، وان كان فى جوهره نوعا من الرقابة الصارمة على تصرفات هؤلاء الســفراء ، يزيدها حدة ما كان يجرى من وضع عــدد من الخدم تحت تصرفهم ، تنحصر مهمتهم الرئيسية الخفية فى الحصول على أى نوع من المعلومات عن الوفد المرافق للسفير • وقد عبر عن ذلك أحسن تعبير ، ليو تبراند، سالف الذكـــر ، وذلك فى تقـــريره الذى كتبه عن زيارته الثـــانية للقسطنطينية ، مبعوثا هذه المرة للملك الألمانى امبراطور الرومان ، أوتو الأول • وكانت شكواه بصفة خاصة أيضا مما لقيه عند مغادرته العاصمة الامبراطورية ، من تفتيش دقيــق لكل ما يحمـــل من جانب موظفى الجمارك [٥٥] •

وقد درجت بيزنطة الى جانب اســتقبال هؤلاء الســفراء ، الى استضافة أبناء الأمراء والحكام المجاورين ، وذلك فى البلاط البيزنطى، واحاطتهم بهالة من مظاهر العظمـــة والفخامة ، والترحيب بضـــحايا الحروب الأهلية فى الدول الخارجية كلاجئين سياسيين يمكن الاعتماد عليهم عند الضرورة لمصلحة السياسة البيزنطية • بل ان بيزنطة كانت تلح فى بعض الأحيـــان على عدد من الزعمـــاء لزيارتها ، من ذلك مثلا ما جرى مع أمير طارون Taron [٥٦] •

وتنوعت وسائل الاغراء والترغيب لهؤلاء السفراء الأجانب ، حتى ينقـــلبوا — كما ذكرنا — ممثلين لبيزنطة لدى دولهم ، وكان الفـــارق الحضارى الكبير بين الامبراطورية وهذه الشعوب المجاورة ، باستثناء الفرس ووالمسلمين كما قدمنا ، عاملا هاما وسلاحا فعالا فى نجاح هذا الأسلوب التأثيرى • فاستخدمت وسائل الترفيه والتســلية مع بعض

---

(٥٥) راجع نص التقـــرير فى مجموعة الوثائق الخاصـــة بالعصور الوسطى التى ضمها كتاب
Cantor, The Medieva World, New York 1968.

(56) D.A.I. XLIII.

الوفود [٥٧] ، وجرى الانعام على الموالين منهم بألقاب التشريف التى كان من أبرزها Magister, Patricius, , Hypatus • الى الحد الذى دفع هؤلاء الزعماء الى التنافس فيما بينهم للحصول على المزيد من الهبات أو الأموال أو الألقاب من الامبراطور[٥٨] ويضرب قسطنطين السابع المثل على ذلك بأهالى خرسون Cherson ، حين أنعم عليهم بألف رتبة عسكرية من درجة « رماة السهام » ، مع التأكيد بدوام ارسال المنح اليهم بانتظام [٥٩] • وكيف لا يتنافس القوم ، وهذه الألقاب كانت تجعل منهم أنصاف رومان « بسلوك متحضر ووقار لاتينى » [٦٠] ، ولا فرق فى ذلك بين الأمير البربرى فى أى منطقة ودوج البندقية الذى كان شغوفا لحمل لقب « بطريق » • كما كان الكثير من الأمراء حريصين على أن يتسلموا من يد الامبراطور شخصيا أشعرة السلطة الملكية مثل التاج الذهبى والرداء الحريرى المطرز بالذهب ، والذى يظهر الأمير من وجهة نظره شبيها بـ « البازيليوس » Basileus أى الامبراطور البيزنطى [٦١] •

وكانت العباءة الأرجوانية الامبراطورية بصفة خاصة ، تمثل لدى هؤلاء الأمراء شيئا رفيعا ، ومن ثم فلا غرو أن نجدهم يتهافتون

(57) Ibid, LIII.

(58) Ibid, XLIII - XLIV, XLVI-L, LI.

(59) Ibid. LIII.

(60) Diehl, Byzantium, p. 56.

(٦١) يتحدث قسطنطين السابع عن البشناق ، ويصفهم بأنهم طماعون جشعون ، لا يؤدون خدمة لأى فرد دون مقابل ، ولا يخجلون من كثرة طلبهم للهدايا والأشياء التى يندر وجودها عندهم لأنفسهم وزوجاتهم . كما يطلبها الشخص ارافق للمندوب الامبراطورى ، لنفسه ، لقاء جهده فى مرافقته واستخدام دوابه . ويقول انه عندما يصل المندوب الامبراطورى الى بلادهم يكون أول سؤال يوجهونه اليه ، يدور حول هدايا الامبراطور لهم ، ثم يعودون فيسألونه عن هدايا زوجاتهم ووالديهم » .

انظر D.A.I. VI, VII

للحصول على مثلها • لكن هذا كان يعد فى نظر الرومان امتهانا للتقاليد الامبراطورية [٦٢] ، اذ أن هذه العباءة من حق الامبراطور وحده ، واذا كانت الدبلوماسية قد وجدت فى هذه المظاهر ما يحقق لصانعيها السيادة على هذه الشعوب ، الا أن ذلك يجب أن يظل فى اطار معين لا يتعداه • كان من الجائز اهداء أردية قريبة الشبه ، لكنها ليست مثل الأردية الامبراطورية تماما ، وهذه الحقيقة لم يغفلها قسطنطين وهو يعظ ابنه بقوله • « اذا ما أقدم الخزر أو الأتراك أو الروس أو غيرهم من الشماليين والاسكيزيين Scythians على طلب ما اعتادوا عليه دوما ، أعنى بعض الأردية الامبراطورية أو التيجان أو الثياب الرسمية ، لقاء بعض خدمات يؤدونها ، فليكن قولك ان هذه الثياب أو التيجان ، لم تصنعها يد انسان ، ولا زينتها فنون بشر ، بل تنبئنا قصص التاريخ أن الله عندما اختار قسطنطين العظيم امبراطورا ، فكان أول امبراطور مسيحى [٦٣] ، أنعم عليه بهذه الثياب عن طريق ملاكه ،

---

(٦٢) كانت الأشعرة والأردية الامبراطورية ، شيئا خاصا بالامبراطور نفسه دون غيره من الناس مهما علت مكانتهم أو سمت أصولهم ، ولا يسمح لأى انسان آخر بارتدائها ، لما فى ذلك من اعتداء على الحقوق الامبرطورية .. ولعل أوضح الأمثلة على ذلك ، ما حدث لبطريرك القسطنطينية فى القرن الحادى عشر ، ميخائيل كركولاريوس Michael Cerularius عندما أقدم على انتعال « الصندل » الامبراطورى ، منتهزا فرصة ضعف السلطة الامبراطوورية واضطراب الأمور على عهد اسحق كومننوس . وكان هذا يعنى مظهرا من المنافسة التدميجية للامبراطور فى سلطانه ، لابد تتلوها خطوات أخرى كما كان يؤمل البطريرك ، مما دفع الامبراطور الى الأمر بالقبض عليه وتقديمه للمحاكمة ، ولم ينقذه من ذلك سوى موت الامبراطور .. أنظر PSELL. Chron VI

(٦٣) اختلف المؤرخون ولا يزالون ، حول مسحية قسطنطين ، منهم من رفعه مكانا عاليا فجعله أحد حواريى المسيح ، وأولئك هم مؤرخو الكنيسة . وآخرون يجعلونه أول امبراطور مسيحى ، جعل المسيحية الدين الرسمى للامبراطورية . وبعض يجعله وثنيا مدافعا عن عقيدة الرومان الأسلاف . وفريق رابع يجعله امبراطورا بلا دين . عن كل هذه الآراء ، ورأينا فى هذه القضية التاريخية الشائكة ، راجع كتابنا : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى : قسطنطين ، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٢

وكذا التيجان ، وعهد اليه أن يضـــعها فى الكنيسة المقدســـة العظمى ، أيا صوفيا ••• وعلى المنضدة المقدسة حفرت هذه العبـــارات ••• اذا ما سولت لأى امبراطور نفسه أن يعطى شيئا من هـــذه الثياب لغيره ، حلت به اللعنـــة كخصم الله وعدو ، واستوجب صـــدور قرار الحرم الكنسى » [٦٤] •

ويبين من حديث قسطنطين السابع مدى الاحساس بـ «التفوق» الرومانى ، الذى يصل الى درجة « الشـــعب المختار » ، وهى الفكرة التى يعود بها أو بلنسكى [٦٥] عند الرومان الى جذور يهودية مسيحية ، متناغمة مع « العـــالمية » الرومانية ، والثقافة الأصلية المســـتمدة من الهللينية ، وهذا كله كان بالطبع كفيلا أن يجعـــل من الرومان فى نظـــر أنفسهم ، بل وفى نظر بعض معاصريهم أيضا ، « سادة » العالم فى زمانهم بلا منازع ، بحيث لا يمكن لأى شعب من الشعوب الأخرى أن يطاولهم سمت الحضارة وعلو الهامة •

ويتصل بالهدايا والخلع والثياب والألقاب ، جانب آخر من أكثر العوامل تأثيرا واستخداما من لدن صانعى السياسة البيزنطية الخارجية ذلكم هو المـــال •• فقد كان الاعتقاد الراسخ لدى الرومان ، أن لـــكل اسان ثمنه ، سواء كان أميرا بربريا لقبائل الهون Hunni الآسيوية ، أو كان جودفرى البويونى Godfrey du Bouillon دوق اللورين أو بوهيمنـــد Bohemund النورمانى ، وكلاهما من زعماء الحمـــلة الصليبية الأولى المبرزين ! فالمال — على حد تعبير شارل ديل — [٦٦] هو أسرع السبل وأقصرها طريقـــا للتأثير على هذه الشعوب المجـــاورة لبيزنطة ، ومن ثم كان ينظر الى المـــال من وجهة نظر الدبلوماســـيين

---

(64) D.A.I. XIII.

(65) Obolensky, Byzantine diplomacy, p. 56.

(66) Diehl, Byzantium, p. 55.

البيزنطيين ، على أنه سلاح لا يمكن مقاومته ، وأثبتت الأحداث فعلا صدق نظرتهم • ولقد دفعت الحكومة البيزنطية مبالغ طاطئلة من الأموال منذ عهد جوستنيان فى القرن السادس ، وحتى باسل الثانى فى القرن الحادى عشر ، بل وبعد ذلك بقرنين آخرين أيضا لضمان ولاء هذه الشعوب المجاورة ، أو لتنفيذ مآربها السياسية الخارجية ضد دول أخرى ، أو على الأقل — وهو كثير — لضمان سكوتها وحيدتها أبان حروبها مع أعدائها • ويكفى أن نقرأ ما كتبه مؤرخ القرن السادس الأشهر ، بروكوبيوس Procopius القيسارى فى كتابه «التاريخ السرى» Historia Arcana لندرك حجم المبالغ التى أنفقها الامبراطور جوستنيان لاستمالة أمراء الهون والبربر والحبشة واللومبارد والجبيد والهيروليين والآفار الايبريين • بل ان ما قدمه لخزانة الملك الفارسى يكاد يعدل ما قدم لهؤلاء جميعا !! ومن ثم لم يسلم من النقد اللاذع الذى وجهه اليه بروكوبيوس فى كتابه • وجرى نفس الحال مع المؤرخ نيقتاس الخونياتى عندما صب جام غضبه ولومه على الامبراطور مانويل كومننوس ، للأموال التى بددها دون طائل على اللاتين فى ايطاليا والنورمان فى صقلية ، الى الحد الذى يحمله فيه نيقتاس مسئولية الكارثة التى حلت بالامبراطورية بعد وفاته بسنوات قلائل ، عندما تعرضت للسقوط فى أيدى اللاتين عام ١٢٠٤ بفعل جنود الحملة الصليبية الرابعة ، وفعال البابوية والبندقية والامبراطورية فى الغرب جميعا (٦٧) •

وقد استخدمت هذه الأموال فى كثير من الأحيان ، لايقاع الفرقة والانقسام بين القبائل المجاورة ، وأفلحت الدبلوماسية البيزنطية فى هذا الميدان وحققت نجاحا كبيرا باعتمادها على الأموال ، لتطبيق المبدأ الشهير الذى كان يؤمن به الرومان •• « فرق تسد » • وكان هذا آمرا

---

(٦٧) للوقوف على تفصيلات هذه الأحداث ، يمكن الرجوع الى المصدر المعاصر الذى تناولها وكتبه شاهد عيان وهو : روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ، ترجمة دكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٤ .

لا مندوحة عنه كى تستطيع الامبراطورية مواجهة التهديدات التى تحيق بها من جانب الجماعات القبلية العديدة التى هطلت عليهـــا منذ القرن الرابع وحتى العاشر الميلادى •

ويعطينا قسطنطين السابع تصويرا واقعيا للدبلوماسية البيزنطية فيمــا يتعلق بمــا يجب على ابنه أن فعــله ازاء القبـــائل المجاورة للامبراطورية فى زمانه ، وهو يعد من أهم ما جاء فى كتـــابه « عن الادارة الامبراطورية » •• فبيزنطة تخشى البشناق Pechenegs الذين كانوا يقطنون المنطقة الممتدة من مصب نهر الدنيبر Danupe متجهــة غربا الى فم الدانوب Dnieper ، ويمثلون فى الوقت نفســه مفتاح العلاقات السياسيه لبيزنطه مع بلاد الخزر Chazaria والروس والبلغار والهنغاريين • والامبراطوريه مع خشيتها من البشناق ، تخاف الروس والأتراك ، لكن خشيتها من البشناق تفوق خوفها من الأخيرين ، لذا فان بقـــاء الامبراطورية على ســـلام معهم ، يضمن عدم تعرض الأراضى الرومانية لهجمات الروس والأتراك ، وعدم مطالبتهم بفدية ضخمة من الرومان لقاء الســـلام • واذا ازدادت العلاقات وثوقا بين البشـــناق وبيزنطة عن طريق استمالتهم بالهدايا ، وأمكن بسهولة للبيزنطيين القفز على أراضى الروس والأتراك ، واستعبد نسائهم وأطفالهم وتدمـــير أراضيهم ــ والحديث هنا لقسطنطين السابع ــ لذا كان ضروريا ارسال مندوبى الامبراطور [illegible] الى البشـــناق محملين بالهـــدايا والأموال لتجديد الاتفاق معهم وضمان الموالاة [68] •

كان البشناق فى نظر قسطنطين السابع ، قادرين على خوض غمار الحرب ضد الروس [illegible] والترك ، لذا وجب استرضاؤهم كـــل عام [69] • وحتى [illegible] البيزنطية على هذا النحو تحت رحمة

---

(68) D.A.I. II-VI.

Ibid. VIII, XXXVII.

البشناق ، فانه يصبح من الضرورى استمالة « الغز » Uzes الى جانب الامبراطوية ، لأنه بمقدور هؤلاء مهاجمة البشناق (٧٠) والخزر (٧١) على حد سواء • والدبلوماسية تؤدى دورها بنجاح كبير فى هذا السبيل ، فتشجع الصرب Serbg ضد البلغار (٧٢) ، وتؤلب الخرسونيين على السارماثيين (٧٣) Sarmatians وتبحث عن حليف جديد تثيره ضد البشناق ، فتجده ى المجيار ، فترسل اليهم سفارتين خلال عامى ٨٩٤ ، ٩٢٧ تهدف من ورائهما الى حث هؤلاء على مهاجمة البشناق (٧٤) •

ولم يكن قسطنطين السابع فيما أورده مبتدعا ، ولا واضعا لقواعد الدبلوماسية البيزنطية ، كما ذكرنا من قبل ، لكنه كان يرصد ويسجل تجارب السابقين من الأباطرة الأسلاف ، الذين وضعوا هذه القواعد موضع التنفيذ ، وبلغوا فى تطبيقها مبلغا من النجاح كان كبيرا ، فهاهو الامبراطور زينون Zeno فى أخريات القرن الخامس الميلادى ، لايرى أمامه سبيلا كى ينقذ القسطنطينية من ضربات قبيلة القوط الشرقيين Ostrogoths الموجعة ، الا أن يوجه زعيمهم ثيودوريك Theodoric صوب ايطاليا ، التى كانت قاعدة الامبراطورية الرومانية قديما ، والتى ضاعت منذ سنوات قلائل (٤٧٦) على يد القائد الجرمانى أودواكر

(70) Ibid. IX.

(71) Ibid. X.

(72) Ibid. XXXII.

(73) Ibid. LIII.

(٧٤) Ibid: XXXVIII-XL. ويمكن مراجعة أحداث هذه الفترة الهامة فى تاريخ الدبلوماسية البيزنطية من خلال علاقات بيزنطية مع الشعوب المجاورة ، فى

Obolensky, The Byzantine Commonwelth, London, 1971 ;

Ostrogirsky, History of the Byzantine State, Oxford, 1956;

asiliev, A history of the Byzantine Empire, vol. 2, Madison and Mil-Wauke, 1964.

Odovacer فضرب بذلك العناصر الجرمانية ببعضها لتخلص له القسطنطينية وأرباضها •

وقد طبق الامبراطور ستنيان ، أستاذ الدبلوماسية البيزنطية بلا منازع ، هذه السياسة ببراعة كبيرة فى المناطق الشمالية والشرقية ، فراح رجاله يؤلبون القبائل ضد بعضها ، ويؤججون نيران التنافس الذى يصل الى حد الكراهية فيما بينهم ، فيستبقون للحصول على عون بيزنطة ضد بعضهم بعضا ، وليس أيسر من ذلك لضمان خضوع شعوب هذه المناطق (٧٥) • هذا فى الوقت الذى حرص فيه على استرداد ولايات الغرب الرومانى التى استولى عليها الجرمان ، وأقاموا عليها ممالك لهم ، وشراء سكوت الفرس بجزية سنوية ضخمة يؤديها • وأفلحت أمواله وسائسه ومظاهر العظمة البادية فى عاصمته ، وجيوشه فى اخضاع المناطق الواقعة الى الشمال من حدود الامبراطورية ، لسلطانه ، واسترداد أفريقيا وايطاليا وأجزاء من اسبانيا •

وتمدنا المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الفترة ، بمعلومات وفيرة عن السياسة التى اتبعها جوستنيان تجاه القبائل النازلة الى الشمال الشرقى من الحدود الاميراطورية ، خاصة منطقة شبه جزيرة القرم والمناطق المحيطة بالبحر الأسود ونهر الدانوب ، فقد راح يؤلب بعض عشائر القوط ، الذين كانووا قد تحولوا الى المسيحية ، ضد الهون الوثنيين ، حيث استقبل منهم وافدا قدم الى القسطنطينية سرا ، وعهد اليهم القيام بتدبير الفتن والمؤامرات واقامة الاضطرابات فى صفوف الهون (٧٦) بل استخدم بطون الهون ضد بعضهم ، فأوعز الى جماعة أوتيجور Utigur بمهاجمة جماعات الكوتريجور Kotrigurs بحجة الحصول على كنوز الذهب التى استولى عليها الأخيرون من أراضى

(75) AGATH. historia, pp. 332-333.

PROCOP. de bell Gothic, VII, 273.

الامبراطورية ، وابتلعت الجمـــاعة الأولى طعم الخــديعة ، ونجحت الدبلوماسية هنا فى الخلاص منهما معـا بأيديهما (٧٧) • وعلى جبهـة الدانوب استقطبت الامبراطورية قبـائل الأنطاى Antae وأغدوت عليهم الأموال لتوجههم ضد البلغار (٧٨) ولم يجد جوستنيان ما يمنعـه من أن يستخدم قبائل الآفار Avares من بعد ضد الأنطاى أنفسهم ، عندما دعت الضرورة الى ذلك !! (٧٩) •

وقـد انتهج الامبراطور موريس Mauricius فى أواخـر القرن السادس ، السياسة نفسـها فى تحريض ملك الفرنجة « شـيلدبرت Childebert ضد اللومبارديين Lombards لقاء مبلغ ضخم من المـال • ودارت المراسـلات فى القرن التاسـع بين الامبراطور ثيوفيلوس Theophilus المعمورى ، وبابك الخزمى ، الذى أشعل نيران التمرد ضـد العباسيين على عهد الخليفة المعتصم بالله ، وتم الاتفـاق على اعلان الفتنة فى الداخل بينما تتقـدم جيوش البيزنطيين باتجـاه الحدود الاسلامية ، ليقع المعتصم بين شقى الرحى • لكن المعتصم فطن الى هذه الخطة وفوت على الامبراطورية الفرصة ، حين بادر أولا بالقضاء على فتنة بابك الخرمى ، قبل أن تتصـل قواته بقوات ثيوفيلوس • مما دفع الأخير الى تخريب بعض المدن الاسلامية فى آسيا الصغرى ، ومن بينها « زبطرة » التى يقـال انها كانت مسقط رأس المعتصم • وقـد قام الخليفة العباسى بملاحقة جيوش ثيوفيلوس ودمر مدينـة « عمورية » التى ينتسب اليها الامبراطور ، ليمتدحه شاعر العربية أبو تمام ببائيته الشهيرة •

---

(77) AGATH. historia, pp. 330-335.
وأيضا MENEA, excer. Legat. Rom. p. 345.

(78) PROCOP. de bello Gothico, VII, p. 273.

(79) MENAN. excer. Legal. Rom. p. 344.
وأيضا MALAL. Chron. p. 489.
وكذلك EVANG. historia ecclesiastica, p. 425.

وما فعلته الأسرة المقدونية بعد ذلك خلال القرن العاشر ، من استغلال الصراعات القائمة بين المسلمين ، خاصة خلافتى بغداد العباسية والقاهرة الفاطمية ، لضرب القوى الاسلامية التى كانت تهدد الحدود المصالح البيزنطية فى بلاد الشام ، شىء لا يمكن تجاهله • ولعل أبرزها ما كان حادثا بالفعل بين الحمدانيين والبيزنطيين ، بينما يقف العباسيون والفاطميون موقف المتفرج ، بل ويظهرون الرضى لتحطيم قووة الحمدانيين على يد البيزنطيين ، الذين أفلحوا ءآ طريق استغلال هذا الموقف فى الوصول بجيوشهم الى تخوم بيت المقدس •

وقد تعرضت الامبراطورية فى آخر سنى القرن الحادى عشر ، لكارثة خطيرة كادت تودى بها ، ممثلة فى الحملات الصليبية ، التى وضعت فى اعتبارها منذ البداية الاستيلاء على القسطنطينية • ولولا الدبلوماسية البارعة التى مارسها آل كومنين الثلاثة ؛ ألكسيوس الأول Alexius I وابنه يوحنا وحفيده مانويل ، لتعرضت الامبراطورية للضياع منذ السنوات الأولى للحرب الصليبية ؛ كما حدث لها بالفعل من بعد سنة ١٢٠٤ • ويكفى أن نقرأ فقط ما كتبته الأميرة « أنا كومننا » Anna Comnena ابنة ألكسيوس فى كتابها الـ « ألكسياد » Alexiad عن وسائل الدبلوماسية التى استخدمها أبوها مع زعماء الحملة الصليبية الأولى ، باغداق الأموال والهدايا ، والخلع والألقاب ، ومنح الاقطاعات •• والتقريب ، وتحريض بعضهم ضد بعض • وكان أبرز مثالين واضحين لذلك ، موقفه حيال كل من بوهيمند النورمانى ، وريموند أمير تولوز • وليس ببعيد عن ذلك ما فعله حفيده مانويل مع كل من لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا ؛ اللذين قادا الحملة الصليبية الثاكة •

والى قلب أوروبا الغربية وصلت أصابع الدبلوماسية البيزنطية فى القرن الثانى عشر ، عندما ازدادت حدة التوتر بين الامبراطور البيزنطى مانويل كومننوس ، والملك الألمانى فردريك بربروسا ،

امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب ، بعد أن نظر الأخير الى نفسه باعتباره الامبراطور الشرعى للرومان ، ضاربا عرض الحائط بالشرعية والحقوق التاريخية لأباطرة الرومان فى الشرق • ومن ثم دارت المراسلات بين كل من مانويل كومننوس والأمير هنرى الأسد دوق سكسونيا ، والذى كان يعد أحد الأفصال الاقطاعيين لفردريك برباروسا ، ويحمل فى الوقت ذاته العداء التقليدى القائم بين عائلته « الولفيين » وعائلة « الهوهنشتاوفن » التى ينتمى اليها فردريك • ولذا فقد استقبل فى بلاطه فى سكسونيا ، سفراء من لدن الامبراطور البيزنطى ، من وراء ظهر الملك الألمانى ، ورفض موافقة سيده فى حملته الخامسة الى ايطاليا ، مما أدى الى هزيمة فردريك عند لبنان Legnano سنة ١١٧٦ على يد مدن العصبة اللومباردية [٨٠] • بل ان مانويل استخدم أمواله وسلاحه أيضا لاثارة النورمان فى صقلية ضد النفوذ الألمانى •

وحتى القرن الثالث عشر ، والامبراطورية البيزنطية العائدة على يد ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaeologus ظلت سياسة « فرق تسد » ، تتصدر قائمة عمد الدبلوماسية ، فى وقت عانت فيه الخزانة النقص الكامل فى الموارد المالية ، فمنح الجنوية امتيازات ضخمة فى القسطنطينية ، ليضرب بهم المصالح التجارية والسياسية لجمهورية البندقية ، التى كانت سببا رئيسيا فى سقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤ ، ونجح بذلك فى استعادة الامبراطورية • ولما وجد نفسه من جراء هذا فى مواجهة حلف كونه شارل كونت أنجو ، الذى احتل

---

(٨٠) راجع هذه الأحداث وتفصيلاتها فى
Brooke, A history of Europe from 911 to 1198, pp. 51-501-503.

وراجع أيضا للباحث : الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخابات فى العصور الوسطى ، مجلة ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، المجلد الثانى ، ص ٢٤ — ١٢٧

صقلية بدعوة من البابوية للقضاء على بقايا أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية في الجزيرة ، ويضم هذا الحلف ، البابوية ، وبلدوين الثانى امبراطور القسطنطينية اللاتينى المخلوع ، وليم فيلهاردوان ، الذى كان قد هـزم مؤخرا على يد ميخائيل فى المورة ، والبلغار • أدرك ميخائيل أن السلاح التقليدى للخارجية البيزنطية ، وهو الدبلوماسية البارعة ، خير وسيلة للافلات من هذا الخطر ، فوجه القبيلة الذهبية المغولية ضد البلغـار ، وسلاحفة الروم والمجيار ضد الصرب ، وصلاف لويس التاسع نفسـه وهو الذى كان أخا لشارل كونت أنجو ، وأعان الصقليين ضـد ملكهم الفرنسى • فانفرط عقد الحلف •

ولكى تصبح هـذه الوسائل الدبلوماسية ناجعة ، كان لابد أن يدعمها صانعـوها باقامة حائط بشرى دفاعى على امتداد حـدود الامبراطورية ، بقى جسم الدولة الرئيسى نفسه مغبة هذه الهجمات التى لا تنقطع ، وتمثل ذلك فى حرص بيزنطة على وجود عـدد من « الدول الحاجزة » فى المناطق التى تتعرض بصفة دائمة للإخطار ، فالفساسنة على الحـدود الشرقية أدوا دورهم كاملا لزمن طـويل ، دفاعا عن الامبراطورية ، فى مواجهة الاعتداءات الفارسية المسـتترة وراء دولة اللخميين المناذرة • وجماعات الآلان Alan كانت تشكل قوة متقدمة لمراقبة ما يجرى فى المنطقة القوقازية ، وكان لهم فضل اطلاع بيزنطة على كثير من التحركات العسكرية الفارسية تجاه حدود الامبراطورية[81] •• والقوط الغربيون Visigoths أمل بهم الامبراطور فالنز Valens فى سـبعينيات القرن الرابع ، أن يشـكلوا درعا واقيـا يحمى منطقة البلقـان من غزو الهون الآسيويين • والبشـناق والصرب والبلغـار والأرمن ، قاموا جميعـا بنفس الدور فى فترات التـاريخ البيزنطى المختلفة • ولعل هذه الناحية تتضح أهميتها بصفة خاصة منذ القـرن الحادى عشر الميلادى ، عندما أهملت الأمبراطورية سياسة اقامة الدول

(81) Dvornik, op. cit., p. 170.

الحاجزة ، بل وساهمت بنوع من قصر النظر السياسى عند بعض أباطرتها ، لتحقيق نفوذ أكثر اتساعا ، فى هذا الخسران ، عندما اجتاحت جيوشها أرمينيا وضمتها للامبراطورية وحولت بلغاريا الى ولايتين بيزنطيتين ، فأصبحت الحدود البزنطية فى الشرق والشمال الغربى مكشوفة مباشرة لشعوب أخرى تقع خلف هاتين الدولتين ، وتتتأهب للقفز على بيزنطة •

وفى اطار هذه السياسة الذكية ، كانت الدعامة الرئيسية فى الأعمال الحربية للامبراطورية ، تتمثل فى حرص ادارة الخارجية فى القسطنطينية على تجنب الدخول فى حرب على جبهتين فى وقت واحد ، اذا كان ذلك يشكل خطرا مدلهما ، فمع تكاثر الأعداء الذين أحاطوا بالامبراطورية من كل جانب ، كان يبدو مستحيلا مواجهة هؤلاء جميعا دفعة واحدة ، أو العمل على جبهتين بنجاح تام فى كل منهما ، لذا كان نجاح الدبلوماسية هنا كبيرا • فاذا كان عليها أن تحرك قواها العسكرية فى ناحية معينة ، كان عليها بالتالى أن تسخر جهودها الدبلوماسية لتحقيق نصر سياسى فى الناحية الأخرى ، ربما لا يقل عن النصر العسكرى •

وكان الامبراطور جوستنيان مثالا يحتذى فى تطبيق هذه القاعدة ، فمع طموحاته الواسعة لاسترداد الولايات الرومانية فى الغرب ، المتطابقة مع الفكر السياسى الرومانى القائم على عالمية الامبراطورية ووحدتها وتوحدها ، والتى عبر عنها بوضوح فى احدى تشريعاته بقوله : « لدينا أمل كبير فى أن يأذن الله لنا باسترداد أراضى الامبراطورية الرومانية القديمة التى من جراء التراخى ضاعت »[٨٢] • الا أنه لم يكن بغافل عن الأطماع الفارسية فى الولايات الشرقية من الامبراطورية ، فالفرس كان يعنيهم فى المقام الأول ، الى جانب التوسع السياسى والنفع الاقتصادى ، الوصول الى مركز الثقل الحضارى فى

(82) IUS. novella XXX, 11.

العـــالم آنذاك ، أعنى البحر المتوســـط ، وهو ما كانت الامبراطورية البيزنطية تعتبره حقا خاصا بها ، ومن ثم فانه لأهمية هذا الصراع الذى يبدو فى ظاهره سياسيا واقتصـــاديا ، وفى جوهره حضـــاريا ، حرص جوستنيان على أن لا يدع الفرصة للفرس كى يحققوا مآربهم •

لهذا •• نرى جوستنيان يقدم فى السنوات الأولى من عهده على تحريك قواته العسكرية على جبهة الفرات ، دون أن يبغى من وراء ذلك اكتساب أراضى جديدة ، بل فقط دفع الفرس الى الدخول فى مفاوضات للتوصل الى اتفاق يؤمن ظهره أثناء اســـتدارته لحرب الجرمان • فكان على استعداد لدفع جزية سنوية ضخمة للفرس لقاء أن يدعـــوه وشأنه لتحقيق آماله فى الغرب الامبراطورى • ولم يكن ذلك يغيب عن بصيرة الفرس ، ولذا كثيرا ما نراهم يحركون مهماز جيوشهم على جبهة الفرات هم الآخرون ، ابتغاء مزيد من الأموال من الخزانة البيزنطيـــة • بل ان أطرف ما يمكن أن يروى فى هذا السبيل ، ما ذكره بروكوبيوس من أنه عقب انتصار جوستنيان على الوندال Vandals فى شمال أفريقيـــا ، واسترداد الولاية للســـيادة الرومانية ، طالب ملك فارس بجـــزء من الأموال والغنائم باعتباره شريكا فى هذا النصر الذى تحقق لوقوفه على الحياد أثناء المعارك • وقد انصاع جوستنيان لمطالب الملك الفارسى من أجل استكمال مشروعاته فى الغرب ، وان كان قد اعتبر هـــذه الأموال نوعا من الهدية !!

ولعل هذه النظرة المتبـــادلة بين الجانبين تفسر لنـــا تجدد عقد «معاهدات السلام» بينهما أكثر من مرة ، وذلك فى أعوام ٥٣٢ ، ٥٤٥ ، ٥٦٢ • وفى المعاهدة الأولى كان على بيزنطة أن تدفع لفارس ســـنوية أحد عشر ألف رطل من الذهب • وفى الأخيرة والتى أمل الجانبـــان أن تستمر خمسين عاما ، دفعت بيزنطة مقـــدما مبلغ ثلاثين ألف رطل من

الذهب باعتباره أقساط سبع سنوات كاملة [٨٣] • وكان جوستنيان قد شغل نفسه ودولته وجيشه وخزانته على امتداد خمس وعشرين سنة كاملة ، ابتداء من عام ٥٣٢ بالحرب فى محاولة لاسترداد النصف الغربى من الامبراطورية ، ولم يكن على استعداد أن يحارب الفرس والجرمان فى وقت واحد [٨٤] •

ووفى عام ٦٢٦ تعرضت الامبراطورية لخطر مدلهم مزدوج ، فالفرس اكتسحوا الولايات الشرقية للامبراطورية ، ووقفوا قبالة القسطنطينية على الشاطىء الآسيوى للبسفور ، بينما ألقى الآفار حصارهم عليها من الناحية الأخرى ، بينما الجيوش البيزنطية تعمل تحت قيادة الامبراطور هرقل Heraclius على الأراضى الفارسية نفسها •• والعاصمة من الجند خالية • على أن الذى يعنينا هنا ، أن هذا الحصار المزدوج كان اختبارا وتحديا حقيقيا للدبلوماسية البيزنطية لقهرها على التخلى عن قاعدتها الأساسية ، بعدم الحرب على جبهتين فى وقت واحد • وفى سبيل ذلك وصل الفرس صفوفهم بالآفار ، بعد الدرس العملى الذى لقنوه زمن جوستنيان • غير أن الدبلوماسية البيزنطية فوتت على الفرس هدفهم ، ونجحت فى عزل الآفار عنهم بوسائلها المعروفة ، واستخدمت الكروات لتحطيم شوكة الآفار [٨٥] •

---

(83) PROCOP. de bello, I, pp. 133-5.
MENAN. excer. Legat. Rom. pp. 359-363.

(٨٤) لدراسة نشاط جوستنيان العسكرية ، يفضل الرجوع ، بالاضافة الى ما كتبه بروكوبيوس ، الى المراجع الحديثة التالية .
Bury, history of the Later Roman Empire, Vol. 2. London 1931.
وأيضا Jones, Later Roman Empire, Vol. I, Oxford, 1964.
وله كذلك
The decline of the Ancient World, London 1975.
وراجع كذلك
Holmes, The Age of Justinian and Theodora, 2 vols. London 1912.

(85) Dvornik, op. cit., p. 182.

وتتجلى براعة الدبلوماسية فى الوقوف على الأهداف الحقيقية لأعدائها ، ولنضرب على ذلك مثالا واحدا . ففى القرن الحادى عشر ، وقعت الامبراطورية بين شقى الرحى ، الأتراك السلاجقة من الشرق ، وذلك بعد انتصارهم بزعامة السلطان ألب أرسلان على الامبراطورية فى موقعة مانزكرت عام ١٠٧١ ، ووقوع الامبراطور دومانوس الرابع ديوجينس Romanus IV Diogenes فى الأسر ، ومن الغرب كان النورمان . وأدركت ادراة الخارجية البيزنطية أن الخطر الحقيقى يتمثل فى هؤلاء الأخيرين ، على الرغم من أن آسيا الصغرى كانت تعتبر من الناحية العملية فى قبضة السلاحقة . لكن هؤلاء لم يكونوا قد وضعوا فى خطتهم حتى الآن ، فكرة القفز على القسطنطينية ، بل كانوا مشغولين باقامة امبراطورية اسلامية فى ظل السيادة العباسية ، ولم تأت الخطوة التالية بالاتجاه نحو الغرب الا على عهد سلطانهم الأشهر ملكشاه ووزيره نظام الملك . أما النورمان فقد داعبتهم الآمال تحت زعامة عائلة هوتفيل Hauteville ممثلة فى روبرت جويسكارد Robert Guiscard وبوهيمند Bohemund من بعد ، حول امكانية اقامة امبراطورية نورمانية عاصمتها القسطنطينية ، ولم يذهب هذا التفكير من مخيلتهم حتى قيام الحروب الصليبية . لذا لم يتردد البيزنطيون لحظة فى مهادنة السلاحقة ، وتوجيه قواهم كلها للتصدى للخطر النورمانى ، مستعينين فى هذا المجال بقوات سلجوقية [٨٦] .

ولو حاولنا أن نسير مع قسطنطين السابع فى عرض نماذج معينة لما تضمنه كتابه حول هذه القاعدة القاضية بعدم الحرب على جبهتين فى وقت واحد لاحتاج الأمر الى الكثير من الصفحات . فقد عرض لكثير من جوانب السياسة البيزنطية فى هذا السبيل ، وبوجه خاص فى

---

(٨٦) مطامح الجرمان ومشروعاتهم لاقامة امبراطوريتهم — راجع
Haskins, The Normans in European History, New York, 1966.

المنطقة الواقعة الى الشمال من الحدود البيزنطية ، والتى كانت تشكل بؤرة اهتمام القسطنطينية فى القرن العاشر [٨٧] .

والآن .. وقبل أن نطوى الصفحة الأخيرة من صفحات قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، لا يمكننا أن نفض الطرف عن أحد أسلحتها الفعالة ، والتى لم يكن دورها يقل أهمية وبعد أثر عن الجوانب الأخرى التى تناولناها ، بل ربما فاق بعضها أحيانا ، نعنى بذلك التبشير بالمسيحية بين هذه الشعوب المجورة ، خاصة وأن القسطنطينية كانت تعتبر نفسها درع الأرثوذكسية وقلعة المسحية الشرقية ، وآمن الأباطرة أن واجبهم ، باعتبارهم نواب المسيح على الأرض ، يحتم عليهم نشر العقيدة المسيحية بين القبائل الوثنية المحيطة بالامبراطورية . لهذا لقيت كنيسة القسطنطينية التأييد الكامل ، بل والحث من جانب الأباطرة فى هذا السبيل ، فقد كان امتداد النفوذ الروحى لكنيسة القسطنطينية فى منطقة ما ، يستتبع بالضرورة امتداد سلطان الدولة السياسى الى هذه المنطقة .

لقد سارت عملية التبشير جنبا الى جنب الغزو ، فالكاهن المسيحى كان يمهد الطريق تماما لرجل السياسة ، حيث يسبقه الى أراضى « البرابرة » ليعرض على الناس هناك ديانته ، ويسعى بصفة خاصة الى جذب النساء أولا ، حيث كان يستهويهن غموض العقيدة الجديدة ، ويصبح من السهل بعد ذلك التأثير على الرجال من ذوى العقول البسيطة [٨٨] ، ولقد ضربنا على ذلك مثالا بمبعوثى فلاديمير الروسى وما قالوه عن القسطنطينية وكنائسها بين يدى زعيمهم . وقد شابههم فى ذلك القوط والقفجاق والكروات والصرب والموارافين والبلغار ،

---

(٨٧) الى جانب كتاب De Administrando Imperio راجع ايضا Obolensky, The Byzantine Commonwelth, pp. 69-236.

(88) Diehl, op. cit, p. 59.

وغيرهم كثير • ولم يأخذ هؤلاء عن البيزنطيين دينهم فحسب ، بل عالماً كاملا من الأفكار المشاعر والعادات ومظاهر الحضارة بصفة عامة [٨٩].

لقد كانت السياسة التبشيرية التى مارستها الامبراطورية البيزنطية بصورة لا تعرف الكلل ، تدور فى اطار « العالمية » Oikoumene التى يرتكز عليها الفكر الرومانى ، فالبيزنطيون يعتقدون أن التنظيم السياسى للعالم ، ان هو الا جزء من الغاية العـالمية لله ، ويرتبط أساسا بفكرة « الخلاص » الانسانى • ومن ثم فان « عالمية » الامبراطورية الرومانية مهدت الطريق فى ظل العناية الالهية أمام انتصار العقيدة المسـيحية على الوثنية • وعليه غدت مهمة الرومان ، حمل لواء الخـدمة من أجل المسيح ، والتبشير بالانجيل بين كل شعوب الأرض [٩٠] ، فلا غرابة اذن أن يصبح مفهووم « السلام الرومانى » Pax Romana يعادل « السلام المسيحى » Pax Christiana وأن تتواكب اهتمامات الامبراطورية مع تعزيز الايمان المسيحى [٩١] • وبناء على ذلك كان للامبراطور البيزنطى السيادة الكاملة على كل الشعوب المسيحية بوصفة — كما قدمنا — نائب المسيح على الأرض • لقد ظل هذا المفهوم حيـا فى الامبراطورية حتى أيامنا الأخيرة،ففى القرن الرابع عشر أبدى أسقف القسطنطينية تشجيعه الكامل لما فعله دوق موسكو من الاقدام على حذف اسم الامبراطور من سجلات الكنيسة الروسية ، اذ كتب الأسـقف اليه يذكره بالالتزامات الواجبة عليه تجاه الامبراطور العالمى ، ويوضح له بما لا يدع مجـالا للشك ، امتداد سـلطان الامبراطور البيزنطى على روسـيا ، قائلا : « أى بنى ••• لقد تم تعيين •• ملك الملوك » Basileus و « الحـاكم

---

(٨٩) Bury, history of the Lat. Rom. Emp. II, p. 292. وأيضا

(90) Obolensky, Byzantine diplomacy, p. 55.

(91) Id.

المطلق » Autokratn للرومان ، ليرعى المسيحيين جميعا [٩٢] . ولذلك فان هــذا التمرد من جانب الدوق الروسى ضــد القاعدة الأساســية « للعــالمية » Oikoumene كانت مجرد اســتثناء لا أكثر ، اذ سرعان ما كتب ابنه وخليفته ، باسل ، الى الامبراطور قسطنطين الحادى عشر، آخر أباطرة بيزنطة قائلا ، « لقد تسلمت سلطانك الامبراطورى العظيم ... لاقرار المسيحية الأرثوذكسية فى مملكتك ، ولتقدم العون كل العون لنا دنيا ودينا » [٩٣] .

ويكفى أن نرتد على آثارنا قصصا ، عبر ألف ومائة من السنين ، هى الفاصلة بين قسطنطين الأول وسميه الحادى عشر هذا ، لندرك أن هذا المفهوم عن سلطان الامبراطور « نائب المســيح Vicarius Christi و » عالمية الامبراطورية التى ظلت قــائمة حتى القرن الخامس عشر ، كانت واضحة منــذ البداية فى القرن الرابع ، تمثلها هذه العبارات التى وردت فى رسائل قسطنطين الأول ، رغم الشكوك حول مسيحيته ، والتى جاء فيها « لقد كنت عدة الرب التى اختارها وقد صلاحها لانقاذ مشيئته ، وعليه .. فانه ابتداء من المحيط البريطانى البعيد ، والأقاليم التى وفقا لقانون الطبيعة ، وتستتر الشمس فيــها بالأفق ، وبمدد الهى ، أقصيت تماما وأزلت كــل صنوف للشرسادت آملا ، وأداتيتى للرب كثير خطوى ، أن يرعى البشر ناموس الاله المقدس ويزدهر بهدى يديــه المقتدرتين معتقدنا الطوبــاوى [٩٤] ويضــيف « ... بفضل جهدى ، ولأنى لله نعم الخادم ، آمــن البرابرة بعبادة الرب ، وماذلك الا لأنهم أيقنوا أنه حافظى وحامينى فى كل خطو ودرب ،

---

(92) Ibid, p. 54.

(93) Id.

(94) EUSEB. Vita Constantini, III 57.

ولأنهم من خشـــيتنا أدخلوا الى المعرفة الحقة للاله الذى هــم الآن بعبادته قائمون » (٩٥) •

وقد ساعد على نجاح السياسة البيزنطية فى مهمتها التبشيرية ، وبالتالى امتداد نفوذ الامبراطورية الى مناطق جديدة ، أن منطقة البلقان كانت تشهد بصفة مستمرة ، موجات اثر موجات من الشعوب الوثنية التى تتابعت على المنطقة ابتداء بالعناصر الجرمانية منذ القرن الرابع الميلادى ، وانتهاء بالقبائل لتركية والصقلية فى القرون من الثامن الى العاشر • وكان فتح المسلمين للولايات البيزنطية فى الشرق ، سوريا ومصر وأفريقية ، عاملا هاما جدا فى تخلص الامبراطورية ــ كارهة ــ من المناطق التى كانت بؤرة الخلافات العقيدية مع القسطنطينية • ثم جاء عدم تمكن المسلمين من اسقاط القسطنطينية خلال الحصار الذى فرضـــوه عليها سنة ٧١٧ للميلاد ، نجاحا كبيرا للسياسة التبشـــيرية البيزنطية فى منطقة البلقان ، التى كانت تموج آنذاك بالشعوب الوثنية ، التى تحــولت تباعا الى المســيحية الأرثوذكسية عــلى يــد المبشرين البيزنطين • ولاشـــك أن الخســـارة التى منى بهـــا المسلمون أمـــام القسطنطينية الآن ، تفوق بكثير هزيمتهم بعد ذلك بسنوات قلائل فى أقصى الغرب على يد شارل مارتل Charles Martel فى موقعة بلاط الشـــهداء (تور ــ بواتييه) ، اذ لو تمكن المســـلمون من فتـــح القسطنطينية آنذاك ، لوجدوا تربة خصبة للدعوة للاسلام فى منطقة البلقان ، على العكس من فرنسا فى الغرب ومن ورائها ايطاليا • كما أن الامبراطورية سرعان ما اجتازت أزمة الحروب الأيقونية التى شغلت معظمهم عهود أباطرة الأسرتين الأيزورية والعمودية ، لتنطلق بعد ذلك بكامل طاقاتها للتبشير بالمسيحية فى منقطة البلقان ، التى أمست من بعد عن طريق العقيدة ، داخله ضمن « عالمية » الامبراطورية ، أو الدوران فى فلك نفوذها •

---

(95) Ibid. IV, 9-13.

وتجات خطــورة الدبلوماســية البيزنطية فى هــذه الناحية ، باستخدامها تلك المســألة العقيدية سلاحا رفعته القسطنطينية فى وجه كنيسة روما ، التى حاولت أن تجد لها مكانا ، ولعقيدتها الكاثوليكية موطىء قدم فى تلك المنطقة • وبلغ الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، والكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية ، يساندها الأباطرة ، حدا بعيدا أضاف الى الرصيد العدائى بينهما بعدا جديدا ، حتى لقد وصــل الأمــر عند كــل منهمــا الى حــد تقديــم تنــازلات عــلى حســاب العقيــدة أحيــانا ولقوانيــن الكنيســة أحيــانا أخــرى ، لاسترضــاء هــذه الشــعوب • لكن الجولــة الأخــيرة فى هــذا الاضطراع كانت لصالح القسطنطينية (٩٦) • وليس أدل على ذلك من أنه خلال السنوات الأخيرة من عمر الامبراطورية ، وفى القرن الرابع عشر ، عندما خارت قواها ، وغلبها على أمرها أعداؤها ، خاصة السلطنة العثمانية الناشئة ، راح بعض من أباطرتها مثل يوحنا الخامس باليوجوس ومن بعده ابنه مانويل ، يتوجهون تلقاء الغرب وروما يطلبون العون العسكرى ، وكان الثمن فادحا ، يتمثل فى تخليهم عن الأرثوذكسية ، العقيــدة التقليديــة للامبراطورية ، وجوهر « العالمية » المســيحية لبيزنطة ، وتحولهم الى الكاثوليكية • رغم أن الغرب لم يقدم شيئا مطلقا ســوى التمنيات الطيبة !! فى هذه الظروف الحالــكة وقفت الكنائس البلقانية اتى تدين بالأرثوذكسية ، لترفض اتجاه الأباطرة هذا وتعلن تمسكها بعقيدتها التقليدية ، محافظة على التقليد الامبراطورى الجوهرى • وعندما سقطت القسطنطينية عام ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح العثمانى ، بدا لأعين المماليك الصقلبية ، أن المسئوليات الامبراطورية الرومانيــة والمسيحية قد ألقيت اليها ، وتزوجت صوفيا Sophia احدى أميرات أسرة باليولوجوس من ايفان Ivan الموسكوفى !! •

---

(٩٦) يمكن الاوقوف على تفصيلات هذه الأمور فى :
Ware, The Orthodox Church, Penguin book, 1967.

والآن •• يبدو أن علامة الاستفهام الكبـــيرة التى كانت تطرح نفسها فى أول الحديث ، قد وجدت لها الآن اجابة مقنعة ، فالدبلوماسية البيزنطية كانت تشكل بلا ريب ، القوة الرئيسية الى جانب الجيش فى الحفاظ على ســـلامة الامبراطورية طيلة هـــذه القرون • وكان تنوع أساليبها بين الزواج السياسي والاغداق بالمح والهدايا والألقاب والثياب والأمول ، وستقبال الوفود واستضفة أبناء الحكام الأجانب فى البلاط ، واستخدام الوقعية بين القبائل ، واقامة الدول الحاجزة على الحدود الطويلة للامبراطورية ، ولتبشير بالمسيحية بين الشعوب الوثنية ، دليلا عمليا على قدرة صانعى السياسة ابيزنطية على التمكين للامبراطورية عبر ألف ومائة من السنين • ومع الحفاظ على قواعد الدبلوماسية فى جوهوها ، الا أن المرونة كانت أهم سماتها • واذا كان الجيش هو الذراع القوية للامبراطور البيزنطية ، فلا شك أن الدبلوماسية كانت ذراعها الطويلة !

المصــادر والمراجــع

أولا : المصــادر

AGATHIAS, Historia, ed. Dindrof, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn 1828.

ANNA COMNENA, Alexiad, trans. by E.A.S.Dawes, London, 1967.

ATHANASIUS, Apologia ad Constantium, in Nicene and post Nicene Fathers of the Christian Church, ed. by Philip Schaff and Henry Wace, Vol IV, Michigan 1891.

CONSTANTINUS VII PORPHYROGENITUS,
De Administrando Imperio, trans. by R.J.H. Jenkins, Budapest 1949.

EUSEBIUS, Vita Constantini, in Nicene Fathers, Vol. I. pp. 481-559, Michgan 1891.

EVAGRIUS, Historia Ecclesiastica, Londin 1854.

IULIANUS, epistola ad Basilium, (Basilius, epp. XL) in Nicene Fathers, Vol. VIII, pp. 141-142.

IUSTINIANUS, Novellae, trad. in Francias par Bereinger fils, Paris, 1811-1812.

MALALAS, Chronographia, ed. Dindrof, in Corpus Scriptorum Historiaoe Byzantinae, Bonn 1831.

MENANDRUS, Excerpta de Legationibus Romanorum, ed. B.G. Neiburhr, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn 1840.

PROCOPIUS, — De Bello Gothico, trans. by H.B. Dewing New York 1914-1940.
— Historia Arcana, trans. by G. A. Williamson, London, 1969.

PSELLUS, Chronographia, trans. by E.R.A. Sewter, Penguin book 1966.

EOCRATES, Historia Ealesiastica in Wicene Fathen Vol II, 1-178.

ثانيـا : المراجع

Brooke (Z. N.), A history of Euroe from 911-1198, London 1966.

Bury (J.B.), History of the Later Roman Empire, 2 oVls. London 1931.

Cambridge Medieval History, planned by J.B. Bury in 8 vols. Cambridge 1964.

Cantor (N.), The Medieval World, New York 1968.

Diehl (Ch.), Byzantium, Greatness and Decline, New Jersey 1957.

Dvornik (F.), Origins of intelligance Services, New Jersey, 1974.

Haskins (Ch.) The Normans in European history, New York 1966. German in 5 Vols. Edinburgh 1972.

Hefele (C.J.) History of the Councils of the Church, trans. from the The Gersman in 5 Vol. Edinbuseh. 1972.

Holmes (W.), The Age of Justinian and Theodora, 2 vols. London, 1912.

Jenkins (R.) — Byzantium, The imperial centuries, A.D. 610-107. London 1966.

— Connrentevyon De Adminshrands Jones (A H M) Empeis Voe II Ghs Declin & Aneirt world London 1978.

— Later Roman Empire, 5 Vols. Oxford 1964.

Obolensky (D.), — The Byzantine Commonwealth, eastern Europe, 500-1453, London, 1971.

— The principles and methods of Byzantine diplomacy, in Acts du XIIe Congrès international D'études Byzantines, Ochride 10-16 September 1961, Beograd 1963.

Ostrogorsky (G.), History of the Byzantine State, trans. by Joan Hussey, Oxford 1956.

Percival (H.R.), The Seven ecumenical Councils, Nicene Fathers, Vol. XIV, Michigan 1891.

Ure (P.N.), Justinian and his Age, Penguin Book 1951.

Vasiliev (A.A.), A history of the Byzantine Empire, 2 vols. Madison and Milwauke 1964.

ـ أســد رستم (دكتور) : حرب فى الكنائس ، بيروت ١٩٥٨ .

ـ بيتز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد . القاهرة ١٩٥٧ .

ـ رأفت عبد الحميد (دكتور) :الدولة والكنيســة ، الجــزء الثانى وقسطنطين . القاهرة ١٩٨٢ .

ـ ــــــــــــــ الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب ، مجلة نــدوة التاريخ الاسلامى والوســيط ـ العدد الثانى ـ القاهرة ١٩٨٣ .

ـ ــــــــــــــ السمو البابوى بين النظرية والتطبيق ، مجلة ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، العدد الثالث ـ القاهرة ١٩٨٥ .

ـ ــــــــــــــ الثورة الشعبية فى القسطنطينية ٥٣٢ ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٣٢ ـ القاهرة ١٩٨٥ .

ـ رنسيمان (ستفن) : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ١٩٦١ .

ـ كلارى (روبرت) : فتح القسطنطينية ، ترجمة دكتور حسن حبشى القاهرة ١٩٦٤ .

ـ هسى (ج.م.) : العالم البيزنطى ، ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد القاهرة ١٩٨٤ .

أسرة برينيوس

ودورها فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية

د . فايز نجيب اسكندر
أستاذ تاريخ لعصور الوسطى المساعد
كلية الآداب ــ جامعة بنها

مقدمــة :

أدت أسرة برينيوس Bryennios دورا بالغ الأهمية فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية . فقد سير أقطابها العديد من الأحداث التاريخية التى كادت تغير مجرى التاريخ البيزنطى وذلك خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى وأوائل القرن الثانى عشر .

وترجع شهرة هذه الاسرة الى ثلاثة من أقطابها . الأول : البطريق[1]

---

(١) « بطريق » Patrice من القاب الشرف الرفيعة . لم يكن لحامله وظيفة معينة ، انعم به أباطرة بيزنطة على زعماء البرابرة مثل ادواكر Odoacre وثيودوريك Théedoric وفى القرن الخامس الميلادى ، حاول ثيودوسيوس الثانى وزينون قصر استخدام هذا اللقب ، لكن جستنيان ارجعه الى سابق عهده . للتفاصيل انظر : Bréhier Les Institutions de L'Empire Byzantin, Paris, 1949, pp. 102-103; Bury, The Imperial Administrative System, London, 1911, pp. 20-36, 121-124.

برينيوس الذى ألحق الهزائم بالبشناك[٢] petchénègues فى ثلاثة مواضع ، ووضــع بذلك حــدا لاغاراتهم على الامبراطورية البيزنطية خلال عامى ١٠٥١ و ١٠٥٢م [٣] • ثم شارك بعد ذلك فى قتال الأتراك السلاجقة فى الشرق [٤] • الا أن نجمه الساطع أفل فى عهد

---

(٢) « البشناك » Petchenègues أجناس تركية (انظر ابن خرداذبة : المسالك والممالك — نشردى غوية — ليدن ١٨٨٩ ، فى ٣١) أقاموا شمال الامبراطورية البيزنطية • وفى سنة ١٠٤٨م ، عبروا الدانوب واغاروا عــلى اقاليم الامبراطورية البيزنطية حتى أصبح لهم اثر كبــير فى مصيرها • وقد عرف البيزنطيون البشناك منذ القرن التاسع الميلادى حين استقرت جموعهم من الشعوب التركية فى الدانوب الادنى وفى سهول جنوب روسيا الحالية ، وهكذا ، امتدت اراضيهم من الدانوب الأدنى حتى ضفاف نهر الدنيبر بل أحيانا اتسعت لتشمل ما وراء ذلك النهر • وكان البشناك يضطرون دائما الى الاتجاه غربا نتيجة ضغط قبائل رعوية أخرى من الغز والكومان وفى كتاب « ادارة الامبراطورية البيزنطية » الذى الفه الامبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس ، ينصح الامبراطور البيزنطى ابنه وولى عهده رومانس بالحرص على العلاقات الودية السلمية مع البشناك ، ونستخلص أيضا من هذا المصدر الهام أن البشناك كانوا وسطاء فى العلاقات التجارية بين الأقاليم البيزنطية فى كريما Crimea — ثغر خرسون Cherson — ومع الروس والخزر وسكان البلاد المجاورة • ويتضح من ذلك أن البشناك كان لهم أهمية كبيرة للامبراطورية البيزنطية سياسيا واقتصاديا • انظــر حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية — القاهرة ١٩٨٣ — ص ١٧٧ — ١٧٨ ، محمد عبد المولى : ينومرادس الكلابيون فى حلب وشمال الشام — الاسكندرية ١٩٨٥ — ص ١٢٨ ، حاشــية رقم ١ • ولمزيد من التفاصيل انظر :

Grousset, L'Empire des Steppes, Paris, 1939, pp. 238-242.

(3) Georgius Cedrenus Ioannis Scylitzae Ope Suppletus et emendatus, éd. Bekker,
II, C.S.H.B., Bonn, 1839, pp. 603-604; Michaelis Attaliotae Historia, éd. Bekker, C.S.H.B., Bonn, 1853, pp. 33-37.

(4) Sylitzes-Cedrenus, p 611. Cf. Schlumberger, L'épopée Byzantine à la fin du Xe siècle, Paris, 1905, t. III, pp. 654-755.

الامبراطورة ثيودورا[٥] (١٠٥٥ — ١٠٥٦) ، اذ صادرت أملاكه ونفته سنة ١٠٥٥م[٦] • ثم عاد ثانية الى مسرح الأحداث فى عهد خليفتها ميخائيل سترا تيوتيكوس[٧] (١٠٥٦ — ١٠٥٧م) Michel le Stratiotique الذى استدعته من منفاه ليضع حدا لاغارات الأتراك السلاجقة[٨] • لكنه سرعان ما انخرط فى صفوف رفاقه الثائرين على الامبراطور ميخائيل وذلك سنة ١٠٥٧م[٩] • وانتهى به المطاف بأن سملت عيناه ، وأرسل مقيدا بالاصفار الى العاهل البيزنطى[١٠] •

ثم يظهــر بعد ذلك فى الافق ابنه نقفــور[١١] Nicephore الذى تألق نجمه خلال عهد رومانوس الرابع ديوجينيس (أول يناير

---

(٥) « ثيودورا » هى شقيقة زوى ، وابنه قسطنطين الثامن . حكمت من ١٠٥٥ الى ١٠٥٦م . للتفاصيل انظر :

Psellos. Chronographie, 9 16-1077, tr. E. Renault, Paris, 1928, t. I, pp. 107 sqq.

(6) Skylktzes-Cedrenus, p. 611. Cf. Bréhier, Le Schisme Oriental du XIe siècle, Paris, 1899, pp. 74-81; Vie et Mort de Byzance, Paris. 1969, p. 219.

(٧) للتفاصـــيل عن الامبراطور ميخائيل ستراتيوتيكوس (١٠٥٦ — ١٠٥٧م) انظر :

Skylitzes-Cedrenus, p. 612.
Ioannis Zonorae epitomae Histiriarum, libri XIII-XVIII, éd. T. H. Buttner-Wobst, III, C.S.H.B., Bonn, 1897, XVII, p. 29; Psellos, Discours et Correspondance, éd, Sathas, B.M.A., 1874-1876, VI, bis, pp. 19-21. Cf. Schlumberger, III, 763-767.

(8) Skylitzes-Cedrenus, p. 616.

(9) Skylitzes-Cedrenus, pp. 619-621; Attaliates, p. 56. CF. Bréhier, Le Schisme Oriental, pp. 254-255.

(10) Shylitzes-Cedrenus, p. 621.

(١١) لمزيد من التفاصيل عن نقفور انظر :

Anne Comnene, Alexiade, tr. Leib, Paris, 1937-1945, t. I, pp. 17-28.

١٠٦٨ــ٣٦ أغسطس ١٠٧١م)، حتى أن الامبراطور البيزنطى[١٢] اعتبره شقيقه بالتبنى[١٣]، وأسند اليه قيادة الجناح الايسر للجيش البيزنطى أثناء معركة ملاذكرد[١٤] فى السادس والعشرين من أغسطس سنة

---

(١٢) توج القائد البيزنطى رومانوس ديوجينيس امبراطورا فى يناير سنة ١٠٦٨م عقب زواجه من الامبراطورة ايدوسيا أرملة الامبراطور قسطنطين دوقاس . واعتبر تربعه على عرش الامبراطورية البيزنطية انتصارا لطبقة الارستقراطية العسكرية وهزيمة للبيروقراطية المدنية . وكان رومانوس قائدا بارعا ، اذ أكسبته انتصاراته فى الحرب ضد البشناك فى البلقان شهرة واسعة النطاق . لذا قال عنه المؤرخ نقفور برينيوس انه كان ثاملا نتيجة انتصاراته السابقة التى ملأته بالتكبر والغطرسة . انظر :

Bryennios, Les Quatre Livres des Histoires, tr. p. Gautier, Bruexelles, 1975, ch. XIII, p. 106; tr. H. Grégoire, ch. XIII, p. 488; Aristakès, Histoire des Malheurs de la Nation Arménienne, tr. M. Canard, Bruxelles, 1973, ch. XXV, p. 125 Cf. Rice, Byzantiuon, London, 1969, pp. 89 sqq.

(13) Aexiade, II, p. 196.

(١٤) سقطت ملاذكرد فى قبضة الأتراك السلاجقة سنة ١٠٦٨م / ٤٦١هـ . (للتفاصيل انظر : Matthieu D'Edesse, Chronique, tr. Dulaurier, Paris, 1858, ch. LXXXVIII, pp. 101-102; Aristakès, pp. 85 - 86 ; Arisdaguès de Lasdiverd, Histoire D'Arménie, tr, Prud'homme, Paris, 1864, pp. 99-100.

وتقع ملاذكرد فى أرمينية الى الشمال من بحيرة وان . وقد اختلفت تسميتها فى المصادر الاسلامية اختلافا شديدا (عن تسميتها فى المصادر الاسلامية انظر : فايز نجيب اسكندر : البيزنطيون والأتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد ــ الاسكندرية ١٩٨٤ ــ ص ٦٢ ــ ٦٣ ، حاشية رقم ٦٦ ، أرمينية بين البيزنطين والاتراك السلاجقة ــ الاسكندرية ١٩٨٣ــ ص ١٩٢ــ ١٩٣ ، حاشية رقهم ٣٤١) . أما المصادر البيزنطية ، فقد أجمعت على تسميتها « منزيكرت » واحيانا « منزيكيرت » (انظر

Psellos, II, p. 162; Attaliatés, p. 116. Zonoras, p. 697.

واذا انتقلنا الى المصادر الأرمنية ، فقد أوردتها على شكل « منازكرت » أنظر :

Mathieu, pp. 99-102; 163-167; 405 n. 2, Aristakes, pp. 6, 75-76; 81-83 ; 87, 126).

=

١٠٧١م [١٥] • وفى أكتوبر من عام ١٠٧٧م ، تزعم وشقيقه حنا الثورة على الامبراطور ميخائيل السابع دوقاس [١٦] (١٠٧١ — ١٠٧٨م) Michel Ducas ، الا أن الرياح أتت بما تشتهى السفن ، فبدلا من تربعه على عرش الامبراطورية البيزنطية ، انتهت ثورته ، ولقى مصير والده بأن سملت عيناه [١٧] • أما شقيقه حنا ، فقد اغتيل بضربة خنجر [١٨] •

=

وقد أجمع المؤرخون المحدثون على اسم « منتزيكرت » انظر :

Vasillev, History of the Byzantine Empire, 1958, II, p. 356; Brehier, Vie et Mort de Byzance, pp. 231-233; Cahen, La campagne de Mantzikert, dans Turcobyzantina, London, 1974, fasc. II, pp. 628-642.

(١٥) عن اختلاف المصادر والمراجع فى تحديد تاريخ معركة ملاذكرد انظر :

Bryennios, tr. Gautier, p. 117, n. 9. Cf. Grousset, Histoire de l'Arménie, Paris, 1973, p. 628, Laurent, Byzance et les Turcs Seldioucides, Paris, 1919, p. 43, n. 10; Honigmann, Die Ostgrenze des Byzantinischen Reiches von 363 bis 1071, Bruxellees, 1935, p. 180.

انظر أيضا : فايز نجيب اسكندر : البيزنطيون والاتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد ، ص ٩٩ ، حاشية رقم ١١١ •

(١٦) قام جيش نقفور برينيوس بتتويجه امبراطورا على الامبراطورية البيزنطية فى تراجانوبوليس Trajanopolis فى الثالث من اكتوبر سنة ١٠٧٧م ، للتفاصيل المطولة انظر :

Bryennios, III, 4-10, Skylitzes.
Cedrenus. p. 727; Zonoras, XVIII, p. 17; Alexiade, I, p. 4.

(17) Bryennios, IV, pp. 2-4 et 28; Attaliates, pp. 285 sqq : Skylitzes-Cedrenus, pp. 735-737; Alexiade, I, pp. 4-6. Cf. Chalandon, Essai sur le règne d'Alexis Comnène, Paris 1900, pp. 36-37.

(18) Bryennios, IV, Ch. XVIII, p. 284.

ثم يأتى فى نهاية المطاف القطب الثالث والأخير ، القيصر المؤرخ نقفور برينيوس [١٩] ، مؤلف كتب التاريخ الأربعة [٢٠] Historiaum Libri Quattuar ، وزوج الأميرة آن كومنين ، ابنة الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين (١٠٨١ — ١١١٨م) • وقد انخرط نقفور الى جانب صهره فى العديد من المعارك [٢١] • وشاء القدر أن يحول بينه وبين الوصول الى عرش الامبراطورية البيزنطية خلفا لألكسيس كومنين ورغم استماتة آن كومنين ووالدتها ايرين دوكاينا Irène Doukaina فى اقناع الامبراطور بذلك • الا أنه عين ابنه الاكبر حنا كومنين خلفا له [٢٢] •

---

(١٩) لمزيد من التفاصيل عن أسلوب المؤرخ برينيوس فى الكتابة التاريخية انظر : Seger, Byzantinische Historiker des Zehnten und elften Jahrhunderts. I. Nicephoros Bryennies. .Eine philologisch-historische Unterschung, Munich, 1888, pp. 59-82.

(٢٠) تعد الترجمة الفرنسية التى أعدها العالم الفرنسى بول جوتييه Paul Gautier أفضل واكمل ترجمة لهذا المصدر التاريخى الهام الذى يعد أهم مصادر تاريخ الامبراطورية البيزنطية فى الفترة من ١٠٧٠ الى ١٠٧٩م (انظر :

Nicephore Bryennios, Les Quatres livses des Histoises Bruzelles, 1975).

وتأتى بعدها ترجمة أعدها العالم هنرى جويجوار • ولا شك أن بول جوتييه استفاد كثيرا من ترجمة هنرى جريجوار ، الا أنه صحح الكثير من الأخطاء الواردة بها وبغيرها •• انظر :

Nicephore Bryennios, Les Quatre livres des Histoires, tr. Henri Grégoire, dans Byzantion, 23, 1953, pp. 469-530, livres I-II, et Byzantion, 27, 1957, pp. 881-926, livres III-IV.

(21) Alexiade, pp. 202, 205.

(22) Nicetae Choniate, Historia, éd. Bekker. C. S. H. B., Bonn, 1835, p. 9.

المصادر التى أشارت الى أسرة برينيوس :

وبعد تسليط الأضواء السريعة على أهم أقطاب هذه الأسرة الشريفة ، نلاحظ أن المصـــادر أشارت الى أهميتها فى سياق حديثها عن تاريخ الأمبراطورية البيزنطية • ويعد مصنف القيصر المؤرخ نقفور برينيوس أهم المصادر على الاطلاق ، اذ زودنا بالتفاصيل المطولة لمعركة ملاذكرد سنة ١٠٧١م نقلاً عن جده الذى كان من بين الذين نسجوا مع العاهل البيزنطى رومانوس الرابع خيوط الهزيمة الساحقة التى منى بها الجيش البيزنطى على يـــد لأتراك السلاجقة ، اذ كان جده — المدعو نقفور برينيوس ايضا — قائد الجناح الأيسر البيزنطى • لذا ، امتاز مصنف نقفور برينيوس بتزويدنا بتفاصيل التكتيكات الحربية وفنون الحرب لدى الطرفين المتصارعين [٢٣] ، فاضحت روايته أكثر حيوية من روايات غيره من المؤرخين المعاصرين مثل بسيللوس Psellos الذى اكتفى بتزويدنا بأسطر لا تتعدى أصابع اليد عن معركة فاصلة فى تاريـــخ العصور الوسطى عامة وتاريخ الامبراطورية خاصة [٢٤] • ومع ذلك يؤخذ على المؤرخ نقفور برينيوس انحيازه الى جانب جده اذ حاول جاهدا أن يبعد عنه كل الشبهات التى تسىء الى سمعته كقائد عسكرى عظيم • فعلى سبيل المثال لا الحصر ، ذكر كـــل من ميخائيل أطالياس Michaelis Attaliotae والمؤرخ المكمل لحولية ســـيلتزز Skylitzes أن الامبراطور رومانوس أرسل القائد نقفور برينيوس لقتال كتيبة سلوجوقية بقيادة صندق ، لكنه لم يوفق فى عملياته الحربية ،

---

(٢٣) للتفاصيل التحليلية الدقيقة عن معركة ملاذكرد فى « كتب التاريخ الاربعة » انظر فايز نجيب اسكندر : البيزنطيون والاتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد ، ص ١٢ — ١٠٠ •

(٢٤) تحـــدث المؤرخ البيزنطى بسيللوس عن الامبراطور البيزنطى رومانوس الرابع أكثر من حديثه عن معركة ملاذكرد • انظر :
Psellos, II, pp. 161-162.

فمنى جيشه بهزيمة ساحقة وجرح هو أيضا أثناء القتال ، فأسرع بطلب نجدات من العاهل البيزنطى ، فأرسل اليه القائد نقفور بازيلاكس (٢٥) Nicephore Basilakes وبصحبته كتيبة بيزنطية كبيرة . فانقض بازيلاكس على الأتراك السلاجقة انقضاضا ، ونجح فى اجبارهم على الفرار . الا أن برينيوس سلك مسلكا سلبيا ، اذ لم يزحف بجيشه فى ركاب جيش بازيلاكس ليقاتلا معا الأتراك السلاجقة . وبذلك تخاذل عن قتال الأعداء ونجده بازيلاكس رفيقه فى السلاح (٢٦) . ازاء هذه الأحداث التى تلوث ثوب أحد زعماء الاسرة ، تعمد برينيوس خلط الوقائع رأسا على عقب . فأظهر بازيلاكس بمظهر القائد الذى منى جيشه بالهزيمة وأن نقفور برينيوس أسرع لنجدته (٢٧) .

على أية حال لم تكن أسرة برينيوس هى الأسرة الوحيدة التى حظيت بانحياز نقفور برينيوس ، فأسرة دوقاس نالت هى أيضا شرف هذا الانحياز . فعلى الرغم من اجماع كل من اطالياطس والمؤرخ المكمل لحولية سكيلتزز وزونوراس Zonoras على خيانة أندرونيك دوقاس أثناء

---

(٢٥) كان الماجسترون نقفور دوقا على ثيود وسيوبوليس (انظر :
Attaliates, p. 155; Skylitzes Continué, p. 154, Zonoras, p. 697).

وقد سقط أسيرا فى قبضة الاتراك السلاجقة أثناء معركة ملاذكرد
انظر : Attaliates, p. 165; Skylitzes Continué, p. 152).

وثار فيما بعد على ميخائيل السابع (١٠٧١ — ١٠٧٨م) وعلى بوتانياس (١٠٧٨ — ١٠٨١م) (انظر :
Attaliates, p. 155; Skylitzes Coninué, p. 154 :
Zonoras, 697. Cf. Lauren, Byzance et les Turcs Seldjoucides, p. 62, n. 3.)

وللتفاصيل المطولة عن ثورته انظر :
Bryelnnios, tr. Gautier, pp. 216, 284-287, 29 0-298.

(26) Attaliates, pp. 154-155, Skylitzes Cintinué, pp. 145-146.

(27) Bryennios, tr. Gautier, I, ch. XV, pp. 110-112; TR. H. Grégoire, pp. 491-492.

معركة ملاذكرد ، اذ انه أشـــاع خبرا مفاده أن الامبراطور البيزنطى انسحب من ساحة الوغى ، بل أن اندرونيك أسرع بالانسحاب من ساحة القتال[٣٨] • على الرغم من هذه التصرفات المشينة ، لم يلصق نقفور برينيوس هذا الاتهام لأندرونيك ، لأنه يمت بصلة قرابة لأسرته ، لذلك عمل على ابعاد كل الشبهات عن آل دوقاس ، كما فعل تماما مع جده نقفور برينيوس ورفيق جده فى السلاح جوزيف ترخانيوتس[٢٩] •
Joseph Tarchaniotes

ولا يفوتنا فى هـــذا المقام ذكر الاهمية البالغة « لكتب التاريخ الاربعة » بصدد ثورة نقفور برينيوس ، اذ يعد المصدر الأساسى الذى سلط الأضواء الساطعة على زعيمى الثورة نقفور برينيوس وشقيقه حنا ، ففاق فى سرده كافة المصادر البيزنطية الأخرى لصلة الدم التى تربطه بزعيم الثورة وكونه شاهد عيان ومعاصر لأحداثها[٣٠] •

وهكذا يمكننا القول أن مصنف نقفور برينيوس يعتبر أهم المصادر

---

(28) Attaliates, p. 161-162; Skylitzes Continué, pp. .148-149; Zonoras, p. 701.

(٢٩) فى جروسية Grousset جوزيف تراخانيوتس Trakhaniotes وصحتها ترخانيوتس Tarchaniotes (انظر : (Histoire de l'Arménie, p. 627. • وجوزيف ترخانيوتس كان من أصل كرجى ، وهو والد كتاكالون Katakalon وايلين تراخانيوتس (للتفاصيل عن هذه الاسرة انظر : Lemerle, Actes de kutlumus, Paris, 1945, p. 145; Gautier, Etude Prosonographique, R.E.B., 29, 1971; pp. 254-255, Polemis, The Doukai, Londres, 1968, p. 183.

وقد تخلى القائد العسكرى جوزيف ترخانيوتس عن مناصرة العاهل البيزنطى رومانوس عقب هزيمة ملاذكرد سنة ١٠٧١م وشغل منصب حاكم انطاكية منذ عام ١٠٧٢ حتى عام ١٠٧٤م (انظر :

Laurent. La Chronologie des Gouverneurs d'Antioche, Mélanges de l'université Saint-Joseoh, 38/10, 1962, p. 249.

(30) Bryennios, III, ch, V, pp. 217 Sqq.

البيزنطية عـلى الاطـلاق التى زودتنا بأدق التفاصـيل عن احوال الامبراطورية البيزنطية فى الفترة من ١٠٧٠ الى ١٠٧٩م [٣١] الى جانب كونهالمصدر الأساسى لدراسة سير أقطاب أسرة برينيوس • الا آن هناك مصادر بيزنطية أخرى زودتنا بمعلومات منصفة عن هذه الاسرة ولكنها أقل غزارة فى مادتها العلمية أهمها مصنفات أطالياطس والمؤرخ المكمل لحولية سكيلتزز وزونوراس وآن كومنين زوجة نقفور برينيوس القيصر المؤرخ ، وان كان يؤخذ على آن كومنين هى أيضا انحيازها الكامل لأقطاب أسرة برينيوس •

المراجع التى أشارت الى أسرة برينيوس :

هذا عن أهم المصادر البيزنطية التى تحدثت فى سياق سردها التاريخى عن اسرة برينيوس • واذا انتقلنا الى المراجع لغربية ، نلاحظ أنها لا تتعدى أصابع اليد هى أيضا • فقد زودنا المؤرخ الالمانى سيجر Seger ببحث عن نقفور برينيوس المؤرخ عنوانه

«Byzantinische Historiker des Zehnten und elften Jahrunderts. I. Nicephoros Bryennies. Eine Philologisch-Historische Untersuchung Munich 1888.

اما المؤرخ الايطالى كاريل Carile ، فقد زودنا بثلاثة مقالات بعنوان

«Il problema dela identificazione del Cesare Niceforo Briennio, Aevum, 38 3 I-II, 1964, pp. 74- 83.»

تناول فيه مشكلة تحديد شخصية القيصر نقفور برينيوس مـن بين أشخاص يحملون نفس الاسم واللقب وينتمون لنفس هذه الاسرة • وبعد

---

(31) Vasiliev, Histoire de L'empire Byzantin, Paris, 1932 t. II. p. 147.

أن تمكن (كاريل) من تحديد شخصية القيصر نقفور برينيوس تحدث عنه حديثا مفصلا فى مقالين بعنوان

Il «Cesare Niceforo Brienio, Aevum, 423 V-VI, 1968. pp. 429-454; Aevum, 43, 1969, pp. 56-87.

ثم يأتى فى نهاية المطاف بحث بالفرنسية لسوزان ويتك دى جونج Suzanne Wittek-De John. فى صفحات لا تتعدى الخمس ، عن « القيصر نقفور برينيوس ، المؤرخ وأسلافه »

L'Historien et ses ascendants, «Le César Nicéphore Bryennios. Byzantion, 25, 1953, pp. 463-468».

وبعد استعراضنا للمصادر البيزنطية والمراجع الاجنبية التى سلطت الأضواء على أسرة برينيوس ، نلاحظ أن المراجع العربية لم تتحدث عن أقطاب هذه الاسرة الا فى سطور لا تتعدى أصابع اليدين ، وذلك عند عبورها العابر على ثورة نفقور برينيوس سنة ١٠٧٧م ، بل أن الكثير منها مر على هذه الثورة مر الكرام ولم يشر اليها بكلمة واحدة • لذا ، تعتبر هذه الدراسة اضافة جديدة الى المكتبة العربية بصفة عامة ، ومكتبة التاريخ البيزنطى على وجه الخصوص •

مسقط راس أسرة برينيوس :

وبعد لمحتنا السريعة عن أقطاب أسرة برينيس ، وأهم مصادر ومراجع هذه الدراسة التى سنفصلها ، نلاحظ اجماع المؤرخين البيزنطيين على أن هذه الأسرة قروية وعريقة فى الأصل ، موطنها اصلى مدينة أدرنة فى آسيا الصغرى فقد أشار أطالياطس الى أن القائد برينيوس الذى تزعم ثورة ١٠٥٧م كان من أدرنة [٣٢] • أما زونوراس ،

(32) Attaliates, p. 53.

فقد أشار هو أيضا عند حديثه عن بدايات هذه الثـــورة الى أن كانت الموطن الأصلى لهذا الثائر [٣٣] • كذلك أورد خونيات Nocetae Choniate فى مصنفة « التاريخ » Historia أن الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين (١٠٨١ — ١١١٨) رفض تعين « المقدونى » — أى القيصر والمـــؤرخ نقفور برينيوس — خلفـــا له عـــلى عـــرش الامبراطورية [٣٤] • وأخيرا ، أكدت المؤرخة آن كومنين — ابنة الكسيس كومنين وزوجة المؤرخ نقفور برينيوس — أنه عشية حصار أدرنة على يد الكومان [٣٥] فى أوائل عام ١٠٩٥م ، أسند الامبراطور البيزنطى أمـــور الدفـــاع عنها الى مواطنيها • وكـــان أبرز هـــؤلاء كاتاكالون ترخانيـــوتس[٣٦] Katakalon Tarchaniotes ونقور برينيوس [٣٧] •

أسرة برينيوس فى القرن التاسع الميلادى :

على اية حال ، يرجع ذكر أسرة برينيوس لأول مرة فى المصادر البينزنطية الى القرن التاسع الميلادى • اذ جـــاء فى ســـيرة القديس

---

(33) Zonoras, p. 716.

(34) Choniate, p. 9.

(٣٥) « الكومان » من القبائل التركية التى خدمت كمرتزقة فى الجيش البيزنطى • انظر عن ذلك

Setton, History of the Crusades, Philadelphia, 1958, t. I, pp, 215, 261, 354, sqq.

(٣٦) « كاتاكالون ترخانيوتس » هو ابن جوزيف ترخانيوتس (عن جوزيف ترخانيوتس انظر حاشية رقم ٢٩ من هذا البحث) . شغل منصب حاكم انطاكية حتى اواخر عام ١٠٧٧م ، وزوج آنذاك شقيقته ايلين بابن الثائر نقفور برينيوس (انظر Bryennios, III, ch, VII, p. 224) ونجح فى رد هجمات الكومان عن أدرنة فى أوائل عام ١٠٩٥م انظر :

Alexiade, II, p. 194.

(37) Alexiade, II, p. 104. Cf. Chalandon, Alexis, pp. 151-154, Bréhier, Vie et Mort de Byzance, pp. 251-252.

ايفارست [٣٨] Evariste أن أول من حمل لقب برينيوس كان فى نهاية حكم الامبراطور ثيوفيل [٣٩] (٨٢٩ — ٨٤٢م) وذلك حوالى عام ٨٤٠ — ٨٤١م • لقد ورد فى هذا المصدر أن الشاب سرج Serge البالغ ما يناهز العشرين عاما ، ذهب بصحبة والده الى القسطنطينية فى السابع عشر من ابريل سنة ٨١٩م • ولم يرد فى سيرة ايفارست مبررات هذه الزيارة ، بل اقتصر النص على الاشارة الى أن الوالد وابنه قاما بزيارة كنائس وأديرة العاصمة البيزنطية ، وأنه أثناء اقامتهما بها ، أستضافهما أحد كبار الموظفين من النبلاء ويدعى برينيوس • وكان برينيوس هذا رجلاً مشهورا ذائع الصيت ، تم تكريمه فيما بعد بأن أنعم عليه بلقب بطريق [٤٠] ، وكان على صلة قرابة بسرج ووالده [٤١] •

ويمرور الزمـــن ، عـــاد والد سرج الى داره فى غلاطيـــة [٤٢] Galatie ، تاركا ابنه فى رعاية قريبه برينيوس الذى أعجب بذكائه وحسن سلوكه واستعداده الفطرى ، فحظى برعايته الخاصة وحبـــه وتقديره له • وكافأه بأن جعله أول خادم فى بيته • وقد توافق هذا العمل مع ميول سرج بسبب تدينه الشديد •

---

(٣٨) كان القديس ايفارست ابن شقيق برينيوس . انظر :

Bryennios, tr. Gautier, p. 12.

(٣٩) أخطأ « بوليميس » حين قال أن برينوس هذا كان معاصرا لعهد الامبراطور البيزنطى ليون الثالث (٧١٧ — ٧٤١م) . وصحة ذلك كما اثبتنا . انظر :

Polemis, The Doukai, p. 112.

(٤٠) عن لقب بطريق أنظر الحاشية الاولى من هذا البحث .

(41) C. Van De Vorst. La Vie de St. Evariste, dans An. Bollandiana, 41, 1923. p. 300.

(٤٢) عنها أنظر :

Bouillet, Dictionnaire Universel dlhistoire et de Géographie, Paris, 1871, p. 719.

وفى تلك الاثناء توفى الامبراطور ثيوفيل فى العشرين من يناير سنة ٨٤٢م ، وانتقلت مقاليد الحكم الى زوجته ثيودورا • فكلفت الامبراطورة برنينوس هذا بسفارة الى بلاد البلغار ، واضطر سرج أن يسير فى ركاب حاميه وعائله وقريبه • وهناك أعجب سرج بحديث الناس عن حياة الديرية والرهبنة ، مما أيقظ شعوره الدينى وميله الى هذه الحيـــاة • فضلا عن ذلك أهداه أحد سكان هذه البلاد أثناء الرحلة كتابا عن حياة القديس أفرايم السريانى [٤٣] Saint Ephrem le Syrien فتـــأثر الشاب تأثرا بالغا حين قرأ فصلا يتحدث عن يوم الحساب ، حتى أنه قرر هجرة أصدقائه وذويه والانضمام الى جماعة الرهبان المنعزلين فى الجبل المجاور [٤٤] •

لقد أحاطتنا المصادر البيزنطية علما بأنـــه باعتلاء ثيودورا عرش الامبراطورية ، التجأ تزار بلغاريا Tzar de Bulgarie الى مناورة التخويف • فبمجرد علمه بأن عرش الامبراطورية تشغله امرأة ، أرسل الأميربوريس Boris برسله الى الامبراطورة الجديدة يخبرها

---

(٤٣) هو أبو الكنيسة السريانية . ولد القديس افرايم فى نصيبين حوالى عام ٣٢٠م وتوفى عام ٣٧٩م . له العديد من المصنفات الدينية خاصة تلك التى هاجم فيها معتقدات الهراطقة . كتب مؤلفات بالسريانية وترجمها الى اليونانية جيرار فوسيوس Gérad Vossius وذلك فى ثلاثة مجلدات مخطوطة بين أعوام ١٥٨٩ و ١٥٩٧م . ثم قام اسيمانى Assemani بترجمة مؤلفـــات القديس أفرايم الى اللاتينية وذلك بين أعـــوام ١٧٣٢ و١٧٤٦ م . ثم ظهرت ترجمة فرنسية سبقتها أرمنية . للتفاصيل انظر :

Bouillet, Dictionnaire, p. 607.

(44) Van de Vorst, La Vie de St. Evariste, p. 300. Cf. F, Halkin, Un ermite des Balkans au XIV esiecle, dans Byzantion, 31, 1861, p, 129, n. 2.

بأنه سيناصبها العداء ، وسيعاود الحرب اذا لم تعلن خضوعها له • لكن ثيودورا رفضت بصرامة تهديدات العاهل البلغارى [٤٥] •

ثم يقابلنا بعد ذلك فى القرن التاسع الميلادى أيضا شخصا ثانيا يحمل لقب برينيوس ، يشغل وظيفة ستراتيجوس [٤٦] Stratège ثيم دلماشيا [٤٧] Dalmatie • ولما كان هذا الثيم قد أنشأ فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى فيما بين عامى ٨٥٦ و٨٩٩ م [٤٨] ، فمن المحتمل أن يكون برينيوس هذا هو البروتسباثير

---

(45) Theophane Continué, p. 162; Skylitzes - Cedrenus, p. 15 I, Zonoras, p. 387.

وقد أدرجت المصادر البلغارية هذه الاحداث تحت عام ٨٥٢م انظر :

Runciman. A History of the First Bulgarian Empire, Londres, 1930, p. 90.

(٤٦) الستراتيجوس هو قائد الاقليم الادارى والعسكرى . وكان البيزنطيون يطلقون على كل اقليم اسم « ثيم » . وللستراتيجوس جند خاص به يشكلون حرصه الشخصى ، أطلق على هؤلاء « رجاله » . والستراتيجوس بمثابة نائب الامبراطور فى اقليمه ، مسئول عن أمنه وادارته . وكانت الامبراطورية البيزنطية مقسمة الى ثيمات أسيوية فى آسيا الصغرى ، وثيمات أوروبية فى شبه جزيرة البلقان (للتفاصيل انظر Bréhier, Les Institutions, pp. 360 - 362.) واذا كان للثيم البيزنطى أهمية كبيرة ، كان يسمى قائده « دوق » بدلا من ستراتيجوس . انظر :

Guilland, Recherches sur les Institutions Byzantines, Berlin, 1967, t. I. p. 392; Oikonomides, L' Organisation de la Frontière Orientale de Byzance au XI e siecle CIEB, 14, 1971, pp. 73 - 90.

أنظر أيضا نعيم فرح : تاريخ بيزنطه — دمشق ١٩٧٨ — ص ٢٢٤ .

(٤٧) عنها انظر :

Bouillet, Dictionnaire, pp. 491 - 492.

(48) Constantine Porphyrogenete, De Thematibus, éd. Pertusi, Cité du Vatican, 1952, pp. 40 - 43.

(الصدر الأعظم) Protospathaire ثيوكتست[٤٩] Théoctiste •

اسرة برينيوس فى القرن العاشر الميلادى :

(أ) البطريق برينيوس :

الا أن آل برينيوس بعثوا من جديد ، وعادوا الى ماضيهم المشرق ثانية ، وذلك خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، اذ قاموا بدور بارز — كما سيتضح فيما بعد — فى تسيير مجرى الأمور فى الامبراطورية البيزنطية • ففى عام ١٠٥٠ م ، قرر الامبراطور البيزنطى قسطنطين مونوماك (١٠٤٢ — ١٠٥٥ م) وضع حد لاغارات البشناك المستمرة على تراقيا • تحقيقا لهذا الهدف ، حشد جيشا من المرتزقة بلغ عشرين ألف مقاتل من الفرنج والورنك Varangues وفرسان من آسيا ، أسند قيادته الى البطريق برينيوس[٥٠] الذى اختار مدينة أدرنة مسقط رأسه لتكون قاعدة لعلمياته الحربية • كذلك تم اسناد ادارة العمليات الحربية الى البطريق ميخائيل اكولوثوس Michel Akolouthos • وتمكن القائدان من سحق العصابات التى كانت ترتكب جرائم السلب والنهب والاختطاف فى جولويه Goloé ثم فى توبلتزوس Toplitzos بالقرب من أدرنة • وانتهى الأمر بانكسار جيش أعداء الامبراطورية فى خاريوبوليس Charioupolis • وكان الانتصار

(49) Bryennios, tr. Gautier, p. 14; Constantine Porphyrogenete De Administrando Imperio, éd0 Jenkins, ch. 50, p. 232, Ibidem, t. II, Commentary, pp. 185 - 186.

انظر أيضا محمود سعيد عمران : ادارة الامبراطورية البيزنطية — بيروت ١٩٨٠ — ص ١٨٥ — ١٨٦ وكذلك :

A. Bon, Le Péloponèses Byzantin Jusqu'en 1204, Paris, 1951, p. 47, n. 5 et p. 199.

(٥٠) Skylitzes - Cedrenus, p. 603 وعن الورنك انظر فايز نجيب اسكندر : أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة ، ص ١٨٤ — ١٨٥ ، حاشية رقم ٢٨٧ •

حاسما لدرجة أن هؤلاء البرابرة كفوا عن شن هجماتهم واغاراتهم خلال العامين التاليين ، أى خلال عامى ١٠٥١ و١٠٥٢ م(٥١) .

ويظهر اسم البطريق برينيوس للمرة الثانية فى عهد مونوماك فى نهاية عام ١٠٥٤ م ، اذ أسندت اليه قيادة كل الوحدات العسكرية المقدونية لقتال الأتراك السلاجقة فى الشرق(٥٢) . وحدث أنه عندما علم بنبأ وفاة الامبراطور البيزنطى قسطنطين مونوماك فى الحادى عشر من يناير سنة ١٠٥٥ م ، انسحب بكل قواته الى خريسوبوليس Chrysopolis ، وكان لرجوعه على أعقابه بغير أوامر صادرة اليه، آثاره الوخيمة على نجمه الساطع ، اذ تم تأويل تصرفاته هذه على أنها عصيان وتمرد على السلطة الامبراطورية . لذا ، قامت الامبراطورة ثيودورا التى تولت مقاليد الحكم عقب وفاة مونوماك ، بمصادرة أملاكه ونفيه(٥٣) . واستمر هذا العقاب أمدا قصيرا ، ففى السابع والعشرين من أغسطس سنة ١٠٥٦ م ، أصبح ميخائيل ستراتيوتيكوس Michel leStratiotique امبراطورا ، فاستدعى القائد برينيوس من منفاه ، وأوكل اليه حكم قبدوقيا ، وعينه ستراتيجوس أوتوقراطور (أى له سلطان مطلق) لفرق مقدونيا . وكلفه أيضا بوضع حد لاغارات

---

(51) S Kylitzes Cedrenus, pp. 603 - 604, Attaliates, pp, 33 - 37 .

والجدير بالملاحظة أن أطالياطس لم يزودنا باسماء القادة ، بل ونستخلص من روايته أن قائد الجيش البيزنطى كان أحد رؤساء اللاتين وكان قد سبق له تحقيق بعض الانتصارات . ففى صفحة ٣٣ سطر ١٢ ذكر أطالياطس أن اسم هذا القائد اللاتينى هو « هرفى » Hervé . أما القيصر برنييرس ، فقد أورد نصا جاء على لسان بوتانياتس ، اشار فيه الى اعتزازه بالنصر الذى حققه جده على البشناك . انظر : Bryennios, IV, Ch. III, p. 262. وعن تفاصيل هذه الحملة انظر :

A. Bon, Les Petchénègues au Bas - Danube, Bucarest, 1970. pp. 74 - 75.

(52) Bryennios, p. 15; Skylitzes - Cedrenus, p. 611.

(53) Skylitzes - Cedrenus, p. 611.

الأتراك السلاجقة . وانتهز برينيوس تلك الفرصة المواتية ليطلب من الامبراطور البيزنطى أن يعيد اليه أملاكه التى كانت ثيودورا قد صادرتها من قبل . لكن الامبراطور ميخائيل لم ير يرضخ لمطلبه ، فكظم برينيوس غيظه ، وانتهز الفرصة المواتية للانتقام(٥٤) . وسرعان ما واتتـه تلك الفرصة فى العام التالى . ففى عيد القيامة من عام ١٠٥٧ م ، تلقى القائد البيزنطى دعوة من القادة العسكريين فى آسيا الصغرى لينخرط فى صفوف الثورة التى ينسجون خيوطها ضـد الامبراطور البيزنطى ميخائيل ، فوافق فى الحال على دعوتهم(٥٥) . وسار القائد فى ركاب رفاقـه مسـترجعا طـريق الشرق ووبصـحبته حنـا ابوسـاراس Jean Oposaras . كان هذا فى يونيو عام ١٠٥٧ م . وبوصوله الى ثيم الأناضول ، ألقى القبض على حنـا ابوساراس وكان مكلفـا بحراسة رواتب الجند ، وقد سبق له الاعتراض على سخاء برينيوس وكثرة هباته. الا أن قائدا مجاورا يدعى البطريق ليكانثيس Lycanthes أخبر بمسلك برينيوس هذا ، فشك فى عصيانه ، وتقدم لقتاله على رأس كتيبتين . وهكذا تم القبض على البطريق برينيوس ، وسلم الى حنـا ابوساراس الذى سمل عينيه فى الحال وأرسله مقيدا بالاصـفاد الى الامبراطور البيزنطى(٥٦) . وكان لهذا الحادث عواقبه الطيبـة ، اذ تم الافراج عن القادة العسكريين الذين كانوا قد انخرطوا فى هذه الثورة ، وأعقب ذلك العفو عنهم .

---

(54) Bryennios, P. 15; Skylitzes - Ce drenus, p. 616.

(55) Bryennios, p. 15; Skylitzes - Cedrenus, p. 620; Attaliates, pp. 53 - 54.

(٥٦) لمزيد من التفاصيل أنظر :

Skylitzes - Cedrenus, pp. 621 - 622; Attaliates, p. 54; Zonoras; pp. 657 - 658; Anne Comnène, II, p. 194. Cf. Wittek - de Jongh, Le César Nicephore Bryennios l'historien et ses ascendants, dans Byzantion, XXV, 1953, pp. 466 - 467.

والسؤال الذى يطرح نفسه هو : ما هو الاسم الشخصى لبرينيوس هذا ؟ لقد تجاهل الاجابة عن هذا السؤال كل من أطالياطس وزونوراس، الا أن سدرينوس — الذى تحدث عن هذا القائد العسكرى — انفرد مرة واحدة فقط بتسميته البطريق نقفور برينيوس •

على أية حال ، اختفى هذا القائد بعد ذلك عن مسرح الأحــداث • الا أننا نعتقد أنه عاش على الأقل بعض الوقت فى عزلة وحزن وعذاب • ومع ذلك ، فاننا نعلم أن زوجته آن ، والتى كانت لا تزال تعيش فى أدرنة حتى أوائل شهور عام ١٠٧٨ م ، كانت تحمل لقب قربلاطيسا(٥٧) Curopalatissa ، مما يؤكد بالضرورة أن زوجها قد رقى فيما بعد الى مرتبة قربلاط Curopalate • ويبدو أن هذه الترقية قد أنعم عليه بها الامبراطور اسحق كومنين (١٠٥٧ — ١٠٥٩ م) ، والذى نجح فى اعتــلاء عرش الامبراطورية عقب مشــاركته فى ثورة القــــادة العسكريين • ومع ذلك ، فمن المحتمل أن برينيوس هذا لم يحمل لقب نقفور ، لكن ابنه هو الذى حمل هذا الاسم الشخصى(٥٨) •

(ب) القائد نقفور ، قائد الجناح الأيسر للجيش البيــزنطى فى معركة ملاذكرد :

أنجب البطريق ثم القربلاط برينيوس فيما بعد من زوجتــه آن

---

(٥٧) تنتمى آن الى اسرة فاتاتزس Vatatzes (انظر :
(Bryennios, III, ch. VIII, p. 224, n.3

وقد ورد ذكرها فى مصنف برينيوس عند حديثه عن زواج ايلين من ابن شقيق برينيوس ، أى ابن حنا برينيوس • وتنتمى الى أسرة ترخانيوتسا Tarchaniotissa انظر Bryennios, III, ch. VII, pp. 224 - 225, n. 4.

(58) Bryennios, p. 16.

والتى تبدو أنها من اسرة فاتتزينا[٥٩] Vatatzina ، أنجبا ولدين على الأقل هما : نقفور وحنا[٦٠] • وكان الأكبر المدعو نقفور قد تعلم فنون الحرب والقتال — حسب عادة ذلك العصر — على يد والده ، وتالق نجمه خلال عهد رومانوس الرابع ديوجينيس (أول يناير ١٠٦٨ — ٢٦ أغسطس ١٠٧١ م) • فقد ذكرت المؤرخة آن كومنين — زوجة المؤرخ نقفـــور برينيوس وابنة الامبراطور الكسيس كومنين — أن العـــاهل البيزنطى رومانوس كان يقدر ذكاء قائده نقفور وسلوكه الحميد ، حتى أنه قـــرر اعتباره شقيقه بالتبـــنى[٦١] • وقد شـــارك القائد نقفـــور برينيوس[٦٢] فى معركة ملاذكرد[٦٣] سنة ١٠٧١ م ، وكان آنذاك يحمل

---

(٥٩) أكد برينيوس ذلك فى كتابه الثالث الفصل الرابع (انظر
Bryennios, III, ch. IV, p. 224.

وكذلك ذكر أطالياطس أن امرأة من أسرة فاتاتزس بذرت بذور الفوضى والاضطراب فى رايدستوس Rhaidestos وذلك سنة ١٠٧٧ م • وكان زوجها ينتمى الى عائلة الثائر برينيوس (انظر Attaliates, pp. 244 - 245.

ويبدو على حسب ما ورد فى بعض الروايات البيزنطية أن آن كانت شقيقة حنا فاتاتزس Jean Vatatzès القائد المخلص لليون ترونيكس وقد انجبت آن ولدين هما نقفور وحنا • انظر
Skylitzes - Cedrenus, p. 564; Zonoras, pp. 630 - 631.

(٦٠) ذكر برينيوس فى مصنفه أن حنا هو شقيق برينيوس (انظـــر (Bryennios, III, ch. VI, p. 216. وعن نقفور (انظر Alexiade, I, p. 20. أما عن حنا فانظر • (Alexiade, I, pp. 17 - 28.

(61) Alexiade, II, p. 196.

(٦٢) هو جد المؤرخ نقفور برينيوس ، وقائد الجناح الأيسر فى معركة ملاذكرد • انظر Bryennios, I, ch XV, p, 110.

(٦٣) عن الدراسة المقارنة لمصادر معركة ملاذكرد أنظر فايز نجيب اسكندر : البيزنطيون والأتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد — الاسكندرية ١٩٨٤ •

لقب ماجستروس[٦٤] ، وأسندت اليه مهـام دوق كل الغـرب[٦٥] . وبوصول الجيـش البيزنطى الى قبـدوقيا[٦٦] ، توسل نقفـور الى الامبراطور رومانوس أن يتحصن فيها ، أو على الأقل أن لا يتخـطى ثيدوسيوبوليس[٦٧] Thoédosiopolis ، وأن يظـل فى الأراضى البيزنطية فى منطقة يتأقلم فيها الفرسان والمشاة . ولكن لم يؤخـذ برأيه[٦٨] . وأثناء الاقتتال الذى خاض غماره فى ضواحى ملاذكرد ، لم يكن حسن بلاء نقفور أقل من شجاعته ومهارته الحربية[٦٩] . ففى خلال المعركة الحاسمة ، وكان ذلك فى السادس والعشرين من أغسطس سنة ١٠٧١ م[٧٠] (١٤ من ذى القعدة سنة ٤٦٣ هـ) ، أسندت اليه قيـادة

---

(٦٤) « الماجستروس » من الوظائف الهامة فى البـلاط البيزنطى ، وتتساوى مع وظيفة مستشار الدولة . فى بداية الأمر وجد ماجسـتروس واحد . لكى مع مرور الزمن ، وصل عددهم الى أربعة عشر . كذلك أعطى هذا اللقب الى قواد الجيش وخاصة قادة سلاح الفرسان والمشـاة . وكان الماجستروس فى مرتبة تفوق مرتبة القربلاط . للتفاصيل انظر :
Arisdaguès, p. 10, n. 3; Aristakès, p. 6, n. 3.

(65) Bryennios, I, ch. XIII, p. 106. ومهام دوق كل الغرب La charge de Duc de tout L'Occident تساوى وظيفة « دمستق شولز الغرب » Domestiques des Scholes d'Occident للتفاصيل أنظـر :
Cuilland, Recherches, I, p. 430.

(٦٦) اعتبر اقليم قبدوقيا منذ عهد الرومان أفضل اقاليم رعى الخيل ، حيث وجدت فيه مراع لتربية الخيل خاصة بالامبراطور البيزنطى . أنظـر وسام عبد العزيز : دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية — الاسكندرية ١٩٨٢ — ص ٣٣٩ ، حاشية رقم ٢٩ .

(٦٧) للتفاصيل المطولة عن ثيود وسيوبوليس موقعها وأهميتهـا ومختلف تسمياتها أنظر فايز نجيب اسكندر : ملاذكرد ، ص ٥١ — ٥٣ ، حاشية رقم ٥٤ .

(68) Bryennios, I, ch. XIII, p. 107.

(69) Bryennios, I, ch XV, p. 112.

(٧٠) عن اختلاف المصادر فى تحديد تاريخ معركة ملاذكرد انظـر حاشية رقم ١٥ .

الجناح الأيسر للجيش البيزنطى • وحاول آنذاك الاتجاه نحو الامبراطور البيزنطى لنجدته عندما علم أنه فى موقف لا يحسد عليه ، الا أنه كان محاطا بالأعداء السلاجقة احاطة الدائرة بمعصم اليد ، فاضـــطر الى الفرار من ساحة القتال • وكان لفراره هذا آثاره الطيبة ، اذ لم يسقط أسيرا فى قبضة السلطان السلجوقى الب أرسلان[٧١] (٤٥٥ — ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ — ١٠٧٣ م) •

ويبدو أنه فى عام ١٠٧٤ م ، شعر الامبراطور ميخائيل دوقاس (١٠٧١ — ١٠٧٨ م) أمام الأخطـــار المحدقة بربـــوع الامبراطورية البيزنطية سواء من الشرق أو من الغرب ، شعر أنه من الحكمة البحث عن شخص قادر على ارجاع الأمور الى مسارها الصحيح • ووقع اختيـــاره على نقفور برينيوس الذى كان يقيم آنذاك فى أدرنة[٧٢] موطن رأس أجداده • وقد حظى هذا الاختيار بموافقة مستشارى الامبراطور ، الا أن قسطنطين[٧٣] ، نائب الاميرال البحرى[٧٤] drongaire وأحد اقرباء الامبراطور[٧٥] ، حذره من خطورة اتخاذ مثل هذا القرار ، ونجح دون

---

(71) Bryennios, tr. Gautier, I, ch. XVI, p. 114; tr. H. Grégoire, p. 491.

(72) Bryennios, III, ch. II, p. 210.

(٧٣) كان قسطنطين ابن شقيقة الامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع دوقاس (انظر Bryennios, III, ch. II, pp. 210 - 212 وسيزداد تقربا منه عقب زواجه من ابنة عم مارى دالانى Marie d'Alanie زوجة الامبراطور البيزنطى .

انظر :

Gautier, La curieuse ascendance de Jean Tzetzes, R.E.B., XXVIII, 1970. pp. 212 - 216.

(٧٤) لمزيد من التفاصيل عن وظيفة « درنجير » drongaire

انظـــر : Guilland, I, pp. 563 - 587.

(75) Bryennios, III, ch. II, p. 210.

معاناة فى أن يثنيه عن عزمه ويجعله يعدل عن رأيه(٧٦) • اذ — على حد قول المؤرخ نقفور برينيوس — كان العاهل البيزنطى خجولا ويرتاب من ظله(٧٧) •

وعقب ذلك ، قام الامبراطور ميخائيل باستدعاء نقفــــور الى القسطنطينية حيث عينه فى وظيفة دوق(٧٨) بلغاريا(٧٩) • فشغلها طوال عامى ١٠٧٤ — ١٠٧٥ • ثم بعد ذلك عينه فى وظيفة دوق دوراخيوم(٨٠) مع منحه لقب « برוودر »(٨١) proèdre • وفى عام ١٠٧٧ م ،

---

(76) Bryennios, III, ch. II, pp. 210 - 212.

(77) Bryennios, III, ch. II. p. 212.

(٧٨) لمزيد من التفاصيل عن وظيفة الدوق فى القــــرن الحادى عشر الميلادى انظر :

Ahrweiler, Reches sur l'administration de l'empire Byzantin aux IX - XI esieces, Bulletin de Correspondance He lenique, 84, 1960, pp. 61 - 63; T. Wasilewski, Les Titres de Duc, de Catépan et de pronietis dans l'empire Byzantin du IXe Jusqu'au XIIe siecles, dans actes du XIIe Congres internation al d'Etudes Byzantins, 11, Belgrade, 1964, pp. 233 - 239.

(٧٩) أى دوق على مقدونيا الغربية مع الاقامة فى سكبجى SKOPJE انظــر :

Banescu, Les duches Byzantins de Paristrion et de Bulgarie, Bucarest, 1946, pp. 118 - 132 et 147 - 149.

(٨٠) أشار نقفور برنييوس فى مصنفه الى أن دوراخيوم كانت عاصمة الليريا Illyricum انظر : Bryennios, III, ch. III, p. 212.

(٨١) فى سنة ٩٦٣ م ، استن الامبراطور البيزنطى نقفور غوقاس لقب « برוودר » Proèdre ، أى رئيــس ، وأنعــم به على البراكيموميين Parakimomène باسيل Basile l'oiseau الابن الغير الشرعى لرومانوس ليكابينوس مكافأة له على مساندته لاعتلاء عرش الامبراطورية للتفاصيل انظر :

Léon le Diacre, Histoires, p. G., CXVII,.. III, 8, p. 732. Cf. Diehl, De la Signification du titre de proèdre, pp. 105 sqq.)

=

كان لا يزال يشغل هذه الوظيفة(٨٢) • ففى نفس هذه المدينة — أى فى دوراخيوم الواقعة على ساحل البحر الادرياتى — نسج القائد نقفور خيوط ثورته التى جعلته فى عداد المشهورين(٨٣) • الا أن مبررات ثورته فى أكتوبر سنة ١٠٧٧ م ليست واضحة المعالم(٨٤) ، ويكتنفها الغموض• فالمؤرخان اللذان تحدثا عنها ، وهما القيصر نقفور برينيوس والمؤرخ ميخائيل أطالياطس شاب كتابتهما الانحياز والبعد عن الحياد • فالأول يسرد الأحداث بانحياز كامل لزعيم الثورة بدافع صلة القرابة بينهما ، أما الثانى ، فقد كان مشايعا صريحا لنقفور بوتانياتس Nicephore Botaniate • أما بصدد علاقته بنقفور برينيوس دوق دوراخيوم والطرف الثانى فى الصراع ، فقد شابها الكره والبغض والاحتقار •

(جـ) حنا برينيوس ، شقيق القائد نقفور :

والسؤال الآخر الذى يفرض نفسه هو : ما هو دور حنا برينيوس — شقيق نقفور برينيوس — والذى يقال عنه انه الرأس المدبرة للثورة

=

وقد خصص الامبراطور قسطنطين بورفيروجنيتس فصلا من كتابه Le Livre des Cérémonies
للحديث عن شروط منح هذا اللقب الجديد (انظر :
Le Livre des Céremonies, tr. Vogt, 1935, I, p. 97.)
وفى سنة ١٠٢٥ م ، أنعم قسطنطين السابع بلقب « بروودر » على ثلاثة من الطواشية . وبذلك فقد هذا اللقب قيمته وهيبته خاصة وانه فى القرن الحادى عشر أصبح منتشرا بين بعض رؤساء الدواوين والأطباء . انظر :
Diehl, op, cit., pp. 110 - 117.

(82) Bryennios, III, ch. III, p. 212.

(٨٣) للتفاصيل عن ثورة نقفور برينيوس انظر :
Bryennios, III, ch. V, pp. 217 - 218.

(٨٤) ذكر زونوراس أنه ثار عندما علم بقرار عزله عن القيادة انظر :
Zonoras, p. 715.

والمحرض عليها ؟[٨٥] لقد أشار الى دوره المؤرخ نقفور فقال ان حنة ونقفور بازيلاكس اتفقا على اعادة برينيوس من الليريا على وجه السرعة ، لتنصيبه على رأس مؤامرتهما[٨٦] • اذ أرسل اليه حنا خطابا يحثه فيه على الاسراع بالانخراط فى صفوف الثورة • الا أن نقفور تردد طويلاً فى اتخاذ قراره رغم خطابات حنا المتلاحقة[٨٧] • ويبدو أن البروودر نقفور قد تخلى عن طموحاته فى اعتلاء عرش الامبراطورية البيزنطية ، فربما كان العرش مبعث طمع من قبل أشخاص آخرين • فقادة النصف الثانى من القرن الحادى عشر ومن بينهم نقفور ، كانوا دائمى الشكوى من الامبراطور البيزنطى لشدة بخله ، ونكرانه للجميل • فعلى الرغم من مصاريفه الشخصية الباهظة ، لم يكن يكافىء القادة العسكريين على أعمالهم الحربية البطولية • فعلى سبيل المثال ، تمكن الماجستروس حنا برينيوس من احراز نصر حاسم على السيث[٨٨] Scythes ، ورغم ذلك ، فقد خرج خالى الوفاض من حربه الظافرة، علما بأنه طالب الامبراطور البيزنطى أن يكافئه على ما حققه من نصر وكان هذا مثار غضبه واستيائه[٨٩] • كذلك كان حال نقفور بازيلاكس[٩٠]

---

(٨٥) للتفاصيل انظر :
Bryennios, III, ch, IV - V, pp. 214 - 218.

(86) Bryennios, III, ch. IV, p. 216.

(87) Bryennios, III, ch. V. p. 218.

(٨٨) السيث Scythes شعب من أصل ايرانى كان يسكن « سيثيا » التى تقع فى شمال أوروبا الشرقى ، وتمتد بين الدانوب ونهر الدون ، فى شمال البحر الأسود . انظر جوزيف رينو : الفتوحات الاسلامية فى فرنسا وايطاليا وسويسرا فى القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادى — تعريب اسماعيل العربى — الجزائر ١٩٨٤ — ص ١٦١ ، حاشية رقم ١٩ •

(89) Bryennios, III, ch. IV, p. 216.

(٩٠) كان الماجستروس نقفور بازيلاكس دوقا على ثيود وسيوبوليس (انظر
Attaliates, p, 155; Skylitzes Cedrenus, p. 154, Zonoras, 697)
=

الذى اشتهر بسالته فى خوض غمار الحرب ، مما دفع بالقائدين الى التآمر على العاهل البيزنطى البخيل[٩١] •

ثورة نقفور وحنا على الامبراطور بوتانياتس :

على أية حال ، كانت المعارك التى خاضها برينيوس فى سبيل الوصول الى عرش الامبراطورية البيزنطية فى غير صالحه ، ومع ذلك ، فقد احتل المكانة اللائقة به • اذ تفوق على منافسه الشرقى بوتانياتس ، ذلك القائد الطاعن فى السن • ولكون برينيوس عسكريا متغطرسا ، وسياسيا يتميز بالرعونة ، لذا رفض الاعتراف بالأمر الواقع • اتضح ذلك جليا حين رفض لقب « قيصر » الذى عرض عليه ثمنا لاذعانه وطاعته • فلقد أورد المؤرخ نقفور برينيوس فى مصنفه « كتب التاريخ الأربعة » نص رسالة بوتانياتس التى جاء فيها : « ••• سبق لى التعرف على والدك ، ذلك القائد الشجاع ، الذى أحرز العديد من الانتصارات على السيث • فقد كنت رفيقه فى السلاح وأعلم جيدا أنك خير خلف لخير سلف • لهذا ، وبما أن الله رفعنى على عرش الامبراطورية ، أود أن تكون ابنى بالتبنى ووريثى الشرعى • واتمنى أن أرى فيك ابنا مخلصا كريما وليس ابنا شرسا ، وسندا قويا لى بسبب

=

وقد سقط أسيرا فى قبضة الاتراك السلاجقة أثناء معركة ملاذكرد (انظر Attaliates p. 165; Skylitzes - Cedrenus, p. 152)

وثار فيما بعد على ميخائيل السابع (١٠٧١ — ١٠٧٨ م) وعلى بوتانياتس (١٠٧٨ — ١٠٨١) انظر :

Attaliates, p. 155; Skylitzes - Cedrenus, p. 154; Zonoras, p. 697, cf. Laurent, op. cit., p. 62, n. 3.

وللتفاصيل المطولة عن ثورته أنظر :

Bryennios, pp. 216, 284 - 287, 290 - 298.

(٩١) عن تفاصيل اتفاق الثائرين انظر :

Bryennios, III, ch IV - V, pp, 216 - 218.

ضعفى نتيجة شيخوختى • واليوم ، تقبل منى لقب « قيصر » ، ذلك اللقب الذى يأتى بعد لقب الامبراطور مباشرة • وفيما بعد ، ستصبح خليفتى على عرش الامبراطورية »(٩٢) • لكن برينيوس — على حد قول المؤرخ نقفور — لم يقبل التخلى عن مناصريه من قادة وجنود وأشراف ، واعتبر الموافقة على قبول لقب قيصر بمثابة طعنة مصوبة الى قلوب رفاقه ، وتصرف يتسم بالأنانية • لذا واصل قتاله(٩٣) • وكان من الممكن أن ينجح برينيوس فى التربع على عرش الامبراطورية اذا لم يستعن بوتانياتس بالقائد الشاب الكسيس كومنين(٩٤) الذى يتصف بالمكر والذكاء والدهاء • وقد استعاض الكسيس من قلة أعداد جيشه بأن استن نظم تكتيكات التحرش والكمائن والهجمات الخاطفة ، والتى أحسن التمرس عليها بحنكة بالغة أثناء قتاله ضد الأتراك السلاجقة(٩٥) •

وهكذا أتت الرياح بما لا تشتهى السفن، اذ انتهى الأمر بأسر برينيوس حوالى ابريل أو مايو سنة ١٠٧٨ م ،ولقى نفس مصير والده بأن سملت عيناه(٩٦) • لكن ما لبث العاهل البيزنطى أن رق قلبه على قدر وتعاسة رفيقه فى السلاح ، فأصدر اوامره فى الحال بارجاع كل أملاك برينيوس والتى كانت قد صودرت من قبل(٩٧) • كذلك حظى شقيقه حنا بالعفو عنه ، الا أنه اغتيل بضربة خنجر(٩٨) على يد أحد الورنك في نفس لحظة

---

(92) Bryennios, IV, Ch. III, p. 262.

(93) Bryesnios, IV, ch. III, pp. 262 - 263.

(94) Bryennios, IV, ch. II, pp. 258 - 260 .

(95) Bryennios, IV, ch. XI, p. 276.

(96) Bryennios, IV, ch. XVII, p. 282; Alexiade, I, pp. 27 - 28; Attaliates, p. 292; Skylitzes Continué, p. 181; Zonoras, pp. 721 - 722.

(97) Bryennios, IV, ch. XVIII, p. 284 et notes 1 - 2.

(98) Bryennios, IV, ch. XVIII, p. 284; Skylitzes Continué, p. 181.

خروجه لأول مرة من سجنه عقب العفو عنه[٩٩] •

وهكذا أسدل الستار على ثورة نقفور برينيوس • وتذكر آن كومنين فى أحداث تالية أنه كان لا يزال فى أدرنة عشية حملة أغسطس ١٠٨٧ م ضد البشناك • لكنها لا تذكر أنه شارك فيها ، وتقول أن اباها الامبراطور الكسيس استشاره بصدد العمليات الحربية ، لكونه مستشارا فطنا ومحنكا وذا تجارب ومتمرسا على فنون الاستراتيجية والتكتيكات الحربية[١٠٠] • ويبدو أن المرة الوحيدة التى ظهر فيها على مسرح الأحداث التاريخية كانت فى أوائل ١٠٩٥ م أثناء غزوات الكومان[١٠١] • فعندما حاصر هؤلاء البرابرة أدرنة ، تمكن بسيدو — ديوجينيس Pseudo-Diogène من الاقتراب من أسوار المدينة ، هادفا من ذلك الاعتراف به على أنه ابن الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس من قبل القائد العسكرى نقفور برينيوس شقيق رومانوس بالتبنى • وبناء على هذا الزعم الباطل ، كان بسيدو — ديوجينيس يسمى نقفور عمه • وازاء هذا الادعاء ، تقول المؤرخة آن كومنين أن نقفور برينيوس صعد الى أعلى أحد الأبراج ، وانحنى صائحا بأعلى صوته انه لا يعترف بان بسيدو — ديوجينيس هو ابن الامبراطور رومانوس الرابع[١٠٢] •

من هذا نستطيع القول أن نقفور برينبوس عاش على الأقل سبعة

---

(٩٩) ذكر المؤرخ المكمل لحولية سكيلترز أن حنا برينيوس كان قد جذع أنف أحد الورنك . فتحين هذا الأخير الفرصة المواتية للانتقام منه ، وكان ذلك فى العام التالى . اذ عقب اللقاء الأول الذى جمع حنا برنينيوس مع الامبراطور البيزنطى بوتانياتس ، انقض عليه الورنكى بمجرد خروجه من القصر الامبراطورى ، وارداه قتيلا بضربة خنجر . كان ذلك بلا شك فى ابريل أو مايو من عام ١٠٧٨ م انظر : Skylitzes Continué, p. 181.

(100) Alexiade, II, p. 90 .

(١٠١) عن تأريخ غزوات الكومان انظر :

Gautier, Le Synode des Blanchernes (fin 1094), dans R.E.B., 29, 1971, pp. 280 - 284.

(102) Alexiade, II, p. 196.

عشر عاما فى حزن وألم • وكان فقدانه لبصره حائلا بينه وبين شـغله الوظائف الادارية والعسكرية ، الا أن ذلك لم يقف حجر عثرة فى سبيل ارتقائه أعلى المناصب الشرفية •

ومما يذكر أنه حوالى الشهور الأولى من عام ١٠٩٧ م ، تزوجت آن كومنين من « اليانهيبرسبستى »(١٠٣) Panhypersébaste والقيصر نقفـور برينيوس(١٠٤) • وهـو من اسرة بورفيروجنيتس ، وسليل مباشر لنقفور •

(د) أبناء الشقيقين نقفور وحنا :

هذا هو زعيم الثورة نقفور برينيوس وشقيقه وشريكه فيها حنـا برينيوس • والجدير بالملاحظة أن الشقيقين كان لهما أولادا نجهـل عددهم واسماءهم • وقد تزوج أحد أبناء حنا فى الشهور الأخيرة من عام ١٠٧٧ م بابلين ترخانيوتسا Hilène Tarchaniotissa • وهى احدى شقيقات دوق أدرنة المدعو كاتاكالون(١٠٥) Katakalon • وربما كان ثمرة

---

(١٠٣) فى التنظيم الجديد للرتب والالقاب البيزنطية الشرقية الذى استنه الكسيس كومنين ، جاء لقب « بانهيبرسبستى » Panhyers baste فى المرتبة الثالثة . بينما جـاء لقب « سبستوقراطور » Sébastorator فى المرتبة الأولى ، ولقب قيصر فى المرتبة الثانية ، ولقب بروتوسـبستى Protoséboste فى المرتبة الرابعة . (انظر .Bryennios, p. 321, n. 6)
وكان ميخائيل طرونيت Michel Taronite زوج مارى كومنين شقيقة الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين ، أول من حمل هذا اللقب الجـديد (انظر Aaexiade, I, p. 114; Zonoras, p. 732 . الا انه جرد من القـابه ونفى عقب انخراطه فى مؤامرة ضد الامبراطور البيزنطى وذلك فى يونيو من عام ١٠٩٤ م . انظـر : Alexiade, II, p. 174.

(104) Alexiade, II, p. 196.

(١٠٥) انظر حاشية رقم ٢٩ .

هذا الزواج كاتاكالون برينيوس[١٠٦] • كذلك كان لنقفور برينيوس ابنه تزوجت ماريانوس مافرو اكتاكلون[١٠٧] Marianos Mavrokatakalon
وقد أشار برينيوس الى مآثر ابنه ، الا انه يسميه البطريق برينيوس أو ابن برينيوس[١٠٨] • وفى غضون عامى ١٠٧٧ — ١٠٧٨ م ، نعرف أن ابن برينيوس كان شابا مقداما ، مليئا بالنشاط والحيوية والشجاعة • وكان آنذاك قد بلغ سن المراهقة[١٠٩] • وكان سن المراهقة فى مفهـوم العصر يقع بين عامى ١٦ و٢٠ • وبذلك يكون ابن برينيوس قد ولـد حوالى عامى ١٠٥٥ و١٠٦٠ م •

نتيجة لذلك ، اختلفت آراء المؤرخين حول تحديد شخصـية ابن برينوس هـذا اختلافا بينا • فالفـريق الأول وعلى رأسـه ديكانج Du Cange وبوسين Poussines والسيدة وتيك دى جونج يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن البطريق برينيوس كان والد المؤرخ والقيصر نقفور برينيوس[١١٠] • فى حين أن الفريق الثانى والذى يضم سـيجر J. Seger وكرومباخر K. Krumbacher وجيورجينا بوكلـر Georgina Bucklar وكاريل A. Carile يؤكد أن البطريق برينيوس والقيصر برينيوس ليسا الا شخصا واحدا[١١١] • ويدعمون رأيهم بنص أورده زونوراس تحدث فيه عن أبناء الكسيس كومنين ، اذ قـال أن الابنة الكبرى للامبراطور البيزنطى المدعوة آن ، تزوجت أكبر أبنـاء

---

(106) Bryennios, p. 21.

(107) Alexiade, III, p. 111.

(108) Bryennios, III, ch. VIII, p. 228; IV, pp. 278 — 280 ; Alexiade, I, p. 26.

(109) Bryennios, III, ch. IX, p. 228.

(110) Suzanne Wittek - De Jo ngh, Le César Nicéphore Bryennios, Byzantion, XXIII, 1953, pp. 463 - 468.

(111) A. Carile, Il Problena della identificazione del Cesare Briennio, dans Aevum, 38, 1964. pp. 74 - 83 et Il « Cesare » Niceforo Briennio, dans Aevum, 42, 1968, pp. 429 - 454.

نقفور برينيوس وذلك بعد وفاة خطيبها قسطنطين دوقاس[112] •
اضافة الى ذلك ، استند الفريق الثانى الى نصين وردا فى كتاب
« الألكسياد » Alexiade تؤكد فيهما المؤرخة آن كومنين ما أورده
زونوراس[113] • واستندوا فى رأيهم هذا الى فاتحة خطاب أرسله
ثيوفيلكت Théophylacte رئيس أساقفة بلغاريا ، الى « برينيوس » ،
والد صهر الامبراطور »[114] • الا أن العالم بول جوتييه
Paul Gautier دحض هذا الزعم ، وصحح نص آن كومنين
وزونوراس ، وأكد أن المقصود هو حنا برينيوس الدوق المكلف باقامة
العدالة • قد عثر على خاتم يؤكد صحة افتراضه[115] •

(هـ) المؤرخ نقفور برينيوس :

أما المؤرخ نقفور برينيوس ، فهو من مؤرخى النصف الأول من
القرن الثانى عشر الميلادى ، وابن حنا برينيوس حاكم دوراخيوم[116] •
ولد حوالى عام ١٠٨٠ م ، وكانت زوجته المؤرخة آن كومنين أصغر منه
بقليل • اذ انها ولدت يوم السبت الثانى من ديسمبر سنة ١٠٨٣ م ،
وتزوجا حوالى الشهور الأولى من عام ١٠٩٧ م — كما سبق أن ذكرنا —
بعد وفاة خطيب آن السابق عام ١٠٩٤ م[117] •

وترجع أول اشارة الى نقفور كصهر للامبراطور البيزنطى الى

---

(112) Zonoras, p. 738.

(113) Alexiade, II, p. 91 lignes 8 - 9 et ligne 29.

(114) انظر :

Lettre de Théophylacte, Archeveque de Bulgarie a Bryennios, Pere du gendre du Basileus, dans Bryennios, Documents annexes, pp. 316 - 317.

(115) Bryennios, pp. 22 - 23.

(116) Bryennios, p. 23.

(117) Bryennios, p. 24; Zonoras, p. 738.

الثانى من ابريل سنة ١٠٩٨ م ، اذ ذكرت آن كومنين أن والدها الامبراطور كلف صهره نقفور بتأمين حراسة أسوار القسطنطينية ضد هجوم شنه الصليبيون[118] • أما زونوراس ، فقد أورد أن الامبراطور البيزنطى أنعم عليه بلقب « بنهيارسبستى » بمناسبة زواجه من آن كومنين[119] • كما أنعم عليه بلقب قيصر حوالى عام ١١٠٩ أو ١١١٠ م ، ويؤكد ذلك أنه كان يحمل هذا اللقب عشية وفاة البطريرك البيزنطى نيقولا جراميتيكوس Nicolas Grammatikos وذلك فى أوائل عام ١١١١ م • وفى عامى ١١١٤ و١١١٥م ، ذهب القيصر فى صحبة الكسيس كومنين الى فليبوبوليس ، وبذل قصارى جهده لتحويل بيالصة Manichéens (= Pauliciens) هذه المنطقة عن آرائهم التى تتسم بالهرطقة[120] •وتذكر آن كومنين أن زوجها المؤرخ تولى قيادة الجناح الأيمن للجيش البيزنطى فى آخر حملة قادها والدها ضد الأتراك السلاجقة فى قونية ، كان ذلك فى سنة ١١١٦ [121] م •

وقد أوضح زونوراس مدى ما تمتع به برينيوس من مكانة ونفوذ فى عهد الكسيس كومنين ، حتى أنه عندما مرض العاهل البيزنطى سنة ١١١٨ م ، اعتبرته الحاشية خلفا له على العرش • ففى هذا الصدد يقول زونوراس : « •••• تمتع القيصر برينيوس بمكانة كبيرة ومؤثرة ، حتى أنه كان يعلن بنفسه وبصوته ما كان يحدث فى القصر الامبراطورى[122] • لذا كان الجميع يمثل أمامه • وقد أوكلت اليه أمور

---

(118) Alexiade, II, p. 223.

(119) Zonoras, p. 739.

(120) Bryennios, p. 25; Alexiade, III, p, 182; Zonoras, pp. 753 - 754.

(121) Alexiade, III, pp. 202 et 205.

(١٢٢) يقابل ذلك وظيفة المتحدث الرسمى للدولة فى أيامنا هذه •

العدل ، واتسمت مراسيمه بالطابع الامبرطورى ، واشـــتهر بانه من المهتمين بالآداب »[١٢٣] •

على أية حال ، استماتت آن كومنين ووالدتها ايرين دوكاينا فى اقناع الكسيس بتعيين نقفور برينيوس خلفا له على عرش الامبراطورية البيزنطية بدلا من ابنه الاكبر حنا كومنن • لكن الكسيس لم يرضـــخ لتوسلات ودموع زوجته ايرين • ويذكر المؤرخ البيزنطى خونيات ان الكسيس قال لزوجته : « ••• الا تكفى عن أن تعرضى على ما يعجب ابنتك ويرضى رغباتك ، اذ سينتج عن تلبية ذلك ، القضـــاء على الأمن السائد فى ربوع الامبراطورية • يبدو أنك مدفوعة بأفكار شيطانية ، وأتمنى أن تتسم آراؤك بالاعتدال أكثر من ذلك • فمن من أباطرة الروم القدامى فضل صهره على ابنه خلفا له على عرش الامبراطورية ؟ ومع ذلك اذا افترضنا أن اختيارا مثل هذا قد تم فيما مضى ، فسوف لا يعتبر ذلك الاستثناء قاعدة • وعلى هذا اذا لبيت طلبك فســأكون اضـــحوكة الامبراطورية ، بل سيعتقد الشعب الرومانى اننى معتوه ويحجر على ، ولا أنسى أننى تسلمت زمام الأمور وتربعت على عرش الامبراطورية بطريقة منافية ومخالفة للعقيدة المسيحية ، وذلك بعد ارتكابى لأعمال قتل • وبعد هذا تريدين أن أستبعد ابنى كخلف لى على العرش واعين بدلا منه المقدونى »[١٢٤] • هكذا فشلت محاولات زوجة الكسيس وابنته فى تنصيب المؤرخ برينيوس على عرش الامبراطورية البيزنطية • ويبدو أن نقفور برينيوس قبل تنحيته عن العرش عن طيب خاطر • الا أن زوجته آن — على حد قول خونات — عملت على تحريض المتآمرين ، هادفة من ذلك قتل الامبراطور الجديد حنا كومنين شـــقيقها ، وابداله بالقيصر نقفور برينيوس[١٢٥] زوجها •

(123) Zonoras, pp. 754 — 755.

(124) Nicatae Choniatae Historia, éd. Bekker, C. S. H. B., Bonn 1835, p. 9.

(125) Choniate, pp. 14 — 17.

ولقد أكد العديد من مؤرخى القرن الثانى عشر الميلادى أن نقفور كان واسع الثقافة ، فصيح اللسان ، محبا للآداب ونصيرا لأهله • ولا نستطيع تأكيد ذلك ، لأنه لم تصلنا من مؤلفاته الا « كتب التاريخ الأربعة » التى كتبها فى عجلة تلبية لأوامر ايرين دوكاينا زوجة الكسيس كومنين ووالدة زوجته آن كومنين ، كان ذلك فى أواخر أيام حياته ، اذ انه توفى فى حوالى نهاية عام ١١٣٧ م أو نهاية عام ١١٣٨ م دون اكمال مصنفه • ومما لا شك فيه أن مصنفه هذا لم يكن انتاجه الوحيد ، اذ أكدت آن كومنين فى كتابها عن تاريخ والدها الكسيس كومنين أن زوجها برينيوس ألف العديد من الكتب القيمة التى أكسبته شهرة ذائعة الصيت[١٢٦] • وتواصل سردها قائلة أنه كان محبا للآداب والفلسفة ، لذا حظى ادباء عصره باهتمامه البالغ • وكان هؤلاء يفخرون بالتردد على الصالون الأدبى للامبراطورة ايرين دوكاينا ، وكثيرا ما طلبوا حماية القيصر فى أوقاتهم العصيبة[١٢٧] •

هذه لمحة سريعة عن ألمع أفراد آل برينيوس ، وهو المؤرخ القيصر نقفور برينيوس ، والذى شاء القدر أن يحول بينه وبين الوصول الى عرش الامبراطرية البيزنطية خلفا لالكسيس كومنين ، فحرمت الامبراطورية من أن يعتلى عرشها قائد ينتمى الى اعرق العائلات البيزنطية العسكرية فى أدرنة •

(و) أبناء المؤرخ نقفور برينيوس :

على أية حال ، أنجب نقفور برينيوس ما لا يقل عن أربعة أبناء هم : الكسيس كومنين ، وحنا دوقاس ، وايرين دوكاينا ، وابنة أخرى لم تزودنا المصادر البيزنطية باسمها • تزوج الابن الأكبر الكسيس — الذى

(126) Alexiade, I, p. 5.

(127) Bryennios, p, 39., Geo rges e t Demetrios Tornikes, Lettres et Diseours, éd. J. Darrouzes. Paris, 1970, pp. 250—256.

حمل لقب والد والدته — بأميرة من بلاد الأبخـــاز ، واصـــطحبها الى القصر الامبراطورى فى مانجان Manganes فى الخـــامس عشر من أغسطس سنة ١١١٨ م ، أى فى نفس اليوم الذى كان فيه العـــاهل البيزنطى الكسيس يلفظ أنفاسه الأخيرة[١٢٨] • أما الابن الثانى المدعو حنا دوقاس — والذى حمل لقب والد والده — فقد تزوج هو أيضـــا بأميرة أجنبية ، اتخذت اللقب البيزنطى ثيوردوا ، الا أنها توفيت فى القسطنطينية عقب اصابتها بحمى لازمتها ثمانية أشهر • وكان زوجهـــا آنذاك يحارب جنبا الى جنب مع خاله الامبراطور حنـــا كومنين على ضفاف نهر هاليس • فعاد لتلفظ زوجته أنفاسها الأخيرة فى حضرته • وكان ثمرة هذا الزواج ابن يسمى أيضا نقفور[١٢٩] • وقد ذكر ثيودور برودوم Théodore Prodome أن الشقيقين الكسيس وحنا تزوجا فى يوم واحد ، وذلك عقب الانتصار الذى أحرزه حنا كومنين على الأتراك السلاجقة ، أى فى وقت ما بين عامى ١١١٩ و١١٢٢ م[١٣٠] •

---

(١٢٨) Zonoras, p. 761.

والجدير بالذكر أننا نجهل على وجه الدقة اذا كان الكسيس ، أو الابن الأكبر لحنا كومنين ، قد تزوج بكتا Keta ابنة ملك الكرج داود الثانى (١٠٨٩ — ١١٢٥ م) (انظر Jean Tzetes, p. 208, n. 5

وقد شغل الكسيس منصبى « ميجادوق » Mègaduc و« بروتستراتور » Protostrator فى عهد مانويل كومنين (١١٤٣ — ١١٨٠) (انظر : Choniate. p, 125. Cf. Chalandon, Jean Comnene, p. 219).

وانجب ابنا اسماه اندونيق (انظر Choniate, p. 556.

ولمزيد من التفاصيل عنه انظر :

R. Guilland, Le Chef de IA Marine byzantine, Byzantion XLIV, 1951, p. 226., Polemis, The Doukai, p. 113.

(129) Théodore Prodone, Eloge funebre de L,épouse du fils du «Félic issime» C'sar kyr Nicéphore Bryennios, kyra Théodora, dans Bryennios Appendice p. 354.

(130) Théodera Prcdome. Epithalame pour le fils du César, dans Bryennios A ppendice, p. 350.

أما أولى بنات المؤرخ القيصر نقفور برينيوس ، والتى حملت لقب أم والدتها — أى ايرين دوكاينا — فقد ترملت فى زهرة شبابها • ثم أقامت بجوار الامبراطورة السابقة فى قصر ملاصق لدير للراهبات(١٣١) • ويبدو أنها أنجبت على الأقل ابنا يسمى الكسيس دوقاس ، أصبح فيما بعد دوقا على دوراخيوم وأخريدا Achrida وذلك حوالى منتصف القرن الثانى عشر • اما ابنة نقفور الثانية ، فلم تذكر المصادر البيزنطية أى شىء عنها(١٣٢) •

خاتمـــة :

هكذا سطر أقطاب اسرة برينيوس العـــديد من صفحات تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ولعبوا — كما أوضـــحنا — دورا بارزا فى تسطير أبرز أحداث القرن الحادى عشر والنصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى • فلم تكن هذه الاسرة أقل شأنا من بعض أسر الأشراف الكبيرة مثل أسرة دوقاس وأسرة فوقاس وأسرة كومنين ، اذ انجبت أشخاصا تبؤوا أعلى المراتب ، وتحملوا المسئوليات الجسام ، فأخـــذ نجمهم يسطع حتى كاد البعض منهم يتربع على عرش بيزنطة ســـواء بالقوة والثورة أو بالشرع والقانون •

---

(131) Bryennios, p. 30.

(132) Bryennios, p. 3 l et n. l et 2.

كتاب التواريخ

لباولوس أوروسيوس وترجمته الأندلسية

د٠ عبادة عبد الرحمن كحيلة
مدرس التاريخ الاسلامى
كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

من الأمور التى استرعت أنظار الباحثين ــ شرقيين وغربيين ــ فى السنوات الأخيرة ، ما تميزت به الأندلس من خصوصية معينة ، داخل الاطار العام للحضارة الاسلامية • فقد افترق مسار هذه الحضارة فى الأندلس عن مسارها فى اقطار اسلامية أخرى غير الأندلس[1] •

ولا شك أن التراث الثقفى الذى وقف عليه المسلمون بعد قدومهم الى شبه الجزيرة ، قد لعب دورا وافرا فى طبع الحضارة الاسلامية بطابع خاص ، من مظاهره أن دخلت اللغة العربية ــ والعامية الأندلسية ــ بعض الألفاظ اللاتينية (أو الرومانثية)[2] كما دخلت الشعر العربى

---

(١) راجع فى هذا الشأن الباب التمهيدى من أطروحتنا لدرجة الماجستير ، المولدون فى التاريخ الاندلسى منذ الفتح العربى حتى نهاية عصر الامارة (غير منشورة) جامعة القاهرة ، كلية الآداب ١٩٧٨ ص ٢١ ــ ٤٧ ، أحمد مختار العبادى : الاسلام فى أرض الأندلس ، اثر البيئة الأوربية . عالم الفكر م ١٠ ع ٢ ، ١٩٧٩ ص ٣٤٣ ــ ٣٩٤ .

(٢) توجد تفصيلات عديدة عن هذا التأثير فى :

Dozy , R; Supplément aux dictionnaires Arabes. Deuxiéme Edition. E. J. Brill 1927, Simonet, Francisco Javier : Glosario de voces Ibéricas y latinas usadas entre los Mozàrabes. Madrid, establecimiento tipogràfico de fortanet, 1888.

بعض التأثيرات المسيحية والأيبيرية القديمة ، نقف على نماذج منها فى شعر ابن دراج (ت ٤٢١ هـ) وابن شـــهيد (ت ٤٢٦) وابن زيدون (ت ٤٦٣) ، كما نقف عليها أيضا فى شعر الموشحات والأزجال •

ننتقل الآن الى موضوع هذا البحث ، وهو كتاب التواريخ لباولوس أوروسيوس وترجمته الأندلسية •

(1)

فى مطلع القرن الخامس الميلادى كانت خيل الجرمان تدك أركان الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، وفى سنة ٤١٠ م اقتحم القوط يقودهم ألارك Alaricus قصبة هذه الامبراطورية ، ومع أنهم فارقوها بعد قليل ، بل صاروا حلفاء للرومان ومعاهدين Foederati ، الا أن ما أقدموا عليه من تخريب لروما ، كان له أثره الفادح عند المعاصرين ، فلم يكن يتصـــور أحـــد مصيرا مثـــل ذلك لمدينـــة رومولوس وقيصر واغسطس وقسطنطين •

انصرف عدد من الوثنيين ـــ وكانوا غالب سكان الامبراطورية ـــ فنسبوا الى المسيحية مسئوليتها عما جرى من نكبات لهذه الامبراطورية فى عهدها الأخير[٣] مما آثـــار حفيظة أحد أحبار الكنيســـة ورجالها المرموقين ، وهو القديس أوغسطين Augustinus [٤] فوضع كتـــابه

---

(٣) استمر هذا الاعتقاد فترة طويلة ، وكان منطلقا لادورد جبـــون E. Gibbon فى كتابه الشهير عن اضمـــحلال الامبراطورية الرومانيـــة وسقوطها Decline and fall of the Roman Empire

(٤) عرف عند أهل الاندلس باغشتين وأقشتين ، وذاعت كتبه عندهم ، وترجم بعضها الى العربية ، وفى النص اللاتينى للتقويم القرطبى ، كان النصارى يحتفلون بعيده فى ٢٨ أغسطس • انظر :
Le calendrier de cordue, Publice par Dozy, Leyde 1874. p. 82.
ويلقبه الامام القرطبى ـــ صاحب التفسير ـــ بزعيم القسيسين ويقول « ان النصارى معولون على معرفته مقلدون له فى قومته وقعدته » الاعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام • تحقيق أحمد حجازى السـقا • القاهرة ، دار التراث العربى ١٩٨٠ ج ١ ص ١٤٣ •

« مدينة الله » De Civitate Dei حوالى سنة ٤١٥ (أو ٤١٦ م) يفند فيه هذا الزعم • وحين وفد عليـــه فى مستقره بتونس قسيس اسبانى يدعى أروسيوس Paulus Orosius عهد اليه استاذه بوضع كتاب فى التاريخ ، يوضح فيه ما صادفه الانسان من نكبات على مر العصور ومن أحداث جسام ، لا شأن للمسيحية بها ، انما هى نشأت لأسباب خارجة عنها •

دعى الكتاب الذى ألفه أوروسيوس[٥] « بكتب التواريخ السبعة فى الرد على الوثنيين«Historiarum adversum paganos libri septem» تناول فيه تاريخ الانسانية منذ آدم عليه السلام حتى سنة ٤١٦ م ، وهى السنة التى التقى فيها بأستاذه •

يســـتمد كتاب اوروسيوس أهميتـــه من كونه مصـــدرا لتاريخ الامبراطورية الرومانية فى مرحلتها المتأخرة ، شأنه فى ذلك شأن كتب يوسبيوس[٦] Eusebius (ت ٣٤٠ م) وايرونيموس[٧] Hieronymus وهو القديس جيروم (ت ٤٢٠ هـ) ويوتروبيوس Eutropius (ت حوالى ٣٧٠ م) ، كما يستمد أهميته أيضا من النقول التى وردت فيـــه عن مؤرخين ضاعت كتبهم بعـــد ، ولا أدل على أهمية كتـــاب أوروسيوس ، من أن وصلتنا نحو مائتى نسخة منه •

---

(٥) توجـــد ترجمـــة مختصرة له فى معجم اكســـفورد الكلاســـيكى Oxford classicil Dicitionary. 1949 p. 627 ولا نقف على ترجمة له فى معجم التاريخ الاسبانى

Diccionario de Historia de España. Revista ds Occidente, Madrid 1952.

(٦) عرف عند العرب باوسابيوس القيسرانى •

(٧) عرف عند العرب بيرونم الترجمان •

نشرت تواريخ أوروسيوس فى عصرنا الحديث عـــدة مرات ، والنشرة النقـدية المعتمـدة هى التى قـام عليهـا تسانجما يســتر Carl Zangemeister فى سنة ١٨٨٢ ، ضمن مجموعة Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum v. V وترجمه الى الانجليزية I. W. Raymond ونشرته جامعة كولومبيا فى سنة ١٩٣٦ .

(2)

بلغت الحضارة الاسلامية فى الأندلس أوجها فى القرنين الرابـع والخامس الهجريين ، أى فى عصر الخلافة الأموية وعصر الطوائف ، والى جانب ما أبدعه الأندلسيون فى مجالات شتى ، فقد تمت ترجمة كتاب أوروسيوس الى اللغة العربية ونقل عنه عدد من مؤرخى الأندلس وجغرافييه ، ومنهم ابن جلجل (ت بعد ٣٨٤ هـ) والبكرى (ت ٤٧٨ هـ) والحميرى (ت أواخر القرن الثامن هـ) وابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) ، بل نقل عنه أيضا مؤرخ مسلم غير اندلسى هو المقريزى (ت ٨٤٥ هـ) .

والمشاهد أن شهرة أوروسيوس عند المسلمين ، جعلت بعضـــهم ينقلون أخبارا عن غيره من المؤرخين القدامى ، ثم يضيفون هذه الأخبار اليـــه[٨] .

ورغما عن شهرة أوروسيوس هذه ، فلم يصل الينا من ترجمتـــه العربية سوى نسخة واحدة محفوظة فى مكتبة جامعة كولومبيا بنيويورك

---

(٨) راجع المقارنات التى عقدها الاستاذ عبد الرحمن بدوى بين كتاب اوروسيوس وبين كتب المسلمين الذين أخذوا عنه وبخاصة ابن خلدون . فى مقدمة تحقيقه للكتاب . بيروت . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص ٢١ — ٤٧ .

تحت رقم X. 893. 712. H. قام على نشرها فى سنة ١٩٨٢ الأستاذ عبد الرحمن بدوى[٩] .

بمراجعة هذه النشرة نجدها تفترق عن الأصل اللاتينى ، باختصارها فى بعض المواضع أو حذف فقرات كاملة ، أو اضافة أخبار من مصادر أخرى ، لا يشير المترجم اليها ، وتبلغ فى جملتها نحو ثلث حجم الكتاب. والأهم من ذلك أن المترجم أكمل تاريخ أوروســيوس حتى قبيل مقدم العرب[١٠] ، وان فقدت هذه التكملة ، بل فقد جزء من النص الأصلى ، لأن النسخة التى لدينا تقف عند سنة ٣٧٨ م[١١] .

وقد بدأ الطابع الأندلسى واضحا على هذه الترجمة ، فعرب اســم أوروسيوس الى هروشيوش (وهروشيش)[١٢] ، كما يبدأ الكتــاب بالبسملة[١٣] ، وتختتم أجزاؤه بحمد الله تعالى وطلب الرحمة لمؤلفه .

---

(٩) وهو تحقيق جيد بذل صاحبه فى سبيله جهدا فائقا ، وعاود النص الأصلى ، لكن تنقصه بعض الشروح ، كما تنقصه أيضا كشــافات تعين الباحثين .

(١٠) ورد فى أول الجزء السابع من الترجمة العربية ما يأتى « الجزء السابع فيه أخبار املاك (ملوك) الرومانيين القياصرة ، من زمان قيصر اكتيبان (يقصد اكتافيانوس) الذى فى دولته ولد المسيح الى الزمان الذى كتب فيه هذا الكتاب ، وما أضيف اليه من بعد من دول القوط بالأندلس ، الى دخول طارق عليهم أبوابه أربعة عشر » .

(١١) وهى السنة التى قتل فيها الامبراطور والنس Valens على أيدى القوط .

(١٢) كما عرب اسمه أيضا الى اهروشيوش، هروشيوس، هروسيس أوروشيوش ، أروشيوش ، وغير ذلك ، ويلاحظ ابدال السين شينا على عادة الأندلسيين .

(١٣) ص ٥٣ .

ويرد تعبير جوف[١٤] بمعنى شمال ، وقبلة[١٥] بمعنى جنوب ، وفحوص[١٦] بمعنى سهول ، وسلاطين[١٧] بمعنى ملوك Reges ومجوس[١٨] بمعنى وثنيين Pagani ومصحف[١٩] بمعنى سفر أو كتاب دينى • بل ترد أبيات شعرية فى صياغة عربية ، تعليقا على ما ورد بشأن صلب المسيح عليه السلام[٢٠] ، وليس لهذه الأبيات أصل فى النص اللاتينى • ويذكر من نسل سام بعض من ليس لهم ذكر فى سفر التكوين ، مثل قحطان وعرب اليمن[٢١] ، ويمسك فى الوقت نفسه عن تعيين الذبيح ، ويدعو ابراهيم عليه السلام بالخليل[٢٢] •

الطريف أيضا أنه يعرب كمبانيا Campania فى ايطاليا بالقنبانية[٢٣] وهو الاسم الذى كان يطلق على كورة قرطبة[٢٤] ، كما يعرب بلاد ما بين النهرين Mesopotamia بالكوفة[٢٥] • ويدعو الضرائب الغير الشرعية التى منعها الامبراطور أنطونينوس بيوس Antoninus pius بالمغارم والوظائف[٢٦] ، بل يدعو رجال الجيش Militaria بأهل الديوان[٢٧] ، والمناصب الحكومية بالخطط[٢٨] ،

---

(١٤) ص ٥٨ •
(١٥) ص ٦٠ •
(١٦) ص ٦١ •
(١٧) ص ١٦٧ •
(١٨) ص ٤٢٢ •
(١٩) ص ٢٧٩ •
(٢٠) ص ٤٢١ •
(٢١) ص ٨٧ •
(٢٢) ص ٩١ •
(٢٣) ص ٢٦٠ •
(٢٤) Campiña وقد أبدل الأندلسيون كعادتهم الميم نونا .
(٢٥) ص ٤٣٧ •
(٢٦) ص ٤٣٨ •
(٢٧) ص ٤٤٧ •
(٢٨) ص ٤٦٢ وقد جرت عادة الأندلسيين على أن يقولوا خطة الوزارة ، خطة القيادة ، خطة البريد ، خطة الخيل ، خطة الرد ، الى غير ذلك •

ونقيب العامة Tribunus plebi بصاحب خـراج الرومانيين[٢٩] ويستخدم تعبير اطباء[٣٠] ، ويقصد به استمالة . ويصل به الأمر الى حد الخطأ فيعرب الكلدانيين Chaldaei بالقضاعيين[٣١] .

(3)

ننتقل الآن الى قضية القضـايا ، وهى متى تمت ترجمة كتـاب أوروسيوس ؟ ومن الذى قام على هذه الترجمة ؟

فى سنة ٣٣٧/١٩٤٨ — ٩٤٩ (أو ٣٣٦/٩٤٧ — ٩٤٨)[٣٢] أرسل ملك الروم ويدعوه ابن جلجل[٣٣] بارمانيوس[٣٤] — الى عبد الرحـمن

(٢٩) ص ٣٣٢ — ٣٣٣ .

(٣٠) ص ٤٥١ ، ويرد تعبير اطباء اليمن على لسـان أبى عثمـان عبيد الله بن عثمان مولى بنى أمية ، فى حديثه عن دخول عبد الرحمن بن معاوية فى سنة ٧٥٩/١٣٨ فيقول : « فانقطع رجاؤنا من مضر وربيعـة بأسرها ، ورجع رأينا الى اطباء اليمن وادخالهم فى رأينا » أخبار مجموعة فى فتح الأندلس . نشر لافوينتى ائى الكانترا ، مدريد ١٨٦٧ ص ٧٤ .

(٣١) ص ١٦٨ .

(٣٢) ابن خلدون : العبر . القاهرة ، بولاق ، المطبعة الكبرى ١٢٨٤هـ جـ ٤ ص ١٤٣ .

(٣٣) ابن أبى أصبيعة : عيون الانباء فى طبقات الأطباء . تحقيق نزار رضا . بيروت . مكتبة الحياة ١٩٦٥ ص ٤٩٤ .

(٣٤) يقصد رومانوس الأول ليكابينوس Romanus Lecapenus ٩٢٠ — ٩٤٤ وهو خطأ لأن الامبراطور المعاصر لارسـال الكتابين هـو قسطنطين السابع : بورفيروجنيتوس Constantinus Porphyrogenitus ٩١٣ — ٩٥٩ ، وكان زوجا لابنـة رومانوس ، والامبراطـور الشرعى ، لكن رومانوس استبد دونه بالسلطة وقاسمه لقبه من سنة ٩٢٠ الى سـنة ٩٤٤ . وربما دفع ابن جلجل الى هذا الخلط شهرة رومانوس ، وما أحرزه من أمجاد على المستوى الثقافى بتصنيفه عدة كتب ، وبخاصة فى التاريخ ، ونهوضه بالحركة العلمية فى عصره . راجع :

Ostrogorsky; George : History of the Byzantine State trans by Joan Hussey. Rugers University Press, 1957. pp. 234-248.

الناصر ٣٠٠/٩١٢ ــ ٣٥٠/٩٦١ بكتاب الحشائش[٣٥] لديسقوريدس Dioscurides ومعه كتاب هروشيوش • ولما لم يكن فى الأندلس من يحسن اليونانية ، استجاب الملك لطلب الخليفة وبعث بنقولا الراهب الذى قام بالعبء الرئيسى فى ترجمة كتاب ديسقوريدس واعانه نفر من المسلمين ، أحدهم على دراية باليونانية ، وأضحت هذه الترجمة معتمد الأندلسيين ، وحلت محل ترجمة مشرقية ، تنسب الى اصطفن ابن بسيل ، راجعها حنين بن اسحق •

لا يهمنا فى هذا المقام كتاب ديسقوريدس ، انما يهمنا كتاب هروشيوش ، ويورد ابن جلجل على لسان ملك الروم « وأما كتاب هروشيش ، فعندك فى بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطينى ، وان كشفتهم عنه نقلوه لك من اللطينى الى اللسان العربى » •

مفهوم رواية ابن جلجل ان كتاب هروشيوش ، ترجم فى فترة ما بعد وصوله الى الأندلس واستفاد منه ابن جلجل نفسه ، لكنه لا يصرح بشخصية المترجم • وقد وصلتنا هذه الترجمة وكان قمينا بها أن تحل المشكلة ، لولا أن صفحة العنوان منزوعة منها ، كما ان الصفحات الأخيرة منزوعة أيضا ، وربما ورد فى حردة المتن ما يشفينا •

نمضى بالبحث خطوة أخرى فيجبهنا نصان لابن خلدون •

فى معرض حديثه عن بنى اسرائيل وتاريخهم ، يشير ابن خلدون[٣٦] الى مصادره كالطبرى والمسعودى وصاحب حماة (يقصد أبا الفدا) « وما نقله أيضا هروشيوش مؤرخ الروم فى كتابه الذى ترجمه للحكم المستنصر من بنى أمية قاضى النصارى وترجماتهم بقرطبة وقاسم بن أصبغ » وبعد عديد من الصفحات يقول[٣٧] « وخبر

---

(٣٥) أو الأدوية المفردة Materia Médica .
(٣٦) المصدر نفسه ص ٨٨ •
(٣٧) ص ١٩٧ •

هروشيوش مقدم ، لأن واضعيه مسلمان كانا يترجمان لخلفاء الاسلام بقرطبة ، وهما معروفان ووضعا الكتب » .

نخرج من نصى ابن خلدون بمعلومات ثلاث ، فالترجمة تمت بتوجيه من الحكم المستنصر ٣٥٠/٩٦١ — ٣٦٦/٩٧٦ ، وقام عليها اثنان من المسلمين ، شغل أحدهما منصب قاضى النصارى ، أما الآخر فهو قاسم بن أصبغ .

أما عن المعلومة الأولى ، فيغلب انها صحيحة ، لما عرف عن الحكم — أغسطس الأندلس — من حب للكتب وشغف بجمعها ، وتشجيع على تصنيفها ، ومشاركته نفسه فى ذلك .

يقول ابن حيان[٣٨] — مؤرخ الأندلس الكبير (ت ٤٦٩ هـ) « ولم يسمع فى الاسلام بخليفة ، بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين ، وايثارها والتهمم بها . أفاء على العلم ، ونوه بأهله ، ورغب الناس فى طلبه ، ووصلت عطاياه وصلاته الى فقهاء الأمصار النائية عنه » .

المعلومة الثانية ، وهى أن أحد المترجمين كان مسلما ، يشغل منصب قاضى النصارى لا نستطيع أن نتقبلها كما هى ، فلم تجر العادة فى الأندلس على ذلك ، لأن النصارى كان لهم قاضيهم الخاص بهم من أهل دينهم ، ويدعى قاضى النصارى أو قاضى العجم ، وعرف فى اللاتينية باسم Censor أو Judex[٣٩] وصار فى القشتالية

---

(٣٨) ابن الأبار : الحلة السيراء . تحقيق حسين مؤنس . القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ جـ ١ ص ٢٠١ .

(39) Lévi-Provençal, E : Histoire de l'Espagne Musulmane, Leide Brill, 1950. vol III. p. 219.

Alcalde (٤٠) ، وكان تعيينه وعزله من شأن الخليفة ، لكنه يحكم بين قومه بما جاء فى كتاب القوانين Liber judiciorum الذى عرف فيما بعد بـ Furero Juzgo (٤١) • وقد عرف ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) هذا الكتاب وأشار اليه فى الفصل ، ويتحدث عن أحد هؤلاء القضاة ــ وقد عاصره ــ وكان يتكرر عليه بمجلسه ، وعارضه مرة فى بعض ما ورد فى القرآن الكريم عن أهل الجنة وفند ابن حزم زعمه بنص الانجيل نفسه(٤٢) •

ولا يتناقض اختصاص النصارى بقاض من أهل دينهم مع سماح الدولة لهم بأن يتقاضوا اذا هم شاءوا الى قاضى المسلمين ، بل والزامهم بذلك اذا كان أحد طرفى الخصومة مسلما ، أو كان الأمر يتصل بحد أو قصاص أو تعزير(٤٣) •

---

(40) Simonet : Historia de 'os Mozarabes de España. Madrid, Est Tip de la viude è Hijos de m Tello 1897-1903 p. 108.

(41) Lèvi-Provençal : l'Espagne Musulmane au xème siécle. Paris Larose, 1932. p. 37.
وقد وضع الارك الثانى نواة هذا الكتاب فى سنة ٥٠٦ باسم lex Romana ودعى فيما بعد بمختصر الارك Breviarium Alarici وبعد عدة ذيول وشروح دعى بكتاب القوانين واشتهر بقانون ركسفنت lex Romana Reccesvindiana

راجع :
O'callaghan, J. F. A history of medieval Spain Cornell univ. Press, 1975, p. 40, Cambridge medieval history. 1936 vol. II p. 178.

(٤٢) القاهرة ، الخانجى ، ١٣٢٠ هـ جـ ٢ ص ١٠٨ ــ ١٠٩ ، وانظر أيضا جـ ٢ ص ٣ ، المحلى . تحقيق أحمد محمد شاكر . القاهرة ، ادارة الطباعة المنيرية ١٣٤٨ هـ جـ ٩ ص ٣٠٧ ــ ٣٠٨ .

(٤٣) راجع فى هذا الشأن وثائق فى أحكام أهل الذمة فى الاندلس مستخرجة من الأحكام الكبرى لابن سهل (ت ٤٨٦ هـ) تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف . القاهرة المركز العربى الدولى للاعلام ١٩٨٠ . والمعيار المغرب للونشريشى (ت ٩١٤ هـ) مخطوط بدار الكتب رقم ٩٠ فقه مالك م ١ ورقة ١٧٣ أ ، ب ١٧٤ أ.م ٥ ورقة ٢٠٨ أ وانظر اطروحتنا لدرجة الدكتوراه « المعاهدون فى الاندلس » جامعة القاهرة ١٩٨٣ ص ١٤٤ ــ ١٤٦ .

ترفض اذن المعلومة الثانية ، وننتقل الى المعلومة الثالثة وهى الخاصة بالمترجم الآخر قاسم بن أصبغ ، ونراجع أقدم كتب التراجم العامة بالأندلس ، وأشهرها جميعا وهو تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى (ت ٤٠٣ هـ) .

لدينا ثلاثة من الأندلسيين عاشوا فى القرن الرابع الهجرى ، ودعوا بالاسم نفسه أو لهم قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح ابن عطاء البيانى[٤٤] ، مولى الوليد بن عبد الملك ، وقد ولد فى سنة ٢٤٤/٨٥٩ ومات فى سنة ٣٤٠/٩٥١ . سمع بقرطبة من بقى بن مخلد وأبى عبد الله الخشنى وابن وضاح وأصبغ بن خليل وغيرهم ، ورحل الى المشرق ، فسمع بمكة والكوفة وبغداد ومصر والقيروان . وكان من جملة رجاله الترمذى وابن أبى خيثمة وعبد الله بن أحمد بن حنبل وعبد الله بن مسلم بن قتيبة ومحمد بن يزيد المبرد وأحمد بن يحيى ابن يزيد ثعلب ، وبعد عودته الى الأندلس ، سمع منه الخليفة عبد الرحمن الناصر وولده الحكم .

يستطرد ابن الفرضى فيقول « وطال عمره فسمع منه الشيوخ والكهول والأحداث ، وألحق الصغار والكبار فى الأخذ عنه ، وكانت الرحلة فى الأندلس اليه ، وفى المشرق الى أبى سعيد بن الاعرابى ، وكانا متكافئين فى السن » .

« وكان قاسم بن أصبغ بصيرا بالحديث والرجال ، نبيلاً فى النحو والغريب والشعر ، وكان يشاور فى الأحكام » .

الثانى هو قاسم بن أصبغ بن أبى الأسود بن عبد الواحد من أهل باجة « وكان من أهل الرواية والحديث ، وكان أديبا بليغ اللسان جيد القلم ... »[٤٥] .

---

(٤٤) الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ جـ ١ ص ٣٦٤ — ٣٦٧ تر ١٠٧٠ .

(٤٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٦٧ تر ١٠٧١ .

الثالث حفيد للأول وهو قاسم بن محمد بن قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح بن عطاء البيانى (ت ٩٩٨/٣٨٨) « روى عن جده قاسم بن أصبغ ، وكان أديبا حسن الخلق حليما استقضاه الحكم أمير المؤمنين رحمه الله على كورة تدمير ، واستقضاه المؤيد بالله أمير المؤمنين أعزه الله على مدينة الفرج ، وقد سمع منه جماعة من الناس ، وكتبت أنا عنه قديما وأجاز لى جميع ما رواه عن جده »[٤٦] .

نستبعد مبدئيا قاسما الثانى ، فترجمته عند ابن الفرضى عامة وقصيرة ، ولا يهتم بذكر شيوخه ولا تلاميذه ، ولا كتب صنفها ، كما لا يهتم أيضا بتحديد سنة وفاته ونستبعد أيضا قاسما الثالث ، فترجمته قصيرة ، ولا يذكر من شيوخه غير جده ، أما تلاميذه ، فجماعة من الناس دون تحديد ، ورغما عن أن ابن الفرضى سمع منه وأجازه ، فانه لا يشير الى كتب صنفها ، ناهيك عن كتاب ترجمه أو شارك فى ترجمته .

المرشح الوحيد ليكون مشاركا فى ترجمة كتاب أوروسيوس أو مراجعته هو قاسم الأول ولنا عليه عدة ملاحظات .

١ — لم يرد فى أى من كتب التراجم الأندلسية[٤٧] وغير الأندلسية ذكر لدور قام به فى ترجمة كتاب هروشيوش ، وكان قمينا بهذه الكتب أن تنوه به ، لما كان لقاسم من شهرة فائقة فى عصره وما تلاه من عصور[٤٨] .

---

(٤٦) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٧٠ تر ١٠٧٩ .

(٤٧) مثل الحميدى : جذوة المقتبس القاهرة ١٩٦٦ . ص ٣٣٠ — ٣٣١ تر ٧٦٩ ، الضبى : بغية الملتمس . القاهرة ١٩٦٦ . ص ٤٤٧ — ٤٤٨ تر ١٢٩٨ ، ابن فرحون : الديباج المذهب . القاهرة ١٩٧٢ جـ ٢ ص ١٤٦ ، المقر : نفح الطيب . تحقيق احسان عباس . بيروت ١٩٦٨ جـ ٢ ص ٤٧ — ٤٩ تر ١٤ ، السيوطى :بغية الوعاة . القاهرة ١٩٦٤ جـ ٢ ص ١٣١ .

(٤٨) خصوصا وان هذه الكتب تتحدث عن درايته الواسعة بعلم التاريخ . يقول ابن الفرضى « وانصرف قاسم بن أصبغ الى الاندلس بعلم كثير ، ومال الناس اليه فى تاريخ أحمد بن زهير وكتب ابن قتيبة ، وكانت الموردة عليه فى هذه الكتب دون صاحبيه محمد بن أيمن وابن ابى الأعلى » .

٢ ــ بل ان ابن حزم[٤٩] ــ وهو العالم الكبير الواسع الثقافة الملم بتراث اسبانيا القديم وتراث المسيحية ــ لا يشـــير الى ذلك ، عندما تعرض لفضائل قومه ومآثرهم فى رسالته المشهورة .

٣ ــ لا يرد فى كتب التراجم الأندلسية حديث عن معرفة قاسم باللغة اللاتينية من قريب ولا من بعيد ، وكان جديرا بها هذا الحديث ، لأنها أوردت أخبارا عن معرفة غيره من علماء الأندلس بها[٥٠] .

٤ ــ والأهم من ذلك أن قاسما مات فى سنة ٣٤٠ هـ عن سن عالية (٩٦ سنة) .

ويعلق ابن الفرضى الذى عاش فى مرحلة قريبة منه « وكان متمتعا بذهنه لا ينكر عليه شىء الا النسيان خاصة ، الى ذى الحجة سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة (٩٤٩ م) ومن هذا التاريخ تغير وحال ذهنه الى أن مات » .

معنى ذلك أن قاسم بن أصبغ ضعف نشاطه الى حد كبير قبيـــل ورود كتاب أوروسيوس الى الأندلس ، ثم توقف هذا النشاط تماما لدى وروده .

لم تحل المشكلة اذن . ونعاود قراءة نصى ابن خلدون ، ونحاول أن نعرض لآراء من سبقنا اليهما .

---

(٤٩) رسالته فى تفصيل الأندلس ، وأوورد نصها المقرى فى نفحه جـ ٣ وورد ذكر قاسم بها ص ١٦٩ ، ١٧٤ .

(٥٠) مثل القاضى سليمان بن أسود الذى ولى قضاء الأندلس مرتين فى عدهد الأمير محمد ٢٣٨/٨٥٢ ــ ٢٧٣/٨٨٦ . الخشنى : قضاة قرطبة . الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ ص ٨٠ . كما كان الأمير عبد الرحمن الأوسط ٢٠٦/٨٢٢ ــ ٢٣٨/٨٥٢ يعرفها أيضا . الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين . القاهرة ١٩٥٤ ص ٢٨٧ .

يعد المستشرق الايطالى ليفى ديلا فيدا Georgio levi della vida أول من تناول هذه المشكلة فى عام ١٩٥١[٥١] ، ثم عاد وتناولها مع قدر من التفصيل فى عام ١٩٥٤[٥٢] ويلاحظ أنه :

١ — اذا كان خبر ارسال كتاب ديسقوريدس الى الأندلس ممكنا ، فان خبر ارسال كتاب اوروسيوس بعيد ، لأنه من المستبعد وجود مخطوطات لاتينية فى الدولة البيزنطية فى القرن العاشر •

٢ — يصعب أن يقوم قاسم بن أصبغ بدور فى نقل كتاب أوروسيوس الى العربية بعد سنة ٣٣٧ هـ ، بسبب تغير ذهنه ، ولذا يرجح أن هذه الترجمة ، تمت فى فترة مبكرة قبل ورود الكتاب الى الأندلس — اذا كان قد ورد — ومن نسخة كانت موجودة هناك •

٣ — تحدد عمل قاضى النصارى فى نقل الكتاب من اللاتينية الى العربية ، وتحدد عمل قاسم بن اصبغ فى الصياغة العربية •

---

(51) La tradizione araba della storia di orosio. miscellanea G. Galbiati, III milano. 1951. pp. 185-203.

(52) La Tradiz,ione araba della storia di orosio, Al-Andalus vol XIX, Fasc 2 pp. 257-265.

وقد تعرض لهاتين الدراستين فؤاد سيد فى مقدمة تحقيقه لكتاب ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء . القاهرة ١٩٥٥ ص ل — لب ، حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الاندلس . مدريد ١٩٦٧ ص ٣٢ — ٣٩ ، عبد الرحمن بدوى فى مقدمة تحقيقه لكتاب اوروسيوس ص ١٧ — ٢٠ .

Van Koningsveld; p. Sj : Latih Arabic glossary of the Leiden university library leiden 1977 p. 56.

٤ — ويرجح أن قاضى النصارى هو حفص بن البر أو الوليد ابن خيزران (خيزون) ويدعوه ابن خلدون[٥٣] بالوليد بن مغيث ، والأخير كان معاصرا للحكم المستنصر •

يلاحظ أن ليفى ديلا فيدا فى سعيه للالتفاف حول نص ابن خلدون، ينحو نحوا توفيقيا ، لكننا لا نستطيع أن نتقبل رأيه كما هو ، ففيما عدا النقطة الأولى الخاصة بورود نسخة كتاب أوروسيوس أو عدم ورودها، فان ابن جلجل — وهو الكاتب المعاصر — الذى طالع النسخة العربية من الكتاب لا يشير الى ترجمة مبكرة له ، أما عن مشاركة عالم مسلم أندلسى فى هذه الترجمة ، فأمر لا نجد له مثيلا ، على الأقل خلال القرن الرابع الهجرى ، وبخصوص تحديد هوية قاضى النصارى ، فلا توجد نصوص قوية ، يستند اليها ليفى ديلا فيدا •• ولنا عود الى هاتين النقطتين •

وفى عام ١٩٥٥ نشر الاستاذ فؤاد سيد تحقيقا لكتاب ابن جلجل « طبقات الأطباء والحكماء » ، وقد قبل بمعظم ما جاء به ديلا فيدا ، لكنه يضيف أن الترجمة تمت فى سنة ٣٣٦ أو ٣٣٧ ، أى عقيب وصول الكتاب ، وقبل أن يتغير ذهن قاسم بن أصبغ مباشرة ، وقد سبق فى ذلك ترجمة كتاب ديسقوريدس التى تمت فى سنة ٣٤٠ هـ لأن اللاتينية كانت أيسر فى الترجمة من اليونانية لشيوعها عند أهل الأندلس[٥٤] •

على أن ما يذهب اليه فؤاد سيد لا يحل المشكلة ، لأنه حتى مع التسليم بأن الترجمة تمت عقيب وصول الكتاب مباشرة ، فان الضعف كان قد أصاب قاسم بن أصبغ الذى تجاوز فى ذلك الحين عتبة التسعين•

ووجد رأى ديلا فيدا التأييد نفسه من الاستاذ حسين مؤنس فى كتابه الذى أصدره فى سنة ١٩٦٧ بعنوان « تاريخ الجغرافية

(٥٣) المصدر نفسه ص ١٤٥ .
(٥٤) ص لب من المقدمة .

والجغرافيين فى الأندلس » ويضيف مؤنس معلومة جديدة ، وهى أن أحمد بن محمد الرازى المعروف بالتاريخى (ت ٣٤٤ هـ) وهو تلميذ لقاسم بن أصبغ أخذ جغرافيته عن هروشيوش ، مع قدر من التطوير يتلاءم مع الظروف التى جدت بمقدم المسلمين[٥٥] .

نرى من ناحيتنا أن الربط بين الرازى — عبر قاسم بن أصبغ — وبين أوروسيوس ليس له ما يبرره ، ونرجح أن معلومات الرازى الجغرافية منقولة من مصادر أخرى غير أروسيوس ، أو غير الترجمة الأندلسية له . ونفصل ذلك بعد .

أخيرا فان هؤلاء — ليفى ديلافيدا ، فؤاد سيد ، حسين مؤنس — لم يعطونا رأيا محددا فى نص ابن خلدون القائل بأن مترجمى كتاب اروسيوس كانا من المسلمين .

فى عام ١٩٨٢ صدرت الترجمة العربية من كتاب أوروسيوس بعنوان « تاريخ العالم » ويرفض المحقق الفاضل الاستاذ عبد الرحمن بدوى[٥٦] نص ابن خلدون لأن قاضى النصارى ، لابد وأن يكون نصرانيا ، ويشير الى واحد من كبار النصارى المعاصرين وهو أصبغ ابن عبد الله بن نبيل الجاثليق ، وربما يكون ابن خلدون قدسها ، فكتب اسمه محرفا ، بسبب شهرة قاسم بن أصبغ وسرعة وروده على الذاكرة وينتهى باننا لانعرف حتى الآن من هو الذى ترجم كتاب اروسيوس الى العربية[٥٧] .

وثمة رأى جديد بالدراسة ، أتى به باحث هولندى هو فان

---

(٥٥) ص ٣٩ وما بعدها .
(٥٦) ص ١٠ — ١٥ من المقدمة .

(٥٧) يرى بدوى أيضا انه اذا كان ثمة قاسم بن اصبغ شارك فى الترجمة ، فهو قاسم الثالث (ص ١٣ من المقدمة) وهو رأى لا نوافقه عليه ، راجع ما سبق وذكرناه بخصوصه .

كوننجسفلد[٥٨] فى أطروحته لدرجة الدكتوراه من جامعة ليدن فى سنة ١٩٧٦ ، فيدعى ان الكتاب كله من ترجمة قاضى النصارى وحده ودليله •

١ ــ من الغريب أن يتحدث ابن خلدون عن مترجمين ، فيذكر مهنة أحدهما دون اسمه واسم الآخر دون مهنته •

٢ ــ ابن جلجل يلمح ــ من خلال رسالة ملك الروم الى الخليفة الناصر ــ بأن ترجمة الكتاب من نصيب الدوائر النصرانية التى لهـا دراية باللاتينية •

٣ ــ الأهم من ذلك كله ان النص الأول لابن خلــدون ورد فى مخطوط العبر بليدن[٥٩] وفى مخطوطه الآخر بالمتحف البريطانى[٦٠] كالآتى « وما نقله أيضا هروشيوش مؤرخ الروم فى كتابه الذى ترجمه للحكم المستنصر من بنى أمية قاضى النصارى وترجماتهم بقرطبة قاسم ابن أصبغ » • فلا توجد واو عطف سابقة لقاسم بن أصبغ ، وذلك بخلاف طبعة بولاق ، وبذا يصير لدينا مترجم واحد لا مترجمان •

فى تقديرنا أن رأى الباحث الهولندى يجعلنا على أول الطــريق لاستكشاف شخصية المترجم أو المترجمين لكتاب اوروسيوس ، رغما عن أنه يطرح هذا الرأى على نحو عام ، بحكم أن قضية هذا الكتاب قضية جانبية فى اطروحته •

بيد أن هذا الرأى لا يحسم المشكلة تماما ، وربما لم يكن الخطأ فى طبعة بولاق وانما فى مخطوطى ليدن والمتحف البريطانى ، ثم انه مع

---

(58) Op. cit. pp. 57-59.

(٥٩) ورقمه Cod. or. 1350.

(٦٠) ورقمه Add. 23. 271.

التسليم برأى الباحث ، فانه لا يحل مشكلة النص الآخر لابن خلدون ، كما انه ليس لدينا معلومات عن قاض نصرانى يدعى قاسم بن أصبغ •

ونعيد ترتيب الأوراق •

(5)

١ — نستبعد بداءة دورا لقاسم بن أصبغ فى ترجمة كتاب أوروسيوس لأنه لم يكن يعرف اللاتينية ، ونستبعد أيضا مراجعته الصياغة العربية فى سنة ٣٣٦ (أو ٣٣٧) لأنه وان لم يتغير ذهنه حتى ذلك الحين ، الا انه كان شيخا كبيرا تجاوز التسعين من عمره وكان قد ضعف نشاطه •

وبذا يسقط احتمال أن يكون قاسم بن أصبغ مترجما لكتاب أوروسيوس أو مراجعا له •

٢ — ولا مجال للتعسف والربط بين الرازى[٦١] وبين كتاب أوروسيوس عبر قاسم بن أصبغ — والذى أخذ عليه الرازى — فالرازى ولد فى سنة ٢٧٤/٨٨٨ ومات فى سنة ٣٤٤/٩٥٥ ، أى أنه بلغ أوج نشاطه قبل ورود كتاب أوروسيوس بسنوات طويلة ، أنشأ خلالها كتبه التاريخية ، هو اذا كان قد أخذ عن قاسم بن أصبغ ، فان كثيرا من أعلام عصره أخذوا عنه ، ثم ان الرازى لا يشير فى كتابه ولا فى النقول المأخوذة عنه الى أوروسيوس •

---

(٦١) راجع فى ترجمته ابن الفرضى : المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢ تر ١٣٧ ١٣٧ وكذلك الحميدى جذوة المقتبس : ص ١٠٤ تر ١٧٥ . وقد ترجم تاريخ الرازى الى البرتغالية (ربما فى أوائل القرن الرابع عشر) والى الاسبانية فى سنة ١٣٤٤ على يدى خيل بريث واشتهر باسم La Cronica del Moro Rasis وضاع أصله العربى راجع :

Diccionario de historia de España, tomol p. 813.

واذا كان مؤنس يستند الى بعض أوجه التشابه بين جغرافية الرازى وبين جغرافية اوروسيوس ، من حيث تقسيم الأندلس (أو اسبانيا) الى اندلسيين أو (اسبانيتين) فان تقسيم الرازى من منطلق جغرافى ، فى حين أن تقسيم أوروسيوس من منطلق سياسى ، وجغرافية الأندلس لا تفوز من أوروسيوس (الترجمة الأندلسية) بأكثر من خمسة عشرة سطرا[٦٢] ، ولا تفوز من أوروسيوس (الأصل اللاتينى) بأكثر من سبع عشرة سطرا[٦٣] ، لكنها فى المقرى[٦٤] — وهو ينقل عن الرازى — ثلاثة وثلاثون سطرا • واذا كان الرازى — وهو مؤرخ — ينقل عن أوروسيوس — وهو مؤرخ مثله — فقد كان أحرى به أن يركز على التاريخ ، نلاحظ فى النقول عن الرازى — فى المقرى مثلا[٦٥] — عدم وجود هذا التأثير ، فأخبار الأندلس فى عهد اكتييان (يقصد أكتافيانوس) لا نجد لها مقابلاً فى الترجمة الأندلسية لأوروسيوس •

واذا كان الرازى قد تأثر بأوروسيوس أو نقل عنه ، فمن الممكن أن يكون ذلك قد تم من خلال نصارى شبه الجزيرة المستعربين ، الذين كانوا على معرفة بكتاب أوروسيوس لشهرته ، وليس من خلال النقل من الترجمة العربية •

وعلى ذلك لا يكون الرازى — كما يذهب مؤنس — هو أول من استفاد من أوروسيوس وانما هو ابن جلجل — على نحو مبتسر — ويبدأ النقل عن أوروسيوس بوضوح فى مرحلة متأخرة نسبيا ، أبرز ممثليها البكرى (ت ٤٨٧/١٠٩٤) •

وبذا يسقط أيضا احتمال أن يكون الكتاب قد ترجم فى وقت مبكر •

---

(٦٢) ص ٦٧ — ٦٨ •
(٦٣) راجع نشرة تسانجمايستر الكتاب الأول الفقرة ٣ بنود ٦٩—٧٤•
(٦٤) اصدر نفسه جـ ١ ص ١٢٩ — ١٣١ •
(٦٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤٨١ •

٣ — كما نستبعد دورا لأحد أخر من المسلمين الأندلسيين فى ترجمة كتاب أوروسيوس وهو أمر نجد مشابها له فى المشرق ، اذ كان يضطلع بمهمة الترجمة عن اليونانية قوم نصارى من أصول سريانية أو رومية على نحو أساسى • والدور الذى نهض به عريب بن سعد (ت ٣٦٦ هـ) — وهو مسلم من أصل نصرانى — فى التقويم القرطبى يتحدد فى كتابة النص العربى ، فى حين نهض ربيع بن زيد Rec emundo الأسقف النصرانى بكتابة النص اللاتينى ، أو انه كتب نصا عربيا ترجم بعد ذلك الى اللاتينية ، ويتفوق هذا النص فى حجمه على النص العربى •

٤ — ولا يجوز أيضا أن يراجع عالم مسلم ثقافته تدور على نحو أساسى فى مجال العلوم الاسلامية نصا تاريخيا ذا طبع نصرانى ، من انشء حبر نصرانى ، أهداه الى حبر نصرانى آخر أكبر منه ، بهدف نفى مسئولية النصرانية عن زوال الامبراطورية الرومانية ، وغصت هذه الترجمة بنقول عديدة ، لم تكن موجودة فى الكتاب أصلا ، وبعضها عن يوسابيوس القيسرانى والقديس جيروم ،صاحب الترجمة المشهورة للكتاب المقدس Vulgata وغيرهما من أحبار الكنيسة[٦٦] •

بل ان الصلة التى أضيفت الى كتاب أوروسيوس ، والخاصة

---

(٦٦) من هذه النقول ما يرد بشأن خلق العالم ، وان الله تعالى خلقه فى ستة أيام ، وارتاح فى اليوم السابع (السبت) ص ٨٢ وهذه المعلومة تختلف عما يعتقده المسلمون وما يرد أيضا بشأن صلب المسيح عليه السلام، فلم يكن لعالم مسلم أن يتركه كما هو دون تعليقة من عنده ، بل ان هذا الخبر يرتبط بأبيات شعرية ينسبها المترجم الى شاعر رومانى دعاه مركس ، هذه الأبيات بعضها مكسور ص ٤٢١ — ٤٢٢ وهو أمر غريب على قاسم ابن اصبغ أو غيره .

بملوك القوط ، يغلب أنها منقولة عن تواريخ ايسيدور[٦٧] ، الذى عرفه العرب بأشيزر (ت ٦٣٦ م) وايسيدور هذا كان مطرانا لاشبيلية وسجل قديسا فيما بعد ، وللأسف ضاعت هذه النقول من جملة ما ضـاع من النسخة الأندلسية •

٥ — اذن فالذى قام على ترجمة كتاب أوروسيوس ، لابد وأن يكون نصرانيا ، وهذا المترجم ليس بحاجة الى زميل له مسلم ، يعينـه فى الترجمة ، فمن النصارى من كان على دراية واسعة باللغة العربيـة وبراعة فيها ، استلفتت نظر ألبرو Alvaro القرطبى قبل نحو مائة عام ، وجعلته يتحسر على انصراف شباب جيله عن لغته اللاتينية الأم الى لغة أخرى أجنبية عنهم[٦٨] •

٦ — اذا نحن راجعنا تاريخ الأندلس فى عصر الخلافة ، نلاحظ أن البعوث والسفارات الأندلسية الى الممالك النصرانية خارج الأندلس ، بل وخارج شبه الجزيرة ، كان يقوم بها قوم من نصارى الأندلس — قوامس ورجال دين وقضاة — حصرا ، وليس لدينا فى مصادرنا اشارة الى أن قام بها مسلمون •

٧ — نفترض انه كان فى الأندلس نسخ من الأصل اللاتينى لكتاب أوروسيوس لم يتنبه اليها أحد من المسلمين ، الا بعد وصول هدية ملك الروم ، فكانت حافزا قويا على الترجمة ولدى تولية الحكم المستنصر فى سنة ٩٦١/٣٥٠ أمر بعض النصارى بترجمة هذا الكتاب الى العربية•

الكتاب ترجم اذن بعد سنة ٣٥٠ هـ ، ويبقى بعد ذلك أن نحـدد شخصية المترجم أو المترجمين •

---

(٦٧) Isidorus Hispalensis صار مطرانا لاشبيلية فى سنة ٦٠١ وترأس مجمع طليطلة الدينى فى سنة ٦٣٣ وله عدة كتب اهمها الأصـول Etymologiae وهو أشبه بموسوعة علمية كبيرة ، كما أن له كتبـا فى التاريخ حظيت بعناية المؤرخ مومسين واهمها الحوليات Chronica راجـع : Diccionario tomo. II. 173

(68) Simonet : op cit pp. 369-371.

نرشح — وغيرنا — لترجمة كتاب التواريخ لأوروسيوس واحداً (أو اثنين) من أربعة من قضاة النصارى ورجال دينهم ، هم حفص بن البر ، الوليد بن خيزران (أو حيزون) ، أصبغ بن عبد الله بن نبيل ، عبيد الله بن قاسم .

أما أولهم وهو حفص بن البر ، فهو من عائلة غيطشة Witiza ملك القوط الذى أعان ولده العرب ضد رذريق Rudericus مغتصب عرش أبيهم ، فأجازوهم ضياعهم الفسيحة فى أنحاء الأندلس ، وعدتها ثلاثة آلاف ضيعة ، وولد غيطشة هؤلاء هم أرطباس Ardabasto ، المند Olemundo وقله Aquila (أو رمله Romulo)[٦٩] .

يهمنا فى هذا المقام وقله الذى داعبه الأمل فى استعادة ملك القوط فثار ضد العرب بمدينة طركونة Tarragona ، وحاصره المسلمون عدة سنوات الى أن استسلم على يدى عنبسة بن سحيم الكلبى والى الأندلس ١٠٣/٧٢١ — ١٠٧ — ٧٢٥ ، وانتقل الى طليطلة ، حيث استعرب ولده وأضحى حفيده البعيد حفص بن البر قاضيا للنصارى[٧٠] .

كان لحفص اسهامه الواضح فى ثقافة قومه من المستعربين ، فقد صنف كتبا فى العقائد ، استعان بها بعض النصارى فى محاجاتهم المسلمين ، ويتضح من اقتباسات الامام القرطبى ، فى ردوده على هؤلاء

---

(٦٩) انظر ما ورد بشأن هؤلاء فى اخبار مجموعة ص ٧ — ٩ وفى ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس تحقيق ابراهيم الابيارى . القاهرة ، دار الكتب الاسلامية ، ١٩٨٢ ص ٢٩ — ٣٢ .

(70) Simonet : op cit. pp. 170-171.

أنه كن لحفص كتابين ، هما المسائل والحروف ، ويضيف القرطبى[٧١] قائلا : « ان هذا القس الذى هو حفص ، هو من أكيسهم وأفصحهم •• اذ كان قد نشأ فى ذمة المسلمين وتعلم من علومهم ما فاق به النصارى »•

اشتهر حفص أيضا بأنه نظم مزامير داود على بحـــر الرجز ، والنسخة الوحيدة من هذه الأرجوزة ، محفوظة فى مكتبة أمبروســـيو بمدينة ميـــلانو[٧٢] • وفى المقدمة الشعرية للأرجوزة ، يوضح حفص السبب فى نظمه للمزامير ، بأن الترجمات السابقة النثرية أفســـدت جمالها ، لذا جنح الى نظمها على بحر الرجز المشطور[٧٣] ، وهو بحر مناسب ، يشبه البحور الأعجمية (اللاتينية) وبخاصة بحر ينبق[٧٤] •

نعود الى موضوعنا ونتساءل ، ما دام حفص قد بـــرز فى علوم النصرانية ، وفى اللغة العربية ، وفى الوقت نفسه شغل منصب قاضى النصارى ، فهل هو القاضى الذى ترجم (أو شارك فى ترجمة) كتاب أوروسيوس •

نستبعد أن يكون حفص هو هذا القاضى ، فمن تحليل القيمة العددية للبيت رقم ١٢٨ من الأرجوزة ، يتضح أنه أنهى عمله فى سنة ٩٨٩[٧٥] من تاريخ الصفر وهو ما يعادل سنة ٩٥١ م (= ٣٣٩ — ٣٤٠ هـ) ، واذا كان قريبه المسلم المؤرخ ابن القوطية[٧٦] قد توفى فى سنة ٣٦٧/٩٧٧ فانه يكون معاصرا له •

---

(٧١) الاعلام • ص ٤٢٢ •

(٧٢) برقم Ix Teologia Cristiana No. 86.

(٧٣) مستفعلن مستفعلن مستفعلن •

(٧٤) يقصد البحر السداسى أو اليامبى lambus •

(75) Dunlop, D. M : Hafa b. Albar . the last of the Goths. J. R. A. S. 1954. pp. 147-148.

(٧٦) ووهـ حفيد بعيد لسارة ابنة المند بن غيطشة •

لكن ابن القوطية لدى ذكره حفصا لا يشير الى ترجمة قام بها لكتاب أوروسيوس وكان قمينا به هذه الاشارة ، لأنه مؤرخ وأوروسيوس أيضا مؤرخ .

أما وليد بن خيزران (أو حيزون) ويدعوه ابن خلدون بوليد بن مغيث ، فيوجد خبر عنه فى أحداث سنة ٣٥١/٩٦٢ ، لدى استقبال الحكم المستنصر لأردون بن أذفونش[٧٧] المنازع لابن عمه شانجه بن رذمير ملك ليون[٧٨] .

يقول ابن حيان[٧٩] ان أردون أتى « وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس يؤنسونه ويبصرونه ، فيهم وليدبن خيزران (حيزون) قاضى النصارى بقرطبة ، وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرها » .

يستطرد ابن حيان[٨٠] بعد عدة سطور ، فيقول ان أردون بعد أن قبل — وصحبه — يد الخليفة « وصل بوصولهم وليد بن خيزران قاضى النصارى بقرطبة فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم » .

نشك فى أن يكون ابن خيزران هو المترجم لكتاب أوروسيوس ، فهو كما يبدو من السياق كان قاضيا للنصارى فى هذه السنة (٣٥١ هـ) وربما ولى القضاء قبل ولاية المستنصر ، ولا نشهد اسمه مرةأخرى فى الترجمة للبعوث ، ويترجح أن يكون الكتاب قد ترجم بعد سنوات من تولية الحكم وليس بعيد توليته ، وينفرد ابن خلدون ، فيدعو هذا

---

(٧٧) اردونيو الرابع Drdono IV ٩٥٨ — ٩٦٠ .

(٧٨) سانتشو الأول Sancho I ٩٥٦ — ٩٦٦ .

(٧٩) المقرى : المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩٠ .

(٨٠) ص ٣٩١ .

القاضي بوليد بن مغيث ، وهو خطأ لم يكن ليقع فيه اذا كان هو مترجم كتاب أوروسيوس •

أما أصـــبغ بن عبد الله بن‌نبيل وعبيد الله بن قاسم ، فتوجـد اشارتان اليهما فى ابن حيان[٨١] ؛ ففى أحداث سنة ٣٦٠/٩٧١ وافت الحكم عدة سفارات من ملوك أسبانيا النصرانية وأمرائها، ومنهم حلويرة Elvira ابنة رذمير ، حاضنة رذمير بن شانجه صاحب جليقية[٨٢] « وتوصل مع العجم من كبار نصارى قرطبة ، قاضيهم أصبغ بن نبيل ، وأسقفهم عيسى بن المنصور ، وقومسهم معاوية بن لب ، ومطـــران اشبيلية عبيد الله بن قاسم ، يترجمون عنهم ولهم ففهم الخليفة ما أدوه عن مرسليهم ، وأجمل الرد عليهم فانطلقوا لسبيلهم » •

هناك نص آخر[٨٣] أهم من هذا النص ، فقد عاود الحكم رسل حلويرة فى سنة ٣٦٣/٩٧٣ • يقول ابن حيان « وتوصل اليه بعـدهم رسل حلويرة عمة الطاغية أمير جليقية وكافلته ، فتكلموا عن مرسلتهم بكلام بدا فيه بعض الجفاء ، ترجمه نصا عنهم أصبغ بن عبد الله بن نبيل ، قاضي النصارى بقرطبة المتولى ذلك عن الأعاجم ، أنكره الخليفة لوقته ، فازور للمترجم ونهره ، وأمر بتأخير الرسل عنه ، ونالهم ببعض التوبيخ ، وألزم أصبغ المترجم ذنبه ، وأمر باقصائه وعزله عن قضاء النصارى واهانته ، وتعريف الرسل بسوء ما أداه عنهـم • فقعد لهم صاحب الخيل زياد بن أفلح فى بيته بدار الجند ، وعركهم وعرفهم أنه لولا احتجازهم بذمة الرسالة ، لعوجلوا بالعقوبة ، وخص المترجم أصبغ الملامة ، لاقدامه على ما أقدم عليه من سوء المخاطبة ، وخصه بأشـد

---

(٨١) المقتبس . قطعة من عهد الحكم المستنصر . تحقيق عبد الرحمن الحجى . بيروت دار الثقافة ١٩٦٥ . ص ٦٤ .

(٨٢) راميرو الثالث Ramiro III ٩٦٦ — ٩٨٤ وكان صـغير السن وتولت عمته الراهبة البيرا الوصاية عليه .

(٨٣) المصدر نفسه ص ١٤٦ — ١٤٧ .

الوعيد ، وعرفه بما كان قد هم به أمير المؤمنين فيه ، من غليظ العقاب والتشديد ، لتركه تأديب هؤلاء الأعلاج ، وتثقيف ما يلقونه اليــه من كلامهم ، اذ كان المقلد ذلك منهم ومن أمثالهم من رسل الطواغيث لولا ما أعقبه من الصفح عنه ، ونفذ العهد الى أحمــد بن عروس المورى المتفقه بالخروج الى جليقية ، رسولا الى العلجة حلويرة ، مع رسلها المنقلبين عن قرطبة وضم اليه عبيد الله بن قاسم المطران المترجم ، فخرجا مع الرسل الصادرين عنها ، فى عقب صفر المؤرخ ، وكان محمد ابن مطرف يومئذ بناحية الغرب ، فخوطب يؤمر بالدخول معهما •

نخرج من هذين النصين بالآتى :

١ ـــ كان أصبغ بن عبد الله بن نبيل قاضيا للنصارى فى الفترة من سنة ٣٦٠ الى سنة ٣٦٣ ، وربما يعود تولية القضـــاء الى تاريخ أقدم[٨٤] ، وزاول الترجمة ، عندما كان يصدر له تكليف بذلك ، وأن وردت الاشارة الى ذلك مرتين فقط •

٣ ـــ وأثبت براعة فى الترجمة وأمانة ، جعلته ينقل عن لســـان سفراء حلويرة ما لا يجوز نقله ، لدرجة كادت تودى بحياته وأفقدته منصبه •

٣ ـــ وعاصر أصبغ هذا نصرانى آخر هو عبيد الله بن قاسم الذى كان مطرانا لطليطلة فى سنة ٣٥١ هـ ، ثم نجده مطرانا لاشبيليه فى سنة ٣٦٠ كما كان مطرانا (دون تحديد لاسم مطرانيته) فى سنة ٣٦٣ ، وربما استمر مطرانا سنوات أخرى تالية •

---

(٨٤) لم يصلنا من مقتبس ابن حيان ـــ فيما يختص بالحكم المستنصر ـــ سو أخبار خمس سنوات ٣٦٠ ـــ ٣٦٥ وبعض هذه السنوات غير كاملة ، وربما ورد فيما ضاع من أوراق هذا المؤرخ الكبير ما يفيدنا فى التعرف على قضاة النصارى وقساوستهم فى عهد الخليفة المذكور .

٤ — وتوجد ثلاث اشارات الى دوره فى الترجمة للدولة ، آخرها انه صاحب رسل حلويرة فى سنة ٣٦٣ فى رحلتهم الى بلادهم موفدا من قبل الخليفة الحكم •

٥ — ولا يبعد أنه كان على احاطة بتراث مواطنه الاشبيلى القديس ايسيدور ذى الشهرة الفائقة فى أنحاء اسبانيا وأوربا ، وترجمت بعض كتبه الى العربية(٨٥) ، والجزء الأخير من كتاب أوروسيوس فيه نقول عنه على الأرجح ، وان لم تكن وصلتنا(٨٦) •

٦ — الاثنان معا — أصبغ بن نبيل وعبيد الله بن قاسم — يجيدان اللغتين العربية واللاتينية ، ويجيدان أيضا الترجمة من احداهما الى الأخرى ، ومقربان الى الخليفة وموضعا لثقته ، ويرتبط ذكر الواحد منهما بالآخر ، واذا كانا يتعاونان فى الترجمة فى المهام الرسمية ، فمن الممكن أن يتعاونا فى الترجمة فى مهام أخرى •

نرجح أن الترجمة من عمل أحد اثنين أصبغ بن عبد الله بن نبيل أو عبيد الله بن قاسم أو هما معا ، واذا كان نص ابن خلدون يشير الى شخص يدعى قاسم بن أصبغ فلاتوجد فى مصادرنا — عربية ولاتينية — قاض نصرانى بهذا الاسم ، ونرجح أن الأمر اختلط عليه — وهو يكتب بعد فترة طويلة — فأتى باسم يجمع بين الاثنين ويتطابق فى الوقت

---

(٨٥) هناك دلائل على ان كتاب الأصول لايسيدور ترجم الى العربية حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى van koningsveld : op sit p. 60.

(٨٦) بطبيعة الحال فان المترجم النصرانى — خصوصا اذا ما كان اشبيليا — يصير أعرف بكتب ايسيدور من غيره من المسلمين •

نفسه مع اسم اندلسى مسلم جليل ، تواصلت شهرته الى زمانه ، وكان خاضرا فى ذهنه وهو يكتب هذا النص •

ويحل ذلك مشكلة حرف الواو التى يذكرها الباحث الهولندى ، ففى حال حذفها يترجح المترجم فى أحدهما ، وفي حال اثباتها — ويغلب انها كذلك — يترجح أن الترجمة من عملهما معا ، وفي ذلك تفسير لنص ابن خلدون الآخر الذى يقرر أن الترجمة من عمل الاثنين •

أم عن كونهما مسلمين ، فان هذا النص تفصله عن النص الأول صفحات كثيرة ربما جعلت ابن خلدون ينسى ما ذكره أولا ، ثم انه الى جانب ذلك غير دقيق فى تاريخه دقته فى مقدمته ، والاضافة الأساسية فى تاريخه هذا ما كتبه عن المغرب والبربر على نحو خاص ، وهو ينسب الى أوروسيوس أخبارا لا نجدها فى الترجمة الأندلسية ولا فى النص الأصلى •

(7)

ننتهى فى هذا البحث الى الآتى :

شهدت الأندلس نهضة فكرية عظيمة فى القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى — بتوجيه من الخليفتين العظيمين عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر شارك فياه نصارى الأندلس المستعربون ، ونقلوا الى اللغة العربية ، التى أضحت على نحو أساسى لغتهم ، ما يهمهم من كتب دينية ، وما يهمهم ويهم المسلمين فى الوقت نفسه من كتب فى مجالات أخرى •

وكان كتاب باولوس أوروسيوس فى التاريخ ، أحد هذه الكتب التى ترجمت الى اللغة العربية حوالى سنة ٣٦٠ هـ ، واحتفظت الترجمة

العربية بطابع دينى واضح يتناسب مع روح التسامح السائدة فى ذلك الوقت ، بل ان المترجم النصرانى ، أضاف الى النص الأصلى نقولا من كتاب كنسيين قدامى ، ومن كتاب كنسيين عاصروا حكم القوط .

ويترجح أن هذه الترجمة من عمل القاضى أصبغ بن عبد الله بن نبيل أو المطران عبيد الله بن قاسم أو هما معا .

ولا نستطيع أن ننتقل من الترجيح الى القطع ، الا بتوصلنا الى نسخة أخرى عربية من هذا الكتاب .

الفناء الكبير والموت الأسود
في القرن الرابع عشر الميلادى
دراسة مقارنة بين الشرق والغرب

د٠ على السيد على محمود
مدرس تاريخ العصور الوسطى
بكلية التربية بالفيوم ـ جامعة القاهرة

شهدت البشرية على مر عصورها التاريخية كثيرا من الأوبئة ، لكن ينفرد الطاعون الذى انتشر فى الفترة من ١٣٤٧ ــ ١٣٥١ م بأنه أكثر تلك الأوبئة التى عرفتها البشرية فتكا وهولا ، وهو الذى أطلق عليـه المؤرخون فى الشرق العربى اسم « الفناء الكبير » أو « الفصل الكبير »، والذى امتد أثره بحيث عم أقاليم الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وأنشب مخالبه فى جميع أجناس البشر ، بل وامتد أثره حتى شـمل أسماك البحر وطير السماء ووحش البر[1] ، وأطلق عليه المؤرخون فى الغرب الأوروبى اسم « الموت الأسود » « The Black Death » تمييزا له عن غيره من الطواعين التى عرفها الغرب الأوروبى ، والسبب فى تلك التسمية راجع الى ظهور بقع سوداء على جسم المريض نتيجة

---

(١) ابن الوردى : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٥٠ ــ ٣٥٤ ، أبو الفـدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ٢٠ــ٢٢ ، المقريزى : السلوك ، جـ ٢ قسم ص ٧٧٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ١٩٥ ــ ٢١١ ، السيوطى : ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون ، ص ٨٩ .

لحدوث نزيف تحت الجلد ، فضلا عن أنه راح ضحيته ما يقرب من ٥٠٪ من السكان[٢] حسب الاحصائية المرفقة بآخر هذا البحث .

ومعروف أن العصور الوسطى هى عصور الايمان ، وأنها تعكس لنا عقلية المعاصرين فى تفسيرهم لكثير من الأزمات الصعبة التى تنزل بهم تفسيرا قدريا أو تفسيرا طبيعيا . وعلى هذا الأساس فقد فسره بعض المؤرخين الغربيين المعاصرين له على أنه غضب من الله أنزله عليهم لما اقترفوه من آثام ، بينما فسره البعض الآخر منهم على أنه نهاية العالم[٣] . كما فسره فريق ثالث — وبخاصة من المشتغلين بعلم الفلك — على أنه راجع لأسباب فلكية ، حيث يذكرون أن خسوف القمر ، أو التقاء بعض الكواكب مثل المريخ وزحل تحت ظروف فلكية معينة يؤدى الى تسمم الهواء الذى يؤدى الى حدوث ذلك الوباء ، وهنا واضح تأثر علماء الغرب الأوروبى فى تلك الفترة بكتابات « ابن سينا » فى الطب والتى ترجمت الى اللاتينية ، وكتابات « جالينوس » التى وصلت اليهم عن طريق علماء العرب ، وربما انتقلت اليهم أيضا بعض كتابات علماء مسلمى الأندلس الذين قالوا بأثر العوامل الفلكية فى انتشار الطاعون[٤] . كذلك يبدو لنا أن الغرب الأوروبى قد تأثر بما ساد فى الشرق العربى من شيوع آراء أرسطو ، والتى ترجمت الى اللاتينية عن طريق العرب ، بأن التقاء كل من كوكبى زحل وعطارد يسبب الموت وتناقص أعداد السكان[٥] . كذلك من بين التفسيرات التى ذكرها الغربيون المعاصرون أن الزلازل التى حدثت سنة ١٣٤٧ م أدت الى

---

(2) Gottfried : The Black Death, p. XVI ; Hirst : The Conquest of Plague. P. 32.

(3) Coulton : The Black Death. P. II; Hirst : Op. Cit., pp. 11 — 17.

(4) Campbell : The Black Death, pp. 33 — 39.

(5) Ibid : op. cit., pp. 40 — 43.

تلوث الهواء بسبب خروج الغازات السامة وانتشارها عبـر الوديان والمدن ، وقتلها لكثير من الناس وبذلك انتشر الطاعون فى كل أنحـاء الغرب الأوروبى فى تلك الفترة(٦) .

أما فى الشرق العربى فقد كانت هناك عدة تفسيرات لأسباب ذلك الطاعون بالاضافة الى الأسباب الفلكية ، منها أنه حدث بسبب تلوث الهواء ، أو نتيجة لحدوث العفن الذى يضر الانسان والحيوان والمياه والنبات ، ولقد اعتمد الكتاب العرب فى تفسيرهم لظاهرة العفن هـذه على كتابات جالينوس وأبو قراط ، حيث كانت دراسة كتبهما دعامـة الدراسة الطبية فى تلك العصور(٧) . الا أننا نلاحظ أنهم اختلفوا فى تفسيرهم لأسباب هذا التلوث ، فابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م) وقد كان معاصرا لهذا الوباء ، ومن بعده المقريزى (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) وابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩ م) يذكرون أن السبب فى هذا التلوث راجع الى تعفن جثث سكان بلاد الامبراطورية المغوليـة الممتدة من الصين جنوبا الى البحر الأسود وبحر قزوين وحوض الفولجا شمالا ، حيث هلكوا بأجمعهم سنة ٧٤٢ هـ/١٣٤١ م ، وحملت الريح نتنهم الى البلاد(٨) أما ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م) فقد فسر السبب فى هذا التلوث بسبب كثرة العمران وما ينجم عنها من كثـرة الرطوبات الفاسدة(٩) . كذلك فسر لنا ان خاتمة الأندلس (ت ١٣٦٣ م) أن السبب فى تلوث الهواء راجع الى اختلاف الفصول من حيث درجة الحرارة والرياح والأمطار(١٠) .

---

(6) Ibid : p. 44.

(7) Dols : The Black Death, p. 85.

(٨) تاريخ ابن الوردى ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ ، السلوك : ج ٢ ، قسم ٣، ص ٧٧٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٩٥ .

(٩) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(10) Dols : op. cit., p. 93.

كذلك تجب الاشارة الى أنه منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد عرف المسلمون سببا آخرا فى انتشار الطاعون وهو العدوى ، فقد جاء فى الحديث الشريف : « اذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » وفى حديث آخر : « اذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه »[11] • وواضح أن الهدف من الحديث ليس هو الاستسلام للمرض كما يزعم بعض المؤرخين الغربيين ، بل هو فرض نوع من الحجر الصحى لمنع انتشار المرض عن طريق العدوى • كما كانت فكرة العدوى هذه معروفة لدى كثير من المؤرخين العرب الذين عاصروا الطاعون ، أمثال لسان الدين بن الخطيب (ت ١٣٧٤ م) والذى عاصر ذلك الطاعون فى بلاد الأندلس ، وذكر لنا أن من أسباب انتشاره العدوى التى نجمت عن وصول بعض أناس من منطقة انتشر بها ذلك الطاعون ، بينما ظلت بعض المناطق المنعزلة بمنأى من الطاعون ، مثل البدو فى شمال أفريقية والذين بقوا دون أن يصيبهم أى مرض[12] • هذا بالاضافة الى ما تشير اليه بعض المراجع الحديثة من أن الناس فى تلك الفترة كانوا يفسرون السبب فى حدوث ذلك الطاعون وغيره من الطواعين من وجهة نظر دينية وأخلاقية بحتة ، فيرجعون السبب فيها الى غضب الله سبحانه وتعالى من جراء فساد الأخلاق وانتشار الفسق والفجور وسيادة الظلم[13] الا أننا لم تصادفنا فى المصادر المعاصرة أية اشارة لهذا التفسير فيما يتعلق بهذا الطاعون بوجه خاص وان كانت

---

(١١) صحيح البخارى ، ج ٣ ، ص ١٤ ، ١٥ ، ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٤٠ — ٤١ •

(12) Dols : op. cit., p. 93.

(١٣) د• قاسم عبده قاسم : النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٦٧ — ٦٨ •

هناك اشارات تتصل ببعض الطواعين الأخرى والتى حدثت بعد ذلك الطاعون[١٤] .

كذلك يبدو لنا بما لا يدع مجالا للشـك أن المؤرخين العرب أدركوا أن الأشخاص يختلفون من حيث المناعة الطبيعية الكامنة فى أجسامهم ، والتى ذكرها لنا ابن خاتمة الاندلس ، والذى نادى بأ ن الأشخاص قليلى المناعة يجب أن يحتاطوا جيدا فى طعامهم وشرابهم وحتى فى نومهم[١٥] . كما أنه من الملاحظ من خلال استعراض كتابات من كتبوا عن هذا الوباء سواء فى الشرق العربى أم الغرب الأوروبى ، أنهم ركزوا بشكل أو بآخر على عوامل طبيعية أو فلكية نجم عنها تلوث فى الهواء أدى الى حدوث هذا المرض ، ولكن من الناحية الطبية ، فقد أثبتت الأبحـاث الحديثة ، والتى أجريت فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، أن هذا الوباء متوطن فى شبه القارة الهندية ، وفى الشرق الأقصى ، وبعض أجزاء من أفريقيا ، وأن العدوى الأولى تحدث فى الفئران والقوارض ، وعندما يتفشى فيها المرض تموت أعداد كبيرة من الفئران ، وعندئذ تنتقل البراغيث التى تعيش على صدور هذه الفئران الى الانسان لتتغذى على دمه حاملة معها الميكروبات المسببة له ، وعندما تلدغ هذه البراغيث الانسان تنتقل الميكروبات من البراغيث اليه ، ثم تتكاثر وتغزو الغـدد الليمفاوية التى سرعان ما تتورم وتتقيح مع حدوث ارتفاع فى درجـة الحرارة لدى الشخص المصاب ، ويسمى هذا بطاعون الغدد . يحدث بعد ذلك انتشار البكتيريا فى الدم حيث تسبب تسمما حادا . يصحبه حدوث نزيف تحت الجلد ، وفى هذه المرحلة يسمى بطاعون الـدم ، وعادة ما تنتقل البكتيريا بعد ذلك الى الرئتين مسببة الطاعون الرئوى وهو أخطر مراحل المرض ، حيث تنتشر العدوى بعد ذلك اما عن طريق

---

(١٤) ابن الوردى : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٥٢ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص ٢٠ ، المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ، ص ٧٨٠ .

(15) Dols : op. cit., p. 63.

لفرازات الجهاز التنفسى للشخص المصاب بواسطة الهواء[١٦] أو عن طريق نقل العدوى من انسان لأخر بواسطة بعض الحشرات مثـــل البراغيث والبعوض والذباب[١٧] وقد تنتقل العدوى من الفئران المصابة بالطاعون الى كثير من الحيوانات والطيور والتى تصبح سيطا ملائما لنقل العدوى للانسان[١٨] وهذا يفسر لنا ما ذكرته بعض المصادر المعاصرة من أن الطاعون أصاب حتى الحيوانات من قطط وكلاب وغيرها وحتى الحيوانات البرية ، كذلك فان المناطق التى تموت بها الفئران بأعداد كبيرة لتفشى الطاعون فيها تصبح ملوثة بميكروبات المرض والتى تشكل بيئة صالحة لتكاثر تلك الميكروبات ، وبذلك تصبح جحور الفئران أو الأرض التى ماتت عليها مصدرا لانتقال البكتيريا الى الكائنات الحيـــة من انسان وحيوان وطيور واصابتها بالطاعون ، كذلك فان استخدام الأشياء الخاصة بالمريض من ملابس وغيرها كفيل بنقل العدوى[١٩] .

ومن الطبيعى ألا نتوقع من أطباء العصور الوسطى أن يتعرفوا على أصل هذا المرض ، بالرغم من أن « ابن سينا » لاحظ أنه من بين علامات حدوث الطاعون أن تهرب القوارض التى تعيش فى باطن الأرض، مثل الفئران وغيرها من جحورها الى سطح الأرض وتتعثر فى حركتهـــا وكأنها ثملة ، وكذلك نقل عنه كثير ممن كتبوا من المعاصرين لهذا الطاعون سواء فى الشرق العربى أم الغرب الأوروبى[٢٠] .

وعن تفسير السر فى تفضيل البراغيث الانتقال من الفئران — عقب موتها لتفشى الطاعون فيها — الى الانسان أكثر من غيره من الكائنات

---

(16) Abla EL Mishad : Manual of Practical Microboiolgy, p. 126; Campbell op. cit., p. 34.

(17) Yehia EL Batawi : Manual of Microbial. pp. 70 — 71; Hirst : op. cit., p. 161 .

(18) Gottfried : op. cit., p. 3.

(19) Ibid, p. 3; Hirst : op. cit., pp. 158 — 159.

(20) Campbell : op. cit., p. 34.

الحية الأخرى فان ذلك ربما راجع بالدرجة الأولى الى التقارب الشديد فى درجة حرارة الانسان مع الفئران ، فضلا عن طبيعة دم الانسان نفسه بما فيه من مواد بروتينية ضخمة لذا يعتبر بمثابة وجبة شهية لتلك البراغيث ، أضف الى ذلك أن التجـارب العلمية الحديثة غالبـا ما تجرى على الفئران قبل تعميم استخدامها على الانسان بما يفيد ذلك التقارب الشديد .

أما عن أعراض ذلك الوباء فان المؤرخين العرب قد عرفوا تلك الأعراض بما يتفق مع الطب الحديث — على الرغم من أن كـلا من جالينوس وابن سـينا لم يعطيانا وصفا لأعراضه لأنهما لم يشاهداه فى حياتهما — وهذه الأعراض هى حدوث ارتفاع فى درجة الحرارة لدى الشخص المصاب ، مع ألم فى الأجناب أو الصدر ، وسعال مع صعوبة فى التنفس ، واضطراب فى النبض ، وتقيىء الدم ، وظهور انتفاخ فى الغدد الليمفاوية خلف الأذن أو فى أماكن أخرى مثل تحت الابط أو فى منطقة الأفخاذ[٢١] مع حدوث بثرات سوداء متقيحة مكان لدغة البرغوث، وحدوث نزيف تحت الجلد[٢٢] كما تجب الاشارة الى أن المؤرخين العرب فرقوا بين طاعون الغدد الليمفاوية والطاعون الرئوى ، ولاحظوا أن الطاعون الرئوى هو الأكثر فتكا والأسرع ، كما أنهم أظهروا درايـة وخبرة بمراحل حدوث الأعراض المختلفة ، وربطوا بينها وبين مراحل تطور المرض داخل جسم الانسان بعكس مؤرخى الغرب الأوروبى[٢٣]

---

(٢١) ابن الوردى : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٥٠ — ٣٥٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٣٢٥ — ٣٣٤ ، المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، ص ٣٢١ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٤ .

(٢٢) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٤٠ ،
Campbell : op. cit., pp. 78 — 80.

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٤٠ — ٤١ ،
Gottfried : op. cit., p. 8.

والذى يذكر أحد مؤرخى الغرب المحدثين أن عذرهم فى هذا راجع الى أن المرض كان جديدا بالنسبة لهم ولم يكن معروفا، فهو من الأمراض المتوطنة فى الشرق الأقصى ، وانتقل فجأة الى أرض بكر لم تعتده(٢٤) الا أننا نقول أن هذا الكلام مبالغ فيه ولا أساس له من الصحة ، فلم يكن الطاعون مرضا جديدا على الغرب الأوربى ، حيث سبق أن عرفه الغرب الأوربى عدة طواعين نذكر منها الطاعون الذى حدث فى عهد الامبراطور « جستنيان » سنة ٥٤١ م ، والذى أطلق عليه اسم هذا الامبراطور ، والذى يقال أنه أتى من شرق أفريقيا عبر نهر النيل ، ثم انتقل الى حوض البحر الأبيض المتوسط ، كذلك فى الفترة من سنة ٥٥٨ — ٥٦١ م ظهر الطاعون مبتدئا بمصر ، وانتشر فى حوض البحر المتوسط الشرقى ثم القسطنطينية ، وبعد ذلك انتقل الى الغرب الأوروبى عبر موانى ايطاليا وغاليا « فرنسا » ، كما تكرر حدوثه فى الفترة ما بين سنتى ٥٨٢ م — ٥٩١ م ، وهذا الأخير قد بدأ انتشاره من أسبانيا الى جنوبى فرنسا وايطاليا(٢٥) . ويتضح لنا مدى ازدهار الطب العربى فى العصور الوسطى من أنه فى الوقت الذى شخص فيه الأطباء العرب هذا الوباء ، وعرفوا الفارق بين أنواعه وأعراض كل منها، لم يعرف أطباء الغرب الأوروبى الكثير عن هذا الوباء ، رغم أن أعراضه كانت واضحة سواء فى ظهورها أم فى مراحل تطورها والتى لم تكن تعنى سوى الموت لأبناء الغرب الأوروبى آنذاك(٢٦) .

أما عن مقاومة هذا المرض ، ففى الغرب قام كثير من المسئولين فى المدن بوجه خاص بتطهيرها مما بها من قاذورات ، وفى بعض المدن تم منع المرضى والمصابين من دخولها ، كذلك اعتقد البعض أن الاعتدال

---

(24) Campbell : op. cit., pp. 81 — 84; Coulton : op. cit., p. 8.

(25) Gottfried : op. cit., pp. 10 — 11.

(26) The Decameron, pp. XXIII — XXIV.

فى تناول الطعام وتجنب كل افراط سوف يكون مفيدا بلاشك فى تجنب الاصابة بهذا المرض ، بينما رأى البعض الآخر أن يحبسوا أنفسهم داخل منازلهم ليكونوا فى شبه عزلة تامة عمن حولهم ، ووجد فريق آخر أن خير وسيلة للوقاية من الوباء هى أن يستمتعوا بالحياة وأن يشبعوا كل شهواتهم ، كذلك وجد فريق آخر وسط بين هؤلاء وهؤلاء ، وهم الذين لم يسرفوا فى تناول الطعام والشراب ، ولم يحبسوا أنفسهم ، وعاشوا على قدر الكفاية ، وخرجوا ومعهم الزهور والروائح العطرية فى أيديهم ، بينما لجأ فريق آخر الى أن يهيموا على وجوههم هربا من المناطق التى ينتشر فيها الى مناطق أخرى ، ولم يهتموا بشىء سوى النجاة بأنفسهم لأنهم اعتقدوا أن لا حياة لهم بين جدران المدن والمنازل، ومع هذا لم يبق كثير منهم على قيد الحياة[٢٧] • أضف الى ذلك ما يرويه لنا الراهب الصقلى ميخائيل البيازى والذى كان معاصرا للطاعون ، من أن سكان مدينة مسينا Messina وهى الميناء الرئيسى آنذاك لجزيرة صقلية ، خرجوا الى كنيسة العذراء التى تبعد ستة أميال خارج المدينة ، وهناك خروا ساجدين أمام صورة السيدة العذراء باكين طالبين العون ، وأخذوا الصورة ليدخلوا بها المدينة على أمل أن تنجيهم من هذا الوباء أو تبعده عنهم[٢٨] كذلك فرضت بعض المدن حجرا صحيا ونظاما للوقاية، حيث خصصت بعض السفن لنقل جثث الموتى الى بعض الجزر النائية لدفنها بها على أعماق كبيرة من سطح الأرض ، كما فرض أهلها حجرا صحيا على السفن القادمة اليهم لمدة أربعين يوما حتى يتم لهم التأكد من عدم وجود مرضى بها[٢٩] • كما يذكر لنا أحد المعاصرين من غاليا « فرنسا » أنهم لجأوا الى اشعال النيران فى مواقد خاصة أعدت

---

(27) Coulton : op. cit., pp. 12 — 15, Ziegler : The Black Death pp. 52 54.

(28) Coulton : op. cit., pp. 22 — 26 .

(29) Gottfried : op. cit., p. 48; Ziegler : op. cit., p. 40.

لذلك لتطهير الهواء ، أو وضع كثير من الزهور وكذلك بعض الاعشاب العطرية لاحراقها لتنقية الهواء ، فضلا عن أن بعض المعاصرين أوصوا بضرورة احراق خشب اللوز مختلطا بالملاط ثم صحنه مع ماء الورد الدمشقي ورش هذا الخليط فى أركان المنازل والحجرات ، وكذلك رش أرضيتها بالخل وماء الورد ، مع وضع كثير من النباتات العطرية ، فضلا عن أن بعضهم كانوا يرشون أنفسهم بالخل باستمرار وماء الورد والبنفسج ، وهنا واضح تأثير الشرق فى الغرب[30] كذلك نفذ كثير من المعاصرين نصيحة « ابن سينا » بضرورة اختيار الأطعمة الجيدة والابتعاد عن الأطعمة الفاسدة ، وعدم الشبع مع الاقلال من اللحوم والخضروات سريعة التلف ، وكذلك الألبان والأسماك ، وعدم تناول الأطعمة المجففة[31] ، فضلا عن أن بعض المدن وضعت بعض التشريعات لمقاومة هذا المرض ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مدينة بستويا Pistoia فى ايطاليا ، والتى نصت التشريعات فيها على عدم قيام أهلهابزيارة المدن المجاورة والتى انتشر فيها الطاعون ، ومن يقم من أهلها بمثل تلك الزيارة كان يمنع من دخول المدينة ، كذلك منعت استيراد بعض البضائع ، كما وضعت أسواق الطعام والشراب تحت اشراف دقيق ، وتم تحديد عدد من يخرجون لتشييع الجنازات بحيث اقتصر على أقارب أقارب الموتى ، كما وضعت بعض الشروط لتحديد مستوى دفن الموتى فى أرض المقابر ، وبعض التشريعات الخاصة بحفارى القبور ، بأن يتم اختيار عدد محدد منهم للقيام بعملية الدفن ولم يسمح لغيرهم بمزاولة هذا العمل ، فضلا عن أن بعض التشريعات نصت على عدم ترك الخنازير والماعز ترعى فى شوارع المدينة ، وكذلك عدم القاء القاذورات والفضلات من النوافذ ، بالاضافة الى لجوء الكثيرين من أبناء الغرب الأوربى الى الكنائس والأديرة وقيامهم بالصلوات والابتهالات فى

---

(30) Campbell : op. cit., pp. 39 — 73; Dols : op. cit. p. 97.

(31) Campbell : op. cit., p. 74.

شكل صلوات خاصة أو قداس عام متضرعين الى الرب أن يرفع عنهم وينجيهم من هذا الوباء[٣٢] .

أما عن وسائل مقاومة هذا الوباء فى الشرق العربى فهناك تشابه كبير فى بعض وسائل المقاومة ، من ذلك تطهير البلاد من الحيوانات وبخاصة الكلاب اما لنجاستها أو بسبب امكانية نقلها العدوى للسكان وذلك عندم وردت اليهم الأخبار عن انتشار ذلك الطعون[٣٣] الى جانب خروج الناس فى جماعات الى المساجد للتضرع الى الله والدعاء يسألونه فى رفع الوباء عنهم[٣٤] . ويبدو أن الدعاء الى الله سبحانه وتعالى كان أول عمل قاموا به ، وذلك لاعتقادهم فى أن الدعاء من أنفع الأدوية ، وهو عدو البلاء يدفعه ويعالجه ، ويمنع نزوله ويرفعه ، أو يخففه اذا نزل، وهو سلاح المؤمن[٣٥] . كذلك يمكننا القول أنه رغم معرفة الشرق العربى لضرورة الحجر الصحى — وكما سبقت الاشارة بذلك — منذ بداية العصر الاسلامى ، الا أن الناس فى ذلك الوقت لم يلجأوا الى فرض الحجر الصحى ، بل ان كثيرين منهم كانوا يهربون من الأماكن الموبوءة الى أماكن أخرى أملا فى النجاة ، كأن يفروا من المدن الى القرى أو العكس[٣٦] . هذا الى جانب ما جرت به عادتهم من صوم ثلاثة أيام ، وألا يطبخوا طعامهم فى الأسواق ، وعقب الصوم يجتمعون فى المساجد طوال الليل ما بين ساجد وداع ، ثم يصلون الصبح ويخرجون على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة وحتى اليهود والنصارى كانوا يخرجون بتوراتهم وانجيلهم ومعهم النساء والولدان[٣٧] . كما يذكر

---

(32) Ziegler : op. cit., pp. 45 — 61.

(٣٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٤ ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٣٤) نفس المصدر ، جـ ١٤ ، ص ٢٢٦ ، ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٠٠ ، المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٨٠ .

(٣٥) ابن قيم الجوزية : الداء والدواء ، ص ٧ .

(36) Dols : op. cit., p. 193.

(٣٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٠٠

لنا أحد المؤرخين المعاصرين أنه كان يتم اشعال النيران فى مواقد أعدت خصيصا لذلك فى بعض المدن مثل القاهرة عندما ينتشر الطاعون ، حيث كان يتم اشعال تلك النيران عند تلال المقطم لتنقية الهواء مما به من آثار الوباء[٣٨] .

أما عن طرق العلاج فى الغرب الأوربى ، فيبدو لنا أن كل شخص هناك كان يجرب أى شىء بحثا عن العلاج وبخاصة عندما لا يجدون من يصف لهم الدواء ، ويروى لنا أحد المشتغلين بالطب آنذاك أنه من وسائل العلاج التى كانت شائعة أن تخلط الأعشاب بقرون وحوافر الحيوانات، مع كبد ومخ الخيول ، والبغال والماعز والأرانب ، وتستخدم كعلاج لهذا الطاعون[٣٩] . كذلك اسخدموا طريقة « فصد الدم » التى كانت شائعة عند العرب — والذين أدركوا أن أهم فائدة لها هى منع عملية نزف الأوعية الدموية بسبب التسمم الحاد — أو لتجديد الدم وامداد الجسم بدم نقى بدلا من الدم الملوث[٤٠] . كذلك قام الكثيرون منهم بشم خليط من الفلفل الأسود والأحمر والصندل معا ، كما لجأ البعض منهم الى رش مسحوق من الكبريت والزرنيخ على النار ، ومعروف أن الكبريت يقتل البكتيريا كما يقتل الفئران والبراغيث ، بينما لجأ البعض الآخر الى غسل وجوههم وأيديهم بالخل من حين لآخر أو بماء الورد[٤١] .

وواضح من سبل العلاج هذه أنها اما مجرد محاولات شخصية أو مقتبسة من الشرق العربى وذلك راجع لعدة اعتبارات منها أن معظم أبناء

---

(33) Dols : op. cit., p. 79.

(٣٩) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ قسم ٣ ، ص ٧٧٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٢٤ .

(40) Campbell : op. cit., pp. 29 — 73; Ziegler : op. cit. p. 74.

(41) Ziegler : op. cit., pp. 74 — 75.

الغرب الأوربى قد اتفقوا تماما مع رأى جالينوس حول هذا المرض بأنه لا شفاء منه ، وبذلك ركزوا على وسائل الوقاية أكثر من العلاج[٤٢] فضلا عن اعتقادهم بأن جالينوس قد قال الكلمة الأخيرة فيما يختص بهذا الوباء ، وأن أى أبحاث أخرى لم تعد ضرورية ، كما أن الطب قد خضع لاشراف الكنيسة وبما يتفق مع أهدافها ولخدمة أغراضها الدينية، وغالبا ما كانت معلومات الطب قاصرة على قراءات فقط من خلال المترجمات ، فضلا عن أن الجراحة كانت أفقر كثيرا بالنسبة للطب ، وظل الحال كذلك حتى القرن الخامس عشر الميلادى[٤٣] .

أما عن طرق العلاج فى الشرق فبالرغم مما تشير اليه بعض المصادر بأنه « لم يحتج أحد فى هذا الوباء الى أشربة ولا أدوية ولا أطباء ، لسرعة الموت »[٤٤] الا أنه كانت هناك محاولات للعلاج ، وان دلت على شيء فانما تدل على مدى تقدم مستوى الطب لدى العرب بالنسبة للغرب الأوروبى ، وكذلك تدل على فهم ودراية بكل ما استخدموه • من ذلك أنه كان يوصى باستئصال أورام الطاعون اذا أمكن ذلك ، مع ضرورة مسح تلك الأورام بقطعة من الاسفنج بها ماء وخل ، ومعروف أن الخل كحامض اذا تخلل تلك الأنسجة المصابة بالبكتيريا المسببة للطاعون ، والتى تتكاثر فى الجسم لطبيعته القلوية ، فان الخل يعمل نوعا من التعادل ، ويخلق بيئة غير صالحة لتكاثر البكتيريا ، كذلك كان المعاصرون ينصحون بتناول بعض الأطعمة مثل العدس بالخل واللحوم المطهية فى الخل[٤٥] كما كان يوصى بعملية « فصد الدم » والتى تؤدى الى تقليل نسبة الدم الملوث ، وتجديد الدم

---

(42) Campbell : op. cit., pp. 85 — 86.

(43) Ziegler : op. cit., pp. 69 — 72.

(٤٤) المقريزى : السلوك ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٨١ ، ابن تغرى بردى: النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٠٦ .

(45) Dols : op. cit., pp. 106 — 107.

فضلا عن تنشيط الشرايين ، هذا بالاضافة الى عملية « الحجامة » وهى امتصاص الدم « بالمحجم » كعلاج للمصابين بالطاعون ، وفى هـــذه الحالة كان يتم اعطاء الشخص أولا مقدار أوقيتين من كل من شراب الخل وشراب الورد ، ثم تجرى له هذه العملية ، كذلك كان يوصى بالاكثار من العصائر وبخاصة عصائر الفاكهة الباردة والعطريات مثل ماء الورد والكافور والصندل باعتبارها مقوية للقلب(٤٦) • بالاضافة الى أن الكثيرين من المعاصرين كانوا يفضلون استخدام البنفســـج حيث كان يدهن به الجسم كله ، وربما كان السبب فى كثرة استخدامه راجع لأثره الحامضى والذى توصلوا اليه من خلال خبرتهم اليومية(٤٧) • كذلك أوصى المعاصرون مرضى الطاعون بالاقلال من تناول الأطعمة ، وعدم الأكثار من الرياضة والاستحمام والأكثار من السكون والدعة لعدم ارهاق القلب(٤٨) • وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن الناس فى الشرق العربى لم يستسلموا كلية انتظارا لارتفاع الطاعون عنهم تلقائيا ، وكما حدث فى الغـــرب الأوروبى فى كثير من الأحيان ، انما حاولوا حسبما أتيح لهـــم من معلومات طبية ، لأنهم لم يكونوا قد توصلوا بعد الى ما توصل اليه الطب الحديث من مركبات السلفا التى تقضى على ذلك الطاعون قضاءا تاما •

أما عن مصدر هذا الوباء فان المصادر العربية المعاصرة قد أشارت اليه بشكل واضح ، فابن الوردى — وهو معاصر — يذكر لنا أنه ابتدأ من « الظلمات » من خمس عشرة سنة متقدمة على التاريخ الذى عم فيه أقطار الأرض شرقا وغربا(٤٩) •

والمعروف أن المؤرخين والرحالة العرب قد أطلقوا على المنطقـــة

---

(46) Ibid, pp. 105 — 107; Campbell : op. cit., pp. 87 — 88.

(٤٧) السيوطى : ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون ، ص ٨٨—٨٩.

(٤٨) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٤٥ •

(٤٩) تاريخ ابن الوردى ، ص ٣٥٠ •

التى تشمل اليوم أجزاء من بلغاريا ورومانيا والمطلة على البحر الاسود، وروسيا الشمالية أرض الظلمة أو أرض الظلمات(٥٠) • كما أن « ابن كثير » ذكر أنه بدأ فى بلاد القرم ثم انتقل منها الى بلاد الافرنج ، حتى قيل ان أهل قبرس مات أكثرهم أو يقارب ذلك(٥١) وهو بذلك يتحدث عن المنطقة الجنوبية الشمالية من روسيا ، كذلك وردت اشارة لدى كل من المقريزى وابن تغرى بردى أن الطاعون ظهر فى بلاد أزبك ، أى بلاد مغول القفجاق شمالى البحر الأسود وبحر قزوين(٥٢) ومن هذا يتضح لنا أن المصادر العربية أجمعت على أن الطاعون ظهر أولا فى المناطق المطلة على البحر الأسود ، والتى كانت خاضعة آنذاك لحكم مغول القفجاق •

أما عن المصادر والمراجع الأوروبية ، فقليل منها يذكر لنا أنه حدث أولا فى بلاد الحبشة ، ثم امتد الى البلاد المجاورة ومنها الى مصر وبلاد الشام ثم انتقل من الشرق الى الغرب الأوربى(٥٣) ولكن الغالبية العظمى تذكر أنه حدث أولا فى مدينة كافا Caffa المطلة على البحر الأسود، والتى كانت من المراكز التجارية الهامة فى دولة مغول القفجاق ، وأقام بها الجنوية والبنادقة مراكز تجارية لهم لتجارتهم مع الشرق الأقصى ، والتى كانت ترد اليها عبر الطرق التجارية البرية الممتدة من جنوب آسيا(٥٤) • كذلك تذكر بعض المراجع الأخرى أنه فى الفترة من ١٣٣٠ م — ١٣٤٦ م فقد انتقلت أعداد من القوارض التى تعيش فى

---

(٥٠) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٣٣٨ — ٣٤٠ •

(٥١) البداية والنهاية ، جـ ١٤ ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ •

(٥٢) السلوك ، جـ ٢ قسم ٣ ، ص ٧٧٠ — ٧٧٣ ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ١٩٥—١٩٧ •

(53) Campbell : op. cit., p. 51.

(54) Hirst : op. cit., p. 11; Coulron : op cit., p. 9; Ziegler : op. cit., p. 40; Gottfried : op. cit., p. 36.

آسيا الوسطى الى أوروبا ونقلت معها العدوى الى الحيوانات المحلية ، ثم الى البشر بالتدريج ، وذلك عن طريق انتقال الفئران الآسيوية السوداء حاملة المرض مع المتاجر الشرقية القادمة الى الغرب الأوروبى[٥٥] • الا أننا نستطيع القول أنه قد يكون هذا أحد العوامل التى ساعدت على سرعة تفشى المرض فى الغرب الأوروبى ، ولم يكن الغرب الأوروبى هو مصدر العدوى الأول ، والدليل على ذلك ما رواه المؤرخ البيزنطى نيكفوروس جريجوروس Nicephoros Gregoras والذى نجا من ذلك الطاعون فى القسطنطينية ، حيث يذكر أن ذلك الوباء غزا بحر ايجه بعد حدوثه فى القسطنطينية ثم انتقل الى جزيرة رودس والجزر القريبة منها ثم الى الغرب ، وأن العدوى لم تقتصر على البشر فقط بل شملت كل الكائنات الحية من حيوانات وطيور وبخاصة قريبة الصلة بالانسان ، أى التى تعيش لديه أو يستخدمها مثل الكلاب والخيول والفئران[٥٦] • كذلك رسم لنا زيجلر Ziegler [٥٧] خريطة توضيحية يبين فيها تطور انتقال العدوى ، ومسار الطاعون فى كل أنحاء الغرب الأوروبى ، والتوقيت الذى وصل فيه الى كل بلد من بلدان أوروبا ، معتمدا فيها على ما ذكره المعاصرون من أقوال تؤيد ما جاء بالخريطة ، وهى مرفقة فى آخر هذا البحث •

وجدير بالذكر أنه منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى آتيح للمدن الايطالية أن تهيمن على النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، نتيجة لاهتمامها بجغرافية حوض البحر الأبيض المتوسط ، مما ساعدها على تسيير رحلات شبه منتظمة بينها وبين الشرق والغرب ، فضلا عن اصدار هذه المدن لعملتها الذهبية والتى فاقت ما كان معروفا فى العالم

---

(55) Gottfried : op. cit., p. 35.

(56) Ibid, p. 38.

(57) The Bl ack Death, pp. 106 — 107.

البيزنطى والاســـلامى من عملات ، وذلك لثبات قيمتها وثبـــات نسبة الذهب فيها ، بالاضافة الى اعتماد البابوية على تلك المدن فى تحصيل الصدقات والعشور من أنحاء الغـــرب الأوروبى ، فضلا عن قيامهـــا بالعمليات المصرفية حيث أصبحت لها مراكز تجارية فى كل من وســـط وشرق أوروبا ، كذلك تحقق لها السيطرة على التجـــارة بين البحرين الأسود والأبيض ، حيث سمحت لها الامبراطورية البيزنطية — باعتبار هذه المدن حلفاء لها — بانشاء مستعمرات تجارية حول البحر الأسود منذ سنة ١٢٠٤ م ، وبقيام امبراطورية المغول أتيح للمدن الايطالية الاستفادة من طرق التجارة الممتدة من الصين الى الشواطىء الروسية على البحر الأسود ، كما أنه فى سنة ١٣١٥ م وصلت سفن كل من جنوة والبندقية الى الموانى الشمالية للمحيط الأطلسى الأوروبية مما ساعد على ربط هذه الموانى بموانى البحر الأبيض المتوسط[٥٨] . هذا بالاضافة الى أن المجاعات التى حدثت عام ١٣٤٠ م فى أوروبا أدت الى ارتفاع كبير فى الأسعار ، وساعدت فى نفس الوقت على انتشار البيوت الماليـــة الايطالية فى كل الغرب الأوروبى ، وانتشار النشاط الايطالى فى موانى أوروبا[٥٩] . لذا لا غرابة فى أن يكون الايطاليون هم الذين نقلوا هذا الوباء من شواطىء البحر الأسود الى أنحاء الغرب لأوروبى والشرق على السواء ، وتذكر المصادر الأوروبية المعاصرة أن تجار جنوة والذين كانت لهم مراكزهم التجارية فى مدينة كافا Caffa نقلوا معهم هذا الوباء عن طريق سفنهم التجارية عبر حوض البحر الأبيض المتوسط ، ومن الموانى الساحلية انتشر هذا الوباء الى المناطق الداخلية عن طريق الأنهار والطرق التجارية البرية ، من ذلك أن الراهب ميخائيل البيازى

---

(58) Lopez : The Commercial Revolution of the Middle Ages pp. 106 – 112, Thompson : Economic and social hist. of the Middle-Ages. Vol I, p. 430.

(59) Gottfried : op. cit., p. 43.

وهو راهب من طائفة الفرنسيسكان وكان معاصرا بذلك الطاعون ، يذكر أن عشرة سفن ايطاليا حملت الطاعون الى مدينة مسـينا Messina الميناء الرئيسى لجزيرة صقلية سنة ١٣٤٧ م ، ومن مسينا انتقل الطاعون الى كل أنحاء جزيرة صقلية ، كما أن عدة سفن أخرى نقلته الى جنـوة والبندقية وبعض الموانى الأوربية ، وسرعان ما انتشر الى المنـاطق الداخلية عن طريق المراكز التجارية الداخلية ، كذلك ساعد الهاربون من ويلاته على انتشاره فى كل مكان(٦٠) •

كذلك من المرجح أن صقلية لكونها احدى المراكز التجارية الهامة فى عالم البحر الأبيض المتوسط آنذاك ، قد ساعدت على انتشاره فى بقية مناطق البحر الأبيض ، حيث يرجح انتشاره فى مدن شمال افريقيا عن طريق تونس عبر كورسيكا وسردينيا ومنها الى بلاد الأندلس ، هذا الى جانب أن التجار الايطاليين كانوا هم أيضا الذين نقلوا الطاعون الى الموانى الاسـلامية فى البحر الأبيض المتوسـط ، حيث وصـل الاسكندرية فى أواخر خريف سـنة ١٣٤٧ م(٦١) • وتشير المصـادر العربية الى ما يؤيد ذلك الرأى بقولها : « وقدمت مركب الى الاسكندرية، وكان فيها اثنان وثلاثون تاجرا وثلثمائة رجل ما بين بحار وعبيد ، فماتوا كلهم ولم يصل منهم غير أربعة من التجار وعبد واحد ، ونحو أربعـين من البحارة فماتوا جميعا بالثغـر ••• »(٦٢) ثم انتشر الطـاعون من الاسكندرية على ما يبدو الى الدلتا ومنها حتى وصل الى القاهرة ، ومن القاهرة انتشر حتى شمل كل مصر تقريبا ، ثم وصل الى غزة فى ربيع سنة ١٣٤٨ م والتى كانت احدى الأسواق التجارية الهامة ، وانتشر منها

---

(60) Coulton : op. cit., p. 9; Ziegler : op. cit., p. 40; Hirst : op. cit., pp. 11 — 32.

(61) Dols : op. cit., pp. 35 — 67; Gottfried : op. cit., p. 38.

(٦٢) المقريزى : السلوك ، ج ٢ قسم ٣ ، ص ٧٧٦ ، ابن تغـرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٩٩ •

الى فلسطين وبلاد الشام ، وفى أواخر سنة ١٣٤٨ م وصل الطاعون الى أنطاكية ، ومن المرجح أن يكون قد وصلها لا عن طريق فلسطين فقط ولكن من خلال اتصالها بالقسطنطينية أو قبرص • ومن مصر وفلسطين انتشر الطاعون الى الجزيرة العربية ، وفى بداية ١٣٤٩ م وصل دمشق ، وحتى أواخر سنة ١٣٤٩ م كان العالم الاسلامى كله قد اجتاحه الطاعون[٦٣] •

وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن أول ضحاياه كانوا هم سكان المدن الساحلية سواء فى الشرق العربى أم الغرب الأوروبى ، ثم يليهم سكان المدن الداخلية وبخاصة ذات الأهمية الاقتصادية ، كما كانت أكبر مركز لانتقاله فى أوربا هى صقلية وجنوة والبندقية وبيزا ، ومنها انتقل الى كل أنحاء الغرب الأوروبى ، كذلك لعبت القسطنطينية دورا هاما أيضا فى نقله الى بلاد اليونان ومنها الى شرق أوربا عبر الطرق التجارية، وربما كانت القسطنطينية لها دور فى انتقال الطاعون الى بعض المدن الشامية ذات الصلات التجارية بها • أما فى الشرق العربى فقد لعبت المراكز التجارية كالقاهرة ودمشق وحلب وغزة دورا كبيرا فى نقله عبر الطرق التجارية الداخلية ، أو نتيجة لهروب بعض سكانها الى المناطق الريفية المجاورة مما ساعد على انتشار العدوى بشكل مؤثر وفعال •

أما عن العوامل المهيئة أو المساعدة على سرعة انتشاره وفتكه بمجتمعات الشرق العربى ، فان الدارس لتاريخ الشرق العربى يدرك أنه كان يعانى من عدة أزمات اقتصادية فى الفترة التى سبقت انتشار ذلك الوباء ، حيث كانت الزراعة هى أهم مقومات الحياة فى تلك الفترة ، وأن أى هزة فى موارد المياه — سواء مياه الأنهار أم الأمطار — يترتب عليها اختلال الحياة الاقتصادية كلها ، وما يترتب عليه من ارتفاع فى الأسعار ، وانعدام الأقوات ، وغالبا ما تكثر المجاعات الرهيبة ، ويزداد

---

(63) Gottfried : op. cit., pp. 38 — 41.

عدد الفقراء • كذلك تجب الاشارة الى أن الأزمات الاقتصادية لم يكن السبب فيها كلها ما ينجم عن كوارث الطبيعة ، بل كان النظام السياسى فى كثير من بلدان الشرق العربى مسئولا عن تلك الأزمات ، مثال ذلك دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام والحجاز والتى قامت فى أساسها على النظام الاقطاعى ، وما يتبع ذلك من تصور للعلاقة بين الحكام والمحكومين ، وليس عن مفاهيم تلزم الحكام بضرورة الاهتمام برعاياهم، والحرص على تقديم الخدمات العامة لهم ، لا تقديمها على أساس تصور دينى يجعل منها احسانا وصدقة • هذا بالاضافة الى أنه بالرغم من معرفة الشرق ببعض الاجراءات الوقائية مثل عزل المرضى واغلاق بعض الأماكن الموبوءة — وكما سبقت الاشارة بذلك — الا أن طبيعة العصر بما يتسم به من قدرية وارتجالية قد تغلبت على أبناء الشرق العربى آنذاك[٦٤] • يذلك كانت سلسلة الحروب الخارجية والداخلية التى شنتها دولة سلاطين المماليك عاملا له أثره الفعال فى استنزاف مواردها المالية ، ومقدمة بعيدة الأثر لاحداث الغلاء وندرة الأقوات[٦٥] وما تلى ذلك من محاولة سلاطين وأمراء المماليك لتعويض فاقد الخزانة من فرض كثير من المكوس والرسوم والمقررات ، الى جانب انتشار ظاهرة لبذل والبرطلة — ونقصد بهما الرشوة — فى تولى المناصب العامة فى أنحاء البلاد ، وما استتبع ذلك من فساد فى شتى مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية[٦٦] بحيث انتشر الطاعون فى مجتمع كان يعانى غالبيته من سوء تلك الأحوال •

أما عن العوامل المهيئة أو المساعدة على سرعة انتشاره وتأثيره الفعال فى مجتمعات الغرب الأوروبى آنذاك ، منها أن الغرب منذ بداية

---

(٦٤) د• قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٧٤ •

(٦٥) عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط ، ص ١٥١ •

(٦٦) د• أحمد عبد الرازق : البذل والبرطلة ، ص ١٦ — ١٦٦ •

القرن الرابع عشر بوجه خاص كان قد شهد زيادة سكانية متزايدة ، بحيث عجزت الأرض عن مقـــابلة احتياجات تلك الزيادة الهـــائلة من المحاصيل الزراعية ، هذا بالرغم من احلال الزراعة محل مساحات كبيرة من الغابات ، كذلك قل الانتاج بسبب اجهاد الأرض وعدم وجود الوسائل العلمية التى يمكن استخدامها فى زيادة الانتاج أو تخليص التـــــربة الزراعية المجهدة من الأملاح وتحسين وسائل الصرف • ويصـــور أحد الكتاب الوضع فى أوربا آنذاك بأن الناس هناك كانوا كمن يمشون فى بركة ماء والمياه تصل الى أفواههم ، فان أى انخفاض بسيط فى قاع البركة ، أو أى ارتفاع بسيط فى مستوى سطح المـــاء سوف يغرقهم • كما أن المناخ لعب دورا هاما فى زيادة التدهور الاقتصادى ، ذلك أن البرودة الشديدة أدت الى تجميد كثير من الأنهار الجليدية ، وكذلك أنهار جبال الألب مما أثر على زراعة الغلال والكروم بوجه خاص ، مما تسبب فى سلسلة من مواسم الحصاد الهزيلة ، وما نجم عن ذلك من اضطراب فى شتى نواحى الحياة • أضف الى ذلك أن الطاعون عندما انتشر هناك وجد سكانا ليس لديهم أية مقاومة له ، ممزقين بالحروب وسوء التغذية ، منهكين فى العمل للحصول على قوتهم الضرورى(٦٧) • بالاضافة الى سوء الأحوال الصحية وخاصة وأن المدن الأوروبية آنذاك بما حوته منازلها من أسرة مصنوعة من القش ، وخنازير تربى بداخلها ، وشوارع مليئة بالقاذورات ، مما جعلها بيئة صالحة لتكاثر الحشرات الناقلة للعدوى لكثير من الأمراض(٦٨) • أضف الى ذلك انعدام الخدمة الصحية فى كثير من مدن الغرب الأوروبى لندرة ما بها من مستشفيات

(67) Ziegler : op. cit., pp. 32 — 35; H. Pirenne : Economic and Social Hist., p. 193.

(68) Hirst : op. cit., pp. 128 — 161.

وأطباء[٦٩] بحيث يصدق قول أحد المؤرخين الغربيين المحدثين فى تصويره لمجتمع تلك الفترة بأن الناس هناك قبيل حلول الطاعون كانوا فى حالة نفسية لا تسمح لهم بمقاومة مثل هذا الوباء المفاجىء ، كذلك فى حالة صحية لا تستطيع مقاومة ذلك المرض الخطير ، وقد رحب كثيرون منهم بهذا الموت الجماعى لخلاصهم مما كانوا يعانون من سوء التغذية وسوء الأحوال الاقتصادية والمالية ونكبات الطبيعة وكثرة الحروب والمنازعات التى عمت كل القارة الأوروبية[٧٠] .

وتجب الاشارة الى أن هذا الطاعون كانت له آثاره على شتى جوانب الحياة فى الشرق والغرب على حد سواء ، وبخاصة النواحى الاقتصادية والاجتماعية والحربية والدينية والثقافية ، فمن الناحية الاقتصادية فى الشرق نلاحظ أنه تناقص عدد الفلاحين الى درك رهيب ، مما ساعد على استمرار فترة الاضطراب الاقتصادى الى سنوات عديدة بعد هذا الوباء ، بل ان الطاعون نفسه قد أعطى الفرصة لأعداد كبيرة من الفلاحين لهجرة الريف الى كثير من المدن هربا من سوء الأحوال التى عاشوها فى القرى ، وليحصلوا على أجور أعلى ، كما أن المدن بما توفر فيها من مؤسسات دينية وخيرية واجتماعية وفرت للكثيرين منهم حياة أفضل ، ورعاية صحية أحسن مما كانوا عليه ، وظل تناقص أعداد الفلاحين مستمرا حتى بداية القرن الخامس عشر الميلادى[٧١] . ولم تجد كثير من الأرض الزراعية من يزرعها ، مما أدى الى ارتفاع أسعار كثير من السلع ، كذلك توقفت أعمال الصيد ، وتعطلت الأسواق ، كما كان من نتيجة ارتفاع معدل الوفيات أن ندرت الأيدى العاملة ، وارتفعت

(69) Gottfried : op. cit., pp. 44 — 54; Ziegler : op. cit., pp. 56 — 58.

(70) Ziegler : op. cit., p. 45.

(71) Dols : op. cit., pp. 162 — 164.

أجورها ارتفاعا كبيرا بحيث غلقت دور كثير من الصناعات[٧٢] • وكان طبيعيا أن ينشغل الناس بهذا الوباء عن سائر اهتماماتهم وألا يكـون بمقدورهم مزاولة أعمالهم اليومية ، واستغل كثير من أصحاب الصنائع فرصة الطلب المتزايد على مقرئى القرآن على الجنائز • ومغسلى الأموات وحفارى القبور والحمالين ، واتجهوا الى تلك الأعمال ، فأبطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا لمثل تلك الأعمال لمـا نالوه من أموال كثيرة ، وتغيرت أحوال كثير ممن عاشـوا بحيث أخذوا دورا وأمـوالا بغير استحقاق لموت مستحقيها ، فمن عاش منهم استغنى به ، وانحط قدر الذهب والفضة ، فضلا عن أنه رخص ايجار كثير من الدور لعدم وجود من يسكنها[٧٣] • كما توقفت أحوال الدولة ، واضطرت سلطنة المماليك الى تخفيض ما على الدولة من كلف ، فألغت فى الفترة التى تلت ذلك الوباء وحتى سنة ٧٥٤ هـ/١٣٥٣ م الأسمطة التى كانت تقام فى شـهر رمضان وفى العيدين ، فضلاً عن تخفيض المعاليم « المرتبات » التى كانت تصرف لمباشرى الدولة ، فمنهم من خفض معلومه الى النصف أو الثلثين ، هذا الى جانب الاقلال من أعداد هؤلاء المباشرين ، فبعدما كان فى كل معاملة ستة مباشرين تم تخفيضهم الى ثلاثة[٧٤] •

ويبدو أن أثر الأزمة الاقتصادية دفع بكثير من رجال الدولة من سلاطين وكبار الأمراء الى محاولة الحصول على الأموال بأية وسيلة ، ويؤكد ذلك ما ترويه لنا كتب المعاصرين من فرضهم لكثير من الرسوم ، ومحاولة الاستيلاء على أموال الناس ، حيث وضعوا العقبات الجسام فى طريق كل وريث يطالب بحقه فى ميراث أحد والديه أو أقاربه وذلك

---

(٧٢) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٧٨ — ٧٨٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٠ — ٢١١ •

(٧٣) نفس المصدرين السابقين والصفحات •

(٧٤) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٢١١ •

« حتى تعجز الورثة عن الطلب فتترك المطالبة »[٧٥] ومنهم من « كان يحتاط على التركة وان كان فيها ولد ذكر أو غيره •• »[٧٦] كذلك تعددت المصادرات ، وفرضت الاتاوات الكبيرة على التجار ، فضلا عن اجبارهم على شراء البضائع التى تطرحها عليهم الحكومة بأعلى الأسعار وهو ما عرف فى مصادر تلك الفترة بسياسة الطرح[٧٧] •

أما عن أثر الطاعون الاقتصادى فى الغرب الأوربى ، فحيث أن ذلك الطاعون فتك بغالبية الفلاحين ، لذلك كانت له نتائجه الخطيرة على الحياة الزراعية ، حيث جفت كثير من الحدائق والبساتين والحقول لكونها لم تجد من يرعاها ، وتفاقمت المشكلات الزراعية الناجمة عنه مما جعل الأمور تزداد سوءا فى كثير من المدن الأوربية ، بحيث أعلنت كثير من البيوت المالية افلاسها نتيجة الخسائر الفادحة التى نزلت بها[٧٨] • كذلك كان من نتيجة الشلل الاقتصادى الذى عم الغرب الأوروبى أن حاولت بعض الحكومات تعويض النقص فى خزانتها ، مما اضطرها الى فرض كثير من الضرائب[٧٩] • كما أن روما وكذلك جزيرة صقلية والمدن الايطالية التجارية قد تأثرت فى الفترة من ١٣٤٨ — ١٣٥٠ م اقتصاديا لعدم وفود الأعداد الكبيرة من الحجاج المسيحيين اليها ، مما اضطر البابا الى أن يذعن لضغوط أهل روما وقبرص وربما المدن الايطالية ويعلن أن عام ١٣٥٠ م عاما مقدسا ، والذى جرت العادة بأن يحدث مرة كل أول قرن ، ويمنح فيه البابا الغفران لكل من يزور روما[٨٠] • كذلك حدث تغير فى مصدر تجارة الرقيق بالنسبة للمدن

---

(٧٥) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٣٧—٣٨ •

(٧٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٣١ •

(٧٧) د• قاسم عبده قاسم : النيل والمجتمع المصرى ، ص ٧٥ •

(78) Gottfried : op. cit., p. 38; Ziegler b op. cit., p. 44.

(79) John B. Hennerman : « The Black Death And Royal Taxo tion » Speculum, Vol. XI III, p. 420.

(80) Ziegler : op. cit., p. 60.

الايطالية ، فبعد أن تناقصت أعداد الرقيق الذين كانوا يجلبونهم من القوقاز وحول البحر الأسود بسبب تفشى الطاعون هناك ، فقد أخذت هذه المدن الايطالية فى البحث عن مورد جديد ومناطق جديدة للحصول منها على الرقيق ، فاتجه هؤلاء الايطاليون الى أفريقيا وجنوبى الصحراء الكبرى ، وهى منطقة خلت من الطاعون ، والتى كان يحصل منها التجار المسلمون على الرقيق ، ومن هنا زاد اهتمام الأوروبيين بأفريقيا ، وبدأت تجارتهم فى الرقيق الأسود(٨١) •

ونتيجة لارتفاع نسبة الوفيات ونقص العمالة ، فقد ارتفعت الأجور ، وفي محاولة لتعويض هذا النقص فقد اضطرت كثير من نقابات الحرفيين — فى انجلترا على سبيل المثال — أن تختصر طول الفترة التى كانت تشترطها للممتهن حتى يصبح عضوا حرفيا ، ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك الى وجود حرفيين لا يتقنون حرفتهم بالدرجة الكافية ، كما أن كثيرا من النقابات وضعت شروطا جديدة للانضمام اليها ، ربما كان الهدف منها اجتذاب أكبر قدر من الأفراد اليها ، وبمرور الوقت انخفضت مهارة هؤلاء الحرفيين جدا وكذلك مستوى أدائهم مما ساعد على تدهور كثير من الحرف • كما ترتب على نقص الأيدى العاملة توقف استخراج المعادن بحيث أن كمية المعادن التى تم استخراجها وقدمت لسك النقود سنة ١٣٥١ م كانت أقل من خمس الكمية التى تم استخراجها قبل حدوث هذا الوباء • كذلك حدث تطور هام فى نظام الاقطاع والذى اعتمد فى زراعة الأرض على الأقنان ، فمع التدهور فى أعداد هؤلاء الأقنان ونقص الأيدى العاملة ، فقد اضطر كثير من السادة النبلاء الى دفع أجور الى كثير من هؤلاء الأقنان وتحويلهم الى فلاحين أحرار بالتدريج(٨٢) •

---

(81) Gottfried : op. cit., pp., 43 — 44.

(82) Ibid : op. cit., pp. 60 — 61.

وعن التغيرات الاجتماعية التى أحدثها الطاعون فى الشرق ، فهى كثيرة وتزخر بها كتب المعاصرين ، والحقيقة أن هذه التغيرات ترجع بالدرجة الأولى الى التدهور الاقتصادى الذى شهدته البلاد أثناء فترة الطاعون والذى عانت منه حتى أواخر القرن الرابع عشر ، نذكر على سبيل المثال ما حدث من تغير فى ملابس كثير من النساء فى دولة سلاطين المماليك حيث صدرت التعليمات عقب ذلك الطاعون من السلطات الحاكمة بألا تلبس النساء شيئا من اللباسات والثياب الثمينة ، والتى كانت تستورد اما من البندقية أو من العراق ، كذلك نصت هذه التعليمات على ابطال ما كانت النساء يلبسنه فى أرجلهن من أخفاف وسراميز غالية الثمن[٨٣] . كما يذكر لنا المقريزى فى حديثه عن سوق الشماعين المخصص لبيع الشموع ، وصفا رائعا لأنواع الاضاءة التى كانت تتم فى القاهرة فى المناسبات المختلفة مثل شهر رمضان ومواكب ركوب الصبيان لصلاة التراويح ، وفى عيد الغطاس ، وفى حديثه عن سوق الدجاجين يبين لنا مدى عناية الناس باقتناء الطيور المختلفة مثل القمارى والهزاز والشحرور والسمان ، ومدى تكالب الناس عليها بحيث بلغ ثمن الواحد منها ألف درهم ، وذلك لتنافس الناس فيها لاعجابهم بأصواتها ، كذلك فى حديثه عن سوق الجوخيين والذى كان مخصصا لبيع الجوخ المجلوب من بلاد الفرنج ، يذكر أن الناس كانوا يستهجنون لبس الجوخ فلما غلت الأسعار دعت الضرورة أهل مصر الى ترك أشياء مما كانوا فيه من الترفه وصار معظم الناس يلبسون الجوخ ، كذلك فى حديثه عن سوق الحلاويين يذكر أنه كان يصنع فيه من السكر أمثال خيول وسباع وقطاط وغيرها تسمى العلاليق، تشترى للاطفال — كما يحدث فى عصرنا الحاضر فى المواسم والموالد — فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله ولأولاده وذلك فى موسم شهر رجب ونصف شعبان وشهر رمضان وعيد

---

(٨٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٢٣ ، المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٥٠ — ٨١١ .

الفطر ، كذلك فى حديثه عن سوق العنبريين وهو المخصص لبيع العنبر الذى كان يجلب من الشرق الأقصى ، يذكر أنه لا يكاد يوجد بأرض مصر امرأة وان سفلت الا ولها قلادة من عنبر، كذلك كان يتخذ منه المخاد والستور وغيرها ، أما فى حديثه عن سوق الكفتيين حيث تطعم الأوانى بالفضة والذهب فانه يذكر لنا مدى حرص الناس على اقتناء الأوانى النحاسية المطعمة أو المكفتة بالذهب والفضة بحيث لا تكاد دار تخلو فى مصر والقاهرة من عدة قطع من نحاس مكفت ، ولابد أن يكون فى « شوار العروس » دكة نحاس مكفت ، وست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة ، وغير ذلك من الأوانى المنزلية مثل القناديل وأوانى البهار والابريق والمبخرة ، حيث بلغت قيمة الدكة النحاس المكفت زيادة على مائتى دينار ذهب ، الا أنه « قد تلاشى الحال فى جميع ما قلنا لفقر الناس وعجزهم ..»[84] . كذلك كان من نتيجة تدهور الأحوال الاقتصادية التى نجمت عن ذلك الطاعون أن تخلت أكثرية نساء مصر عن لبس الذهب والفضة والجواهر وكذلك الحراير[85] . هذا بالاضافة الى ما حدث من خلل فى التركيبة السكانية ، والتى تشير اليها كثير من المصادر المعاصرة ، بحيث حصل أرباب الحرف والصنائع من الخياطين والأساكفة والمنادين على اقطاعات الجند ،وركبوا الخيول ولبسوا ملابس الجند ، كذلك دخل كثير من الكتاب وأرباب الوظائف الدينية ضمن أجناد الجيش وحصلوا على الاقطاعات ، كذلك كان من نتيجة ذلك الوباء أن بطلت الأفراح والأعراس من بين الناس ، فلم يعرف أن أحدا عمل فرحا فى مدة ذلك الوباء ، ولا سمع صوت غناء[86] .

---

(٨٤) الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٥-١٠٥ .

(٨٥) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ١٠٤ .

(٨٦) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، ص ٨٣٠ - ٨٨٣ ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٥١ .

أما فى الغرب الأوروبى فقد حدثت بعض التغيرات المشابهة لما حدث فى الشرق العربى ، لذلك سنقصر حديثنا على بعض جوانب أخرى من الجوانب الاجتماعية ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما حدث من تغير فى عادات دفن الموتى والتى يذكرها لنا « بوكاشيو » — وقد كان معاصرا لذلك الوباء — من أنه جرت العادة فى الغرب قبل الطاعون أن تتجمع النساء من أقارب الميت مع جيرانهم ويأخذن فى البكاء والعويل ، كما أن بعضهن كن يتجمعن أمام منزل المتوفى مع رجال الدين، ثم يتم حمل الميت على الأكتاف ، وتتقدمه مجموعة من الشموع المخصصة لموكب الدفن والأناشيد الى الكنيسة التى اختارها لتكون مثواه ، فلما انتشر الطاعون لم تعد هذه العادة معروفة ، بل لجأ الناس الى حفر حفر كبيرة يلقون فيها جثث الموتى ويغطونها بالتراب دون حضور أحد القساوسة أو اقامة التراتيل الخاصة ، بل أدى الأمر الى أن يقوم كثير من الجيران بسحب جثث الموتى من المنازل ، وأن يلقوا بها فى الشوارع أمام أبواب المنازل ليلا على أمل أن يراها أحد المارة فى الصباح وبخاصة من رجال الدين(٨٧) . كما يذكر لنا أيضا أنه نتيجة لهجر الناس مرضاهم ، حيث كان يفر المرء من زوجته والزوجة من زوجها والأب من ابنه ، والأبناء من الآباء والأمهات ، مع ندرة وجود الخدم ، فقد استحدثت عادة لم تكن معروفة فى الغرب الأوروبى من قبل ، ذلك أن أى امرأة مهما كان وضعها لم تكن تشعر بحرج أو تردد فى اتخاذ أحد الرجال لخدمتها صغيرا كان أم كبيرا ، والذى كانت تضطر دون حرج أن يطلع عليها وعلى جسدها، مما ساعد على تفشى كثير من الأمراض الاجتماعية منذ ذلك الحين ، فضلا عما نتج عنه من سوء العلاقات الأسرية ، وبخاصة أن الأقارب عندما كانوا يخدمون أحد مرضاهم فانما

---

(87) Giovani Boccaccio : The Decameron. p. XXVIII; Coulton : op. cit., p. 17; Gottfried : op. cit., p. 45.

كانوا يعاملونه مثلما يعاملون القطط والكلاب آنذاك بوضع الأكل بجوار سريره والابتعاد عنه فورا[٨٨] •

كذلك كان من نتيجة انتشار الطاعون فى أوروبا أن ازدادت كراهية اليهود لدى أبناء الغرب الأوروبى ، وذلك بسبب الشائعات التى سرت بأن اليهود قد سمموا مياه العيون والآبار ، وعلى هذا الأساس شهدت كثير من مدن الغرب كثيرا من ألوان اضطهاد اليهود واحراقهم ، فضلا عن محاولة رغام أطفالهم على اعتناق المسيحية ، بحيث فضل كثير من اليهود القاء أولادهم فى النار على أن يتم تعميدهم • كما استولى كثيرون من أبناء الغرب الأوروبى على ممتلكات وثروات اليهود ، بالرغم من قيام البابا « كليمنت السادس » بالاعلان عن براءة اليهود مما نسب اليهم ، كذلك قام بعض اليهود بشراء حياتهم بدفع مبالغ كبيرة من المال لبعض الأمراء والملوك نظير حمايتهم من تلك الموجة الموجهة ضدهم[٨٩] على عكس اليهود الذين عاشوا فى بلاد الأندلس وفى بقية الشرق الاسلامى ، والذين لقوا معاملة أفضل بكثير من قبل الحكام المسلمين ، علما بأن فكرة قيام اليهود بتسميم مياه الآبار ومجارى الأنهار والعيون فكرة قديمة ترجع الى بداية عصر الحروب الصليبية ، وذلك لما لقيه اليهود أثناء تلك الفترة من اضطهاد[٩٠] •

كذلك حدث تناقض كبير فى سلوكيات الأشخاص في الغرب الأوروبى ، فالذين أدركوا أن الحياة مهما طال أجلها لابد منتهية ، أطلقوا العنان لأنفسهم للاستمتاع بكل ما لذ وطاب لهم ، بينما البعض الآخر كرسوا أنفسهم ووقتهم للخلاص من ذنوبهم وآثامهم ، لذلك كنت ترى بعض الشوارع تزدحم فيها الكنائس بالناس ، بينما شوارع أخرى تزخر

(88) Coulton : op. cit., pp. 16 — 56; Hirst : op. cit., p. 17.

(89) Hirst : op. cit., p. 18; Gottfried : op. cit., pp. 73 — 74.

(90) Gottfried : op. cit., p. 52; Margolis : AHist. of The Jewish People. p. 404.

بالمستمتعين بكل مباهج الحياة وشرورها[٩١] •ونتيجة لهذا التناقض ظهرت من جديد جماعات ممن يضربون أنفسهم بالسياط تقربا الى الله ، وهى ظاهرة لم تكن جديدة على المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى، اذ يرجع ظهــورها الى أواخر القــرن العاشر الميــلادى ، مع اقتراب الذكرى الألفيــة أو العصر الألــفى وهــو الذى يعتقـــدون أنه سيملك السيد المســيح الأرض مؤذنا بعصر جديد ، وانتشرت هــذه الظاهرة بشكل خطير وواسع فى كل من ألمانيا وفرنسا والبلدان الوطيئة وشبه جزيرة أيبيريا والمجر ، وهؤلاء كانوا يقومون بجلد أنفســـــهم بالسياط ، كما يضربون أنفسهم عند الأكتاف والأذرع بقطع من الحديد وبحماسة منقطعة النظير حتى ينزف منها الدم[٩٢] •

كما أن الأقليات الحاكمة التى قدر لها البقاء فى مجتمعات الغرب الأوربى آنذاك ، قد أصبحت أكثر ثروة مما كانت عليه من قبل ، فضلا عن تركز السلطات فى أيديها ، بحيث غدت وكأنها قد أعيد بناؤهاوبتركيز أكبر عما كان قبل حدوث ذلك الطاعون ، هذا بالاضافة الى أنه نجم عن ذلك الطاعون ظهور طبقة جديدة من الأثرياء ، والتى كان لديها الرغبة فى المشاركة فى حكومات المدن ، وشعر أفراد هذه الطبقة الجديدة أن مواردهم المالية تكفل لهم هذا الحق ، الا أن الأقليات الحاكمة عملت كل ما فى وســعها على أن تكبح جماع أبناء هذه الطبقة ، وتحول بينهم وبين ما كانوا يسعون اليه ، بحيث وضعت القوانين التى تمنع مــن مشاركتهم فى الحكم ، هذا فى الوقت الذى ازداد فيه الفقراء فقرا وهم الذين انتشر الوباء بينهم بشكل مؤثر ، وبذلك اتسعت الفجوة بينهم وبين جيرانهم من المحظوظين والذين ازدادوا ثراء ، وأصبحت هذه

---

(91) Hirst : op. cit., p. 17.

(92) Gottfried : op. cit., pp. 69 — 73; Ziegler : op. cit., pp. 87 — 110.

الفجوة أكثر اتســاعا عما قبل ، مما ساعد على خلق ظروف اجتماعية كان لها أثرها المباشر فى المجتمع الأوربى فيما بعد[٩٣] .

أما عن الآثار الحربية والعسكرية فى الشرق العربى ، فقد كان هذا الطاعون من بين العوامل الرئيسية التى ساعدت على اضعاف الجيش المملوكى على وجه الخصوص ، ذلك أن البلاد التى كان المماليك يجلبون منها الى الشرق مثل سهوب روسيا والقوقاز قد شهدت تناقصا مستمرا فى عدد سكانها لتكرار حدوث الطواعين بها ، يضاف الى ذلك سوء الأحوال الاقتصادية التى أخذت تعانى منها البلاد بسبب هذا الوباء ، والتى زاد من حدتها استنزاف الموارد المالية لدولة سلاطين المماليك فى صد أخطار المغول ، ولطرد البقايا الصليبية التى ظلت جاثمة على بلاد الشــام ، فضلا عن سياسة الحصار الاقتصادى التى فرضها الغرب الأوربى على دولة سلاطين المماليك ، والتى انتهت بنجاح البرتغاليين فى الوصول الى بلدان الشرق الأقصى عن طريق رأس الرجاء الصالح ، والذى يسمى خطأ باسم الكشوف الجغرافية [٩٤] . وليس أدل عــلى تناقص أعداد المماليك مما تشير اليه المصادر المعاصرة من أنه « فتــك الطاعون بالمماليك والجوارى والغرباء ، وخلت طباق القلعة من المماليك السلطانية بسبب موتهم » [٩٥] وما يشير اليه المقريزى فى ذلك الطاعون من قول : « وأما المماليك فانهااليوم قليل عددها ، بحيث لو جمعت أجناد الحلقة مع المماليك السلطانية ، لا تكاد تبلغ خمسة آلاف فارس ، يصلح منها لأن يباشر القتال ألف أو دونها ..» هذا بينما يروى أنه فى أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، أى قبل انتشار الطاعون بحوالى سبع ســنوات فقط « فانها بلغت على مارأيته فى جرائد ديوان الجيش ،

---

(93) Ziegler : op. cit., pp. 59 — 60.

(٩٤) د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٣٥١ ،
David Neustadt : « The Plague and its Effects upon: The Mamluk Army » J.R.A..S. 1946, pp. 67 — 68.

(٩٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٥ ، ص ٦٥٥ ، جـ ٦ ، ص ٧٥٩ .

بأوراق الروك الناصرى — أربعة وعشرين ألف فارس . ثم مازالت تنقص حتى صارت — مع قلة عدتها — سواء منها الألف والواحـد ، فانها لا تنفع ولاتدفع ... » [٩٦] .

ويبدو أن تأثير ذلك الطاعون كان أكبر فى المماليك السـلطانية وبخاصة صغار السن ، والذين كانوا ينزلون فى الطباق بالقلعة ويدرسون النظم العسكرية الى جانب دراستهم الدينية واللغوية ، وذلك راجع الى أنهم لم يكونوا قد تأقلموا بعد على جو البلاد ، فضلا عن أنهم لم يكونوا قد اكتسبوا المناعة الكافية ، الى جانب أنهم لم يحاولوا الفرار من العاصمة أثناء تفشى الطاعون بها ، خوفا من أن يستولى خصومهم على مالهم من سطوة [٩٧] . كذلك كان من أبرز مظاهر الخلل فى النظم الحربية لدى المماليك تصرف الأمراء والأجناد فى اقطاعاتهم عن طريق البيع والتنازل والمقايضة ، الأمر الذى أدى الى دخول كثير من الكتاب وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش ، ولمـا كان الجيش فى ذلك العصر يعتمد فى نظامه على الاقطاع ، فقد أدى فساد النظم الاقطاعية الى ضعف الجيش وانهيار دعائمه [٩٨] .

ومن الطبيعى أن يكون لهذا الطاعون أثره العسكري بحيث يمنع ارسال حملات حربية لفض الفتن والمنازعات ، وبخاصة أثناء انتشار الطاعون خوفا من الموت أثناء الزحف ، كما يمكننا القول أن خلال العشر سنوات التى تلت ذلك الطاعون لمتقم أية عمليات عسـكرية رئيسية من عاصمة سلطنة المماليك ، وهذه حقيقة يمـكن اعتبارها مؤشرا على

---

(٩٦) الخطط ، ج ١ ، ص ٩٤ .

(97) David Neustadt : op. cit., pp. 71 — 72, Dols : op. cit., p. 190

(٩٨) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٨٥ ، د. سـعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٣٥١ ، د. الباز العرينى : الاقطاع الحربى بمصر ، ص ٢٢ .

انهيار قوة المماليك الحربية من جراء ذلك الطاعون (٩٩) • كذلك كان لهذا أثره فى الحرب بين مسلمى شمال أفريقيا وبلاد الأندلس ضد المسيحيين الغربيين بقيادة الملك ألفونسو السادس بالرغم من ضعف القوى المسيحية بالنسبة لهم ، وقد دفعهم الطاعون الى التقهقر الى شمال أفريقيا وعدم استكمال حروبهم (١٠٠) •

أما عن تلك الآثار الحربية والعسكرية فى الغرب الأوربى ، فيمكننا القول أن فترة انتشار الطاعون من ١٣٤٧ — ١٣٥١م كانت بمثابة كارثة كبرى عمت أوربا وأصابت جميع بلدانها بنقص فى الأرواح والأموال، زيادة على ارتباك الأحوال الاقتصادية، مما تعذر معه استئناف الحرب بين انجلترا وفرنسا فى ظل تلك الظروف وهى التى عرفت بحرب المائة عام « ١٣٣٧ — ١٤٥٣م » وهو الاسم الذى يطلق على المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين انجلترا وفرنسا ، والذى نشبت منذ عام ١٠٦٦م عندما امتلك أمراء نورمنديا انجلترا وأصبحت ممتلكاتهم موزعة على جانبى المانش ، أى فى كل من فرنسا ذاتها ثم انجلترا (١٠١) كما أنه نتيجة للخسائر الفادحة فى الأرواح التى تحملتها المدن الأوربية وبخاصة فى فرنسا ، فلم تستطع كثير من المدن الفرنسية تقديم المساعدات الحربية التى وعدت بها ملك فرنسا فيليب السادس (١٣٢٨ — ١٣٥٠) عقب وأثناء انتشار الطاعون ، وكل ما استطاعت تقديمه عقب الوباء هو حوالى ٢٦٪ مما سبق ووعدت به ، كذلك اضطرت كثير من المدن

(99) Muir : The Mamluk or slave Dynasty of Egypt. pp. 94 — 97.

(١٠٠) المقريزى : السلوك ، ج ٣ قسم ٢ ، ص ٧٧٧ ،
Dols : op. cit. p. 192.

(١٠١) د. سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٥٠٥ — ٥١٠.

الفرنسية الى تخفيض أعداد المحاربين الذين وعـدت بتقديمهم (١٠٢) . هذا بالاضافة الى أنه كان لهذا الوباء أثره المباشر على مجريات الحرب الدائرة بين الصرب والأتراك العثمانيين (١٠٣) . كذلك كان السـبب الرئيسى فى انهاء الرغبة فى ارسال حملة صليبية من الغرب الأوربى تقلع من قبرص ضد الأتراك العثمانيين سنة ١٣٥١م (١٠٤) .

(102) John B. Henner man : op. cit., pp. 414 — 420.

(103) Gottfried : op. cit., p. 38.

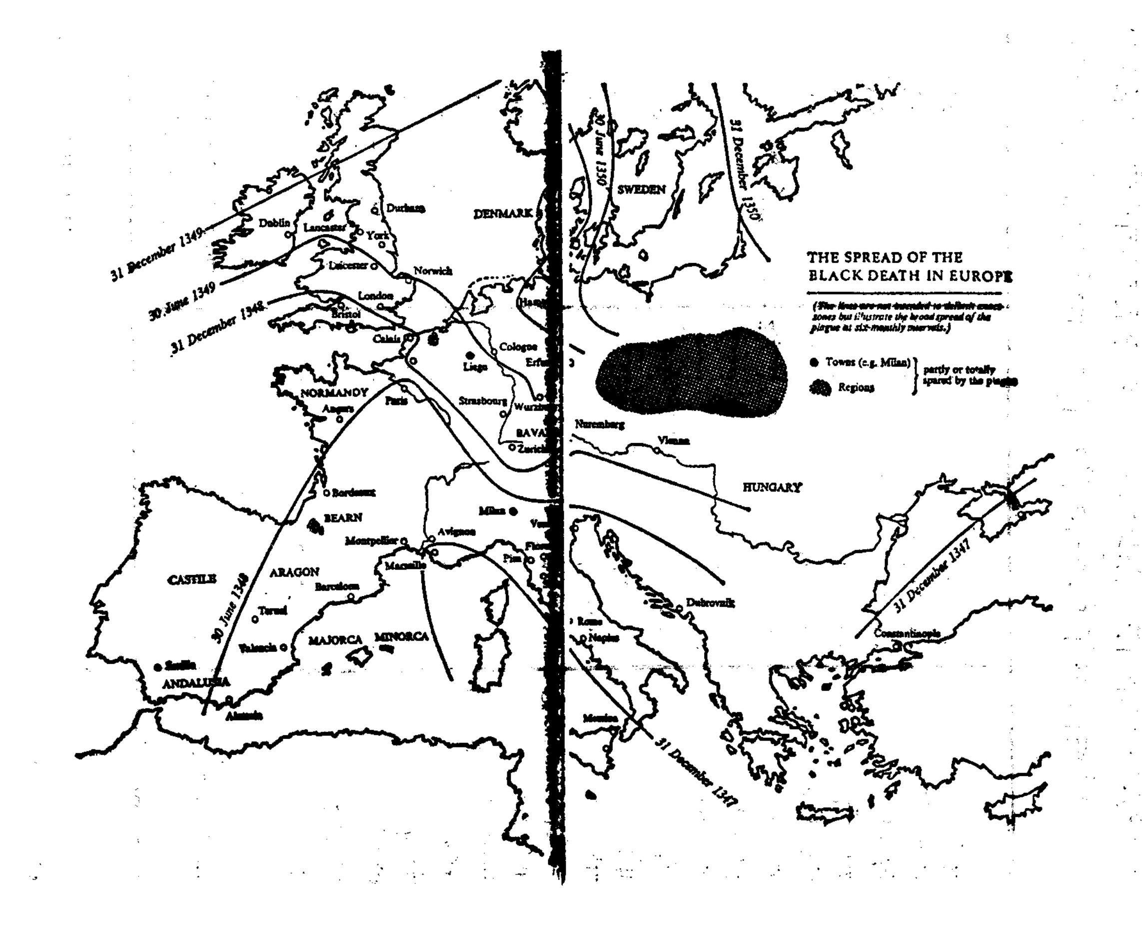
(104) Hill : A. Hist. of Cyprus, Vol.I, pp. 301 — 307.

احصائية عن عدد سكان بعض المدن فى الشرق العربى الأوربى تبين عدد سكان كل مدينة ونسبة الوفيات بها أثناء الطاعون مأخوذة من كتاب :

Gottfied The Black Death pp. 38 — 64.

اسم المدينة	عدد سكانها قبل الطاعون	النسبة المئوية لعدد من ماتوا بها
القاهرة	٥٠٠٫٠٠٠ نسمة	٤٠٪
أنطاكية	٤٠٫٠٠٠ نسمة	٥٠٪
دمشق	١٠٠٫٠٠٠ نسمة	٣٨ — ٥٠٪
جنوة	١٠٠٫٠٠٠ نسمة	٣٠ — ٤٠٪
بيزه	٤٠٫٠٠٠ نسمة	٣٠ — ٤٠٪
بستويا Pistoia	٣٠٫٠٠٠ نسمة	٧٠٪
أورفايتو	١٢٫٠٠٠ — ١٥٫٠٠٠ نسمة	٥٠٪
سيينا Siena	٦٠٫٠٠٠ نسمة	٧٠٪
فلورنسا	٨٠٫٠٠٠ نسمة	٧٠٪
البندقية	١٢٠٫٠٠٠ — ١٥٠٫٠٠٠ نسمة	٦٠٪
ميلان	١٠٠٫٠٠٠ نسمة	١٥٪
مرسيليا	٥٠٫٠٠٠ نسمة	٧٠٪
ناربون	٢٥٫٠٠٠ — ٣٠٫٠٠٠ نسمة	٤٠٪
أفينون	٢٠٫٠٠٠ — ٥٠٫٠٠٠ نسمة	أكثر من ٥٠٪
برشلونه	٥٠٫٠٠٠ نسمة	٣٠٪
فالنسيا	٣٠٫٠٠٠ نسمة	٤٠٪
باريس	٨٠٫٠٠٠ — ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة	٣٥٪
بريستول	١٠٫٠٠٠ — ١٢٫٠٠٠ نسمة	٣٥٪
لندن	٥٠٫٠٠٠ نسمة	٣٥٪

من هذا الجدول يتضح لنا أن معدل الوفيات وصل الى مابين ٤٠٪ و ٥٠٪ من سكان المدن المذكورة ، وهى نسبة لا يستهان بها ، ولا شك أن لها آثارها الفعالة فى شتى مجالات الحياة سواء فى الشرق أم الغرب •


THE SPREAD OF THE
BLACK DEATH IN EUROPE
zones but illustrate the broad spread of the
plague at six-monthly intervals.)
Towns (e.g. Milan)
Regions
partly or totally
spared by the plague
31 December 1349
30 June 1349
31 December 1348
30 June 1348
31 December 1347
30 June 1350
31 December 1350
Dublin
Lancaster
York
Durham
Leicester
Norwich
London
Bristol
Calais
DENMARK
SWEDEN
Cologne
Liege
NORMANDY
Angers
Paris
Strasbourg
Nuremberg
Vienna
HUNGARY
Bordeaux
BEARN
Milan
Montpellier
Avignon
Marseille
Pisa
CASTILE
ARAGON
Barcelona
Teruel
Valencia
MAJORCA
MINORCA
Sevilla
ANDALUSIA
Almeria
Rome
Naples
Messina
Dubrovnik
Constantinople

قائمة المصادر والمراجع

١ — أحمد عبد الرازق « دكتور » : البذل والبرطلة — القاهرة ١٩٧٩م.

٢ — الباز العريني « دكتور » : الأقطاع الحربى بمصر القاهرة ١٩٦٠م

٣ — البخارى : صحيح البخارى أجزاء ٣ ، ٤ طبع بمطبعة دار احياء الكتب العربية لأصحابها عيسى البابى الحلبى .

٤ — ابن بطوطة : (ت ٧٧٩هـ) : الرحلة نشر دار صادر بيروت١٩٦٤م

٥ — ابن خلدون : (ت ٨٠٨هـ) مقدمة ابن خلدون — طبع المطبعة الاميرية بمصر ١٣٢١هـ .

٦ — سعيد عاشور « دكتور » : العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥م .

———————— : أوربا العصور الوسطى ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٦١ .

٧ — السيوطى : « جلال الدين بن عبد الرحمن ت ٩١١ هـ » ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون ، نشر كريمر ، فيينا ١٨٨٠ م .

٨ — عنان « محمد عبد الله » : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط ، القاهرة ١٩٦٩م .

٩ — قاسم عبده قاسم « دكتور » : النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك — القاهرة ١٩٧٨م .

———————— : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى القاهرة ١٩٧٩ .

١٠ – ابن الجوزية « أبو عبد اله محمد بن أبى بكر ت ٧٥١ هـ »
: الطب النبوى طبع بيروت ١٩٨٤م
ـــــــــــــ : الداء و الدواء طبع القاهرة ١٩٧٨م •

١١ – ابن كثير : « عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ت ٧٧٤ هـ » البداية والنهاية ، جـ ١٤ ، القاهرة ١٩٣٩م •

١٢ – أبو الندا : « الملك المؤيد ت ٧٣٢ هـ » المختصر فى أخبار البشر، جـ٣ بيروت ١٩٦٨م •

١٣ – المقريزى « تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ » :
ـــــــــــــ : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ٣ ، قسم ٢ تحقيق د• سعيد عاشور – القاهرة ١٩٧٠م •
ـــــــــــــ : اغاثة الأمة بكشف الغمة • نشر د• جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٥٦هـ •
ـــــــــــــ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ١ جـ ٢ طبعة بولاق ١٢٧٠هـ •

١٤ – ابن تغرى بردى « جمال الدين يوسف أبو المحاسن ت ٨٧٤هـ »
: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة أجزاء ٦ ، ١٠ – القاهرة ١٩٧٢م •

١٥ – ابن الوردى « زين الدين عمر ت ٧٥٠ هـ » تاريخ ابن الوردى ، جـ ٢ ، القاهرة ١٨٦٨م •

المراجع الأجنبية

1. Abla EL Mishad : Manual of Practical Microbi ology Cairo 1974.
2. Campbell : The Black Death and Men of hearning New york 1931.
3. Caulton : The Black Dealh, London 1929.
4. David Neustadt : « The Plague and its Effects upon The Mamluk Army » J.R.A.S. 1946.
5. Dols, Michael : The Black Death In The MiddleEast, Princeton University Press, New Jersey 1977.
6. Giovani Boccaccio : The Decameron — London 1905
7. Gottfried : The Back Dealh Natural and Human Disaster in Medieval Europe, London 1983.
8. Hill : A. Histouy of Cyprus, Vol. I London 1960.
9. Hirst : The Conquest of Plague, oxford 1953.
10. John B. Hennerman : « The Black Death And Royal Taxation » Speculum, Vol. XLIII, 1968.
11. Margols : A. Histoy of The Jewish People. A. Temple Book 1977.
12. Muir : The Mamluk or Slave Dynasty of Egypt, London 1895.
13. Lopez : The Commercial Revol ution of the Middle Ages Cambridge 1976.
14. Thomposon : Economic and Social hisr. of the Middle Ages London 1970.
15. Yehia EL Batawi : Manual of Practical Microbial infection of Man Part II, Cairo 1981.
16. Ziegler : The Black Death, Penguin Book New Zealand 1975.

دور الدولة المصرية في عملية النمو الرأسمالى
في
عهد محمد على
(١٨٠٥ ــ ١٨٤٨)

دكتور / محمد ابراهيم منصور
مدرس الاقتصاد بكلية التجارة
جامعة اسيوط

تمهيـــد :

ان تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى ، بل وقيام الدولة مباشرة بأداء ما نسميه اليوم وظائف « المنظمين » يمكن رده الى أزمان سحيقة • وعنــد النظر مــن زاوية تاريخية أكثر تحديدا أن نعتبر رأســمالية « دعه يعمل » استثناء وخروجــا مؤقتا من سياسات تدخلية متعاقبة انتهجها « المركنتيليون » وأنصار « كولبير » ، ثم اتبعتها الحكومات الرأسمالية المعاصرة فيما بعد • وهذه النظرة التاريخية تكشف عن ضعف ما تزعمه المدارس الحرة من خلود نظام المشروع الحر •

وعلى الرغم من أن تأثير الدولة فى تشكيل النشاط الاقتصادى كان أقــل ظهورا خلال فترة رأسمالية « دعه يعمل » منه تحت نظــام الاقطاع ، فان أثره فى خلق علاقات انتاج جديدة لا ينبغى التهوين من شأنه • فلولا المعاونة القوية من الدولة لما أمكن ان تحدث عملية التراكم الاولى • وقد اعترف آدم سميث بضرورة تكليف الدولة بتوفير

متطلبات التكوين الاساسى • فهو يتكلم عن ضرورة اقامة بعض الاعمال والمنشئات العامة وصيانتها مما لا يمكن أن يكون ذا فائدة بعينة أو لمجموعة صغيرة من الافراد وان كانت غالبا ما تقدم بالنسبة لمجتمع كبير أكثر من نفقتها • كذلك اضطر ليونيل روبنز — وهو من غلاة الداعين الى الافكار الحرة الحديثة — الى الاعتراف بأن نظام « الحرية الاقتصادية » كان يتطلب شرطا أساسيا هو « خلق بيئة مصطنعة الى حد بعيد ، وهذا ضرورى اذا أريد للنظام أن يعمل على الوجه الصحيح • ولم يكن يقصد بطبيعة الحال — بالبيئة المصطنعة سوى متطلبات التراكم الاولى التى يجب أن تضطلع بها الدولة ، كما لم يكن يقصد بالنظام سوى « الرأسمالية » • وكان ماركس قد أوضح قبل ذلك كيف أن عملية تاركم رأس المال قد زادت سرعتها وان الانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية قد اختصر عمدا باستخدام سلطة الدولة [١] •

وربما يصعب تصور الرأسمالى على أنه واقعة اقتصادية • أى تحويل لعلاقات الانتاج يفرضه تطور القوى الانتاجية ، تحويل قابل لان يتم من تلقاء نفسه ، بفعل حركة القوى الاقتصادية من دون التدخل الفعال للسلطة السياسية أى الدولة • فالدولة تشكل عنصرا أساسيا فى دراسة ميكانزم التشكيلات الاجتماعية ، اذ لا يجوز ارجاع هذه التشكيلات الى أنماط انتاجية ، كما يستحيل ارجاع هذه الانماط الى بنية تحتية اقتصادية بحيث لا يؤخذ عامل الدولة بعين الاعتبار • اذ تلعب الدولة دورا حاسما فى تحقيق شروط التراكم العينية •

ولم تتحدد معاونة الدولة فى تنمية علاقات الانتاج الرأسمالية وتوسيع قوى الانتاج فى الوسائل غير المباشرة مثل خلق الدين العام

---

(١) أجناتسى زاكس : نماذج القطاع العام فى الاقتصاديات المختلفة ، موازنة بين الهندى واليابانى ، ترجمة سمير عفيفى ومراجعة دكتور رفعت المحجوب ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ ، صفحة ٨٥ — ٨٧ •

والسياسات المالية والائتمانية والحمائية ، بل تعمقت حتى وصلت الى مجال الانتاج المادى ذاته • وثمة أمثلة كثيرة لهذا الدور فى التاريخ الاقتصادى ، وان كان من المفيد حقـا ان نحاول تحليل الدور الذى لعبته رأسمالية الدولة فى عملية النمو الرأسمالى فى مصر خلال حكم محمد على ، والدروس الثمينة التى أنطوت عليها هذه التجربة الفريدة فى النصف الاول من القرن التاسع عشر •

وقد يكون من الاهمية بمكان أن نتعرض أولا للجدل الذى ثار حول طبيعة رأسمالية الدولة فى عهد محمد على ، قبل أن نعرف دورها — تفصـيلا — فى عملية النمو الرأسمالى ، وتهيئة الاقتصـاد المصرى للاندماج فى السوق الرأسمالى العالمى •

أولا — الجدل حول رأسمالية الدولة فى عهد محمد على :

يعرف موريس دوب رأسمالية الدولة « بأنها مجموع العلاقات الجديدة بين الدولة ورأس المال والتى تسمح لدولة بتوجيه العمليات الاقتصادية وتنسيقها وتخطيطها ، ويختلف المضمون الاجتماعى لرأسمالية الدولة ودورها باختلاف طبيعة الدولة والمصالح الطبقية التى تمثلها ، أى باختلاف العلاقات السائدة فى المجتمع • [٢] وبعبارة أخرى تشير رأسمالية الدولة الى أن تأثير كل تدخـل من الدولة يرتهن بطبيعـة الدولة وبالسياسـة الواقعية التى تنتهجها • أى أن تدخـل الدولة يرتبط بأسلوب ممارسة السلطة السياسية والتعبير الاقتصادى والاجتماعى لهذه السلطة [٣] •

ويرى البعض أن هذا التعريف يكاد ينطبق على مصر فى عهد محمد على (١٨٠٥ — ١٨٤٠) حيث تدخلت الدولة فى النصف الاول من القرن

---

(2) Dobb, M., : Studies in the development if Capitalism, Routledge & Kegan, London, 1957, p. 384.

(٣) زاكس : المراجع السابق صفحة ١٢ .

التاسع عشر فى النظام الاقتصادى للبلاد ، ووجهت العمليات الاقتصادية الى نموذج يمكن أن نسميه طبقا لتعريف موريس دوب باسم « رأسمالية الدولة » • فقد حصلت مصر — لاول مرة فى تاريخها الحديث — على سياسة اقتصادية منظمة • وقد أثارت هذه السياسة الكثير من الجدل واختلفت بشأنها الاراء ، رغم أن الظروف الموضوعية لمصر لم تكن تسمح بغير ذلك[٤] حتى ان البعض قد غالى فى تقديره لهذه السياسة الاقتصادية الي حد القول بأنها كانت مزيجا من « الاشتراكية الحكومية » القائمة على الاحتكار مقرونة بالنظام الديكتاتورى[٥] • وهو قول يناقض تعريف دوب السابق لرأسمالية الدولة ، حيث لا يمكن أن توصفبا الاشتراكية لاول وهلة حالة تتولى فيها الدولة نشاطا اقتصاديا ، فاذا كان احتكار التبغ مثلا يعنى الاشتراكية لكان نابليون ومترنخ هما مؤسسا الاشتراكية • وان كان بعض الباحثين — رغم هذا — يرجع تأثير محمد على بأفكار السان سيمونيين الاشتراكية التى كانت الحملة الفرنسية قد أدخلتها وشيكا فى مصر أو التى نقلها مبعوثوه النجباء من فرنسا بعد ذلك[٦] •

أما باتريك أوبريان فيقول بأن محمد على طبق نظاما اقتصاديا تصح تسميته بالنظام الجماعى[٧]، وهو نظام تقدمت فى ظله قوى الانتاج

---

(٤) د. على الجريتلى : تاريخ الصناعة فى مصر الاول من القرن التاسع عشر ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٤١ .

(٥) د. جمال الدين سعيد : اقتصاديات مصر ، مطبعة لجنة البيان العربى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٤ .

(٦) كامل زهيرى : حقائق لم تنشر عن السان سيمونية فى مصر ، الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، صفحة ٤٥ — ٤٦ .

(7) O'brien, Patric : The Revolution in Egypt's Economic system, London, 1966, p. 39.

تقدما كبيرا ، فاستصلحت أراضى جديدة ، واتسعت رقعة الارض التى تروى وفقا لنظام الرى الدائم • ويبدو أن صافى الاستثمارات فى الرى قد ارتفع فى عهد محمد على ارتفاعا كبيرا • فقد تم تنفيذ العديد من مشروعات البنية الأساسية من حفر الترع والمصارف وانشاء الكبارى والجسور وبناء السواقى ، وأدخلت فنون انتاجية جديدة خاصة بالدورة الزراعية ، ومحصولات جديدة كثيفة العمل • وقد اتفق آخرون مع أوبريان بقولهم انه نظام معين من الاحتكار ، اذ كانت الدولة تملك تقريبا جميع وسائل الانتاج وتقوم بتوجيه استخدامها فى الانتاج بصورة مركزية ، خاصة بعد أن نجح محمد على فى تكوين دولة مركزية ، اثر تراجع اللامركزية السياسية الاقطاعية المملوكية مع تقدم قوى الانتاج تقدما كبيرا فى عهده • بيد أن هذه الدولة ، كما يقول الدكتور جمال حمدان كانت تتراوح بين الاقطاعية ورأسمالية الدولة التى قصد بها حين صادر كل الارض أن تصفى فى النهاية الى اقطاع أسرى بالذات [٨] •فقد ظل أسلوب الانتاج الاقطاعى كما هو ، وظلت العلاقات الانتاجية الاقطاعية كما كانت • وحتى الصناعة التى أقامها محمد على مباشرة تحت ملكية الدولة لم تكن نتاج تطور طبيعى للبرجوازية التجارية، ولم تحطم بالتدريج الانتاج الحرفى للطوائف لحل محله المصنع الكبير ، ولذلك كان من الطبيعى جدا أن تنهار هذه الصناعة بمجرد أن انهارت الاسباب التى أنشئت من أجلها ، وهى الاستراتيجية العامة لمحمد على التى فرضتها عليه ظروف داخلية وخارجية [٩] ، ومع ذلك فقد انطوت

---

(٨) د. جمال حمدان : البيروقراطية والجغرافية ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٦٥ صفحة ٦٣ .

(٩) د. راشد البراوى ومحمد حمزة عليش : التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٦٠ .

التوجهات الاقتصادية الجديدة لمحمد على فى مقتبل القرن التاسع عشر على اتجاهات فى غير صالح البنيان ما قبل الرأسمالى • وقد أصابت هذه الاجراءات بغير شك العلاقات الاقطاعية بالتفكك ، ولكنها تمزق بطريقة حاسمة نسيج هذه العلاقات • وأن ما حدث فى عهد محمد على كان حالة تشبه ــ الى حد ما ــ حالة الانتقال الاوربى من التفتت الاقطاعى فى العصر الوسيط الى الملكية المطلقة الماركنتيلية • فبعد أن الغى نظام الالتزام واسترد للدولة أراضى الاوقاف واقطاعيات المشايخ والعلماء وأمراء المماليك ، أخضع الانتاج الزراعى لنظام واحد من جباية الخراج « المركز »[١٠] • وعلى أية حال ، فقد كانت السلطة المركزية على القطاع الزراعى فى عهده أقوى بكثير وأكثر اتساعا منها فى عهد المماليك أو بعده ، فالملكية العامة فى القرن الثامن عشر لم تكن الا قدرا اسميا من الأشراف المركزى على رأس مال مصر الانتاجى الرئيسى « الأرض » اذ ظل الاشراف بوجه عام على الانتاج الزراعى فى أيدى « الملتزمين » الذين منحتهم الدولة أراضى شاسعة أو أقاليم بكاملها ليتولوا الاشراف عليها نيابة عن الدولة[١١] • وبعد عهده ، خفت تدريجيا قبضة الدولة على القطاع الزراعى ، كما كفت ــ نهائيا ــ عن التدخل فى تسيير دفة النشاط الاقتصادى بوجه عام •

وقد مهد تفكك العلاقات الاقطاعية فى مصر ــ بسبب السياسات الماركنتيلية لمحمد على ــ لمرحلة انتقالية من الانتاج السلعى ما قبل الرأسمالى والخاضع لقانون القيمة والممهد لبروغ الرأسمالية • وقد نجم عن هذا التفكك تحول الريع العينى الى ريع نقدى ، والانتقال بالاقتصاد المصرى من نمط خراجى اقطاعى تنعدم فيه « مركزة الفائض »

---

(١٠) د. جمال حمدان : شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، الجزء الثانى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٥٧٥ .

(11) O'brien, Patric : op. cit., p. 34.

بحكم تفتت السلطة وتوزيعها بين أمراء المماليك والمشايخ والملتزمين ، ويقوم فى الواقع على « القيمة الاستعمالية » الى نمط جديد من الانتاج السلعى تنمو داخله باطراد نواة « القيمة التبادلية » وعلاقات الانتاج الرأسمالية ، ويعبأ فيه الفائض مركزيا طبقا لمقتضيات التراكم الرأسمالى •

ثانيا : دور الدولة فى عملية النمو الرأسمالى فى عهد محمد على :

تميز حكم محمد على — فى النصف الاول من القرن التاسع عشر — بازدياد سيطرة الدولة على الاقتصاد القومى ، وتوجيهه نحو الاغراض التى رسمتها له • وقد سبق أن نوهنا الى أن اشراف الدولة على الاقتصاد الزراعى — قبل محمد على — كان اسميا • ومن ثم لم يفض الى تغيرات جوهرية فى علاقات الانتاج المسيطرة • أما فى هذا الطور من تاريخ مصر — فى النصف الاول من القرن التاسع عشر — فقد لحقت بنيانها الاقتصادى ما قبل الرأسمالى تطورات بعيدة الاثر عن طريق تدخل الدولة المباشر أدى به الى الانتقال من اقتصاد ساكن الى اقتصاد مفتوح متحرك • ففى عشرينات القرن التاسع عشر تحولت مصر من اقتصاد معيشى الى اقتصاد تصديرى ، وتمت خلال السنوات (١٨٢٠ — ١٨٤٠) محاولة طموحة — لم يكتب لها الاستمرار — لتحويل الاقتصاد القومى الى اقتصاد حديث ومستقل ، واقامة الاتصال بين القطاع التصديرى والقطاعات الاخرى [١٢] •

وقد بنى هذا التدخل على أساس الاقتناع بأن على الدولة أن تتخذ خطوات ايجابية لتحقيق « الدفعة القوية » اللازمة لعبور الهوة بين مصر وأوربا • وقد كان هذا — الى حد ما — تجاوبا مع الاتصال

---

(12) Charles Issawi : Egypt since 1900, Astudy in Lop - Sided Development, journal of Economic History March 1964, pp. 1 - 25.

المتزايد بين مصر والغرب الذى بدأ بحملة بونابرت على مصر — تماما كما حدث فى تجربة اصلاح الميجى فى اليابان الذى تلا حملة الكومودور بيرى فى منتصف القرن التاسع عشر •

فقد جاءت الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١) لتمثل أول مواجهة بين رأس المال والمجتمع المصرى • وكان هدف الحملة ، من الناحية الاقتصادية ، تحويل مصر الى مزرعة كبيرة تعوض فرنسا عما فقدته فى حروبها الاستعمارية مع انجلترا فى القرن الثامن عشر فى أمريكا وجزر الهند الغربية • بيد أن محاولة رأس المال الفرنسى فشلت فى أن تخلق من الاقتصاد المصرى اقتصادا تابعا ، ولكن عملية المسح الشامل ودراسة مصر كوحدة انتاجية واحدة ، والسياسات التى رسمتها الحملة لاستغلالها أفادت فى المرحلة التالية فى محاولة بناء اقتصاد مصرى غير تابع فى السوق العالمية • وهى المحاولة التى قامت بها الدولة المصرية بزعامة محمد على فى الفترة ما بين ١٨٠٥ الى ١٨٤٠ • وتتضمن هذه المحاولة أول بناء صناعى ذى وزن نسبى هام ، واعادة تنظيم القطاع الزراعى [١٣] •

وقد افضى اعادة تنظيم القطاع الزراعى — بالذات — الى نتيجتين هامتين :

١ — نمو تدريجى فى علاقات الانتاج الرأسمالية ، وتحول أنماط الانتاج ماقبل الرأسمالية الى أنماط رأسمالية • وربما كان صحيحا • — لهذا السبب — الزعم بأن بذور الرأسمالية فى مصر نشأت من أصول زراعية وليست من أصول حرفية أو صناعية •

٢ — زيادة دور الدولة فى تعبئة الفائض الاقتصادى ، وفقا لمقتضيات الانتاج السلعى وزيادة التراكم الرأسمالى •

---

(١٣) د. محمد دويدار : التكوين التاريخى للتخلف الاقتصادى فى مصر ، مصر المعاصرة ، القاهرة ، العدد ٣٧٣ ، يوليو ١٩٧٨ ، ص ٨ — ٩ .

(١) نمو علاقات الانتاج الرأسمالية :

شهد القطاع الزراعى المصرى — فى عهد محمد على — تطورين جذريين ، وصفهما « أوبريان » بأنهما « ثورة »[١٤] . أما أولهما ، فهو ادخال محاصيل نقدية لها قيمتها السوقية فى الاقتصاد العالمى كالقطن وقصب السكر . وثانيهما ، ما حدث من تغيرات فى الملكية الزراعية ونظام حيازة الأرض فى مصر ، حيث تطورت ملكية الارض فى عهده من عامة الى خاصة . وقد كانت مجموعة الاحداث التى عرفتها مصر فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر : الحملة الفرنسية ، محاولة الانجليز غزو مصر سنة ١٨٠٧ ، والحروب النابليونية فى أوربا ، هى التى أدت الى ازدياد درجة احساس الدولة المصرية بالطلب فى السوق العالمية ، وهذه الاستجابة للطلب المتزايد فى السوق الدولية عبرت عن نفسها فى تاريخ لاحق بالنسبة لطلب العالمى المتزايد على توسع صناعة المنسوجات ، ومع قيام الدولة المصرية بخطوات واسعة فى البناء الصناعى . يقول « مابرو » « ان ادخال زراعة القطن الطويل التيلة فى العشرينات من القرن التاسع عشر، كان بداية لعمليةتحول طويلة استمرت خلال مراحل متعددة ، وأدت بالرغم من التغيرات التى حدثت فى الظروف السياسية الى ظهور اقتصاد موجه نحو التصدير »[١٥] ، ومن ثم تغير الشكل العينى للفائض الاقتصادى من المواد الغذائية الى القطن . وأصبحت مصر — لاول مرة فى تاريخها — مصدرة صافية للقطن ومستوردة للمواد الغذائية ، أى أن الزراعة التى ظلت — حتى ذلك الوقت — تتحكم فيها « قيمة الاستعمال » ومكرسة بالدرجة الاولى

---

(14) O'brien; op. cit., p. 36.

(١٥) روبرت مابرو : الاقتصاد المصرى (١٩٥٢ — ١٩٧٢) ، ترجمة د. صليب بطرس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٤ — ١٧ .

لاشباع احتياجات البقاء ، أصبحت زراعة نقدية ، متكاملة من خلال تصدير سلعة أولية ثمينة الى الاقتصاد الدولى •

لقد كان القطن علامة بارزة فى تاريخ مصر الاقتصادى ، وأداة هامة لادماج الاقتصاد المصرى — بعد عهد محمد على — فى الاقتصاد الرأسمالى العالمى • وفتح بذلك آفاقا جديدة للتجارة المصرية ، وزود البــلاد بمصدر كبير للتراكم ، وأوجد فى الاقتصاد المصرى خطوط اتصال ملائمة بين القطاعات ، لم تكن موجودة بالقطع فى ظل البنيان السـابق (١٦) •

ومن ناحية أخرى رأى محمد على أن نظام حيازة الارض القائم فى مصر لا يوفر له الموارد اللازمة لتحقيق « مشروعه » • ومن ثم فقد قرر تغييره ، ولهذا أخذ منذ عام ١٨٠٩ ينحى الفئات الاجتماعية التى وضعت أيديها على أراضى مصر ، والغى نظام الالتزام ، وصــار هو نفسه مالك الارض ، ولم يعد زراعها أكثر من مستأجرين لديه • وكان مديروه وكلاء عنده فى ادارة البلاد يقومون بتوزيع الاراضى والاشراف على استثمارها ومراقبة زراعتها • وأصبحت العلاقة بين الفلاح والدولة مباشرة ، وأعيد تنظيم الضرائب •

ولم يتم ذلك — بطبيعة الحــال — دفعة واحدة ، بل بدأ تدريجيا ابتداء من سنة ١٨١٢ حيث تم مسح كل الاراضى المزروعة فى القرى المختلفة وربطها فى السجلات ووزعها على الفلاحين يقومون بفلاحتها دون أن يكون لهم حق توريثها أو تداولها عن طريق البيع أو غيره من التصرفات ، وأعقب ذلك اســتيلاؤه على الاراضى التى كان يملكها الملتزمون (١٧) •

---

(16) Issawi; op. cit., p. 18.

(١٧) د• محمود متولى : الاصــول التاريخية للرأسمالية المصريــة وتطورها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ ص ٤٢ •

ويظن البعض أن محمد على لو فرض وطبق مبدأ الملكية الخاصة على جميع الأراضى لكان من المشكوك فيه نجاحه كثيرا بالفقر والجهل والجمود معا كان يحول دون استثماره على الوجه الاكمل [١٨] •

ومع ذلك ، فان موقف محمد على من نظام الملكية والحيازة يعد على أية حال تمهيدا لما جرى فيما بعد من اقرار للملكية الخاصة ، اذ كان لابد أن تتغير علاقات الانتاج خلال تحول الارض الى سلعة يمكن التخلى عنها على أساس من الملكية الخاصة الفردية • وقد عمد محمد على — بالفعل — فى أواخر عهده الى التخفيف من القيود التى وضعها على تداول الارض بين الفلاحين القائمين بزراعتها ، اذ أنه بقضائه على طبقة المماليك التى كانت تقف وسيطا بين الوالى والفلاحين ، ثم باصداره قرارات ١٨٣٧ ، ١٨٤٢ ولائحة الاطيان الاولى سنة ١٨٤٦ [٨٩] مهد للملكية الخاصة بالظهور وبالذات الكبيرة الحجم التى انحدرت منها الاصول الرأسمالية فى قطاعات الاقتصاد الاخرى الى جانب أنه ثبت الفلاحين فيما كان فى أيديهم ، وزادهم على توالى الزمن حقوقا فى أرضهم •

---

(١٨) د. راشد البراوى وحمزة عليش : المرجع السابق ، ص ٦٣ •

(١٩) أعطى القرار الصادر فى يناير ١٨٣٧ المنعم عليهم بأرض الابعاديات والشفالك حق توريثها لاولادهم وأحفادهم . وقد تدعم هذا القرار بقرار آخر فى فبراير ١٨٤٢ أباح لاصحاب تلك الاراضى حق البيع والشراء والتنازل والرهن . أما أول تشريع ينظم حيازة الارض بالنسبة للفلاحين فقد صدر فى ديسمبر ١٨٤٦ ويعرف بلائحة الاطيان الاولى وقد اجازت تلك اللائحة للفلاح حق رهن الارض أو التنازل عنها للغير أو تأجيرها . راجع : هيلين آن ريفلين : الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسينى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ ، صفحة ٩١ — ١٠٠ .

والواقع أن تغير سياسة الدولة الزراعية فى اتجاه الملكية الفردية للارض كان محصلة عوامل كثيرة ومتعددة أهمها ، التوسع الصناعى وما يستلزمه من خامات زراعية ، والاثار غير المواتية لسياسة محمد على الزراعية على الفلاح المصرى ، وأثر الازمــة العالميــة على ايرادات الدولة ، بالاضافة — وهو عامل مهم الى ضغوط القوى الأوربية[٢٠] •

وقد تحقق هذا التعبير من خلال خلق ملكيات كبيرة لاعضاء الاسرة الحاكمة وكبار موظفى الدولة ، مع الملكيات المتوسطة لبعض المشــايخ وبعض أغنياء الفلاحين • ولو قارنا صورة ما حدث للملكية الزراعية ما بين ســنة ١٨٣١ و ١٨٤٤ نجد أنها كانت تتطور لصــالح الملكيات الكبيرة [٢١] ، فبينما زادت أراضى الفلاحين بنسبة ٣٤٪ خلال الفترة المذكورة ، زادت أراضى كبار الملاك بنسبة ١١٠٪ •

ويوضح الجدول رقم (١) توزيع استخدام الارض فى مصر فى سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٤٤ ونوعية الحائزين •

جـــدول رقم (١)

توزيع استخدام الأرض فى مصر

فى سنتى ١٨٢٠ و١٨٤٤ ونوعية الحائزين (بالفدان)

السنة	الملكيات الكبيرة (الابعاديات)	
١٨٢٠	٧٣٢ر٦٨٥	١ر٩٥٦ر٦٤٠
١٨٤٤	١ر٥٧٦ر٥٥٩	٢ر٠١٣ر٩١٤

المصدر : أخذت بيانات هذا الجدول من هيلين ايفلين ، المرجع السابق.

---

(٢٠) د. محمد دويدار : المرجع السابق ، صفحة ١٣ .

(21) Gabriel, Baer : A History of Land Ownership in Modern Egypt (1800 - 1950), oxford University, 1962, p. 18.

٢ ــ رأسمالية الدولة وتعبئة الفائض الاقتصادي :

ولما كان هدف الدولة حينئذ يتمثل فى بناء اقتصاد يقوم على الانتاج السلعى ، ويتم من خلال نوع من رأسمالية الدولة • فقد كان هذا الهدف يقتضى زيادة تعبئة الفائض الاقتصادي، وفى حالتنا هذه يغلب على الفائض الاقتصادى طابع الفائض الزراعى •

وفى اتجاه تعبئة الفائض الزراعى قامت الدولة باحتكار التجارة الداخلية والخارجية وتجارة المنتجات الزراعية والمنتجات الصناعية •

وقد اتخذ الفائض الزراعى حينئذ أشكالا عدة :

١ ــ العمل ، وخاصة العمل المسخر •• وقد كانت الدولة هى الطالب الوحيد لعنصر العمل سواء للاغراض العسكرية أو للاغراض الانتاجية •

وكانت ساعات العمل اليومية لا تقل فى المتوسط عن اثنتى عشرة ساعة يوميا[٢٢] •

٢ ــ ما يدفع عينا أو نقدا بواسطة الضرائب وما يشابهها ، وقد كانت الضرائب العقارية وحدها تمثل نحو ٤٥٪ من ايرادات الدولة الاجمالية عام ١٨٣٣[٢٣] • كما كانت المحاصيل المختلفة وأدوات الانتاج الرئيسية كالحيوانات الزراعية ووسائل النقل وآلات النسيج والسفن الشراعية خاضعة للضريبة • وقد قدر ما يدفعه الفرد فى مصر من ضرائب

---

(٢٢) د. محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٤ ، ص ١١٣

(٢٣) زادت الضرائب العقارية من ٥٤١ر٦٦٠ جنيه فى عام ١٨٢١ الى ٩٢٢ر٨٤٠ر١ جنيه فى عام ١٨٣٣ • انظر د. راشد البراوى ومحمد عليش ، المرجع السابق ، ص ٦٦ •

٢ جنيه استرلينى ، وهو يساوى ما يدفعه الفرد فى انجلترا وضعف ما يدفعه الفرد فى فرنسا(٢٤) .

٣ ـ الادخار الاجبارى عن طريق سياسة احتكار المنتجات الزراعية والصناعية ، واتباع سياسة جديدة لاثمن السلع الزراعية . ويوضح الجدول التالى رقم (٢) سياسة الأثمان الزراعية التى كانت تمارسها الدولة فى عهد محمد على .

جدول رقم (٣)

سياسة الأثمان الزراعية فى عهد محمد على

الغلة	الوحدة	الثمن الذى تشترى به الدولة من الفلاح بالقرش	الثمن الذى تبيع به الدولة فى السوق المحلى بالقرش	الثمن الذى يبيع به فى السوق العالمى (التصدير) بالقرش
القمح	الاردب	٩٠	٥٦	٩٠
الذرة	الاردب	٢٦	٢٧	٦١
الارز	الاردب	١٨	١٤٠	٢٧٠
الفول	الاردب	٣٦	٣٢	٥٦
الحمص	الاردب	٢٠٠	٦٠	٧٠
القطن الشعر	القنطار	٢٩	—	من ٢٨٠ الى ٦٠٠
الحناء	القنطار	٢٧	٨٠	٨٢
الكتان		٧٤	—	١٨٠

المصدر : د. محمد فهمى لهيطة ، مرجع سبق ذكره ص ١١٨ .

(24) Charles Issowi, The Economic History if the Middle East 1800 - 1914, The University of Chicago Press, 1966, p. 388.

وجدير بالذكر أن محمد على لم يلجأ الى الاقتراض من الخارج رغم حاجته الماسة الى الأموال ، وقد رفض بعض القروض التى عرضها عليه المولون الأجانب[٢٥] لخوفه من أن يؤدى الدين الخارجى الى تورط مصر ويتخذ كذريعة للتدخل الأجنبى ووأد مشرعه الوليد فى الاستقلال الاقتصادى •

وينبغى الاعتراف بأن سياسة الدولة الزراعية قد نجحت — الى حد ما — فى توفير المتطلبات الأساسية للتراكم الرأسمالى البدائى وخاصة فى قطاع الزراعة • كما نجحت — الى حد كبير — فى أحداث توازن بين السكان والموارد المادية بل ان الانتاج الزراعى تجاوز معدل الزيادة السكانية ، وهذه الحقيقة — فى رأى البعض — غاية فى الأهمية لأن اختلال التوازن بين السكان والموارد سيكون نتيجة ادماج الاقتصاد المصرى فى الاقتصاد الرأسمالى العالمى كما تحقق بعد عام ١٨٤٠ •

ويبين الجدول رقم (٣) أن نسبة توزيع الأرض على عدد السكان تعتبر ملائمة ومتوازية •

جدول رقم (٣)

نصيب الفرد من الأرض الزراعية فى مصر
فيما بين عام ١٨٢١ و ١٨٤٠

السنة	عدد السكان (بالألف نسمة)	مساحة الأرض الزراعية (الف فدان)	نصيب الفرد من الأرض المنزرعة
١٨٢١	٢٫٠٣٢		٨٠ر فدان لكل فرد
١٨٤٠		٣٫٨٥٧	٩٨ر فدان لكل فرد

Source : Crouchley, A., E., : The Economic Development of Modern Egypt, London, 1938.

---

(٢٥) د. محمد عبد العزيز عجمية ، التطور الاقتصادى ١٩٧٦ ص

ويرى البعض بحق أنه لولا هذا الموقف الملائم على الجبهة الزراعية لاستحال على محمد على أن يواصل تمويل برنامجه الصناعى الكبير • فقد نجحت الدولة بتعبئة الفائض الزراعى ، وتحويل الشكل العينى لجزء منه فى السوق الدولية (عن طريق تصدير سلع زراعية واستيراد سلع صناعية) ، فى ارساء بناء صناعى كبير خلال ما يقرب من ثلاثة عقود • ففى عام ١٨٣٣ كان يوجد ثلاثون مصنعا للغزل والنسيج ، وكن الغزل المنتج يشبع كل احتياجات مصانع النسيج ، وتصدير جزء من فائض الانتاج للخارج • كما أن المنسوجات المنتجة محليا كانت تغطى كل احتياجات السوق الداخلية ، بل وتوفر احتياجات السوق العربية فى شرق البحر المتوسط والأناضل والسودان • وفى صناعة المعادن كان يوجد ٨٠٠ فرن لانتاج المعدات وقطع الغيار ولوازم الحرب التى كانت تستردها مصر من أوروبا فيما سبق • كما وجدت مصانع لانتاج الأسلحة وصناعة للسكر والصبغة والزجاج ودبغ الجلود ،وصناعة للورق والمواد الكيماوية ، وكانت تغطى كل احتياجات السوق الداخلية •

ويقدر البعض تكاليف هذا البرنامج الصناعى الطموح بسبعة ملايين دولار فى حين ذكر محمد على لأحد الأوروبيين أنه تكلف ١٠ مليون دولار لاقامة هذه الصناعة(٢٦) •

وليس ثمة شك أن كثيرا من الصناعات التى نمت فى مصر فيما بعد يرجع أساس نهضتها الى عصر محمد على فكأنه مهد التربة المصرية لذلك • وأخيرا ، فقد تدرب عدد كبير من العمال المصريين على الأساليب الصناعية الجديدة سيبدو أثرهم فى عصر اسماعيل • ففى عام ١٨٤٧

---

(٢٦) هيلين ريفلين : المرجع السابق ص ٢٨٥ — ٢٨٦ •

كانت القوة العاملة المستخدمة في القطاع الصناعى المصرى نحو ٤٧ ألف عامل أجير فى الوقت الذى لم يكن سكان مصر قد وصلوا فيه الى أربعة ملايين نسمة(٢٧) .

وقد ارتبط بهذه الجهود الكبيرة انجازات فى مجال التعليم بكافة أنواعه ومراحله ، وبدء سياسة ارسال البعثات التعليمية الى أوروبا من منتصف عشرينات القرن التاسع عشر . وهى السياسة التى أوجدت نواة الانتلجسيا المصرية التى قادت عصر التنير والنهضة فى التاريخ المصرى الحديث ، ونقلت أول موجات الفكر الأوروبى المسيطر وهو الفكر الليبرالى الذى بدأت بذوره تنمو فى مصر مع نمو الملكية الخاصة .

ثالثا ــ انهيار نظام رأسمالية الدولة :
والاندماج في نظام السوق الرأسمالى العالمى :

لقد كان من أهم خصائص التحويل الاقتصادى الذى قادته رأسمالية الدولة المصرية في عهد محمد على أنه تم ليس فقط دون الالتجاء الى رأس المال الأجنبى ، وانما بالاستبعاد المتعمد لهذا الرأسمال .

وكان معنى عملية التحول هذه أن تتطور علاقات الاقتصاد المصرى مع السوق العالمية ، كما يظهر من التعبير القيمى عن هذه العلاقات فى الجدول رقم (٤) .

---

(٢٧) أحمد الحتة ، تاريخ مصر الاقتصادى ، ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ .

جـدول رقم (٤)

تطور قيمة تجارة مصر الخارجية
فيما بين عام ١٨٠٠ الى عام ١٨٥٠
(بالجنيهات المصرية)

السنة	قيمة الصادرات	قيمة الواردات	اجمـالى التجارة الخارجية
١٨٠٠	٢٨٨ر٠٠٠	٢٦٩ر٠٠٠	٥٥٧ر٠٠٠
١٨٢٣	١ر٥٨٤ر٠٠٠	٨٠٤ر٠٠٠	٢ر٣٨٨ر٠٠٠
١٨٢٤	٢ر١٢٧ر٠٠٠	١ر٠٠٩ر٠٠٠	٣ر١٣٦ر٠٠٠
١٨٢٦	١ر٤٥٥ر٠٠٠	٦٥٦ر٠٠٠	٢ر١١١ر٠٠٠
١٨٣١	١ر٦٠٩ر٠٠٠	١ر٥٢٩ر٠٠٠	٣ر١٣٨ر٠٠٠
١٨٣٦	٢ر٠٧٦ر٠٠٠	٢ر٥٧٦ر٠٠٠	٤ر٥٧٦ر٠٠٠
١٨٣٧	٢ر١٤٢ر٠٠٠	٢ر٦١٢ر٠٠٠	٤ر٧٥٤ر٠٠٠
١٨٤٥	١ر٧٤٧ر٠٠٠	١ر٠٠٧ر٠٠٠	٢ر٧٥٤ر٠٠٠
١٨٤٨	١ر٥٧٤ر٠٠٠	١ر٤٨٠ر٠٠٠	٣ر٠٥٤ر٠٠٠
١٨٥٠	١ر٦٦١ر٠٠٠	١ر٤٧٤ر٠٠٠	٣ر١٣٥ر٠٠٠

المصدر :

(١) د. أحمد الحتة ، تاريخ مصر الاقتصادى ، نهضة مصر ، القاهرة، ١٩٥٤ ، ص ٣٢٠ .

(٢) د. محمد فهمى لهيطة ، المرجع السابق ص ١٥٩ .

(٣) د. محمد دويدار ، المرجع فى سابق ، ص ١٢ .

ويظهر من هذا الجدول أن تجارة مصر الخارجيـة قد تضاعفت حوالى تسع مرات خلال الفترة من ١٨٠٠ الى ١٨٥٠ ، وقد كان نمـو الواردات فى معظم هذه السنوات مقاربا لنمو الصادرات .

ومعنى هذا التطور فى العلاقات مع السوق العالمية أن الاقتصاد المصرى أصبح مكشوفا أمام تقلبات هذه السوق وأزماتها الدورية، وطرفا فى المنافسة والصراعات التى تحكم هذه السوق •

وقد بلغت هذه الصراعات بين الدولة المصرية والمصالح التى كانت تسود السوق العالمية ذروتها بابرام معاهدة لندن فى ١٥ يونيو ١٨٤٠ التى اتفقت فيها القوى الخمس الكبرى : بريطانيا والروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا على ضرب الدلة المصرية وتحجيمها كقوة كان من الممكن أن تهدد مصالح رأس المال الأوربى ، وخاصة رأس المال البريطانى تهديدا خطيرا فى شرق البحر المتوسط ، وقد كان ذلك أثر رفض محمد على تنفيذ أحكام معاهدة١٨٣٨ التى وقعتها بريطانيا والدولة العثمانية فى «بلطة ليمان»[٢٨]، والتى تنص على معاملة السلع البريطانية معاملة تفضيلية فى أراضى الامبراطورية العثمانية ، والغاء الحظر المفروض على تصدير بعض السلع بمقتضى نظام الاحتكار الحكومى • وقد استمر محمد على — رغم هذه المعاهدة — فى انتهاج السياسة الحمائية للمنتجات المصرية ليس فقط داخل حدود مصر وانما كذلك داخل حدود دولته العربية •

وطوال عامى ١٨٤٢ و١٨٤٣ زاد الصراع بين الأجانب وبينه حول تطبيق مبدأ حرية التجارة تطبيقا عمليا ونظريا • على أن كثيرا من الاحتكارات الحكومية كانت قد بدأت تنهار الواحد تلو الآخر • وبدأ

---

(٢٨) حددت المعاهدة ضرائب الواردات بنسبة ٣٪ بالاضافة الى ضريبة قدرها ٢٪ على تجارة التجزئة والغيت الضرائب الاضافية على الورادات أما ضرائب الصادرات فقد حدد بواقع ١٢٪ منها ٣٪ يدفعها أصدرون الاجانب . راجع :

Dr. Ahmed Abdel Rahim Mustafa : The Break Down of The Monopoly System in Egypt after 1840, Faculty of Arts - Ain shams University, vol. x, May 1967, p. 206.

بعض الصناع الذين تلقوا العلم فى أوربا فى عهد محمد على وتدربوا فى المصانع الحكومية يشتغلون لحسابهم الخاص[٢٩] •

وبانتهاء نظام رأسمالية الدولة ، قضى على أول محولة طموحة — فى التاريخ الحديث — لبناء اقتصاد مستقل فى اطار السوق العـــالمى يرتكز على بناء صناعى • واذا كانت هذه المحاولة لم يقيض لها النجاح ، فان ما تم خلالها من تغير نوعى فى الاقتصاد المصرى يستند الى « قيمة المبادلة » ، قد هيأ عملية ادماج الاقتصاد المصرى فى السوق الرأسمالية العالمية كاقتصاد تابع هذه المرة يخضع لسيطرة رأس المال الأجنبى ، الذى فتح الباب لتغلغله منذ عهد سعيد فى صورته المالية ليسيطر على مناحى الحياة الاقتصادية المصرية كافة من خلال اغراق الدولة المصرية والفلاح المصرى فى الديون والعمليات الاقراضية • وانتهى الأمر بتسليم الفلاح المصرى كمنتج مباشر للقطن الى رأس المال الأجنبى[٣٠] •

خاتمـــــة :

لقد لعبت الدولة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر دورا غير مسبوق فى قيادة التحول الاقتصادى • والى هذا الدور يدين الاقتصاد المصرى الحديث بانتقاله من اقتصاد زراعى تتحكم فيه « قيمة الاستعمال » ، الى اقتصاد سلعى تنمو فى داخله باطراد علاقات الانتاج الرأسمالية ، وتتحكم فيه تدريجيا « قيمة المبادلة » • ويتم فيه تعبئـــة الفائض الاقتصادى مركزيا عن طريق الدولة وفقا لمقتضيات وشروط التراكم الرأسمالى •

---

(٢٩) د. محمود متولى : المرجع السابق صفحة ٦١ •

(٣٠) د. محمود عبد الفضيل : الفكر الاقتصادى العربى وقضايا التحرر والتنمية والوحدة ، مركز دراســـات الوحدة العربية ، بـــيروت ١٩٨٢ ، صفحة ٣٣ .

ومن الخصائص الفريدة التى طبعت هذا التحول أنه قد تم ليس فقط دون الالتجاء الى رأس المال الأجنبى ، وانما بالاستبعاد المتعمد لهذا الرأسمال • فقد قام هذا الدور بالأساس ، معتمدا ، على التراكم الذى تحقق فى القطاع الزراعى بسبب التطورات الجذرية التى عاشتها الزراعة المصرية فى عشرينات القرن الماضى ، وبالذات التوسع فى ادخال المحاصيل النقدية ، وعلى رأسها القطن ، الذى كان أداة هامـــة لتطوير علاقات الاقتصاد المصرى مع السوق العالمية ، وهى العلاقات التى وضعت الاقتصاد المصرى أمام تقلبات هذه السوق وأزماتها الدورية ، وجعلته طرفا فى المنافسة والصراعات التى تحكم هذه السوق •

وقد انتهت هذه الصراعات بين الدولة المصرية والمصالح التى كانت تسود السوق العالمية بالقضاء على رأسمالية الدولة فى عام ١٨٤٠ ، واخضاع الاقتصاد المصرى برمته لسيطرة رأس المال الأجنبى •

المراجـع

أولا — المراجع العربيـة

١ — د٠ أحمد الحتـة : تاريخ مصر الاقتصـادى ، مكتبة نهضـة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٤ ٠

٢ — اجناتسى زاكس : نمـاذج القطاع العـام فى الاقتصـاديات المتخلفة ، موازنة بين النموذج الهندى واليابانى ، ترجمة سمير عفيفى ومراجعة دكتور رفعت المحجوب ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ ٠

٣ — د٠ جمال حمـدان : البيروقراطية والجغرافية ، دار الهـلال ، القاهرة ، ١٩٦٥ ٠

٤ — د٠ جمال حمدان : شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، الجزء الثانى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ ٠

٥ — د٠ جمال الدين سعيد : اقتصاديات مصر ، مطبعة لجنة البيان العربى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ٠

٦ — د٠ راشد البرادى ومحمد حمزة عليش : التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٩ ٠

٧ — روبرت مابرو : الاقتصاد المصرى (١٩٥٢ — ١٩٧٢) ترجمـة د٠ صليب بطرس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ ٠

٨ — كامل زهيرى : حقائق لم تنشر عن السان سيمونية فى مصـر ، الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٨ ٠

٩ ـ د. على الجريتلى : تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

١٠ ـ د. محمد دويدار : التكوين التاريخى للتخلف الاقتصادى فى مصر ، مصر المعاصرة ، القاهرة ، العدد ٣٧٣ ، يوليو ١٩٧٨ .

١١ ـ د. محمد عبد العزيز عجمية ، د. محمد محروس اسماعيل : الوجيز فى التطور الاقتصادى ، دار الجامعات المصرية ، الاسكندرية ١٩٧٦ .

١٢ ـ د. محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٥ .

١٣ ـ د. محمود عبد الفضيل : الفكر الاقتصادى العربى وقضايا التحرر والتنمية والوحدة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢ .

١٤ ـ د. محمود متولى : الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

١٥ ـ هيلين آن ريفيلين : الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسينى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ .

ثانيا ـ المراجع الأجنبية

16. Dr. Ahmed Abdel Rahim Mustafa : The Break down of the Monopoly system in Egypt after 1840, Faculty of Arts - Ain shams University, Vol. X, May 1967.

17. Gabriel, Baer : A. History of Land Ownership in Moders Egypt (1800 -1950), Oxford University, 1962.

18. Charrles Issawi : Egypt since 1800, Astudy in Lop - sided Development, Journal of Ecosomic History, March 1961.

19. Charles Issawi : The Economic History of the Middle East (1800 - 1814); the Universty of Chicago Paess, 1966.

20. Dobb, M. : Studies in the Development of Capitlism, Routledge & Kegan, egan, London, 1957.

21. O'brien, Patric : The Revoulution in Egypt's Economic system, London, 1966.

بريطانيا ومصـــر

بـــين

التسوية وتولية عباس الأول

١٨٤١ ـ ١٨٤٨

فى

ضوء الوثائق البريطانية

د. لطيفة محمد سـالم
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد
كلية الآداب ـ بنها

مقــــدمة :

تواكبت الأحداث العالمية مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسـع عشـر ، ودخلت مصـر فى نطـاقها ، فقد رسمت فرنسـا مخططها وقامت بحملتها على مصـر عـام ١٧٩٨ لتحقق أهـدافا أهمها تركيز نفـوذها فى تلك المنطقـة لتكون نواة للامتـداد شرقا واقصاء الوجود البريطانى من الهند ، ولكن أحبطت مساعيها فى هـذا الصدد ، وكانت النتيجة ادراك بريطانيا لخطورة تهديد مصالحها وقيامها بحركة رد فعل مضادة تمثلت فى العدوان على مصر ، ورغم أنها لم تتمكن من الحصول على أية مكاسب اذ أصابها الفشل ، الا أنها خضعت لنـداء البحث عن مختلف الطرق لتمكين نفسها من السيطرة على مصر باعتبارها

مفتاح الشرق الذى تتوطن فيه طموحاتها وتطلعاتها ، أيضا فقد أسرعت لتطويقها بالاستيلاء على جزيرة بريم فى مدخل البحر الأحمر عام ١٧٩٩ والتودد والتقرب لأصحاب النفوذ فى ساحل الجنوب العربى والخليج العربى •

وفى ذلك الوقت كان طريق رأس الرجاء الصالح قد فقد أهميته نظرا لاعتبارات متعددة ، وأصبح الطريق عبر مصر موضع الاهتمام ، وزاد الانبهار بالشرق ، اذ قامت الثورة الصناعية التى أسفرت عن تقدم فى الآلات ، وزيادة فى عدد العمال ، وحدوث ما عرف باسم الانتاج الضخم ، واتساع نطاق العرض ، وارتفاع معدلات رؤوس الأموال، مما نتج عنه الحرص على توافر الأسواق والمواد الخام والعمل على استخدام رؤوس الأموال ، وبالطبع كانت بريطانيا فى أشد الحاجة للتنفيذ خاصة تجاه الهند • وجاء استخدام قوة البخار عام ١٨٠١ فى تسيير السفن وتحريك آلاتها لتحدث انقلابا شاملا فى النقل البحرى ، وحملت بريطانيا اللواء فى هذا المجال حيث طورت بناء السفن وعملت على المزيد من تقدم أسطولها ، كما شجعت الشركات والأفراد على المضى قدما فى محاولاتهما مماسة استخدام البواخر بين الجزر البريطانية والهند عن طريق البحر المتوسط والبحر الأحمر • وعليه يتبين أنها عقدت العزم على أن تترصد لمصر ، وتبعد عنها أية تأثيرات خاصة الفرنسية ، بعد أن لمست عن قرب أهميتها عندما أكدت الحروب النابوليونية امكانية عرقلة مواصلاتها مع الشرق ، أيضا فقد نتج عن تلك الحروب توطيد مركزها فى البحر المتوسط ، هذا بالاضافة الى وقوع مالطة وجبل طارق فى قبضتها •

ولم يكن الطريق سهلا أمام بريطانيا ، فهناك على رأس الحكم فى مصر شخصية محمد على القوية والذى تمكن بسياسته من الوقوف أمام أطماعها ، وكان له أسلوبه تجاه الدول بما فيها الدولة العثمانية ، وقد نجح فى استغلال المنافسة البريطانية الفرنسية ليروض الدولتين ويحقق

أغراضه • وأحست بريطانيا ببوادر النفوذ الفرنسي لدى الوالي ، ومن هنـا بدأت في محاولاتها لايجاد نـوع من الموازنة وبما يقـودها الى ما يجعلها تتفوق على غريمتها • وأصبح من الصعب تنفيذ التخطيط المحكم بسهولة أو بسرعة نظرا للاسلوب الذى اتبعه باشا مصر داخليا وخارجيا•

كان النظام الاقتصادى الذى وضعه محمد على وتمثل أسـاسا فى الاحتكار قد شكل عقبة أمام التجارة البريطانية التى هى بمثـابة الركيزة الأساسية للاقتصاد البريطانى ، ولذا انتهجت بريطانيا كافـة الوسائل لضرب هذا النظام حتى تكسر به السـياسة العـامة لمصر ، واستمرت تكافح سنوات وسنوات لتقصيه جانبا ، ولكنها لم تنجح تماما الا مع بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر • أما فى المجـال الخارجى فكانت أكثر توفيقا ، فقد ساءتها الانتصارات التى حصـل عليها حاكم مصر فى شبه الجزيرة العربية ، وخشيت من توطد سلطته على الجنوب العربى والخليج ، أيضا أثار ريبتها امتداد نفـوذه الى جنوب وادى النيل وسيطرته على السودان ، ثم حركها الفـوز الذى أحرزه فى المورة ، فدفع بها لخلف أوربى للوقوف أمام قوته ، وأسهمت بأسطولها فى موقعة نفارين مما أسفر عنه تحطيم الأسطول المصرى ، وتحرقت غيظا من السيطرة المصرية على كريت ، وازداد الأمر سـوءا بتلك الخطوة التى أقدمت عليها فرنسا باحتلال الجزائر ، اذ اعتقدت أن المطامع الفرنسية بدأت تأخذ طريقها لتحويل البحر المتوسط الى بحيرة فرنسية • فكان ذلك عاملا ملحا لمزيد من صب الاهتمـام على مصر والحيلولة دون نفاذ المطامع الفرنسية فيها أو اغداق مزيد من السلطة على واليها •

وتعقدت الأمور أمام بريطانيا باستيلاء محمد على على الشام ، وبالهزائم التى منيت بها القوات العثمانية على يد ابراهيم ، وبالتقدم السريع صوب استنبول ، وبالتدخل الروسى ، لمـا فى ذلك جميعه من خرق لمبدئها الخاص بالمحافظة على أملاك الدولة العثمـانية ــ الذى

جمعها بفرنسا – ولذا راحت تعد نفسها بتأن لمواجهة الموقف ، وكانت صاحبة اليد فى جعل السلطان يوافق على صلح كوتاهية ، لكنها تلقت ضربة قوية بعقدة المعاهدة الدفاعية الهجومية « هنكار اسكله سى » مع قيصر روسيا ، ورغم هذا فهى ترفض مشروع محمد على الخاص برغبته فى الاستقلال عن الدولة العثمانية ، وعندما تجدد القتال بين الطرفين الأخيرين وانتهى بانتصار الجانب المصرى فى نصيبين ، ألجأها هذا الوضع لسرعة التصرف فى وقت شعرت فيه بتفوق النفوذ الفرنسى وخشيت من استئثاره بوالى مصر ورغبت فى وأده ، كما أنها أوجست خيفة من التقدم الروسى ، أيضا تلهفت على أن تكون لها امتيازات فى مصر تخدم مصالحها .

ودخل فى اطار البرنامج البريطانى المعد الاستيلاء على عدن لاستكمال التحكم فى الطريق الملاحى للبحر الأحمر ، وضرب النشاط التوسعى المصرى الذى أقدم على تصرفات عدتها بريطانيا مضادة لمصالحها ومهددة لمواصلاتها الى امبراطوريتها ، وأسفرت فى عدائها لمحمد على ونظامه ، وصممت على تفتيت سلطانه لتحقيق مآربها ، ومضت فى العمل منتهزة الأزمة بينه وبين السلطان ، وقام سفيرها فى استنبول بدوره الناجح فى هذا الصدد ، وخدمتها الظروف بتخلى فرنسا عن مساندتها لباشا مصر فى مطالبه ، وراحت تعزز قطع أسطولها فى شرق البحر المتوسط . وما لبث الأمر أن توفى السلطان محمود الثانى وتولى الخلافة السلطان عبد المجيد ، ورأت الدول الخمس – فرنسا ، بريطانيا ، بروسيا ، النمسا ، روسيا – التدخل لدى الباب العالى ، فقدمت مذكرتها المشتركة فى ٢٧ يوليو ١٨٣٩ متضمنة ألا يتم صلح أو يبرم اتفاق مع محمد على ما لم توافق عليه . وبذلك نجحت السياسة الامبريالية وفرضت تدخلها وامتلكت زمام العلاقة بين استنبول والقاهرة .

ووقع خلاف بين بريطانيا وفرنسا حول رغبة الأخيرة فى منح

محمد على حق الوراثة فى حكم مصر والشام واستبعاد شبه الجزيرة وأطنه وكريت ، ورفضت الأولى ذلك وأيدتها روسيا فى الاكتفاء بحـــكم مصر راثية ، ثم اتسع النطاق بعض الشيء بالموافقة على اعطائه ولاية عكا مدة حياته • وبناء على هذه القاعدة أبرمت معاهدة لندن فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ بين الدول الأربع — بعد اقصاء فرنسا لموقفها المعارض — وبين الدولة العثمانية ، وتعهدت الدول بمساعدة السلطان فى اخضاع محمد على ، وتضمنت المعاهدة الشروط الواجب على والى مصـــر اتباعهـــا •

ولمـــا لم يستسلم حاكم مصر تصدت له بريطانيا ، فأنزلت أسطولها على سواحل الشام ، وأدارت الدسائس على أرضها بواسطة عملائها ، وانضم الحلفاء لها ، وتوالى سقوط الموانى ، وقطعت المواصلات مع مصر ، ودخل قائد الأسطول البريطانى فى مفاوضات مع محمد على الذى رضخ للأمر الواقع وقبله بعد أن فقد ولاية عكا لتأخره عن الموعد المحدد للاجابة ، وصدر فرمان فبراير ١٨٤١ باعطاء ولاية مصر لمحمد على مع حق الوراثة ، لكنه اعتراه بعض القيود ، مما دفع الدول للتدخل — باشتراك فرنسا — للتخفيف منها حتى صدر فرمان يونيو ١٨٤١ وضـــم القواعد المتفق عليها •

وهكذا نجحت بريطانيا فى تحجيم قوة محمد على ، حقيقة أن الأمر لم يصف لها لأن تسوية ٤٠/١٨٤١ صبغت مصر بالوصاية الدولية ووضعتها تحت الاشراف الأوربى ، ولكن كما اتضح أنها كانت القوة الكامنة وراء هذه الأحداث والمؤثر الفعال فيها ، وقد عدتها بمثابة ورقة رابحة فازت بالحصول عليها لتلعب بها وقت أن تلوح لهـــا الفـــرص لتزيد من تدخلها وتوغل نفوذها • ولكن الى أى حد نجحت فى ذلك ؟ والاجابة تفرض نفسها على الصفحات القادمة •

● **الرصــد :**

نجحت السياسة التى انتهجتها بريطانيا حيال طعن محمد عــلى ، اذ أفقدته المكاسب التى حصل عليها وضحى بالكثير من أجلها ، ولم تكتفه لنــدن بما تحقق ، وانما كان عليها مواصلة تلك السياسة تجاه مصر وفقا للخط الذى رسمته مستغلة جميع الظروف التى تمكنها النفاذ من أيــة ثغرة ، وكانت على يقين تام من مقدرتها على النجاح • واتجهت الأنظار البريطانية سواء فى مصر أو فى مقر الدولة العثمانية الى مراقبة الأمور وتصويرها للخارجية البريطانية تباعا ، حتى تصبح ملمة بكل صغيرة وكبيرة ، وعليه يكون التصرف وفقا للقواعد المطلوبة •

وركزت بريطانيا على ابراهيم واهتمت به ، فهو يمثــل قوة من الضرورة أن يعمل لها حساب ، حقيقة أن الستار قد أسدل على المسرح الحربى بانتصار القوى المعادية لمصر وهزيمة البطل وانسحابه مع جيشه الى الحدود المصرية ، ولكن كان لابد من العمل على كسر شوكته حتى لا تقوم له قائمة تعيد الكرة مرة أخرى ، فى الوقت الذى رأت فيــه بذل الجهود للاطاحة التامة بالنظام الاقتصادى والاستحواذ على أى شكل من أشكال الامتيازات ، وخاصة أنها على علم بالقدر الذى يتمتع به ابراهيم من السلطة وبكلمته المسموعة لدى أبيه فى كثير من الأحيان ، بالاضافة الى ما أثبتته التجارب من نجاحه فى المراكز الداخلية الادارية التى تولاها داخل مصر •

والواقع أن الظروف الأخيرة التى عاشها ابراهيم فى الشام قد تركت الآثار السيئة على نفسيته ، فعقب الانسحاب والعودة الى مصر فى فبراير ١٨٤١ احتلت أرضه الزراعية الخاصة المرتبة الأولى لديه ، وهذا ما لمسه بارنت Barnett القنصل البريطانى العام ، فأرسل الى أبردين Aberdeen وزير الخارجية البريطانية ليترجم الارتياح الذى انتابه لاتجاه ابراهيم فى التفرغ للزراعة ، وأن أرضه تعد أجود

أرض زراعية ، وأنه ينفق المبالغ الضخمة ليزيد من تحسينها لتكون فى خدمة الصالح العام ، ثم يبين أن فلاحيه أقل تعرضا للظلم عن اخوانهم فى الجفالك الأخرى خاصة التى يمتلكها أبوه حيث يقوم بدفع مرتبات خدمه بانتظام ، وأنه أنشأ مصنعا لتكرير السكر ويوالى امداده بالقصب من مزارعه فى الوجه القبلى ، كما أقام مضخات مائية بواسطة آلات هيدروليكية على ضفاف النيل[1] .

ويرصد بارنت تحركات ابراهيم ، ويربط بينها وبين تنقلات أبيه ، فيبعث الى أبردين بنتائج رصده لتلك الخطوات[2] . ونراه يحرص على اللقاء به ، ويسجل انطباعاته عن المقابلات ، ويذكر أنه تحدث معه كثيرا ووجده رجلا على درجـــة كبيرة من الذكاء وأحكامه ســـليمة وصراحته واضحة تماما ، وأن تلك الصفات قضت على ما سبق أن التصق به من عنف وقسوة ، وبالتالى تحولت طباعه وأخلاقه الى الأحسن ، ولكن العيب الذى يشوبه شغفه بالمال ، ويعلق « ولكن للحقيقة والعدالة فانه ينفقه بسخاء » ويستعرض المشروعات التى تستنفد المبالغ المالية[3] .

وتتابعت علامات الرضا عن ابراهيم ، فينتاب القنصل البريطانى العام القلق بشأن المرض الذى هاجمـــه ، ويكتب للنـــدن ليبلغ وزير الخارجية البريطانية بأن خراجا كبيرا تكون بالبريتون استدعى اجراء عملية جراحية عاجلة له ، وأن تقرير الأطباء يشير الى خطـــورة الحالة ، وهناك خوف على ألا تستمر حياته طويلا ، ويختتم مكاتبته « ولا يمكننى

---

(1) F. O. 78/451, Barnett — Aberdeen, Cairo, Oct. 18, 1841, No 23, F. O. 78/582, Barnett — Aberdeen, Alex., March 19, 1844, No 11.

(2) F. O. 78/541, Barnett — Aberdeen, Cairo, Jan. 14, 1843, No 1.

(3) F. O. 78/582, Barnett — Aberdeen, Alex., March 19, 1844, No 11.

الا أن أقول ان وفاة ابراهيم باشا وريث محمد على فى عرشــه ستكون كارثة كبيرة لهذا البلد »[٤] • معنى هذا أن الأمل يراود المســئولين البريطانيين فى أن يحقق ابراهيم المصلحة لبلدهم • وبتدهور صــحة محمد على يزداد القلق ، فيذكر بارنت أن الباشا استقبل العــديد من الشخصيات من بينهم سعيد وعباس ، وأصدر أوامره الى ابراهيم لاعادة اصلاح القاهرة ، ثم يتحدث عن ذلك المجلس الذى رئى تشكيله لمعاقبة الخائنين[٥] •

ويعود القنصل البريطانى العام ليركز على ابراهيم مؤكدا أنه منذ انسحابه من الشام لا تلح عليه الرغبة فى أى عمل حربى ، وانما وجــه عنايته للثروة الزراعية ، وأظهر فى ذلك كفاءة بالغة ، ورغم شدته فانه معروف بعدالته ، وأخيرا يسجل « وانى آمل أنه حينما يدعى لحكم هذا البلد ، فسيكون أكثر صلاحية لرفع الغبن عن الشعب وتحسين حالته من أبيه ، وأنه يكره الانجليز لأنهم طعنوه أكثر من مرة كقائد حربى ، ومع ذلك فهو مفعم بأهمية العلاقة بين بريطانيــا ومصر ، وبأن باب وصالنا بالهند يجب بقاؤه مفتوحا عبر مصر بازالة العقبات من طريق مواصلاتنا مع الشرق ، وانى سمعت من جميع الجهات عن الســلوك العظيم له فى الفترة الأخيرة حينما كلفه أبوه بالعمل حيث أثبت المقدرة التى يستحق الثناء عليها »[٦] • اذن أصبح الاتجاه شبه واضح بالنسبة لولى العهــد •

ومع هذا فان الادلاء برأى قاطع شابه بعض الحذر ، تبين ذلك عندما بعث كيانى Ciani الوكيل البريطانى فى العطف — نقع على فرع رشيد — الى بارنت لينقل له أن بدويا ملثما مسلحا طرق بابه فى الثالثة صباحا من يوم ٢١ سبتمبر ١٨٤٤ ثم كشف عن وجهه وألقى

(4) Ibid.
(5) Ibid, Barnett — Aberdeen, Alex., Aug. 6, 1844, No 14.
(6) Ibid.

بسلاحه وطلب منه الانصات اليه واعطاءه المساعدة بصفته ممثلا لبريطانيا ، وحدثه عن الخلافات بين محمد على وأسرته ، وأن الحزن يسود القبائل ــ فى البحيرة ــ التى يقاسى أفرادها الأمرين وستزداد حالتهم سوءا عندما يتولى ابراهيم الحكم عقب وفاة أبيه حيث سيوقعهم تحت نظامه الصارم ، وأنه جاء مندوبا من قبل هؤلاء ليتعرف على موقف بريطانيا فى هذه الظروف ، وأنهم على استعداد لتجهيز من عشرة آلاف الى اثنى عشرة ألف فارس بخيولهم لمقاومة تخطيط ابراهيم ، فأجابه الوكيل البريطانى بأنه سيرفع الأمر للقنصل البريطانى العام للافادة بالرأى(٧) •

وقام بارنت بالرد مصرحا بأن بريطانيا لها علاقات طيبة بالبدو ، لكنها فى نفس الوقت لا تتدخل فى الشئون الداخلية لمصر ، وكتب الى لندن مستعرضا الحدث موضحا استعداد البدو للقيام بثورة عارمة مع أنهم أحسن حالا من الفلاحين وسكان المدن ، اذ يتمتعون بحرية أكثر ويعدون أقل تعرضا للظلم منهما ، ويحدد موقفه « وانى أجهل طبيعة قيامهم بالشكوى جهرا ولا أشجعهم على القيام بالثورة » ويتابع القول « ومن الصعب تكوين فكرة عن الخط الذى سيتبعه ابراهيم باشا عندما يتولى حكم مصر ، وسألت هذا السؤال لسليمان باشا الذى ربما يكون على دراية بسلوكه أكثر من أى شخص آخر ، فكانت اجابته : قد يكون أحسن بكثير ، وقد يكون أسوأ بكثير»(٨) • ومن ثم يبدو أن هناك بعضا من الغموض يكتنف شخصية ابراهيم •

ومع القلاقل التى حدثت نتيجة تسحب الفلاحين واحضارهم بالقوة ، والاحتكاك الذى حدث بين المسلمين والمسيحيين فى دمياط ، زاد السخط البريطانى على محمد على ، وانتقد بارنت فقدان الأمن وكتب

---

(7) Ibid, Ciani — Barnett, Atefe, Sept. 26, 1844.

(8) Ibid, Barnett — Aberdeen, Cairo, Oct. 6, 1844.

الى حكومته « اعتقد أنه لا يوجد شخص فى مصر من ابراهيم باشا الى أفقر فلاح الا ويصلى من أجل موت محمد على ؛ لأن تلك النهاية هى المخرج الوحيد لانقاذ الدولة من العبودية »[9] • وفى ذلك ما يتبين أن ابراهيم يتــوق للامســـاك بزمام الحــكم ؛ وأنه مرتبـــط بالأمن والاستقرار • ويخشى القنصل البريطانى العام من عدم تحقق الأمنية نظرا لمعاودة المرض للحاكم المنتظر ، فيذكر للندن أن صحته تتدهور ؛ ومن غير المحتمل امتداد العمر به طويلا حتى ولو تولى دفة الحكم ، وأنه — أى بارنت — التقى مع كلوت الطبيب المعالج ، فأعطاه فكرة عن مرضه الذى قد ينتهى بناسور فى المثانة[10] •

ومحاولة لمزيد من التقرب لابراهيم ، وعندما قرر السفر لأوروبا لاجراء استشارات طبية بعد حصوله على الاذن من أبيه ، يكتب بارنت الى أبردين يعلمه بأن ابراهيم سيغادر الاسكندرية ؛ وينوى قضـــاء مدة الحجر الصحى بمالطة ؛ وعليه فقد حرر الى ستيورات Stewart حاكمهـــا ليتخذ الاجـــراءات المناسبة لاســـتقباله مع مرافقه ســـليمان باشا[11] • وكانت مسألة استقطابه تهم الخارجية البريطانية ، فبعثت لقنصلها العام فى القاهرة مؤيدة اتصاله بحاكم مالطة ، مؤكدة ضرورة الاهتمام به أثناء وجوده فيها ، مرحبة بزيارته لانجلتـــرا اذا كانت حالته الصحية تمكنه من ذلك « فان حكومة جلالتها ستكون فى كامل سعادتها للعناية به وستعمل ما فى وسعها لراحته ليس فقط لمـــا له من صفات حميدة ، ولكن لاثبات حسن العلاقات التى تربطها بمحمـــد على نفســـه »[12] •

---

(9) F. O. 78/623, Barnett — Aberdeen, Alex., April 16, 1845.

(10) Ibid.

(11) Ibid, Barnett — Aberdeen, Alex., Aug. 7, 1845, No 30.

(12) Ibid, F. O. — Barnett, F. O., Sept. 23, 1845, No 15.

وأتت المجهـودات أكلها ، ووجـد ابراهيم الترحاب ، ويصف ستودارت Stoddart القنصل البريطانى بالاسكندرية لبالمرسـتون Palmerston وزير الخارجية البريطانية وقائع وصول ابراهيم الى الاسكندرية حيث كانت تقله احدى البواخر البريطانية ، ويسجل لقاءه به ، ويبين أنه أصبح بصحة جيدة ويتمتع بروح عالية ، وقد وضح عليه أثر الاستقبال الفائق الذى قوبل به[١٣] • ويعود القنصل مرة أخـرى ليشير الى أنه رغم الفترة القصيرة التى قضاها ابراهيم فى الاسكندرية، ولكنه يمكنه الحكم عليه — من خلال مقابلاته له وحديثه معه حيـث دار حول اهتمامه بالتطور الذى تعيشه أوربا فى كافة المجـالات مع التركيز على الزراعة — بأنه ذو عقل متفتح[١٤] •

ويستلم مـرى Murray القنصل البريطانى العام رسالتين من بالمرستون ليقوم بتوصيلها الى ولى العهـد ، وينفـذ المطلوب[١٥] • ولا يعرف محتوياتهما ، وربما اشتملتا على بعض المجاملات وفقـا للسياسة البريطانية فى هذه المرحلة والتى دخلت تحتها شخصية محمد على اذ أبدت لندن ترحيبها بزيارته لها مستعرضة ما يمكن أن يقام له من استقبال عظيم[١٦] • وردا على تلك المجاملات فقد رحبت الحكومة المصرية بالضباط الانجليز من أصحاب المراكز وذوى الرتب الكبيرة أثناء مرورهم بمصر ، وأعرب ابراهيم للقنصل البريطانى العام عن امتنانه للقيام بهذا العمل ، ويبلغ مرى وزير الخارجية البريطانية أن ذلك جاء

---

(13) F. O. 78/661 B, Stoddart — Palmerston, Alex., Aug. 8, 1846, No 4.

(14) Ibid, Stoddart — Palmerston, Alex., Aug. 23, 1846, No 5.

(15) F.O. 78/662, F. O. — Murray, F. O., Sept. 24, Oct. 21, 1846, Murray — Palmerston, Alex., Oct. 22, 1846, No 1.

(16) F. O. 78/708, Palmerston — Murray, F. O., Nov. 17, 1847.

بناء على ما قدمه ممثلا حكومة جلالتها فى نابولى ومالطة له ولأبيه (١٧) •

وتسيطر الحالة المتدهورة لصحة محمد على على مراسلات المسئولين البريطانيين فى مصر ، خاصة بعد عودته من الخارج فى ١٢ فبراير ١٨٤٨ (١٨) • ويصرح مرى بسوء حالته سواء العقلية أو الجسمانية ، وأن الاحتمال أصبح ضئيلا لامكانية استعادته لذهنه الحاد والنشط بعد فقدانه الادراك تماما ، وأنه يعيش منعزلا ، ويرفض الأطباء اعطاء أى شهادة رسمية تثبت عدم مقدرته على مباشرة مهام الحكومة ، وأن ابراهيم منذ عودته من رحلة نابولى (١٩) ، والأمر يزداد حيرة خاصة فيما يتعلق بالمحافظة على النظام العام والهدوء ، وأنه يأبى أخذ المسئولية على عاتقه خوفا من مزاولة أبيه للعمل بعودة مؤقتة قد تكون عودة غضب بدافع الغيرة التى يعتبر أنها كانت دائما وراء التدخل فى سلطته لأتفه الأسباب • ويصف مرى سوء الحالة التى تجتازها مصر وتأثرها تجاريا من ناحية ، وبالهزة السياسية فى أوربا من ناحية أخرى ، ويبين أن مثل تلك الظروف تحتاج الى نشاط وثبات من حكامها بعكس الواقع الذى يثبت أنها بدون حكومة (٢٠) •

واتصل قنصل بريطانيا العام بباقى قناصل الدول للوقوف على الحال من المسئولين المصريين بعد أن أصبحت الضرورة ملحة فى اتخاذ بعض الاجراءات لضمان المحافظة على الأمن العام بعد تلك الاشاعات

---

(17) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Cairo, April 15, 1848, No 14.

(18) F. O. 78/765, Jegrier Chasseaud (Vice Consul) — lecutis (Malta), Alex., Feb. 14, 1848.

(١٩) مما يذكر أن عودته كانت على باخرة بريطانية ، وطلبت الخارجية البريطانية محاسبة الحكومة المصرية على التكاليف .
F. O. 78/766, F. O., June 14, 1848.

(20) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Alex., April 9, 1848.

التى دارت حول وفاة « الباشا المعجوز » • ويتقل مرى مخاوفه مما قد يحدث لوزير الخارجية البريطانية ويخبره بأن مجلسا عقد من جميع الباشوات ومديرى الدواوين فى ٨ أبريل ١٨٤٨ واستدعى اليه الأطباء حيث تمت مناقشة الحالة المتدهورة للقوى العقلية للوالى ، وكيف أنها تمثل حائلا أمام تصرفه كحاكم ، وأن المجتمعين قرروا أنه أصبح غير لائق لمباشرة شئون البلاد ، وعليه تشكل مجلس من الباشوات البارزين ومديرى الدواوين وتقرر تولى ابراهيم ادارة دفة الحكم باسم أبيه ، وأن يوقع بدلا منه على الأوراق الرسمية العامة [21] •

ونفذ القرار فى اليوم التالى للاجتماع ، وسعد به مرى وصرح لبالمرستون بأنه سيحول دون حدوث ما يعكر صفو السلام العام ، وفى الوقت نفسه يسر اليه بأن عناصر الفوضى — كما أشارت التقارير الدورية — تقوم بالسلب والنهب فى مناطق عديدة بالوجه القبلى ، اذ رفض البعض دفع الضرائب ، وأن الاجراءات تتخذ بشأن سحب الأسلحة فى كثير من الأحياء ، ويشير الى الحالة المضطربة فى اليونان وولايات البلقان وامكانية انعكاسها على الاسكندرية التى تضم وحدها من أربعة الى خمسة آلاف يونانى يعيشون فى قلق بالغ ، وأنه تحت هذه الظروف من المتوقع أن يلتهب الموقف ويصبح الأمر خطرا على الأوربيين [22] •

وبناء على ذلك رأى مرى أن من واجبه استعراض الأوضاع لربان البارجة البريطانية أودين Odin ، وأن يطلب منه — فى حالة استطاعته وعدم مخالفته للتعليمات — البقاء بالاسكندرية لحين زوال العاصفة وحتى يتلقى تعليمات أخرى من القائد العام فى مالطة ، ويبين القنصل البريطانى العام أنه سيكتب الى حاكمها يشرح له تفاصيل الحالة ويوصيه بارسال بارجة أخرى — ان لم يسبب هذا ازعاجا له — لحماية

(21) Ibid.

(22) Ibid.

المصالح البريطانية • ولما كان مرى شغوفا لتوصيل تلك الأخبار وانقضت ثلاثة أيام ولم تمر باخرة بريطانية ، بعث بها مع باخرة فرنسية [٢٣] • وعليه تتجلى المخاوف التى انتابت الممثل البريطانى ورد فعلها •

ومما لا شك فيه أنه كان لتولى ابراهيم الحكم — بطريقة غير رسمية — أثره على الرؤية البريطانية ، وعقب شهر من ممارسته للسلطة يكتب مرى لوزير الخارجية البريطانية مشيرا الى قوة شخصيته ، ومهارته فى التقاط جميع الخيوط، وانطواء أعضاء المجلس المعاون له تحت التبعية الكاملة لارادته ، وانه — أى مرى — التقى به وطرح عليه عدة موضوعات للمناقشة حتى يجس نبضه ويسبر غوره تجاهها ، فخرج بنتيجة أكد فيها أنه رجل عملى وصاحب أفكار مستنيرة عن أبيه[٢٤] • ويرجع القنصل البريطانى العام تلك التغييرات التى قام بها الحاكم فى الادارة الداخلية سواء فى القاهرة أو الأقاليم الى باعث شخصى قصد من ورائه تقوية مركزه بشغل هذه المناصب بأصحاب النفوذ من الضباط الذين يثق فيهم ويدينون له بالولاء[٢٥] • وهكذا ظهر ابراهيم فى صورة طيبة أمام الأعين البريطانية ، ولكنها لم تستمر طويلا اذ سرعان ما تغير الانطباع عنه لمعاكسته للمصالح البريطانية •

• مراقبة القوة العسكرية :

مثلت مسألة التحركات المصرية فى المجال الحربى ضجرا لبريطانيا ، فيعكس بارنت اضطرابه بشأن التحصينات التى تجرى بالاسكندرية فى عام ١٨٤٥ ، وينقل لوزير الخارجية البريطانية تفصيل ذلك النشاط

---

(23) Ibid.

(24) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, May 5, 1848, No 17.

(25) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 1 st, 1848, No 20.

الذى يقوم به ما بين ستة وسبعة آلاف عامل يوميا على طول الساحل الشرقى فى الجزء القديم من المدينة حيث يجـرى بناء اسـتحكامات الثكنات العسكرية والعديد من الحصون فى المراكز الرئيسية ، ويصل لبيت القصيد مشيرا الى أن هذه التحصينات جاءت ترجمة لنصـيحة الحكومة الفرنسية التى بعثت بالمشروعات من باريس ، كما آنه يشرف عليها جاليس Gallice وهو مهندس فرنسى يعمل فى خدمة الحكومة المصرية(٢٦) • ويعـود ويذكر أن النيـة متجهة أيضا الى تحصـين السويس(٢٧) •

وراح مـرى يسـجل لحكومته التنظيمـات الخاصة بالقـوات وتوزيعها(٢٨) ، وكم ضايقه ارتفاع العدد الى ٥٠ ألف مقاتل دون الرجوع للباب العالى ، وعد ذلك تعارضا مع فرمان ١٨٤١ — حدد عدد القوات بـ ١٨ ألف — وكتب الى السفير البريطانى فى استنبول ، كما أبلغ وزير الخارجية فى لندن(٢٩) • ومعروف أن تنظيمات الحربية مرتبـطة بابراهيم ، وبعد أن كان القنصل البريطانى العام يتصور أن اهتماماته ركزت على أرضه الزراعية ، انقشع هذا تدريجيا ، وعاد الجيش واحتل مكانا عليا لديه خاصة بعد تسلمه مسئولية الحكم فى ابريل ١٨٤٨ ويقينه من ضرورة استناده على الجيش فى تثبيت حقه فى الوراثة ومواجهة أعـدائه •

ويعبر القنصـل البريطانى العام عن أسفه لبالمرستون لمـا يبذله

---

(26) F. O. 78/623, Barnett — Aberdeen, Alex., June 3, 1845, No 21.

(27) F. O. 78 / 707, Murray — Palmerston, Cairo, April 20, 1847, No 22.

(28) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, Jan. 1 st, 1847.

(29) Ibid, Murray — Palmerston, Alex., May 23, 1847, No 30, Alex. June 18. 1847.

الحاكم فى اعادة بناء الجيش بعد أن كان فى حالة يرثى لها ، وأنه — أى ابراهيم — أجل ما يتطلبه الانتاج الصناعى لصالح الناحية الحربية ، وأصدر أوامره لبناء الحصون المدفعية بالاسكندرية ، وأن تحصينات دمياط ورشيد تحت الاصلاح والتوسع ، وأنه سحب القوات من القناطر لتنضم لفرقها بالمعسكرات بعد احلال أنفار الزراعة المجندين الزاميا مكانهم ، ويعلق مرى على ذلك الاجراء ويصفه بعدم التبصر ، لأن معنى سحب هؤلاء العمال يؤثر على الأرض الزراعية مما ينتج عنه عجز فى الأيدى العاملة فى وقت تعد فيه خزانة الدولة خاوية[٣٠] •

وينتقل مرى ليشرح للندن احدى الطرق التى يتم بها اعادة تنظيم وبناء الجيش ، وهى التجنيد الالزامى ، فيذكر أنه لم يأت أول يونيو ١٨٤٨ الا وكان يجرى على قدم وساق ، وقد استعملت فيه الوسائل الوحشية ، فيقوم مديرو المديريات بتقديم الكشوف الخاصة بعدد السكان ، ثم تصدر اليهم تعليمات الحكومة باستدعاء نسبة معينة منهم ، وتنتقل الى مشايخ القرى لاجراء اللازم ، وعادة يكونون أشد قسوة وضراوة فى طغيانهم ، ويجمعون عشرة أمثال العدد المطلوب ، ومعظمهم أرباب أسر يقادون بسرعة فائقة بعد أن يستحوذ الرعب على قلوبهم ويصبحوا على استعداد لشراء الاعفاء بأى ثمن حتى لو أدى ذلك الى فقدهم لكل قرش يمتلكونه ، ومن ثم يستغل المشايخ الظروف ويمتصون دم من يقع تحت أيديهم ويخلون سبيله ، ويقدمون العدد المطلوب من الذين عجزوا عن الدفع ، ويقيدون مثنى مثنى كالمجرمين ويسحبون جمعا كقطعان الغنم مصحوبين بحراسة حتى يصلوا الى العاصمة أو المعسكر[٣١] •

---

(30) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Cairo, May 5, 1848, No 17.

(31) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 1 st, 1848, No 20.

ويواصل القنصل البريطانى العام قوله ، فيذكر أنه بمجرد انتشار اشاعة بأن التجنيد على وشك الحدوث ، يقوم العاملون بالزراعة بمغادرة منازلهم الى كل اتجاه ، فالبعض يختفي فى الأرض القاحلة أو بين الأشجار الكثيفة ، والغالبية العظمى يتخذون الصحراء ملجأ ، وتتلف آلاف بل ربما ملايين الأفدنة من أجود المحاصيل بفقدان الأيدى العاملة التى تحصدها وتحملها • ويستكمل مرى الصورة بمجموعات الجنود التى ترسل الى جميع الاتجاهات لتقبض على العمال الهاربين وتقيدهم ، ثم يبين « أنه لا يمكن افهام هؤلاء الأتراك المستنيرين أنه علاوة على البؤس والدمار اللذين يتمكنان من الفلاحين ، فان صرف منحة مالية للمجندين بما يضمن امداد كاف من المتطوعين ، لن تصل الى ربع الانفاق والخسارة التى ابتليت بها موارد البلاد بطريقة غير مباشرة » • ويستفسر بعد ذلك عن امكانية الاعتماد على جيش نصف منظم كون على هذا النحو ، ويعطى الاجابة بأن أفراده ينتظرون أول فرصة مناسبة للهروب والعودة الى منازلهم[32] •

ويسوق القنصل البريطانى العام لبالمرستون مثالا ، فيسجل أن التجنيد الاجبارى أصاب ابن زوجة أحد الشيوخ ، وعندما علم الشاب أن اسمه فى القائمة السوداء هرب ، ولما لم يعثر عليه الجنود تم القبض على الشيخ ، ووضع بناء على أوامر الضابط فى السجن حيث قضى عدة أيام ثم استدعى للتحقيق تحت حراسة الجنود وسئل عن الشاب الهارب ، وهدد بضرورة احضاره ، فأبدى استعداده فى الاحلال مكانه أو تقديم جميع ما يمتلكه لأنه لا يستطيع العثور عليه ، وسيطر على الضابط الاعتقاد بأن الشيخ يعرف مخبأ الهارب ، فأمر بطرحه أرضا وضربه ليحصل منه على الاعتراف ، واستمر الضرب حتى فارق الشيخ الحياة • ويعلق مرى على ذلك الحدث مصورا كيف تطبق العدالة وتصدر

---

(32) Ibid.

الأحكام ، مبينا أن هذه الواقعة كان يحضرها من يسمى خطأ وزير العدل (رئيس جمعية الحقانية) ، وأخيرا يشير الى أن مثل تلك الطرق السيئة والمحزنة يخرج منها بانطباع غير طيب عن ابراهيم ونوعة ادارته وسوء تخطيطه(٣٣) .

ويتحدث مرى عن استعدادات الحاكم للدفاع عن السواحل فى الوجه البحرى ، فيصرح أنها تتقدم بسرعة ، والعمل فيها مستمر بنشاط ، وأنه يجرى التحصينات وتنصيب المدافع فى رشيد والبرلس ودمياط ، أيضا أنشأ معسكرا يضم ما بين ثمانية وتسعة آلاف رجل — على بعد أميال من القاهرة — يتدرب أفراده على المدفعية التى ازدادت قوتها(٣٤) . ويذهب القنصل البريطانى العام الى هذا المعسكر ليتفقده على الطبيعة ، ويبعث بتقرير عنه للندن ، فيذكر أن المدفعية على درجة عالية من الكفاءة، ويتناول فرقها ، ويركز على مدفعية السواحل ، وأن كل آلاى يتكون من أربع بطاريات ، وتضم البطارية ٨٠٠ رجل وثمانين مدفع ميدان معظمها صناعة فرنسية وبعضها بحالة جيدة ومعدلة ، وملحق بكل آلاى حوالى

---

(33) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, July 5, 1848, No 28.

أثار حضور رئيس جمعية الحقانية حفيظة مرى بشأن ممارسة القضاء على البريطانيين بواسطة السلطات المحلية ، فيعرض لاحدى القضايا اتهم فيها ستة من البحارة الانجليز وينتظرهم حكم الاعدام وفقا للشريعة الاسلامية ، وأن القنصلية البريطانية لن تتمكن من التدخل رغم أن القانون الانجليزى يعدهم أبرياء ، ويبين أن الاحتجاجات والشكاوى لرفض الأحكام لم تأت بالنتيجة ، ويكتب للسفير البريطانى فى استنبول للوقوف على نظام القضاء المختلط لمحاكمة المجرمين مستعرضا الخطورة التى يتعرض لها رعايا دولته وفقدانهم الحصول على العدالة .

F. O. 78/708, Murray — Palmerston, Alex., July 18, 1847, No 46, Cairo, Dec. 17, 1847, No 67.

(34) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Cairo, June 1st, 1848, No 20.

الألف من الخيول والبغال لتولى مهمة هذه المدفعية ، ثم يتعرض لباقى المعسكرات واستقبالها الجنود الجدد لاستيفاء الأعداد المطلوبة[٣٥] .

وفى أول يوليو ١٨٤٨ يسجل مرى أن التجنيد الالزامى قد استكمل ، والنتيجة أن عدد قوات الجيش وصلت الى ٥٢ ألف جندى ، تضم ٤٠ ألف مشاة ، ٦ آلاف سوارى ، ٦ آلاف مدفعية ، بخلاف القوات غير النظامية الموزعة فى المديريات والتى تبلغ ٥ آلاف ، وأيضا هناك المدارس الحربية والمهندسين ، بالاضافة الى القوات البحرية وتصل الى ١١٫٥٠٠ رجل نصفهم يعمل فى الترسانة والقناطر الخيرية ، ويشير القنصل البريطانى العام الى تحركات ابراهيم وانشغاله بالتفتيش على تحصينات السواحل فى الاسكندرية ورشيد ودمياط وغيرها ، وتركيزه على اصلاحها وزيادتها ، ويصف كيف ثبتت المدافع فى الموانى ، وأعدت قوة من السفن الحربية استكمالا لاستعدادات الدفاع الساحلى ، ثم يذكر أنه حتى تلك اللحظة لم يقدم هو أو أحد من زملائه بتوجيه الأسئلة الى ابراهيم بشأن الغرض من اتساع التجهيزات الحربية[٣٦] .

ويعلق مرى على هذا النشاط العسكرى ، فيبرره بأنه جاء بناء على تزايد قطع الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط ، وتلك الاشاعة التى انتشرت على نطاق واسع داخل مصر بأن بريطانيا تضع مصر نصب أعينها ، ولو أنه يبين أن ابراهيم سخر منها وعدها اشاعة كاذبة ، لكنه — أى القنصل — يرى أن لها دورا فى مسألة الدفاع وأنه فى حالة مواجهة ابراهيم وسؤاله عنها فسيدحضها[٣٧] . بمعنى أنه يظهر غير ما يبطن . أما فى لندن ، فقد بعثت الخارجية البريطانية الى سفيرها فى استنبول كتابا — أرفقت به رسالةمرى — لفتت فيه النظر الى ما تقوم

---

(35) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 17, 1848, No 23.
(36) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, July 1 st, 1848, No 26.
(37) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 6, 1848, No 21.

يه الحكومة المصرية فيما يتعلق بالاستعدادات العسكرية الجارية بدرجة غير عادية ، وطلبت تصوير ذلك الوضع للباب العالى[٣٨] • وعادت وأرسلت الى قنصلها العام فى مصر بتعليمات تختص بسؤال الحكومة المصرية عن تفسير زيادة القوة الحربية عن العدد المتفق عليه فى فرمان ١٨٤١[٣٩] •

وبذلك تتضح قدرة ابراهيم على التصدى بالرغم من ظروفه النفسية والمرضية ، لكن شعور الخطر الذى أحاط به حتم عليه اتخاذ هذا الموقف الذى ارتابت منه بريطانيا ، ولم تتمكن من وقفه ، وانما انحصرت مجهوداتها فى مراقبته وما استتبع هذا من بعض التحركات الخفيفة التى لم تثمر •

• الاحتكار والترانزيت :

شغلت بريطانيا بالسياسة الاقتصادية الخاصة بالاحتكار التى طبقها محمد على ، وجاهدت من أجل الغائها لما فيها من ضرر باقتصادها من ناحية ، ولادراكها أنها الركيزة التى يعتمد عليها باشا مصر فى تقوية مركزه داخل ممتلكاته من ناحية أخرى • وأفرزت مساعيها عن عقد معاهدة بلطة ليمان عام ١٨٣٨ مع السلطان بالغاء احتكار التجارة فى ولايات الدولة العثمانية ، ولكن والى مصر كان على درجة كبيرة من الذكاء اذ تباطأ تارة وتحايل تارة أخرى بحيث لم تضف السهولة أو اليسر على تطبيق المعاهدة تماما ، ومضت كلمات بارنت تضج بالشكوى من استمرار الاحتكار فى جميع العمليات[٤٠] •

---

(38) F. O. 78/731, F. O. — Canning, F. O., July 14, 1848, No 71.

(39) F. O. 78/756, F. O. — Murray, F. O., July 31, 1848.

(40) F. O. 78/451, Barnett — Canning, Cairo, Dec. 1st, 1841.

وطبقت سياسة الاحتكار على منتجات سنار خاصة الصمغ والعاج رغم ما أعلنته الحكومة المصرية فى مارس ١٨٤٢ بشأن حرية هــذه التجارة ، ويثور القنصل البريطانى العام ويكتب لحكومته ليدحض ادعاء الاحتــكار ويبين أن الهــدف منه تقوية الحــاكم وتحقيــق مصلحته الشخصية[41] • ويلتقى بأرتين مدير ديوان التجارة والأمور الأفرنجية ويتحدث معه بشأن المصالح التجارية البريطانية ، ويتعرض للوســوم المفروض تحصيلها على بضائع الترانزيت ، وأنه وفقا للمعاهدات التجارية مع الباب العالى ، فان تلك البضائع لا تستحق عليها الا رسوم ٣٪ بينما تنخفض الى ½٪ فى حالة قيام شركة الترانزيت بنقلها[42] •

واعتقد مرى أن التعامل مع ابراهيم فى هذا الشأن بعد قبضته على زمام الأمور سيكون فى الصالح البريطانى ، ففى البداية يصفه لبالمرستون عقليته الواعية خاصة فى المسائل التجارية والمالية ، وأن ادارته ستكون حكيمة[43] • ولم يلبث الأمر أن عاود ونقل سوء الحالة التجارية الداخلية والخارجية فى يونيو ١٨٤٨ وأن محصولى القمــح القطن راكدان فى مخازن الحكومة نظرا لعدم رواج السوق وانخفاض السعر ٦٠٪ عن المعدل المقابل للشهر المماثل فى العام السابق[44] •

وفى لقاء جمع القنصل البريطانى العام بابراهيم فى ٥ يونيــو ١٨٤٨ استشف منه الأول مدى تمسك الأخير وحرصه على اتباع منهج

(41) F. O. 78/708, Barnett — F. O., Cairo, Feb. 21, 1844, No 6, Murray — Palmerston, Alex., Aug. 10, 1847, No 49.

(42) Ibid, Murray — Cowley, Alex., July 15, 1847, No 14.

كانت ميول أرتين لفرنسا واضحة نظرا لتلقى تعليمه فيها وتأثره بها ، وقد سبب ذلك تبرما للقنصل البريطانى العام •

(43) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Cairo, May 5, 1848, No 17.

(44) Ibid, Murray — Palerston, Cairo, June 17, 1848, No 23.

أبيه ، اذ أخبره أنه استلم مؤخرا تقريرا من ضابط روسى خاص بالتنقيب عن الثروة المعدنية فى المديريات الجنوبية لسنار ، ويوضح أن الرمال التى وجدت حديثا فى أحد روافد النيل احتوت على نسبة من الذهب ضعف المعدل الذى تنتجه سيبريا ، ويعكس خطاب مرى للندن الفرحة والأمل اللذين انتابا حاكم مصر بهذا الاكتشاف ، ثم يذكر « ولكننى بكل صراحة قلت لسموه أن لديه مناجم ذهب أفضل بكثير مما يتحدث عنه وتقع قريبة منه وتتمثل فى القطن والسكر والحبوب من انتاج مصر ، وبامكانها افادة خزانته أكثر من رمال سنار »[٤٥] • وبذلك يترجم موقف مرى عدم الرضا عن مثل هذا الاتجاه •

ونتيجة للمساعى البريطانية لدى الباب العالى ، يبعث مصطفى رشيد الصدر الأعظم الى ابراهيم يبلغه شكاوى المسئولين البريطانيين بشأن السياسة الاحتكارية لمنتجات سنار وضرورة اقصائها، ويكتب كاننج Canning السفير البريطانى فى استنبول الى بالمرستون يعلمه باستلام خطاب من الصدر الأعظم يفيد اجباره للحكومة المصرية على قبول ــ دون أى تأجيل ــ تصدير تلك المنتجات بنفس الشروط المنصوص عليها فى معاهدة بالطة ليمان[٤٦] • ولم يتحقق المطلوب ، ولعل اجراء الباب العالى كان شكليا حيث يبين مرى للندن أنه أثناء زيارة ابراهيم لاستنبول ساوم لمساندة سرية للابقاء على احتكار منتجات سنار مقابل تقديم المساعدة لتحقيق مطامع تركيا فى الحبشة[٤٧] •

وواصلت الخارجية البريطانية محاولاتها ، وبعثت لقنصلها العام

(45) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 6, 1848, No 21.

(46) F. O. 78/735, Canning — Palmerston, Therapia, Sept. 13, 1848, No 108.

(47) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Cairo, Oct. 4, 1848, No 43.

فى مصر برسالة لاعادة الكرة مرة أخرى والضغط على ابراهيم فى هذه المسألة ، ولكن مرى أرجأ الأمر بعض الوقت اذ لم تكن الظروف مواتية نظرا لقراءة فرمان تولية ابراهيم الحكم وسوء حالة محمد على الذى عزلـه فى الحـرملك ومنعت عنـه الزيارة ما عدا أطبـاؤه وقلة من مستخدميه(٤٨) .

وبهدوء الحالة ، التقى مرى بأرتين وتناقش معه ، فصرح له الأخير بأن ابراهيم يرفض تنفيذ الغاء هذا الاحتكار مثله فى ذلك مثل أبيـه ، وأعرب عن أمله فى انتزاع الموافقة على الالغاء دون ضغط مقابل موافقة القنصل البريطانى العام على التأجيل لفترة قصيرة ، بمعنى اعطـاء فرصة نظرا لوجود احتياطى كبير من منتجات سنار فى المخازن لحساب الحكومة ولحساب الحاكم نفسه ، فأجابه مرى أنه طالما ذهبت تعليماته عبثا ، فلم تعد له سلطة ليسمح بأى تأجيل فى الغاء اجراء غير قانونى يعرض التجارة البريطانية للخطر(٤٩) . ومرة أخرى يكتب الصـدر الأعظم لابراهيم مسجلا أن السفارة البريطانية ما زالت تشـكو ومبينا ضرورة اسقاط الاحتكار وأنه سبق أن طلب منه انهاء هذا الموضـوع مع القنصل البريطانى العام بطريقة طيبة تطبيقا للمعاهدة المعقودة بين الحكومتين العثمانية والبريطانية(٥٠) . ولكن لم تمض الا أيام وتوافى ابراهيم المنية ويتحول الميزان للصالح البريطانى .

أما عن مسألة الترانزيت فقد شكلت أهمية بالغة لبريطانيا ، اذ حرصت كل الحرص على تأمين الطريق البرى حيث تمر عبره رسـائلها وبضائعها ومسافروها الى الهند وباقى مستعمراتها ، والعمل على تيسير

(48) Ibid. قرىء الفرمان فى ٢٢ سبتمبر ١٨٤٨ .

(49) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, Nov. 4, 1848, No 48.

(50) Ibid .

اجراءاته ، ومصر هى ملتقى هذا الطريق الذى يربط أوربا وآسيا[٥١] • ومن ثم أصبح لابد من بذل الجهود لتحقيق الغرض ، وكتبت الخارجية البريطانية الى بارنت حول ذلك مصرحة بوضع المصالح البريطانية فى الاعتبار ، مشيرة الى ابلاغ مصر بألا تنظر الى مصالحها وتغفل مصالح الدول[٥٢] • وبطبيعة الحال لم يكن هدفها خدمة الدول ولكنها تستخدم أسلوب التورية لتدرأ عنها الشبهات •

وطلبت لندن من بارنت اجراء المفاوضات مع حاكم مصر بخصوص بريد الهند ، وضرورة قيامه بعمل ايجابى تجاه تسهيل وسرعة نقله[٥٣] • وبالفعل قام باتصالاته ، وكتب لوزير الخارجية البريطانية يبين أن حديثه مع محمد على فى حضور ابراهيم لم يأت بالنتيجة المرجوة ، وأنه سيعاود فتح الموضوع مرة أخرى[٥٤] • ولم يحدث تقدم اذ التصق التأخير بالبريد ، وتفقد الخارجية البريطانية أعصابها وتبعث الى ممثلها فى مصر تخبره بأنه — أى البريد — لم يصل بعد ، أيضا ترفض اقتراح محمد على الخاص بوجود مؤسسة حكومية تتولى الاشراف على المحطات مما يسفر عنه التحكم فى المسافرين العابرين الذين تطأ أقدامهم أرض مصر ، وتعده اقتراحا غبيا[٥٥] •

---

(٥١) منذ عام ١٨٣٠ كانت السفن البخارية البريطانية التابعة لشركة الهند الشرقية تواصل رحلاتها من الهند الى السويس ، وفى نفس الوقت فهناك رحلات من انجلترا — عن طريق جبل طارق ومالطة — للاسكندرية ، وبالتالى أصبح الطريق من السويس الى الاسكندرية له الأهمية القصوى ، وقد ظهر المشروع الانجليزى للسكة الحديد فى الأفق ، كما بزغ المشروع الفرنسى للقناة ، ولكن لم تتخذ بشأنهما خطوات ايجابية لاعتبارات معينة .

(52) F. O. 78/582, F. O.— Barnett, F. O. Aug. 13, 1844, No 7.

(53) Ibid, F. O. — Barnett, F. O., July 31, 1844.

(54) Ibid, Barnett — Aberdeen, Cairo, Oct. 21, 1844.

(55) F. O. 78/623, F. O. — Barnett, F. O., Feb. 7, 1845, No 4.

والواقع أنه كان هناك عدد كبير من الرعايا البريطانيين يقضون فى مصر بعض الوقت حتى تقلهم البواخر اما الى الطريق للهند وما وراءها أو لأوربا ، ومما يذكر أن هذا الأمر خلق رغبة بريطانية فى المحافظة على الاستقرار والنظام فى مصرلما فى ذلك من انعكاس على هؤلاء الرعايا[٥٦] • وكان قد سبق أن صرح محمد على فى عام ١٨٣٨ ببناء استراحات فى الصحراء بين القاهرة والسويس لخدمة الترانزيت، أى لراحة المسافرين هادفا الى تحسين الطريق البرى ، واضعا نصب عينيه امكانية التحكم فيه وقتما يشاء ، وعليه حصلت « لجنة بومباى الخاصة بتمويل طاقة البخار »[٥٧] Bombay Steam Fund Committe على حق الامتياز لمدة عشر سنوات مع حق التجديد عند انتهاء المدة بمعرفة الباشا بناء على طلب من القنصل البريطانى العام • وتم تأجيرها الى ثربورن Thurburm — تاجر انجليزى وله علاقة بمحمد على وكان يستورد له البضائع من بريطانيا — وقدمت له الحكومة المصرية المساعدة ، ومن ثم تأسست شركة الترانزيت بعقد خضع لشروط معينة ، أهمها منع التأجير من الباطن ، وبتنحى المستأجر نتيجة لضغط الوالى عليه ، أجبر على نقل الخدمة بمعداتها ومخازنها للحكومة المصرية، وأصبحت فى حوزة محمد على [٥٨] ، وبالتالى غدت الاستراحات فى يده ، وتدريجيا سيطر كلية على النقل عبر الطريق البرى واحتكره • وساء القنصل البريطانى العام هذا الوضع وحذر أرتين منه موضحا

---

(56) Ibid, Barnett — Aberdeen, Alex., April 16, 1854.

(٥٧) شكل المستوطنون البريطانيون فى الهند عدة لجان بشأن العمل على تقدم الخدمات الخاصة بالسفن البخارية على طول الطريق الموصل بين الهند وانجلترا ، وكانت تلك اللجنة احداها .

(58) F. O. 78/661 B, Barnett — Aberdeen, Alex., March 17, 1846, No 6, F. O. 78/707, Murray — Palmerston, Alex., June 6, 1847, No 32.

الصعوبة التى تنشأ عنه[٥٩] • وكانت الخارجية البريطانية ترفض بشدة البيع أو التنازل عن تلك الاستراحات لحاكم مصر ، وعدت هذا أمراً خطيرا سواء من ناحية السياسية أو من وجهة النظر الدولية[٦٠] • ولكن ذلك ذهب أدراج الرياح •

واستمر الاصرار المصرى على التمسك بالاشراف المباشر على الترانزيت ، ويسجل بارنت للندن قوله « انه بالرغم من ذلك فان الخدمة لم يشملها أى تنظيم جديد مما سبق اقتراحه »[٦١] ، ويشكو من ضرورة حصول الرعايا البريطانيين على حقهم فى وسائل النقل الى السويس ، وكان أرتين قد تسلم تعليمات من حاكمه بأن يصدر الأوامر الى البوليس المحلى بعدم تدخله مع الأهالى وترك المسافرين يأخذون طريقهم الى السويس بالوسيلة التى تروقهم ، وعاد باشا مصر وتراجع ورفض اعطاء الحرية للمسافرين ، ومن ثم يبلغ القنصل البريطانى العام حكومته بأنه سيعاود الاتصال بأرتين ويجرى المحاولات للحصول على هذه الحرية ، وذلك حتى لا يكون هناك تقيد بخدمات الترانزيت المصرية[٦٢] • أيضا كان القنصل البريطانى العام قد أثير لاحتكار المراكب فى النيل وترعة المحمودية ، وشكا الأمر لكاننج[٦٣] ، والسبب بين اذ أضر بالتجار الانجليز الذين واجهتهم العقبات فى شحن بضائعهم الى الاسكندرية •

---

(59) F. O. 78/661 B ,Barnett — Aberdeen, Alex., Mach 17, 1846, No 6.

(60) F. O. 78/623, F. O. — Barnett, F. O., April 5, 1845, No 5.

(61) Ibid, Barnett — Aberdeen, Alex., June 5, 1845, No 22.

(62) F. O. 78/661 B, Barnett — Aberdeen, Cairo, Jan. 19, 1846, No 1.

(63) F.O. 78/451, Barnett — Canning, Cairo, Dec. 1 st, 1841

فى عام ١٨٣٧ تم حفر ترعة المحمودية بين الاسكندرية والعطف ، واصبحت طريقا للاتصال بين الاسكندرية والقاهرة بدلا من الطريق البرى .

ولم تتجاوب السلطات المصرية ، واحتج الرعايا البريطانيون مطالبين بعدم الخضوع لشركة الترانزيت ، ويذكر مرى أنه وفقا لذلك خضع النقل للاحتكار ولكن بطريقة ملتوية فتقول الحكومة للمسافر « اختر وسيلة النقل التى تلائمك » وفى الوقت نفسه توقع العقاب على الذين يقومون بتأجير دوابهم من الخيول والحمير والابل ، كما ينتقدها القنصل البريطانى العام بشأن تحريمها لبيع المسكرات ، وأخيرا يبين أن الاحتجاجات القوية لم تؤد الى أى تغيير[٦٤] .

وكانت المفاوضات قد تعثرت بين ممثل بريطانيا فى مصر ومحمد على حتى لقد هددت أكثر من مرة بقطع العلاقات بين البلدين ، وينعكس تبرم مرى على كلماته الى بالمرستون ، خاصة عندما أحال الباشا الأمر على مستشاريه من الفرنسيين[٦٥] ، وكان ذلك يكدر المسئولين البريطانيين للغاية . ومضت مضايقة بريطانيا فى طريقها ، فعلى سبيل المثال أعلنت شركة الترانزيت عن مناقصة توريد أغذية ، فتقدم تاجر

---

(64) F. O. 78/707, Murray — Palmerston, Cairo, Feb. 18, 1874, No 10.

تحددت تعريفة الترانزيت كالآتى :

● من الاسكندرية الى السويس والعكس :

الدرجة الأولى ١١٧٠ قرشا ، والدرجة الثانية ٩٧٥ قرشا ، والدرجة الثالثة ٥٨٥ قرشا .

● من القاهرة الى السويس والعكس :

الدرجة الأولى ٨٧٧ر٢٠ قرشا ، والدرجة الثانية ٧٣١ر١٠ قرشا ، والدرجة الثالثة ٤٣٨ر٣٠ قرشا .

● من الاسكندرية الى بولاق — عن طريق المحمودية — والعكس :

الدرجة الأولى ٢٩٢ر٢٠ قرشا ، والدرجة الثانية ٢٤٣ر٣٠ قرشا ، والدرجة الثالثة ١٤٦ر١٠ قرشا .

F. O. 78/661 B, Barnett — Aberdeen, Alex., June 8, 1846, No 15.

(65) F. O. 78/662, Murray — Palmerston, Cairo, Nov. 4, 1846, No 1.

انجليزى بعطائه ، ولكن الحكومة المصرية رفضت ارساء العطاء عليه ، كذلك اعترضت الشركة على أن يقوم بتموين السفن البريطانية ، ويشكو التاجر لقنصله الذى يتأفف من تلك المعاملة ويصورها لوزير الخارجية البريطانية ، ويرد الأخير ويطلب من مرى الاتصال بالوالى ، وبيان أن ذلك لا يتفق مع حسن العلاقة والصداقة بين بريطانيا ومصر والتى قد تتأثر اذا استمرت مثل هذه المعاملة(٦٦) .

وكان وزير الخارجية البريطانية سبق أن بعث بكتاب الى محمد على يشرح له الصعوبات التى تتعرض لها الرسائل والمسافرون داخل مصر من تعاملهم مع شركة الترانزيت ، وأن ضمان راحتهم وحريتهم يتمثل فى تعاونهم مع من يفهمونهم من الانجليز ، ويطلب بالمرستون من مرى اللقاء بحاكم مصر والتفاهم معه فى هذا الشأن ، والاشارة الى الود القائم بين الحكومة البريطانية وبينه ، كما يرفق له خطابا من مصلحة البريد البريطانية مدرجا فيه العقبات التى تواجهها الرسائل المرسلة للهند عن طريق مصر ، ثم يرى ضرورة الاتفاق على وسيلة لوصولها بانتظام وفى مواعيدها(٦٧) . ونفذ القنصل البريطانى العام المطلوب منه ، وقابل محمد على واستعجله فى رد نهائى يغنيه من عناده على احتكار الترانزيت ، ولكن الأخير أظهر الملاينة ، وفهم مرى من ترجمانه أنه — أى الباشا — لن يعاقب أصحاب الدواب اذا نقلوا

(66) F. O. 78/707, Murray — Palmerston, Cairo, March 6, 1847, No 12, F. O. 78/706, Palmerston — Murray, F. O., March 25, 1847, No 9.

(67) F. O. 78/706, Palmerston — Murray, F. O., March 8, 13, 1847, No 7, 8.

المسافرين من القاهرة للسويس[٦٨] .

وما لبث الأمر أن أثار القنصل البريطانى العام مع حكومته مسألة استراحات الصحراء عندما قارب امتيازها على الانتهاء ، واستعلم عن النية تجاه تجديده ، وعرج على أهمية هذه الاستراحات لاتصالها باحتكار الترانزيت ولترسيخ القدم البريطانى فى الصحراء ، وأوضح أنه قد وصلت القنصلية البريطانية مكاتبات متعددة بشأن الاحتفاظ بها ، وأنها لها الضرورة القصوى لبريطانيا من الناحيتين السياسية والتجارية ، وعليه فلا يجب التسليم بسلطة حاكم مصر عليها[٦٩] . وبذلك تنطق الرغبة البريطانية فى الاستحواذ عليها ، ومما يذكر أنه بالتحكم المصرى فى الاستراحات والبواخر وجميع الآلات الخاصة بالترانزيت استبعدت مسألة دفع ٢/١٪ الخاصة بالرسوم على بضائع الترانزيت ، وعممت نسبة ٣٪[٧٠] . ولم تجد مساعى مرى فى هذا الصدد .

---

(68) F. O. 78/707, Murray — Palmerston, Cairo, April 30, 1847, No 24.

مما يلاحظ أن عدد المسافرين ارتفع فى السنوات من ١٨٣٩ الى ١٨٤٧ كما يلى :

١٨٣٩/١٨٤٠ = ٢٧٥ مسافرا .
١٨٤٠/١٨٤١ = ٥٨٠ مسافرا .
١٨٤١/١٨٤٢ = ١١١١ مسافرا .
١٨٤٢/١٨٤٣ = ١٤٥٠ مسافرا .
١٨٤٣/١٨٤٤ = ١٩٤٠ مسافرا .
١٨٤٤/١٨٤٥ = ٢٢١٠٠ مسافر .
١٨٤٥/١٨٤٦ = ٢٢٣٠٠ مسافر .
١٨٤٦/١٨٤٧ = ٣٠٠٠ مسافر .

Ibid, Murray — Palmerston, Alex., June 6, 1847, No 32.

هذا بالاضافة الى الجمال المحملة بالبضائع .

(69) Ibid, Murray — Palmerston, Alex., June 6, 1847.

(70) Ibid.

وانتهز القنصل البريطانى العام فرصة تملك ابراهيم زمام ادارة الحكم ، والتقى به وتحدث معه فى مسألة الترانزيت شارحا له الحالة السيئة التى يدار بها ، وأن جميع أجهزته غير صالحة للعمل ، فتلقى منه ردا بأنه ناقش الأمر مع المجلس بكل عناية ، وتقرر اجراء تغييرات وادخال تحسينات عليه ، وتنطوى على « استبعاد عدد من المستخدمين المالطيين واحلال عرب مكانهم من الذين تلقوا تعليمهم فى باريس » وينقل مرى انطباعه لبالمرستون « واذا تم ذلك فستصبح ادارة الترانزيت رديئة للغاية ، وتتكرر الشكاوى مما يدعونى استعجالك لاستصدار أمرك بانابتى رسميا لتولى هذا الموضوع »(٧١) .

ويعود ليبين بعد لقاءات أخرى له مع ابراهيم بأن الأخير يبدى اهتماما بالنقص والثغرات فى نظام الترانزيت ، وأنه طلب منه عرض ما يراه من الوسائل العلاجية مما أعطاه الاحساس أنه يعتزم القيـــام باصلاح شامل ، ولكن عادت ومثلت مسألة التخلص من الأجانب — ليس المالطيون فقط وانما دخل تحت لوائهم باقى الأوروبيين — وشغل أماكنهم بأتراك ومصريين قلقا بالغا لمرى ، وصرح لابراهيم بأنه لا يوجد أحسن من الأوروبيين مشيرا الى أن خطته ستنتهى بالفشل ، فأجابه « حسنا سوف نرى ، دعنى أجرب خطتى لبعض الوقت ، وان لم تنجح فيمكن أن نجرب خطتك »(٧٢) .

وارتاح القنصل البريطانى العام لهذه الاجابة ، واعتبرها مخلصة ومرضية للغاية اذ انحصرت رؤيته فى أنها تؤكد استخدام خطته خلال ثلاثة أشهر(٧٣) . ولكن الحاكم كان يذر رمادا فى العيون ، فلم يحاول

---

(71) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, May 5, 1848, No. 17.

(72) Ibid, Murray - Palmerston. Cairo, July 28, 1848, No. 36.

(73) Ibid.

اطلاقا الحيد عن سياسته ، فيذكر مرى أنه فصل المدير المالطى رغم أنه لم يكن عديم الأمانة أو الكفاءة ، بل ويتميز بمهارة معرفة اللغات الانجليزية والفرنسية والايطالية والتركية والعربية ، وشغلت وظيفته بتركى ، ومع أنه مطيع وملتزم وذكى لكنه لا يمكنه النطق بجملة واحدة أوروبية ، ومن ثم فلن يفهم أى شكوى مقدمة من المسافرين ، وبخلاف ذلك فلم يسبق له التعامل مع الآلات البخارية والمركبات والخيول وعدتها[٧٤] • وبذلك يتضح أن المسألة تتعقد أمام السياسة البريطانية •

وكان مرى قد بعث بكتاب الى أرتين بشأن الاستراحات ، ولما لم يستلم الرد كتب اليه مرة أخرى لايجاد حل مرضى فى حالة التفسير بطريقة معقولة ومقبولة ، مبينا أنه تلقى من حكومته برقية بالتعجيل آملا فى ألا تؤجل الحكومة المصرية البت فى المسألة أكثر من ذلك خاصة بعد أن اتسعت تلك الاستراحات ، وأن اللجنة التى أسستها لها حق تجديد الامتياز عند نهاية مدته ، وفى حالة منحه لجهة أخرى ، فمن حق الأولى رفع دعوى واحتفاظها بالامتياز[٧٥] • ومما يلاحظ أن المسئولين المصريين آثروا السكوت ، ويشكو القنصل البريطانى العام من هذا الموقف السلبى[٧٦] • وتحرك أرتين وقام بالرد على أحد الخطابات الخاص بالرغبة البريطانية فى أن تتواجد ثلاث محطات رئيسية وتتوافر فيها المواد التموينية من أسماك ولحوم وجبن وبسكويت وفاكهة ، واكتفى بالقول بأنه عرض الأمر على سيده[٧٧] •

وحاول ابراهيم أن يتظاهر بالتعاون ، فكتب الى أرتين بخصوص التسهيلات التى طلبها مرى للترانزيت مصرحا بأنه فكر فى الأمر

---

(74) Ibid.

(75) Ibid, Murray - Artin Bey, Le Cairo, Le 12 Mai 1848, No. 22.

(76) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, May 19, 1848, No. 19.

(77) Ibid, Artin Bey - Murray, Alex., le 12 Juin 1848, No. 22.

ووجد أن المسألة تحتاج الى توزيع عدد كبير من العاملين للقيام بالخدمة، وأن يعتمد اختيارهم على الصلاح والاستقامة حتى يتمكنوا من تيسير وتغطية المتطلبات الضرورية ، متبعين فى ذلك الطرق الشريفة ، وأنه يأمل أن تكون طريقته موضع اعجاب اذ سيتمكن المسافرون من الاستمتاع بكافة وسائل الراحة أثناء رحلتهم ، كما أوضح أنه تقرر أن يتم توزيع تذاكر عليهم ، وأن الأوامر صدرت الى الادارة للعمل على تسهيل سبل الاقامة فى الاستراحات ، ويختم كلماته مبينا أنه يعمل على رضا الحكومة البريطانية بحيث تجد الأمة الانجليزية جميع الامكانيات الميسرة للمسافرين ، ويطلب من أرتين نقل هذه التصريحات للقنصل البريطانى العام[78] . وفى ذلك ما يدل على سياسة التهدئة التى اتبعها حاكم مصر.

ويكتب مرى لحكومته يبلغها أن هناك بعض تغييرات تجرى بالترانزيت ولكنها ليست من الأهمية بمكان ، وأن تفسيرات ابراهيم للمطلوب مقبولة ولكنها غير محددة ، ثم يبين أنه لا يعتبر نفسه محقا فى سحب ادعاءات « لجنة بومباى الخاصة بتمويل طاقة البخار » تجاه استراحاتها ، وقبل أن يقوم بذلك سيصر على أمر حكومى واضح بأن جميع المسافرين من القاهرة الى السويس والعكس — مستخدمين الدواب من أى مكان — لهم الحق فى الحصول على تذاكر تبيح لهم دخول الاستراحات لتناول المشروبات أو للراحة ، مع سعر محدد ومناسب ، وفى حالة التنفيذ ، فانه سيرجىء سحب ادعاءات اللجنة[79] .

وتواصل شكاوى المسافرين البريطانيين والهنود طريقها لعدم العناية بهم عبر مرورهم[80] ، ويبعث مرى لبالمرستون ليرجع أهم سبب

---

(78) Ibid, Traduction d'une lettre a S.A. Ibrahim Pacha a S.E. Artin Bey, le 27 May 1848.

(79) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, June Ist, 15, 1848, No. 20, 22.

(80) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, July 28, 1848, No. 36.

الى أن المنوط لهم الخدمة غير أكفاء ، ورغـــم اعترافه بما جـــرى من تحسينات كبيرة فى نظافة واعداد وسائل الراحة خاصة فى البـــواخر النيلية ، لكنه يسطر « يجب أن يوضع فى الاعتبار أن الترانزيت فى مصر لن تتم ادارته بطريقة مرضية للحكومة البريطانية وللشعب البريطانى حتى تعاد الادارة والجهاز التنفيذى للايدى البريطانية ، وطالما بقيت فى أيدى الأتراك والعرب، فانه لا ينتظر منها الا السيىء والأسوأ »[81] •

ويتناول القنصـــل البريطانى العام انعكاسات النظام القـــائم ، ويصور كيف أن الحكومة المصرية مخدوعة وسيهوى بها سوء ادارتها ، وأنه فى خلال ستة أشهر سيتأثر الحاكم بالحالة ، وعليه سيصغى للعلاج، وعندئذ سيتوغل الحماس الفرنسى ، وينقل توقعاته للندن ، فيذكر أنه ليس من المستبعد أن يحصل ممول بريطانى على عقد ايجار للترانزيت مقابل ثمانية أو عشرة آلاف جنيه استرلينى سنويا ، فاذا أضيف الى ذلك الادارة الرشيدة ، تصبح العملية رابحة ، ولكنه فى الوقت نفســـه يبين أنه لا يغفل أن الحكومة المصرية ستعمل ما فى وسعها لاستبعاد الرأسمالين البريطانيين من المنافسة فى حالة عزمها على التأجير لتجار يونانيين أو ايطاليين حتى لو كان عطاؤهم أقل ، وذلك لأنهم لا يمتلكون التأثير السياسى كغيرهم[82] • وواضح أنه يقصد الانجليز ، ومن ثم ينجلى أن كل طرف أصبح يفهم الآخر جيدا ، وبدا تحقيق التخطيـــط البريطانى صعبا •

وأمام العقبات راح مرى يبحث عن من يخدم الأغراض البريطانية، فاهتم ببدو سيناء ـــ كانت شركة الهنـــد الشرقية وادارة الترانزيت تستخدمهم ، اذ يوردون الجمال التى تنقل أمتعة المسافرين من والى السويس ـــ وأشاد بهم لبالمرستون ، فيعتبرهم أصدقاء نافعين ، ويصرح

---

(81) Ibid.

(82) Ibid.

بأنه سينمى معرفته برؤسائهم حيث من المفيد وجود علاقة طيبة معهم ، وفى حالة غيابه عن القاهرة يقوم القنصل البريطانى فى الاسكندرية بأعماله ، وعند ضرورة حضوره ، فان الرسالة تصله فى سيناء مع هجان فى ظرف ثمانية وأربعين ساعة(٨٣) . وبالفعل انتقل الى سيناء فى أواخر سبتمبر ١٨٤٨ وأدى المهمة(٨٤) .

ووجدت الخارجية البريطانية أن الالتجاء للباب العالى ربما يأتى بالمرغوب ، وعليه بعثت الى سفيرها فى استنبول ، وأرفقت مع كتابها صورة من خطاب مرى لها تحمل رؤيته تجاه الشكاوى من العمال الذين يقومون بخدمة الترانزيت ، وعرضت وجهة نظر الحكومة البريطانية بخصوص أهمية وسرعة وصول البريد للهند وأمان راحة المسافرين الذين يعبرن أرض مصر ، وأن ذلك لا يمكن الحصول عليه الا باستخدام أشخاص ذوى المام تام وخبرة كافية بالخدمة ، اذ يقومون بترتيب الاجراءات بنظام وهمة ، بالاضافة الى ضرورة أن يكونوا موضع ثقة ، والأوروبيون لديهم استعداد جيد وخاصة الذين لهم دراية بالعادات والطباع الانجليزية ، ثم تعرج الخارجية البريطانية الى أن ابراهيم يعد صاحب فكرة استخدام العمال المصريين ، وبما أنه قبض على زمام الحكم رسميا ، فسيكون أكثر تمسكا بما يراه بعد أن أصبح مطلق التصرف ، وأن الوقت حان لتتحرك الحكومة التركية وتمارس نفوذها على الحاكم الجديد وتتدخل لارغامه على أن يولى عناية للاقتراحات والرغبات البريطانية المقدمة له الخاصة بنظام الترانزيت ليفى بالغرض المطلوب وهو زيادة كفاءته مع تقليل نفقاته ، وفى نهاية التعليمات تعطى لندن سفيرها حرية التصرف وفقا لموقف الباب العالى(٨٥) .

---

(83) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, Aug. 14, 1848, No 40.

(84) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, Oct. 4, 1848, No. 43.

(85) F.O. 78/732, F.O. (Palmerston) - Canning, F.O., Sept. 6, 1848, No. 108.

ويقوم كاننج بمجهوداته ويبلغ بالمرستون بأن السلطان عقد النية على العمل لتنفيذ الاقتراح الذى عرضه ـ الخاص بخدمة الترانزيت ـ وذلك بارسال مظلوم بك كمبعوث الى القاهرة ، مزودا بنصيحة للحصول على ترتيب مرض من السلطات المصرية ، وأنه لو اتبع هـذا المبعوث الطريق المستقيم ، فيمكن بمساعدة مرى الحصول على نتائج تكون فى الصالح البريطانى[٨٦] . ولكن لم يمهل العمر ابراهيم حتى يستمر عقبة فى طريق بريطانيا اذ ما لبث الأمر أن تمكنت من الموقف تدريجيا ونفذت سياستها فى عهد عباس التى تمثلت فى ترسيخ أقدامهـا على الطريق بتنفيذ مشروع السكة الحديد .

● ولاية الحـكم :

احتلت العلاقة بين الباب العالى وابراهيم موقعا فى السـياسة البريطانية ، فيذكر مرى لبالمرستون أنه استقى معلومات من مصـادر متعددة لقياس أبعاد نزعة الوزراء والباشوات العثمانيين تجاه والى مصر المنتظر ، فوجد منها ما يفيد أنهم سيكونون سعداء لانتهاز الفرصة التى يردوا بها له الاهانات التى ألحقها بهم فى الحملة السورية ، ويشـير القنصل البريطانى العام الى أنه لو كان لدى استنبول هذه النيـة ، فلا خوف على مصر ، لأن الدول العظمى ستتفق وتتعاون لتضمن لابراهيم خلافته لحكم أبيه بهدوء[٨٧] . ثم يسجل انطباعه « وعندما يستقر الأمر للوالى الجديد ، فلن يكون له نفس الثقل الذى كان يتمتع به محمد على لدى الباب العالى ، حيث يمتلك الأخير الفطنة الكاملة فى اسـتخدامه للرشوة ، وهذا ما يفتقده الابن ، فالخزانة خاوية ، وجميع مصـالح

---

(86) F.O. 78/736, Canning - Palmerston, Therapia, Nov. 17, 1848, No. 180.

مظلوم بك هو الوكيل الرسمى لابراهيم لدى الباب العالى .

(87) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, June 17, 1848, No. 23.

الخدمة العامة عاجزة عن الدفع حتى أنه سيكون من الصعوبة بمكان زيادة الجزية »(٨٨) .

وبزغت مسألة الوراثة واستحوذت على الاهتمام ، وأدخلت فى حسبان التخطيط البريطانى ، وكان الحرص جليا على ضمان الهدوء والاستقرار لمصر لانعكاس ذلك على الطريق للهند ، وراحت المخاوف البريطانية تنمو بشأن أسرة محمد على ، فيعتبر مرى أن أساسها أقيم على رمال مما يحول بينها وبين الشعب ، وأن اقليما تسيطر عليه الفوضى أو يتعرض لاحتلال أجنبى يكون خطرا على الامبراطورية البريطانية فى الهند ، ويصرح بثقته فى أن نظام الوراثة فى الأسرة الحاكمة وهم أو ضلال ، وأن أخوة ابراهيم وأولاد أخوته ممقوتون بدون استثناء وغير أكفاء ، وكلهم على خلاف ، وبالتالى فعند وفاته سيعم الاضطراب والحرب الأهلية التى لن يخمدها الا التدخل الحربى الخارجى ، كما يبين أنه حتى أثناء حياته لن يتمكن من المحافظة على ملكه(٨٩) .

والواقع أن القلق انتاب القنصل البريطانى العام بشأن تصرفات الحاكم الجديد ، فيكتب للندن الكلمات التى تعبر عن التخوف « لا يمكننى تجنب الاعتقاد الذى ينمو تدريجيا فى ذهنى أنه تحت ادارة ابراهيم باشا فان علاقات الصداقة مع الحكومة ستكون أكثر صعوبة للابقاء عليها عما كانت عليه تحت حكم محمد على »(٩٠) . وبطبيعة الحال السبب واضح وأرجع لشخصية ابراهيم التى أدخلت الريبة على قلب المسئول البريطانى .

---

(88) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, July 3, 1848, No. 27,

(89) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo July 6, 1848, No. 30.

(90) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, July 30, 1848, No. 37.

ويواصل مرى تصور أبعاد الموقف أنه اذا كان السلطان رجلا ذا صفات سديدة ، ولو كانت حالة مناطق نفوذه الأوربية تسمح له بزيادة سلطته فيها ، يصبح من السهل عليه ايجاد الحل بتوجيه ضربته الشديدة لابراهيم وانتهاك بنود الوراثة وعدم السماح له بزيادة قوته الحربية ، وأنه — وفقا لما يراه الكثيرون — لو أرسل الى مصر باشا أو وزير لديه الذكاء ومعه بعض الأموال للقيام بتنفيذ تعليماته ، فلن يجد الا صعوبة قليلة لجذب معظم كبار الأتراك الى جانبه وطرد الأسرة الحاكمة من البلاد(٩١) .

ويبين القنصل البريطانى العام أنه اذا ترك ذلك جانبا وتمكن ابراهيم من التمتع باستمرار نظام الوراثة وبالحكم حتى وفاته ، فلن يستمر له الحال الى الأبد ، اذ لا يوجد طبيب فى مصر يضمن استمرار حياته أكثر من ثلاث سنوات ، نظرا لانحلال جسمه بسبب افراطه فى تناول الكحول مع تقدم العمر به مما يعرضه لمخاطر وأزمات . ويصل مرى الى الهدف من هذا العرض الشامل لتلك الملاحظات التى دونها لوزير الخارجية البريطانية ، وهو أن تعد الحكومة البريطانية وتستكمل الخطط التى ترى أنها ضرورية لاتخاذها فى حالة ما لو كان حكم ابراهيم جاء مبكرا أو حتمته طبيعة الظروف ، وأخيرا يركز مرة أخرى على مسألة الوراثة والخوف من أن تكون مصر مسرحا لحرب أهلية يقوم فيها البدو بالسلب والنهب ، مما يترتب عليه أن تنضم مباشرة الى الباب العالى ، أو تتدخل فرنسا التى تحيك لذلك عن طريق ارتباطها بتحصينات الاسكندرية ، أو يحتل الجيش البريطانى مصر « وهو شىء متوقع ليقضى على كل المخاطر ويؤمن المواصلات الأنجلوهندية »(٩٢) .

ويفهم من رد الخارجية البريطانية على مرى أنها مؤيدة لموقفه ،

---

(91) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, July 6, 1848, No. 30.

(92) Ibid.

مشيدة باستعداده للطوارىء ، معلنة وضع ملاحظاته محل العناية . ولكنها حملت وجهة نظر اختلفت فيها معه واعتبرتها الخط الذى يلزم اتباعه ، فرغم ايمانها أن نظام الوراثة وامكانية التنازع بين أفراد الأسرة المالكة — عقب وفاة محمد على — لم يعد نظاما عمليا نظرا لما يعكسه من سوء على الأوضاع الداخلية ، الا أنها تذكر أن التسوية الدولية أقرت وضع مصر كولاية من ولايات الدولة العثمانية وجزءا من أملاك السلطان ، ومن ثم لا يمكن أن تقوم فرنسا أو بريطانيا بالاستحواذ عليها الا فى حالة قيام أى منهما بالحرب مع تركيا ، وبعد التحقق من أن غزو أملاك السلطان اجراء حربى ، وأنه عند وقوع الأحداث المتوقعة واستدعاء الأمر تدخل القوة لاستتباب النظام فى مصر ، فالتدخل الوحيد الذى يعد قانونيا وفقا للحقوق والارتباطات القائمة ، هو تدخل السلطان باعتباره حاكما للبلاد ، وفى النهاية تصدر الخارجية البريطانية تعليماتها الى مرى ليستعلم عن السبب الذى جعل الحكومة المصرية تتخلى عن احترام الشروط الخاصة بوراثة باشوية مصر الممنوحة لأسرة محمد على[٩٣] . وكان القصد من ذلك أن محمد على لم ينته به العمر حتى يورث ، وأن المفروض استمراره فى الحكم ، ويكون بجواره مجلس يدير الأعمال[٩٤] .

وأرسل بالمرستون هذه الاجابة مرفقا بها كتاب مرى الى السفير البريطانى فى استنبول حتى يصبح لديه تصورا كاملا لوجهتى النظر[٩٥] . وعليه يقوم كاننج بدوره ويبعث الى وزير الخارجية البريطانية بما استقاه من معلومات ، فيذكر أن رشيد باشا الصدر الأعظم أبلغه أن

---

(93) Ibid.

(94) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F. O., Aug. 2, 1848, No. 134.

(95) F.O. 78/731, Palmerston - Canning, F. O., Aug. 2, 1848, No. 85.

سلفه صارم باشا — قبل احالته للمعاش بأيام — كتب باسم السلطان الى ابراهيم فى رودس يدعوه الحضور الى استنبول لتوليته مهــام الحكم الكلى — وفقا لمـــا جاء به فرمان ١٨٤١ من ضرورة أن يقلد الباب العالى الوالى الجديد منصب الولاية عند خلوه — واحلاله مكان محمد على الذى أصبح فى حالة ميئوس منها ، وينقل السفير البريطانى ما دار فى مقابلته مع رشيد باشا وكيف أن الأخير لا يوافق على هذا الاجراء ، ولكنه يجد صعوبة فى نصح السلطان ليتراجع عن ذلك[٩٦] ، وأنه — أى السفير — أجابه بأنه لا يرى مغبة من الزيارة حيث ستقضى على أى شك فى مسألة الوراثة ، كما ستجعل الوالى الجديد يكف عن موالاة التجهيزات الحربية التى أنهكت مصر[٩٧] .

وفى نفس الوقت يبين كاننج أنه بتملك ابراهيم ولاية الحــكم واستئثاره الشرعى بالسلطة العليا بينما لا يزال أبوه على قيد الحياة ، يخلق مناخا معيبا ، ويعرضه هو والباب العالى لنقد لاذع ، وأن أقــل الوسائل ضررا جعله وصيا أو نائبا لمصر مع اعطائه الســلطة الكاملة لادارة الأعمال — كما عقد أبوه النية على خلافته له — ولكن يكــون التقليد بصفة اعتبارية أى اسمية ودون أن يترك « الباشا العجوز » جانبا ، وينتهى الى أنه من الأوفق للسلطان ألا يقحم نفسه فى مسائل أو يحتضنها قبل أن يزن الأمور ، ويختم قوله « وحتى الآن لم أسمع ما هو القرار الذى اتخذ ، ولكن ابراهيم باشا فى طريقه الى الوصول هنا فى أية لحظة ، فهو سيغادر رودس بمجرد الانتهاء من مدة الحجر الصحى »[٩٨] . وتوافق الخارجية البريطانية على النصيحة التى قدمها

---

(٩٦) من المعروف أن السلطان عبد المجيد تولى عرش السلطنة عقب وفاة أبيه السلطان محمود الثانى فى ٣٠ يونيو ١٨٣٩ ، وكان فى مقتبـــل عمر الشباب مما أثر على سلوكه .

(97) F. O. 78/734, Canning - Palmerston, Therapia, Aug. 18, 1848, No. 74.

(98) Ibid.

ممثلها للصدر الأعظم[٩٩] ، وبذلك يتأكد أن الرأى البريطانى لم يكن ليؤيد استيلاء ابراهيم على الحكم تماما فى حياة أبيه •

وصدرت تعليمات كاننج الى بسانى Pisanni للقاء ابراهيم عقب وصوله ، وتمت المقابلة ، وقدم له فيها المسئول البريطانى مذكرة برغبات لندن ، فقرأها وأبدى عدم استعداده لاعطاء الاجابة الا بعد عودته لمصر عندما يناقشها مع مستشاريه ، وأدار دفة الحديث حول غبطة السلطان وسعادته لتخويله اياه حكم مصر ، وأنه — أى السلطان — أهداه صورته فى اطار مرصع بالماس[١٠٠] • وحرص السفير البريطانى على اجراء حوار مع حاكم مصر الجديد ، ونقله الى بالمرستون الذى قام بالرد عليه معلقا على شخصية ابراهيم ، ذاكرا أنه يبدى اعجابه بانجلترا ويتكلم عن الصداقة الحقيقية بينه وبينها والرغبة الأكيدة فى توثيق العلاقات معها ، ولكن الواقع أنه يظهر غير ما يبطن حيث يترسب فى أعماقه الدور الذى قامت به تجاه طموحه فى اليونان وسوريا ، ثم يتحول وزير الخارجية البريطانية للحديث عن فرنسا مشيرا الى أن علاقتها التجارية بمصر ليس لها الوزن بعكس الوضع البريطانى ، مبينا أنه لابد من التحلى بالصبر ، مسجلا القول « ان السياسة الحكيمة الوحيدة للحكومة المصرية هى اتخاذ الطريق المستقيم لضمان المصالح البريطانية فى مصر ، وللثقة فى قوة بريطانيا وعدالة مطالبها »[١٠١] • ومن ثم ينجلى التخطيط الهادىء الذى اتسمت به السياسة البريطانية •

---

(99) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F.O., Sept. 20, 1848, No. 120.

(100) F.O. 78/735, Pisanni - Canning, Pera, Sept. 2, 18448, No. 92.

(101) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F.O., Sept. 29, 1848, No. 137.

وانتهت زيارة ابراهيم لاستنبول وغادرها في ٣ سبتمبر ١٨٤٨ بعد تقلده باشوية مصر رسميا ، ويذكر كاننج لبالمرستون — في اليوم التالي — أن المجلس العثماني توصل الى هذا القرار بامتعاض وبعد الكثير من التردد ، وأن ابراهيم كان قد قرر اما أن يحصل على كل شيء أو لا يحصل على شيء ، وأعرب عن أن يمنح له فرمانا يجعله نائبا مع الاعتراف بأحقيته في الوراثة ، ولم يقبل حتى فرمانا يعطيه الحق المباشر فيها ويكون مصحوبا بملحق أو مرسوم ينص على التنازل عن السلطة العليا فى حالة شفاء محمد على واستعادته لصحته وقواه العقليـــة ، ويحلل السفير البريطانى الموقف بأن السلطان التزم بكلمته لابراهيم ولم يكن راغبا فى اظهار استيائه ، ثم يعرض رأيه بشأن تدخل الدول لتوضيح مسألة الوراثة(١٠٢) .

وفى نفس اليوم يبعث السفير البريطانى في استنبول للندن يبلغها أنه لم يكن له اتصال رسمى مع الباب العالي فيما يتعلق بتولية ابراهيم ، الا أن الصدر الأعظم أجرى معه مشاورات — على طول الخط — بصفة سرية ، ثم ما لبث الأمر أن اتخذت شكلا علنيا بناء على أمر السلطان بقصد الحصول على رأى مناسب منه ، ويتوقف كاننج ليبين أن السلطان يفكر فى اتخاذ خطوة يراعى فيها الدول التى وقعت على معاهدة يوليو ١٨٤٠ ، وأن وزراءه يريدون العمل على راحة تفكيره ويخلقون المنـــاخ الذى يدعم استمرار ثقته فيهم(١٠٣) .

ويتابع السفير البريطانى القول بأنه من المهم أن يوضع فى الاعتبار أن الصدر الأعظم يجارى السلطان ، وأن للسفارة البريطانية فضلها على كليهما ، أيضا يوضح أنه لم يكن راغبا فى التصديق على تصرف ليست

---

(102) F.O. 78/735, Canning - Palmerston, Therapia, Sept. 4, 1848, No. 93.

(103) Ibid, Canning - Palmerston, Therapia, Sept. 4, 1848, No. 94.

هناك حاجة ضرورية ملحة له لتجنب الاعتراضات التى فرضت نفسها ، تلك التى فندها رشيد باشا للسلطان ، وأنه — أى السفير — قدم بعض الاقتراحات أهمها « وجوب ضمان مبدأ الوراثة بقبول وعد الباشا (ابراهيم) بأن يعتزل فى حالة استعادة أبيه لصحته واعطاء الدول هذا التفسير مع التأكيدات المماثلة اذا ما طلبت » • ويذكر أن اقتراحاته وضعت فى الاعتبار عند مناقشة الأمر فى القصر مع المجلس ، ويختم كلماته « وانى سعيد لأنها (الاقتراحات) لقيت الترحيب من السلطان والوزراء دون أن يشركونى فى المسئولية »(١٠٤) • ولا يعنى ذلك أن الباب العالى قد استسلم تماما ونفذ التوجيهات البريطانية ، حقيقة أنه طلب النصيحة وطرحها على بساط البحث ، لكنه استقى منها بقدر وبما لا يصطدم مع رغبة ابراهيم •

ولم تعارض الخارجية البريطانية فى اسناد باشوية مصر للوالى الجديد ، وصرح بالمرستون أنه طالما أن ذلك يعبر عن وجهة نظر السلطان فقد وجد فيه ما يناسبه ، وأن اعترافه بابراهيم بمباشرة حكم مصر هو اعتراف عملى وقوى وكامل ، كما أنه تخطى المعارضة، كذلك فالتسوية المتفق عليها عام ١٨٤١ تعطيه هذا الحق • ويتعرض الوزير البريطانى للسلطة التى يتمتع بها ابراهيم ، وكيف استعجل السلطان لانتزاع الملك من أبيه ، وأن ما تم هو أيضا فى صالح السلطان ، حيث يقر نفوذه فى اقصاء محمد على لعدم صلاحيته للحكم رغم بقائه على قيد الحياة وتعيين خلف له ، وأنه لو اتبع نظام الوراثة لخلقت صعوبات كبيرة ، ولترك « الباشا العجوز » كما هو بينما تسلم ادارة الحكم لمجلس ، وأن الباب العالى وضع فى اعتباره أن بعض الباشوات قد يكونون طغاة وسيئى التصرف ، وذلك مما أسهم فى تنصيب ابراهيم(١٠٥) •

---

(104) Ibid.

(105) F.O. 78/732, Palmerstos - Canning, F. O., Sept. 29, 1848, No. 134.

وبعث الباب العالى صورة الفرمان الذى صدر فى أول سبتمبر ١٨٤٨ باحالة ولاية مصر وملحقاتها لابراهيم الى كاننج ، وكان له شكله المتميز ، اذ سجل فى بدايته مرض محمد على الذى ابتلى به وأضناه وأعياه وأعجزه عن ادارة شئون البلاد ، وطلب ابراهيم تولى هـذه المهمة ، ثم عرج الفرمان على أهمية مصر فى الولايات العثمانية ، وأنه من غير اللائق خلوها من وال ، وعليه أسندت لابراهيم ، ويعـدد مناقبه من كمال خبرة ودراية ، ويطلب منه افراغ ما فى الوسع من الاقـدام والغيرة وبذل قصارى الجهد لحسن ادارة مصر ، واتخـاذ التدابير اللازمة لضمان رفاهية سكانها وأسباب راحتها وحماية أهلها وصيانتها مما يخل باستتاب الأمن وطمأنينتها ، وينتهى الفرمان الى أنه باتباع هذا الطريق تزداد ثقة السلطان بالوالى الجديد ويعتمد عليه فى جميع الوجوه[١٠٦] • وبذلك يتبين أن الفرمان استبعد مسألة استعادة محمد على للحكم ، ولم تتحقق وجهة النظر البريطانية فى هذا الشأن •

وانعكس الضيق على كتابات مرى لبالمرستون بسبب تلك المكاسب التى حصل عليها ابراهيم من زيارته لاستنبول ، فيذكر أنه قد حسـن مركزه مع الباب العالى وتمتع بكثير من رضا السلطان أكثر مما كان ينتظر أن يحصل عليه ، وأن ذلك تحقق دون تبذير فى تقديم المـال والهدايا مثلما قدم محمد على أثناء زيارته الأخيرة لتركيا[١٠٧] • ومضى رصد تحركات ابراهيم ، فعقب وصوله الى الاسكندرية فى ٩ سبتمبر

---

(106) F.O. 78/735. Traduction de la Copie remise par Aali Pacha à son exllence Sir H. Canning, 5 Sept. 1848, No. 107.

وقام السفير البريطانى بارسال ترجمة الفرمان للندن ،

Ibid, Canning - Palmerston, Therapia, Sept, 13, 1848, No. 107.

(107) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, Oct. 4, 1848, No. 34.

قام محمد على بالزيارة عام ١٨٤٦ ونال الحظوة من السلطان الذى منحه الرتب •

كتب القنصل البريطانى بها لحكومته يخبرها بذلك النبأ ، وبأنه — أى الوالى الجديد — انتقل للقاهرة فى اليوم التالى وحالته الصحية تزداد سوءا(١٠٨) .

والواقع أن مسألة مرض ابراهيم أثارت القلق البريطانى من جديد ، فيبين مرى لبالمرستون مدى انعكاس النتائج على حالة الاستقرار والأمن فى مصر ، وتأثير ذلك على حياة البريطانيين وممتلكاتهم من ناحية ، وعلى التجارة البريطانية والمواصلات مع الهند من ناحية أخرى ، ويعدد الأخطار المحدقة والتى تتلخص فى حدوث حرب أهلية وما يتبعها من أحداث شغب ، وعليه فانه يرى من الضرورى قيام الدول الأوربية بالتفاهم مع الباب العالى بخصوص موضوع الوراثة فى حالة وفاة ابراهيم ، ويعرض مسألة اصدار تعليمات للقائد العام فى البحر المتوسط بارسال بعض السفن مباشرة الى الاسكندرية لحماية الرعايا البريطانيين والمصالح ، وفى نفس المكاتبة يتعرض لأسماء المرشحين لتولى الحكم — أحمد ، عباس ، سعيد — ودرجة قرابة كل منهم لمحمد على(١٠٩) .

وكان السفير البريطانى باستنبول قد بعث لبالمرستون بما استقاه من مصدر مسئول موثوق به — يتمثل فى مظلوم بك — عن طريق رجال مخابراته ، أن ابراهيم وضع فى ذهنه استبعاد عباس وسعيد من الوراثة ، واعطاء الصدارة لابنه أحمد المتواجد فى باريس . ولم يكن كاننج ليؤيد هذا الاتجاه ، وسجل رأيه مشيرا الى أن مستقبل رفاهية

---

(108) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Alex., Sept. 13, 1848, No. 23.

(109) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, Oct. 4, 1848, No. 43.

أحمد رفعت هو الابن البكر لابراهيم ، وعباس هو ابن طوسون بن محمد على وأكبر أفراد العائلة سنا ، وسعيد هو ابن محمد على .

مصر مرتبط بعباس وسعيد[١١٠] • وكان فرمان ١٨٤١ قد حدد أن تنتقل ولاية مصر بالارث لمحمد على وأولاده وأولاد أولاده الذكور بصورة أن يتولى الأكبر فالأكبر ، وذلك مما سبب الصراعات •

ويأتى جواب الخارجية البريطانية الى قنصلها العام فى مصر ليحمل تصورها ازاء تدهور صحة ابراهيم وامكانية قيام منازعات بشأن وراثة ولاية مصر ، فتصرح بأنه من الأفضل ترك الفصل فى المسألة للسلطان ليقرر خليفة ابراهيم عقب وفاته ، واستعرضت تفسير مرى فى أن أحمد أحق المطالبين بالولاية « وفقا لنوايا ومفهـوم من وقعوا المعـاهدة (معاهدة لندن ١٨٤٠) ، لأنه من المؤكد أن المقصود فى الوريث أن يكون الأقرب من الذكور من نسل آخر باشا توفى وليس لأقرب الذكور لورثة محمد على »[١١١] • كما يبعث بالمرستون الى كاننج بالملاحظات فى هذا الصـدد[١١٢] •

ومما تجدر الاشارة اليه أنه لم تكن هناك خلفية طيبة توثق العلاقة بين الجانب البريطانى وعباس ، فقد كتب عنه بارنت فى خريف عـام ١٨٤١ أثناء شغله منصب حاكم القاهرة أنه يأتى بتصرفات فاضـحة ومنتظر عزله من وظيفته[١١٣] ، ويعود فى ربيع عام ١٨٤٥ ليصفه بعدم

(110) F.O. 78/735, Canning - Palmerston, Therapia, Sept. 14, 1848, No. 109.

(111) F.O. 78/756, F.O. - Murray, F.O., Oct. 28, 1848, No. 24.

ولكن يجب أن يوضع فى الاعتبار أن أحمد بن ابراهيم كان فرنسى المشرب ، وفى ذلك ما ينفر بريطانيا منه •

(112) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F.O., Nov. 3, 1848, No. 162.

(113) F.O. 78/451, Barnett - Aberdeen, Cairo, Oct. 18. 1841, No. 23.

معروف عن عباس أنه كان يتبع طريق الهوى ، وفى الوقت نفسه اتسمت شخصيته بالقسوة والجفاء والعبوس •

الكفاءة[١١٤] • ولكن مع الصلابة التى وجدتها بريطانيا فى ابراهيم أيقنت أن تحقيق مصالحها يكمن وراء عباس ، خاصة بعد ادراكها لموقفه السلبى من فرنسا بعكس محمد على وابراهيم وابنه ، هذا بالاضافة الى ذكاء مرى الذى مسك بمفتاح الطريق الموصل اليه ، وبالتالى خضعت تحركاته للرقابة البريطانية ، وكان يتولى فى ذلك الوقت رئاسة كل من ديوان القاهرة وادارة الترانزيت[١١٥] •

ويبعث مرى لوزير الخارجية البريطانية يعلمه أن عباسا غادر مصر الى مكة بعد حصوله على تصريح من الوالى ، ثم يتكلم عن تدهور صحة الأخير ، ويبلغه ألا يتعجب اذا سمع نبأ وفاته قبل « الباشا العجوز »[١١٦] • وأقلت عباس فى رحلته باخرة بريطانية ، وقد أتيحت الفرصة للتقرب اليه ، وتولت المهمة شركة الهند الشرقية ، حيث رتبت الأمور لتلبية كافة طلباته من السويس الى جدة[١١٧] • ومضى القنصل البريطانى العام يعد الأمور لمواجهة الموقف فى حالة وفاة ابراهيم ، فيكتب لحكومته مفيدا بأن قناصل الدول — رغم عزوفهم عن التدخل فى شئون مصر الداخلية — سيدعون لعقد مجلس لاتخاذ الاحتياطات لضمان أمن الأوروبيين المقيمين ، وتطبيق مواد الخط الشريف الصادر عام ١٨٤١ فيما يختص بالوراثة فى أسرة محمد على ، ووضع حكم مصر فى أيدى عباس مؤقتا • وتقوم الخارجية البريطانية بالرد على مرى بشأن ذلك الاقتراح معربة أنه — كما بدا لها — الأفضل فى هذه الظروف ، ثم تصرح بأن السلطان صاحب القرار فيمن يتولى حكم باشوية مصر وفقا لفرمان ١٨٤١[١١٨] •

---

(114) F.O. 78/623, Barnett - Aberdeen, Alex., April 16, 1845.

(115) F. O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, Oct. 4, 1848, No. 44.

(116) Ibid.

(117) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, Nov. 5,1848, No. 49.

(118) F.O. 78/756, F.O. - Murray, F.O., Nov. 28, 1848, No. 27.

وبذلك يتضح أن بريطانيا عقدت العزم على تثبيت حق عباس فى الولاية ، فى الوقت الذى تمسكت فيه بالوضع الذى أقره السلطان فى نظام الوراثة حتى لا تعطيه الفرصة للتغيير ، وقد واصل السفير البريطانى فى استنبول اتصالاته بالعديد من رجالات الحكومة العثمانية بهذا الخصوص ، كما نقل له بالمرستون وجهة نظر مرى السابقة ورد لندن عليه(١١٩) ، حتى تنصب المجهودات فى تيار واحد . وراحت الخارجية البريطانية تتلقى بعض المراسلات ممن وجلت قلوبهم من توقع الاضطرابات فى مصر وتدخل الباب العالى(١٢٠) . ويبين هذا مدى الحرص على أبعاد أية تأثيرات مضادة للمصالح البريطانية .

ويوالى مرى النشرات الصحية لابراهيم ، ويبعث بمحتوياتها الى بالمرستون معلقا على أن حالته ميئوس منها(١٢١) . وفى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ حدث ما كان متوقعا ، فقد فاضت روحه على أثر تسمم معوى (غنفرة الأمعاء) بعد عمر بلغ التاسعة والخمسين سنة ، وعلى الفور اجتمع المجلس ونصب عباسا ، وبلغ ليعود بدون تأخير ، وتولى سعيد الحكم مؤقتا لحين عودته ، والتقى مرى بأرتين بشأن المحافظة على هدوء البلاد ، وكتب الى وزير الخارجية البريطانية يسجل الأحداث المتوالية ونطقت كلماته بالسعادة(١٢٢) .

واستمر فى التعبير عن مشاعره وغبطته من جراء اختفاء ابراهيم

---

(119) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F.O., Nov. 28, 1848, No. 184.

(120) F.O. 78/767, Briggs - Palmerston, East Sheen, Nov. 23, 1848, F.O. - Briggs, F.O., Nov. 25, 1848.

ينتمى بريجز الى التجار البريطانيين ، وقد تولى مهمة البضائع المصدرة من مصر لبريطانيا ، ومن ثم أصبحت له علاقات وطيدة ومصالح داخل مصر ، واعتبر كوكيل للوالى فى لندن حيث قام بمهام شراء احتياجاته منها .

(121) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, Nov. 6, 1848, No. 50.

(122) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, Nov. 15, 1848, No 51,

من الساحة ، وفى النهاية أعطى تقييما لتلك الشخصية ، فذكر أنه حكم مصر بقوة ، ومن صفاته العناد والقسوة المريرة حيث يظهرهما فى كثير من الأحيان لتأصلهما فى طباعه منذ صباه ، وان كان يخفيهما أحيانا خشية أبيه ، ثم يصف يوم وفاته بأن كل الوجوه — كما رآها — من أكبر باشا الى الفلاح الذليل كانت راضية مطمئنة ، فالجميع أحس بأن عبئا قد انزاح عن كاهله ، ويحلل السبب أن ابراهيم استنبط الوسائل التى نفرت جميع الطبقات منه بطمعه ، وبينما استنزف موارد انتاج البلد لتنمية اجبارية للجيش ، فانه خسر محبة الجنود بخفض مرتباتهم الزهيدة التى يتقاضونها ، ويختم بقوله انه لو قدر أن يكتب على شاهد قبره « لم يمت أحد مستحقا للدمع » لأفصح ذلك عن الواقع[١٢٣] .

حقيقة أن ذلك الانطباع يحدد الموقف البريطانى فى التحامل على ابراهيم ، لكنه يحمل بين طياته أمرا ملموسا عانت منه مصر . وهكذا تنجلى الرؤية البريطانية تجاه هذه الشخصية ، فبعد أن لمست — فى البداية — أنها السند الذى يعتمد عليه ، تحول الميزان وانقلبت عليها عندما أيقنت محاربتها لمصالحها . وكان نبأ وفاة ابراهيم قد بلغ للندن عن طريق نائب الأميرال البريطانى من نابولى قبل أن يصلها من الاسكندرية[١٢٤] . وقام كاننج بمساعيه لدى الباب العالى ، وبعث بنتائجها الى بالمرستون[١٢٥] ، تلك التى أسفرت عن صدور فرمان تولى عباس ولاية مصر قبل انقضاء شهر على وفاة ابراهيم ، وتحققت السياسة البريطانية المرسومة فى هذا المضمار لتواصل مسيرتها وتحقق غايتها مع الحاكم الجديد ، الذى وجد فيها هو الآخر أداة لتنفيذ مآربه، وان كان ذلك قد واجهته بعض الصعوبات لكنها ذللت تدريجيا .

Palmerston - Canning, F.O., Dec. 6, 1848, No. 188.

(123) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, Nov. 15, 1848, No. 52.

(124) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F.O., Nov. 28, 1848, No. 184.

(125) Ibid, Palmerston - Canning, F.O., Dec. 6, 1848, No. 188.

شاركه فى تلك المساعى باقى السفراء لدى الباب العالى .

خاتمـــة :

مثلت فترة الدراسة مرحلة مفصلية بين ما قبل عام ١٨٤١ وما بعد عام ١٨٤٨ ، ووضحت فيها اتجاهات بريطانيا نحو مصر ، وكيف سعت فى ألا تكون لتلك الباشوية قائمة من ناحيـــة ، وأن تواصـــل الزحف والتغلغل من أجل الاستحواذ على النقاط لصالحها والاجتهاد فى ابعاد المؤثرات الفرنسية من ناحية أخرى • ولكن رغم التفانى من أجـــل تحقيق الغرض ، الا أنها وجدت العقبات ، اذ استمر محمد على فى تعنته ، وسار ابراهيم على دربه وزاد عنه ، وبالتالى فشلت فى النفاذ اليه أو الوقوف أمامه • ولم تثمر هذه المرحلة للصالح البريطانى ، ومع ذلك بدا فيها شغف بريطانيا ورغبتها الملحة فى الاستئثار بمصر ، كما أنها مهدت الطريق للمرحلة التى أعقبتها بعد أن وقع الاختيار على خلافة عباس الأول للحكم وتسلمه الولاية ، وقد استغلت نفوره من فرنســا وضغطت عليه ، ومع أنه لم يستســلم لها فى البــداية ، لكنه سرعان ما احتاج اليها لتقف بجواره أثناء أزمة التنظيمات العثمانية ، وبالتالى أيقن أن مصلحته مرتبطة بها للمحافظة على حقوقه لدى اســتنبول ، وللحصول على المزيد منها • هذا وقام قنصلها العام فى مصر بدوره الايجابى فى التقرب منه ، وأسفرت النتيجة عن تحقيق توغلها من خلال مشروع السكة الحديد ، أيضا أمكنها استبعاد المشروع الفرنسى الخاص بقناة السويس •

وأصبح لبريطانيا سند تتكىء عليه ، ومع هذا فشلت فى الوقوف أمام المشروع الفرنسى اذ وافق عليـــه سعيد الذى التجـــأ للقروض الفرنسية ، ومن ثم سعت لدى الباب العالى لعرقلة التقدم الفرنسى ، مما ألجأ والى مصر الى امتصاص غضـــبها وتليين سياســـتها ، وذلك بالحصول منها على قرض مالى وانشاء بنك مصر « الانجليزى » ومنحها امتياز شركة سكة حديد الرمل بالاسكندرية مقابل تغاضيها عن مشروع

القناة • ولم تكن تسعد بهذا التعويض ، حيث اعتبرت الوجود الفرنسي هو المعرقل لمصالحها ، وعليه قررت توطيـــد نفوذها فى مصر توطئـــة لخلاصها لها ، واعتمدت على الامتيازات الأجنبية من ناحية ، وقضـــية الديون من ناحية أخرى ، هذا بالاضافة الى الأدوات التى استغلتها وتمثلت فى ضخامة رؤوس أموالها المستخدمة فى مصر اذ كثرت شركاتها التى تخدم استراتيجيتها على المدى الطويل ، وتعددت بنوكها ، وارتفع عدد رعاياها والتحق الكثير منهم بأهم الوظائف •

وواتت بريطانيا الفرصة مع اسماعيل بعد تحوله عن فرنسا عقب هزيمتها فى الحرب السبعينية ، فأغدقت عليه القروض ، وباع لها أسهم مصر فى قناة السويس — ارتبطت مصالحها ارتباطا وثيقا بها — والتجأ اليها لتعينه على تخطى الصعوبات المالية ، فأرسلت بعثة كيف Cave لتسجل التطبيق العملى للتدخل البريطنى فى شئون مصر ، وشاركت فى صندوق الدين • ولمـــا لم تكن لترضى بالمساواة فى النفوذ مع الدول الأوروبية ، مارست ضغطها ، ونتج عنه تشكيل لجنة مثل فيها جوشـــن Goshen الدائنين الانجليز وجوبير Joubert الدائنين الفرنسيين، تمخض عنها انشاء المراقبة الثنائية ، وما لبث الأمر أن تحول الاشراف المالى الى تدخل سياسى سافر بتشـــكيل الوزارة التى دخلهـــا وزير انجليزى وآخر فرنسى •

ومما يلفت النظر هذه المشاركة الفرنسية التى سلمت بها بريطانيا ، وكيف أنها لم تقصها وفقا لمنهجها • الواقع أن ظروف مصر تحولت سريعا للصالح الأجنبى ، وأخضـــعها حكامها للمؤثرات الأوروبية قاطبة ، تلك التى أصبحت مرتعا لها ، مما سبب تبرما لبريطانيا ووجدت أنها بائتلافها مع فرنسا يمكنها الحد من الدولية بل وربما التخلص منها ، وفى الوقت المناسب تستبعد حليفتها ، وخاصة أنه فى هذه الفترة ، بالاضافة الى الثقل الذى تمتعت به فى مصر وما امتلكته من قوة بفضل الرقابة التى أمسكت بها ، فان مكانتها خارج مصر قد ارتفعت بتنازل الدولة العثمانية

لها عن قبرص ، وبنتائج مؤتمر برلين الذى أوجد الوفاق بينها وبين فرنسا . ومن هذا المنطلق كان التعاون بينهما لتحقيق المصلحة المتبادلة — شملت تونس ومصر — بعد أن وضحت معالمها وتحددت ، ومضت الجهود لاخراجها الى حيز الوجود .

وواصلت الدولتان طريقهما ، وعندما أراد اسماعيل أن يلعب لعبته باستغلال الحركة الوطنية ضد نفوذهما ، سعتا لدى الباب العالى فعزله ، وولى مكانه توفيق الذى خضع لسيطرة ممثليهما حتى قامت الثورة العرابية ، فوجدت فيها بريطانيا الفرصة المواتية التى تنتظرها منذ أكثر من تسعين عاما ، فاستخدمت أساليبها سواء فى باريس أو استنبول أو القاهرة ، ونجحت فى هزيمتها وحققت مرادها واحتلت مصر عام ١٨٨٢ لتبدأ مرحلة جديدة لها قواعدها المرسومة .

مصادر الدراسة

Public Record Office, Kew, Surrey, England. F. O. 78, Turkey.

- Vol. 451 (1841), Consuls Colonel G. LLoyd Hadges, Lieut — Col. C. J. Barnett, Diplomatic & Consular.
- Vol. 541 (1843), Egypt : Lieut — Col. Barnett, Diplomatic.
- Vol. 582 (1844), Egypt : Consul general, Diplomatic, Colonel Barnett, Stoddart.
- Vol. 623 (1845), Egypt : Lieut — Col. Barnett, Diplomatic.
- Vol. 661 B (1846), Egypt : Cossuls at Alex. Barnett, Stoddart, Diplomatic.
- Vol. 662 (1846), Egypt : Consuls at Alex. Mr Murray Diplomatic.
- Vol. 706 (1847), Egypt : To Mr. Murray Diplomatic.
- Vol. 707 (1847), Jan. — June, Egypt : From Mr. Murray Diplomatic.
- Vol. 708 (1847), July — Dec., Egypt : From Mr. Murray Diplomatic.
- Vol. 731 (1848), Feb. — Aug., Sir S. Canning, Drafts.
- Vol. 732 (1848), Sept. — Dec., Sir S. Canning, Drafts.
- Vol. 734 (1848), Aug., Sir S. Canning.
- Vol. 735 (1848), Sept., Sir S. Canning.
- Vol. 736 (1848), Oct., Nov., Sir S. Canning.
- Vol. 756 (1843), Egypt : Consul general Murray, Diplomatic.
- Vol. 757 (1848), Egypt : Consul general Murray Diplomatic Drafts.
- Vol. 759 (1848), Consuls Chasseaud Gibbert, walne, Surer, Maltass, Egypt, Dr. Farquhar, Reverend E winder, Foreigs Various Consular Demostic.
- Vol. 765 (1848), Jan. — March, Damestic Various.
- Vol. 766 (1848), April — Aug., Domestic Various.
- Vol. 767 (1848), Sept. — Dec., Domestic Various.

قاعدة الظهران الجوية الأمريكية

١٩٤٢ ــ ١٩٤٥

د٠ نجاة عبد القادر الجاسم

نظرا لأهمية العلاقات السعودية الأمريكية المعاصرة فاننا نجد لزاما علينا أن نقوم بمحاولة تسليط الضوء على جانب من هذه العلاقات الا وهو الجانب العسكرى خلال الفترة ١٩٤٢ ــ ١٩٤٥ وبالتحديد التركيز على دراسة ملابسات اتفاقية انشاء قاعدة جوية عسكرية أمريكية فى الظهران فى المملكة العربية السعودية ، وذلك من خلال ما تطرحه الوثائق الأمريكية ، أن دراسة الوثائق السعودية تجعل تسليط الضوء على البحث بشكل متوازن ، الا أنه لتعذر الحصول على هذه الوثائق حاليا فقد اعتمدنا على الوثائق الأمريكية التى لا تقل أهمية عن الوثائق السعودية[1] ٠

كانت الثلاثينات والأربعينات من القرن الحالى من أصعب فترات حكم ابن سعود ، فقد كان يتطلع الى بناء وتطوير دولته وتوفير الأمن

---

(١) أنظر دراستنا بعنوان « التمثيل الدبلوماسى والقنصلى الأمريكى فى المملكة العربية السعودية ١٩٣٦ ــ ١٩٤٤ » ــ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ــ جامعة الكويت ، العدد التاسع والثلاثون ــ السنة العاشرة شوال ١٤٠٤ ــ يوليو ١٩٨٤ ٠ والدراسة الثانية ــ القضايا التى ناقشها الأمير فيصل آل سعود مع المسئولين فى الحكومة الأمريكية أثناء زيارته للولايات المتحدة أواخر سبتمبر ١٩٤٣ ــ مجلة الخليج العربى ــ مركز دراسات الخليج العربى ــ جامعة البصرة المجلد السادس عشر العدد ٣ ــ ٤ ، ١٩٨٤ ٠

الداخلى والخارجى لها • هذا من جهة واذا التفتنا من جهة أخرى الى موقفه المالى فسنجده يعانى من أزمة مالية ، فقد كان لاندلاع الحرب العالمية الثانية أثر سىء على الأوضاع الاقتصادية فى السعودية فقد انقطع مورد الدخل الذى كان يحصل عليه من موسم الحج ، كما أن عمليا تالتنقيب عن البترول فى بلاده قد توقفت ، فكانت السعودية بحاجة الى مساعدات خارجية فنية واقتصادية ومالية وعسكرية ، ومن الثابت أن الملك ابن سعود لم يكن يرغب فى الاعتماد على — بريطانيا — حليفة الهاشميين الذين لم تكن علاقتهم به على ما يرام فى ذلك الوقت•

أما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية فقد شكل النفط العامل الأساسى الذى ضاعف من أهمية السعودية بالنسبة للمصالح الأمريكية ، فاذا أضفنا الى ذلك الأهمية الاستراتيجية التى تحظى بها المملكة العربية السعودية بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية خصوصا بعد دخولها الحرب العالمية الثانية رسميا فى ديسمبر ١٩٤١ ، واذا اقتربنا من الخمسينات فسنجد ثمة اعتبار حيوى أسبغ على هذه العلاقات أهمية أكبر الا وهو العداء المشترك للشيوعية •

اذن نستطيع اجمالا أن نقول أن العلاقات بين الدولتين قد تأثرت الى حد بعيد بكثير من العوامل والظروف الخاصة بكل منهما ، وانطلاقا من جميع تلك الاعتبارات احتضنت الولايات المتحدة الأمريكية فكرة توفير المساعدات للسعودية وكان ذلك — منذ تصريح الرئيس الأمريكى « روزفلت »(٢) فى فبراير ١٩٤٣ — الذى اعتبر الدفاع عن السعودية

---

(٢) كان الرئيس روزفلت قد أعلن أنه ينوى مضاعفة الاهتمام بالعالم عامة والقارة الأمريكية خاصة ولا يعنى ذلك تقديم المساعدات لصالح هذه الدول ولكن الهدف هو نشر الوجود الأمريكى هناك .

د. صلاح العقاد . الحرب العالمية الثانية ١٩٦٣ — القاهرة ، ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

حيوى للدفاع عن الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد أصبح من السهل اعتبار السعودية ضمن قائمة الدول التى يحق لها الحصول على المساعدات الأمريكية بموجب برنامج الاعارة والتأجير مباشرة . وقد كان هذا البرنامج يقدم المساعدات الى الحلفاء .

وفى ضوء هذه المعلومات نتعرف على أسباب نمو العلاقات السعودية الأمريكية ، فهذه الظروف والعوامل هى بالتأكيد الأكثر أهمية من غيرها فى التأثير على هذه العلاقات ، كما كان لها دورها فى تطلع الولايات المتحدة الأمريكية الى الحصول على موافقة المملكة العربية السعودية على منحها حق اقامة قاعدة جوية فى أراضيها ونعنى بها قاعدة الظهران .

قاعدة الظهران[٣] :

عندما نشبت الحرب العالمية الثانية كان الوطن العربى يخضع لنفوذ الحلفاء ، وكانت السعودية بالطبع متأثرة بالوجود والنفوذ البريطانى فى منطقة الخليج العربى وان لم تكن خاضعة للاحتلال البريطانى ولكنها تسلم بالتفوق البريطانى فى المنطقة وكانت تربطها ببريطانيا علاقات صداقة بموجب عدة اتفاقيات كما كانت بريطانيا تقدم المساعدات الى السعودية منذ ١٩١٧ ثم توقفت وعادت بعد ذلك خاصة فى الأربعينات على شكل قروض كانت بريطانيا تحصل عليها من الولايات المتحدة الأمريكية وبتشجيع منها ، خاصة وان امتياز التنقيب عن البترول فى السعودية حصلت عليه شركة أمريكية منذ مايو ١٩٣٣ كما أن السعودية كانت قد منحت الولايات المتحدة بعض التسهيلات الجوية فى الطيران فوق بعض الأماكن غير المأهولة من الأراضى السعودية ، ولكن كان رأى وزارة الخارجية الامريكية فى سنة ١٩٤٣ أن

---

(٣) تتناول الوثائق الأمريكية هذا الموضوع تارة باسم مطار حربى فى الظهران ، وتارة أخرى باسم قاعدة الظهران .

الجيش الأمريكي سيحتاج في أي وقت الى تسهيلات جوية أكبر من تلك التي حصل عليها بالفعل ، ولذلك فانه ينبغي على الولايات المتحدة أن تقدم للسعودية مساعدات مباشرة لتدعيم العلاقات معها من أجل الحصول على تسهيلات جوية في المستقبل ، ثم ان ابن سعود يتمتع بمكانة كبيرة في العالم الاسلامي[4] فهو حامي الأماكن المقدسة ، ومن هنا تأتي أيضا أهمية توثيق العلاقات به •

اذن ظهر أن هناك اتجاها قويا في الادارة الأمريكية يرى ضرورة التوسع في تقديم المساعدات لسعودية ، من خلال ميزانية تكفي لتغطية احتياجاتها ، وقد ازداد هذا الاتجاه قوة منذ عام ١٩٤٢ حين أصبحت الحاجة ماسة الى اقامة قاعدة جوية في السعودية وذلك لتأمين أفضل وسيلة في حالة الحاجة الى التسهيلات الجوية ، وكذلك لتأمين السيطرة على نفط المنطقة وللحصول على الموارد النفطية الهائلة التي تتوافر في المملكة العربية السعودية • فضلا عما اكتسبه الخليج العربي من أهمية كبيرة أثناء الحرب العالمية الثانية لتسهيله ارسال الامدادات العسكرية الامريكية الى الاتحاد السوفيتي[5] ولكي يحصل الامريكيون على القاعدة المذكورة كان من رأي وزير الخارجية الأمريكية التفاوض مع السعودية بشأنها عن طرق بريطانيا طالما أن السعودية تقع ضمن دائرة النفوذ البريطاني العسكري •

---

(4) U. S. Department of State Foreign Relations of the States-Diplomatic papers 1943-vol. IV.

The Assistant sec. of State to the lend lease Administator 9-Jan-1943.

(٥) د. مصطفى عبد القادر النجار . تاريخ الخليج العربي المعاصر . القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٨٨ •

وفى ضوء ما تقدم طلب وزير الخارجية الأمريكية من الوزير المفوض فى القاهرة Kirk « كيرك » سرعة التوجه الى السعودية لتقديم أوراق اعتماده كوزير مفوض غير مقيم[٦] ، وطلب منه دراسة مدى امكانيـــة انشاء قواعد عسكرية فى السعودية ، وترك له حرية عرض الموضـــوع على ابن سعود أو غيره فى هذه المرحلة ، ولكنه أوضح له أنه بســـبب حساسية الموضوع من الممكن استشارة رئيس البعثة الزراعية وغيره من الأمريكيين الذين لديهم معرفة وخبرة طويلة بالســـعودية والمســـئولين هنـــاك[٧] • ثم جرت عدة مراسلات بين وزير الخارجية الأمريكية والوزير المفوض بالقاهرة حول هذا الخصـــوص ، ففى ابريل ١٩٤٢ طلب من الوزير المفوض التعاون مع السلطات المختصة فى الجيش الأمريكى ، ومع الأشخاص من ذوى الكفاءة حسب تقدير « كيرك » وكما أنه وبسبب تقاسم جهود الحرب مع بريطانيا فعليه الاستعانة برؤســـاء الأركان البريطانيين تمهيدا لاجراء المفاوضات مع الحكومة السعودية ، وأبدى وزير الخارجية اقتناعه بأهمية ربط موضوع القاعدة بالمساعدات المالية والاقتصـــادية التى كان من المزمـــع أن تقدمها الحـــكومة الأمريكية للسعودية[٨] •

ومن الواضح أن الدخول فى مباحثات مع الملك ابن سعود بشأن

---

(٦) تم افتتاح المفوضية الأمريكية فى جدة فى أول مايو ١٩٤٢ ، وكان جيمس موسى هو أول ممثل دبلوماسى امريكى مقيم فى السعودية بدرجة قائم بالأعمال .

حول العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين أنظر دراستنا سبق الاشارة اليهـــا .

(7) U.S. Department of State - papers Relating to the Foriegn Relations of the united states 1942-vol IV.

The Sec. of state to the Minister in Arabia Kirk 26-Feb. 1942.

(8) U. S. Department Foriegn Relations 1942-vol. IV.

The Sec of State welles to Kirk - Wash - April - 1942.

القاعدة لم يكن من الأمور البسيطة ، وقد تمثلت أولى المبادرات الأمريكية بهذا الشأن عندما بدأ الوزير المفوض مناقشة موضوع الحصول على تسهيلات جوية أمريكية مع وزير المالية السعودى بطريق غير مباشر ولمعرفة ما اذا كان لديه ميل أو استعداد لمناقشة هذا الموضوع أم لا . ولكن الطريف أن الوزير المفوض فوجىء بموقف وزير المالية الذى قال : « ليس هناك أى اعتراض لطيران أمريكى فى الأجواء السعودية أو حتى انشاء قواعد جوية على الساحل فى الجنوب على خط مباشر من الخرطوم الى البحرين والشمال حيث تختصر الطريق الى العراق وايران والهند » ولكن فضل الوزير الأمريكى كيرك عدم الدخول فى مناقشات تفصيلية حول هذا الموضوع بسبب عدم تسلمه التعليمات الخاصة بهذا الأمر بعد ، ولكنه أكد على أن سرعة النقل بالطائرات ستمكن من ضرب قوات المحور ، هذا وقد كانت شركة البترول الأمريكية قد طلبت من ابن سعود السماح لها بالقيام بطيران تجريبى فى الأجواء السعودية(٩) ، كما أن الوزير البريطانى فى جدة كان قد ناقش هو الآخر هذا الموضوع وأيضا موضوع القواعد الجوية مع وزير المالية السعودى . اذن نلاحظ أن استجابات زير المالية السعودى كانت قوية ، وعلى هذا الأساس كان لابد من المضى فى هذه المشاورات والمفاتحات وذلك بالتنسيق بين السلطات الأمريكية والسلطات البريطانية ، فقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية حتى ذلك الوقت تسلم بالتفوق البريطانى فى هذه المنطقة ، استمرت المساعى الرامية الى الحصول على التسهيلات الجوية المطلوبة ،

---

(٩) فى ابريل ١٩٤٢ طلبت شركة البترول الأمريكية من الحكومة الأمريكية حماية المنشآت النفطية فى الظهران ، وبعد الحصول على موافقة ابن سعود والحكومة البريطانية اتفق على ارسال « وحدة عسكرية تتكون من ١٠٠ شخص مع معداتهم » الى الظهران .

د. خليل مراد : تطور السياسة الامريكية فى منطقة الخليج العربى (١٩٤١ — ١٩٤٧) . بغداد ١٩٧٩ — ١٩٨٠ . ص ٨٤ — ٨٥ .

فقد ناقش الوزير الأمريكى « كيرك » الموضوع مع الوزير البريطانى المفوض فى جدة (Bird) بيرد الذى كان رأيه أن موقف الوزير السعودى فاق كل الملاحظات والمواقف السابقة بهذا الصدد والتى جاءت بناء على مباحثات سابقة معه أجراها الوزير البريطانى ، وان ذلك دلالة قوية على التقدم الذى طرأ على وجهة النظر السعودية ، ولذلك فان الأمر يستدعى عقد اجتماع مع الملك ابن سعود ، ومن واقع هذا التطور اقترح « كيرك » الخطوة التالية والتى تتلخص فى أن تحدد الحكومة الأمريكية وكذلك الحكومة البريطانية مواقفهما ووجهات نظرهما بالنسبة للخدمات الجوية فى السعودية وبعد ذلك يحدد ما اذا كان الأمر يحتاج الى مزيد من المفاوضات مع الحكومة السعودية للتأكد من موقفها الايجابى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد طلب الوزير المفوض من الخارجية الأمريكية أن تبين موقفها من المفاوضات فهل تتم مفاوضات مشتركة — بريطانية — أمريكية أم تتفاوض الحكومة الأمريكية مع السلطات السعودية على أساس أن المشروع أمريكى فقط[١٠] .

فى أعقاب هذه المذكرة أرسل وزير الخارجية الامريكية هل (Hull) رسالة الى الوزير كيرك أوضح فيها أن وزارة الحربية تريد الحصول على طرق جوية مفتوحة فى السعودية من الخرطوم الى البحرين ومن الخرطوم الى البصرة بدون قيود ، بالاضافة الى أراضى للهبوط الاضطرارى ، وأنه لا مانع من مفاتحة ابن سعود بهذا الموضوع طالما أنه سيقدم له عرض على شكل مساعدة مالية أو اقتصادية وما دام مقتنعا بأن بلده ستكون بذلك بعيدة عن هجوم دول المحور[١١] . فأرسل كيرك الى وزير الخارجية الأمريكية فى ١٤ يوليو ١٩٤٢ الملاحظات التى أرسلها القائم بالأعمال فى جدة « جيمس موسى » James S. Moosa

(10) U.S. Department - Foreign Relations 1942 - Vol. IV The Minister in Egypt « Kirk » to the sec. of State - Cairo 19 - May - 1942.

(11) The Sec. of State to the Minister in Egypt (Kirk).

الذى كان يرى أنه لابد من الحصول على موافقة السلطات السعودية لانشاء الطرق الجوية المباشرة أما تأمين المطارات فسيكون أكثـــر صعوبة ولكنه يأمل فى أن يحصل على الموافقة كما أوضح أنه من المحتمل أن يفرض الملك ابن سعود شروطه والتى قد تكون طلب حماية •وأضـــاف أن الحكومة البريطانية تعطى السعودية اعانة مالية قدرها ثلاثة ملايين جنيه استرلينى ، فى الوقت نفسه فان شركة البترول العربية الكاليفورنية قالت انها لن تقدم مساعدات للسعودية ومن رأيه أن يكون أساس بدء المفاوضات تقديم اعانة مالية لأنه اذا استمرت المساعدة البريطانية على هذا المستوى فسيظهر عجز حوالى ٧٥٠ ألف جنيه فى ميزانية السعودية• وبذلك تستطيع الحكومة البريطانية أن تعوض كل هذا العجز أو جـــزء منه اذا طلب منها • ويكون فى شكل سلع مطلوبة أو قطع فضية وستكون محاولة أخيرة ، واقترح موسى أن تكون المفاضات حول هذا الموضوع مع وزير المالية عبد الله السليمان • ولكن كان رأى كيرك أن ترتبط المطالب السعودية بالقواعد الجوية وليس بالسماح بانشاء الطرق المباشرة فى الأراضى السعودية(١٢) •

وفى ١٨ يوليـــو ١٩٤٢ طلب وزير الخارجية الأمريكية من الوزير المفوض الأمريكى فى مصر « كيرك » والذى هو فى نفس الوقت وزير غير مقيم فى السعودية ، وطلب منه ابلاغ القائم بأعمال الســـــفارة الأمريكية فى جدة أن يفاتح الحكومة السعودية فى الأمر(١٣) • اذن قوة الاستجابا تالتى بدرت من وزير المالية السعودى مهدت الطريق للبدء بمناقشة الموضوع مع الحكومة السعودية وخاصة مع ابن سعود نفسه ، فقد حدثت بعض التطورات المشجعة من جانب ابن سعود نفسه بشأن

---

(21) U.S. Department. Foreign Relations 1942 Vol. Iv. The Minister in Egypt to the sec. of State. 14 July 1942.

(13) The sec. of State to The Minister in Egypt. 8 July 1942.

التسهيلات الجوية ، فمن خلال حوال دار بينه وبين الوزير البريطانى فى جدة ظهر أنه لا يمانع فى منح بريطانيا تسهيلات بالطرق المباشرة من الخرطوم الى البحرين ومن الخرطـوم الى البصرة مرورا بالأراضى السعودية • وأنه لن يعارض رغبة الولايات المتحدة فى الاستفادة من هذه التسهيلات ، وهكذا تأكدت الدلائل التى تشير الى احتمـال موافقة السعودية على التسهيلات الجوية ، مما دفع القائم بالأعمال الأمريكى والسفير البريطانى فى جدة الى اجراء مشـاورات بينهما ، وكان رأى السفير البريطانى أنه أصبح من الممكن الحصول على موافقة السعودية على تسهيلات الطرق الجوية أولا ؛ وبالاضافة الى ما سبق أن وزير المالية السعودى كان قد أكد موقف الملك ، وطلب منهما التقدم بطلب شفوى مشترك بخصوص الطرق الجوية ؛ ونصحهما بتأجيل أى طلبات أخرى لمدة أسبوع لكى يتمكن من الوصول الى الرياض ومناقشة الملك ابن سعود بذلك ، واقترح أيضا عدم الاشارة الى موضوع مطارات الهبوط والقواعد الجوية فى الطلب الأول الذى سيقدم للملك(١٤) • ومن واقع هذه التطورات الجديدة فقد تقـدم السفير البريطانى والقـائم بالأعمال الأمريكى شفويا بطلب مشترك فى أوائل شهر أغسـطس ١٩٤٢(١٥) •

وعند نهاية أغسطس تم استلام موافقة الملك ابن سعود بواسـطة القائم بأعمال وزير الخارجية يوسف ياسين ، على الطرق الجوية عبر

---

(14) The Minister in Egypt « Kirk » to the sec. of State 31 - July. 1942.

(15) U.S. Department. Foreign Relations 1942 vol. IV. The Charge in Saudi Arabia (Moose) to the sec. of state 12 - Aug - 1942.

السعودية • هذا ومما يجدر ذكره ان ابن سعود أوضح للسلطات البريطانية والأمريكية انه يعاملهم بنفس المعاملة(١٦) •

بيد أن هذه التسهيلات لم تكن تغنى عن الحاجة الى انشاء القاعدة العسكرية فى الأراضى السعودية من وجهة نظر السلطات الامريكية التى استقر رأيها فى يوليو ١٩٤٤ على اختيار الظهران وذلك فى أعقاب زيارة الى السعودية قام بها القائد العام للقوات الأمريكية فى الشرق الأوسط مع عدد من العسكريين فكان اختيار الظهران على الساحل الغربى من الخليج العربى لقربها من آبار النفط وبالتالى يتوفر لها الوقود وتوفر الحماية لهذه الآبار(١٧) بالاضافة الى اعتبارات أخرى سبقت الاشارة اليها والتى دعمت بناء قاعدة فى الأراضى السعودية •

وفى تطور آخر ومن أجل اعطاء العلاقات السعودية الامريكية بعدا آخر فقد وجدت الادارة الامريكية أنه من الضرورى ارسال بعثة عسكرية الى السعودية مهمتها القيام باصلاح الطرق والعمل فى بعض مشاريع التدريب • كما أنها أنشأت لها قنصلية فى الظهران فى ١٩٤٤ ، وأمدت السعودية بأسلحة بناء على طلبها فى نفس العام ، فالحقيقة أن ضرورات دعم الأمن القومى الأمريكى كانت تتطلب توثيق العلاقات مع السعودية وذلك بالاستمرار فى تقديم المساعدات المتنوعة لها •

ومن هنا فان وجود بعثات عسكرية أمريكية فى السعودية يعد أحد دعائم نمو وتطور هذه العلاقات ،وانطلاقا من هذا الاعتبار فقد أبلغت وزارة الخارجية الأمريكية الوزير الامريكى المفوض فىالسعودية « ايدى » Eddy فى ٦ مارس ١٩٤٥ أن الكولونيل نورس أوكونور سيصل الى جده للتداول معه بشأن خطط ارسال بعثة عسكرية الى

---

(16) The Charge in Saudi Arabia (Moose) to the sec. of state 29 - Aug - 1942.

(١٧) د. خليل مراد . المرجع السابق ص ١٦٩ — ١٧٠ .

السعودية تقوم بمهمة اصلاح الطرق ومشروعات تدريب المرشدين وفى أعقاب هذه المشاورات عليه أن يرسل توصياته وبعد ذلك ستصله تعليمات وزارة الخارجية الأمريكية بهذا الصدد لكى يبدأ المباحثات مع الحكومة السعودية بمساعدة الكولونيل أوكونور •ولكن طلبت منه عدم ذكر موضوع خطة البعثة العسكرية لابن سعود(١٨) •

هذا فيما يختص بالبعثات العسكرية ، أما فيما يتعلق بمشروع القاعدة العسكرية فقد جرى بحثه فى واشنطن ، ولكن تجدر الاشارة هنا أن هذه التطورات خاصة تلك المتعلقة بانشاء القاعدة لم تحدث جميعها من غير معارضة بريطانيا فقد جرت عدة اتصالات كما ذكرن فى الصفحات السابقة بين السلطات البريطانية والسلطات الأمريكية وعلى الرغم من محاولات التنسيق بينهما فقد عارضت بريطانيا انشاء القاعدة الجوية العسكرية الامريكية فى السعودية ، ولكن فى أثناء ذلك الوقت وبينما تجرى المباحثات بين الحكومتين البريطانية والامريكية حرصت الأخيرة على العمل بجدية نحو وضع خطط المساعدة المالية للسعودية ، وكانت قد أشارت الى السلطاتالسعودية بواسطة وزيرها المفوض بأنها تأمل أن لا يلتزم ابن سعود بأى تعهدات لا تتمشى مع مد المساعدة الأمريكية (١٩) ، ونقصد هنا تعهدات مع بريطانيا (٢٠) فقد كانت المنافسة البريطانية الأمريكية فى

---

(18) U.S. Department of State Foreion. Relations of the united States - Diplomatic papers 1945. vol. VIII.

The Acting secretary of State to the Minister in S. Arabia (Eddy) Wash. 6 - March - 1945.

(19) Ibid.

(٢٠) جاء ضمن بحث للدكتور نورى السامرائى بعنوان « الأهداف الخفية للولايات المتحدة من وراء دخولها الحرب العالمية الثانية » ــ ان صحيفة آسيا الأمريكية كتبت فى سنة ١٩٤٣ تقول « هبطت سمعة بريطانيا لدى شعوب الشرق الأوسط بصورة لم يسبق لها مثيل ولم يعد فى وسع الولايات المتحدة أن تسمح ببقاء السيطرة على شئون هذا الشرق فى أيدى البريطانيين وعلينا أن لا ننسى أن الشرق هو خير جسر لوصول الى أوربا » . مجلة كلية الآداب ــ جامعة البصرة ــ العدد ٩ ــ السنة السابعة ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٤ م .

ذلك الوقت ملموسة فالحكومة البريطانية كانت حريصـــة على امـــداد السعودية باحتياجاتها لكى تحول بينهما وبين اللجوء الى الولايات المتحدة الامريكية التى تمكنت من التأثير فى النفوذ البريطانى ليس فى السعودية فقط بل فى منطقة الخليج العربى بشكل عام ، فقد كانت بريطانيا كما ذكرنا فى مقدمة البحث تحصل على قروض أمريكية ، ولذلك نجد الرئيس الأمريكى ترومان فى عام ١٩٤٧ يعلن أن الولايات المتحدة ترى أنه ليس بامكان بريطانيا الاســـتمرار فى تحمل التكاليف العسكرية الباهظة فى الشرق الأوسط ولذلك لابـــد أن تحل أمريكا محلها [٢١] •

والحقيقة أن هذه السياسة الأمريكية بدأت منذ الثلاثينات حين حصلت شركات أمريكية على تراخيص البترول فى الســـعودية وغيرها من بلدان الخليج العربى • وهكذا فان الولايات المتحدة الأمريكية لم تعد تقبل الاعتراف بأن السعودية بل منطقة الخليج العربى عمـــوما منطقة نفوذ بريطانية وعملت على تعزيز مركزها وتأكيد نفوذها هناك • وظهرت فى الأربعينات بعـــض دلائل التـــوتر بين الولايات المتحـــدة الأمريكية وبريطانيا ، ومن الواضح أنه لكى يتم تنفيذ مشروع اقامة القاعدة الجوية لابد من التغلب على المعارضة البريطانية أولا • خصوصا وان الادارة الأمريكية كانت تميل الى الاستمرار فى الاجراءات المطلوبة لاقامة القاعدة ، وفى فبراير ١٩٤٥ وأثناء اللقاء الذى تم بين الملك ابن سعود والرئيس روزفلت على ظهر الطراد الأمريكى « كودينسى » عبر الرئيس الأمريكى عن رغبة القيادة الأمريكية العليا فى الخليج العربى فى استخدام ساحل الاحساء وموانئه لايواء القوافل البحرية الأمريكية وتموينها بالوقود ، ورغبتها فى اقامة قاعدة جوية كبيرة فى تلك الجهات، ويبدو أن ابن سعود الذى ناقش الرئيس روزفلت فى عدة قضـــــايا من بينها قضية فلسطين ، قد أبدى استعداده للتفاهم حول هذا الموضوع

---

(٢١) الدكتور محمد العيدروسى ــ العلاقات العربية الايرانية ١٩٢١ ــ ١٩٧١ ذات السلاسل ، الكويت ١٩٨٥ ص ٤٩٤ .

وأظهر موافقة مبدئية[٢٢] • وهكذا نلاحظ أن ابن سعود فى هذه المرحلة من علاقته بالولايات المتحدة الأمريكية لم يتردد عن اعلان صداقته ولم يحد عنها •

على أى حال فان المشاورات بشأن القاعدة الجوية كانت قد بدأت قبل لقاء الرئيس الأمريكى والملك السعودى كما أشرنا من قبل ودخلت مرحلة جديدة فى مارس ١٩٤٥ حين أرسل الوزير الأمريكى المفوض توصياته بعد التشاور مع الكولونيل أوكونور ، والتى جاءت على النحو التالى :

١ — يجب على رؤساء الأركان المشتركين أن يضمنوا موافقة بريطانيا على اقامة مطار أمريكى فى الظهران قبل بدء المفاوضات مع الحكومة السعودية بشأن مشروعات البعثة العسكرية • فالمطار هو الاهتمام الأساسى لجيش الولايات المتحدة • وبالنسبة له تعتبر كل مشروعات البعثة فروع • وأن الحكومة السعودية قد أبلغته ويعتقد أنها أيضا أبلغت بريطانيا أنهم ينتظرون موافقة الحلفاء الرئيسيين لهذا الاجراء الحربى •

٢ — مع أن أى التزام أمريكى بتقديم المساعدة الاقتصادية والمالية سيقوى من مركز الولايات المتحدة فان المفاوضات بشأن البعثة العسكرية يجب أن تتم فى الرياض بعد موافقة بريطانيا على المطار مباشرة • أما الجزء الثانى من توصيات الوزير الأمريكى فى جدة فهى المتعلقة بالمفاوضات مع الحكومة السعودية والتى تنص على أن تقدم الولايات المتحدة للسعودية العروض التالية :

١ — تحسين الطريق بين الظهران والرياض على أن يتم حالا

(٢٢) بنو ميشان — عبد العزيز آل سعود . سيرة بطل ومولد مملكة » نقله الى العربية عبد الفتاح ياسين ، دار الكاتب العربى — بيروت ١٩٦٥ ص ٢٥٣ — ٢٦١ •

وبعد اتمامه تقوم الولايات المتحدة بتحسين الطريق من الرياض الى جدة • فالملك ابن سعود يريد اصلاح كل الطرق ليصل الرياض فهو يعتبر هذا المشروع يدخل ضمن التصريح بأعمال المسح الفوتوغرافى الفسيح الذى قام به جيش الولايا تالمتحدة • خاصة وان البريطانيين لم يقوموا بعمل تحسينات للطرق وانهم لا يفكرون فى ذلك •

٢ ــ تدريب المرشدين والبحارة السعوديين مع عرض بتسليم الحكومة السعودية طائرات ومعدات ومطار للتدريب بعد الانتهاء من نشاط البعثة فى التدريب الجوى •

٣ ــ تمد البعثة الطبية العسكرية الأمريكية المسئولة عن الأفراد الأمريكيين خدماتها الصحية فى الأماكن المجاورة وستساعد فى اقامة خدمات طبية للجيش السعودى •

٣ ــ وأوصى كذلك بتدريب الضابط المشرف على أجهزة الملاحة واعطاء الاشارات والتموين والامدادات فى الجيش السعودى وكتيبة المدفعية والاشارة والمساعدة فى اقامة خدمة امداد وصيانة معدات وخدمات فنية ، وبين أن عروض المساعدة هذه ستقوم بها بعثة عسكرية أمريكية واحدة مقرها المنطقة العسكرية لجيش الولايات المتحدةالأمريكية فى الظهران ، أما عدد أفراد البعثة فستحدده الادارة الحربية ويعتمد هذا التحديد على مجال المشروعات المتفق عليها •

الشروط الأمريكية :

ومقابل هذه العروض تطلب الولايات المتحدة الأمريكية من السعودية ما يلى :

١ ــ عقد اتفاقية لاقامة مطار حربى من الدرجة الأولى للولايات المتحدة الأمريكية فى الظهران بكل التسهيلات بما فى ذلك حق استئجار طويل المدى وحقوق تجارية لما بعد الحرب •

٢ ــ ابرام اتفاقية لاقامة بعثة عسكرية أمريكية لتنسيق مشروعات المطار والمشروعات الحربية الأخرى • وهذه البعثة فقط من أجل المشورة والمساعدة العسكرية وسيتطلب وجــود البعثة الحصول على تصريح لاقامة تسهيلات سكنية فى الظهران لأفرادها ولعمال البناء •

كما اقترح الوزير « ايدى » أن تشتمل الطلبات على طلب لاقامة محطة تلغراف لاسلكى فى السعودية للاتصالات العاجلة والمباشرة مع السلاح الجوى الأمريكى(٢٣) •

فى تلك الفترة كانت المفوضية البريطانية فى جدة قد اقترحــت على الحكومة السعودية أن ترسل بعثة طبية عسكرية بريطانية للجيش السعودى مزودة بمستشفيين وعيادات متنقلة ، وقد أثار هذا الاقتراح قلق الوزير المفوض الأمريكى فى جدة لذلك طلب من وزارة الخارجيــة الأمريكية الاسراع فى التقدم باقتراح رسمى الى بن سعود بخصوص البعثات خاصة وأن لبعثة العسكرية فى الطائف قد أوشــك عملها على الانتهاء(٢٤) • وهكذا نلاحظ أن الوزير المفوض قد غير رأيه الســابق الذى يشترط أولا الحصول على موافقة بريطانيا على انشاء القاعدة قبل بدء المفاوضات مع ابن سعود بشأن البعثات •

والذى يجدر بحثه فى هذا المقام هو تطور موقف بريطانيا من انشاء القاعدة فقد كان رأيها كما عبر عنه مجلس الاركان البريطانى كما يلى :

١ ــ « أنهم يوافقون على الاقتراح الأمريكى باقامة قاعدة »

---

(23) Diplomatic papers 1945 vol. VIII.

The Minister in S. Arabia (Eddy) to the Sec. of state. Jeddah. 24 - March - 1945.

(24) The Minister in S. Arabia (Eddy) to the Sec. of State. Jeddah. 12 - April - 1945.

مطار حربى فى الظهران ، بل ان الحكومة البريطانية مستعدة لمساندة الاقتراح اذا تقدمت به الحكومة الأمريكية الى ابن سعود •

٢ — ان الكومنولث يطلب حقوقا متساوية مع الولايات المتحدة بشأن حقوق الطيران المنخفض والهبوط فى هذا المطار ولكن بريطانيا تنوى استخدام المطار فقط فى حالة الطوارىء •

٣ — يفترض رؤساء الأركان البريطانيين أن العمل والخدمات مسئولية تتحملها الحكومة الأمريكية •

ومهما كانت طبيعة الأسباب المحركة للموقف البريطانى فقد اعتبر مجلس الأركان المشترك الأمريكى أن هذا الرد يشوبه الغموض نوعا ما فما هو المقصود « بحقوق متساوية » ، لتوضيح هذا الغموض كان لابد من اجراء مباحثات بين المجلسين •

ولكن الى أن ينجلى الموقف ولكسب الوقت فقد طلبت الادارة الأمريكية من الوزير الأمريكى المفوض فى السعودية أن يطلب من السفارة البريطانية هناك الحصول على تعليمات من الوزارة البريطانية بشأن سحب الاعتراض البريطانى لكى يقوم — الوزير البريطانى — بابلاغها الى ابن سعود ، حيث أنه بعد اتمام هذه الخطوة تبدأ المفاوضات معه(٢٥) •

وعلى أية حال فان المصالح المشتركة بين الدولتين طغت على خلافاتهما وبعد عدة مشاورات فقد وافق مجلس الأركان البريطانى على انشاء القاعدة فى أواخر ابريل ١٩٤٥ وطلبت السلطات الأمريكية من وزارة الخارجية البريطانية ابلاغ السفير البريطانى فى جدة بهذا

(25) Diplomatic papers - 1945 - vol. VIII.
The Sec. of state to the Minister in S. Arabia (Eddy) Wash. 17 - April - 1945.

القرار لكى يقوم بدوره بابلاغ ابن سعود بالموافقة البريطانية[٢٦] . وسرعان ما أخبر وزير البريطانى المفوض فى جدة الوزير الأمريكى أن حكومته وافقت على اقتراح انشاء القاعدة وسيقوم بابلاغ الحكومة السعودية بالقرار البريطانى[٢٧] .

واذا انتقلنا الى الاجراءات التى تلت الموافقة البريطانية فاننا نبدأ بالتعليمات التى وصلت الى الوزير المفوض الأمريكى فى جدة فى ٣ مايو ١٩٤٥ بأن يبدأ « المفاوضات مع حكومة السعودية بمجرد علم الملك ابن سعود بالموافقة البريطانية وبدون تأخير . وأن يحرص على مناقشة ضمان حقوق لما بعد الحرب . وأن تمنح الخطوط الجوية الأمريكية المسموح بها حقوق العبور فى السعودية وحق الدخول التجارى فى الظهران . وفى حالة انتهاء حقوق الطيران الحربى بعد انتهاء الحرب الحالية بعام فان خطوط الطيران الأمريكية المدنية ستستمر فى حقوق العبور فى السعودية والحق فى الدخول التجارى فى الظهران وأيضا استخدام مطار الظهران وتسهيلاته على أساس عدم التفرقة طالما أن أى خدمات جوية تجارية مسموح لها أن تعمل فى أو عبر السعودية ». وتم تخويل المفوضية أيضا أن تبلغ الحكومة السعودية أن حكومة الولايات المتحدة مستعدة لاقامة طريق فى السعودية . ولكنها لا تستطيع — الحكومة الأمريكية — أن تضمن منح السعودية عند انتهاء أعمال بعثة تدريب الطيران طيارات التدريب ومطار ومنشآت التدريب .

فى الوقت نفسه أوضحت أن الادارة الحربية أيضا مستعدة لارسال البعثة المقترحة وأن تبدأ فى اقامة طريق الرياض — الظهران ومطار

---

(26) The Acting Sec. of state to the Minister in S. Arabia Wash. 26 - April - 1945.

(27) The Minister in S. Arabia (Eddy) to the Sec. of state. Jeddah. 5 - May - 1945.

الظهران عند تلقى المذكرة الرسمية من الادارة بأن المفاوضات تمت مع السعودية بطريقة مرضية بشأن هـذه المشروعات[٢٨] • وطلبت من الوزير المفوض التأكد من أن الحكومة السعودية ستسمح للخـدمات الجوية الأمريكية الاستمرار فى استخدام مطار الظهران بعد أن يتحول الى الحكومة السعودية[٢٩] وبالفعل تمت المفاوضات بشأن كل هـذه الأمور وقد ظهر أن حكومة السعودية غير مستعدة للتفاوض فى البنـود التى بمقتضاها تعمل الخدمات الجوية التجارية فى مطار الظهران فقد أشارت السلطات السعودية الى أنها تحتاج الى وقت لدراسة الاتفاقيات سارية فى البدد المجاورة ، ولكنها تعد فقط ببنود غير تمييزية للولايات المتحـدة •

وكان رأى الوزير الأمريكى فى رسالته الى الخارجية الأمريكيـة المؤرخة مايو ١٩٤٥ أنه ليس من الحكمة طلب امتيازات محددة للخدمة الجوية التجارية قبل وصول المساعدة الاقتصادية للسعودية ، واذا كانت الادارة تريد التفاوض الآن فان الحقوق التجارية يجب شراءها ويجب أن يحضر الملحق الجوى كارمن من القاهرة ومعه معلومات بشـأن المفاوضات وأضاف أن الملك يرغب فى أن يقوم الوزير ايـدى بزيارة الرياض مرة أخرى لمناقشة تفاصيل الخدمات المقدمة من الجيـش الأمريكى ، ويرى ايدى أن الحكومة السعودية تتوقع أن تفتح المطـار للطيران التجارى الأمريكى فى نهاية الحرب • وقد أنهى الوزير رسالته بأن الوقت « غير مناسب وسيىء جدا لمثل هذا الاقتراح »[٣٠] •

---

(28) Diplomatic papers. 1945 - vol. VIII.
The Acting Sec of State to the Minister in S. Arabia (Eddy) Wash 3 May 1945.

(29) The Acting Sec of State to the Minster in S. Arabia (Eddy) Wash 26 - May - 1945.

(30) Diplomatic papers 1945 vol VIII.
The Minister in S. Arabia (Eddy) to the Sec. of state Jeddah 1 - May - 1945.

من جانب آخر كانت الخارجية الأمريكية قد أرسلت الى وزير الحربية الأمريكية John Stimsos (ستمسون) فى ٢٥ أبريل عام ١٩٤٥ بأنه عند اعداد التعليمات لارشاد مفوضية جدة فى مفاوضاتها مع السعودية بشأن حقوق الطيران يجب اعطاء الاهتمام الى رغبة الحكومة السعودية فى الفترة الأخيرة فى تحسين مطار جدة[٣١] بما فى ذلك تركيبات خاصة بانارة ليلية وممرات الطائرات والصيانة والاصلاح ، وأنه عندما تبدأ المفاوضات[٣٢] بشأن مطار الظهران والطريق الجوى فانه من المتوقع أن السلطات السعودية ستثير نقطة التركيبات فى جدة وبهدف التعجيل فى المفاوضات يجب على الادارة الحربية أن تتخذ القرار فى هذا الشأن مقدما ، وعلى هذا فقد اقترحت الخارجية على الحربية وجوب اعطاء المفوضية فى جدة سلطة الموافقة على أن يقوم الجيش بالاصلاحات المطلوبة فى جدة وذلك اذا كانت هذه الموافقة في نظر المفوضية ضرورية لضمان مطار الظهران وحقوق المرور المطلوبة[٣٣] .

---

(٣١) كان القائم بأعمال وزير الخارجية السعودية قد عبر عن رغبة حكومته فى ١٧ ابريل ١٩٤٥ الوزير المفوض الأمريكى فى التعاقد بشأن اجراء تحسينات فى مطار جدة بما فى ذلك الاضاءة الليلية وممر اقلاع وهبوط الطائرات والتركيبات وصيانة واصلاح الطائرات . واستفسر هل سنقوم بهذه الاصلاحات الولايات المتحدة اذا طلبت الحكومة السعودية أم أنه من الأنسب أن تتقدم السعودية بطلب مشترك للولايات المتحدة وبريطانيا ، فكان رد الوزير الأمريكى أن هذا الامر متروك لتقدير الحكومة السعودية ، وكان رأى الوزير الذى عبر عنه فى رسالته للخارجية الأمريكية حول هذا الموضوع أنه لا يشك فى أن مفاتحة كهذه تجرى فى نفس الوقت مع الوزير البريطانى فى جدة وأنه ليس من المدهش اذا وجد الجيش البريطانى مشترك باقامة تسهيلات جوية وعسكرية فى السعودية .

(32) Diplomatic paprs. 1945 vol. VIII.

The Minister in S. Arabia (Eddy) to the sec. of state - Jeddah. 17 - April - 1945.

(33) The Acting Sec. of state to the Sec. of War (STIMSON) Wash 25 - April - 1945.

غير أن موقف وزير الحربية كان يختلف عن وزارة الخارجية فهو يرى ان ادارته لا تستطيع أن تبرر استخدام الموارد الحربية لاجراء اصلاحات فى مطار جدة والذى ليس له دوعى أو احتياجات عسكرية ، وأوصى بأن لا تخول المفوضية الأمريكية فى جدة سلطة الموافقة على قيام الجيش الأميركى بالتحسينات المطلوبة فى المطار اذا كان من رأى المفوضية أن هذه الموافقة ضرورية لضمان المطار فى الظهران وأيضا لضمان حقوق العبور(٣٤) •

وفى وسط هذا الخضم المتدافع من التطورات كانت الادارة الأمريكية مهتمة أيضا بموضوع تقديم المساعدات المالية والفنية الى السعودية نظرا لما لذلك الأمر من ارتباط بموضوع القاعدة الجوية • ففى ١٧ مايو أطلع مساعد وزير الخارجية Achison (اتشيسون) ثلاثة من أعضاء مجلس الشيوخ على خريطة للولايات المتحدة وذلك فى اجتماع حضره وكيل وزارة البحرية ومركب على الخريطة مناطق بترول الشرق الأوسط وتم اعطاءهم فكرة موجزة عن كميات البترول فى المناطق المختلفة والاهتمامات القومية لهذا البترول • وقد وافق أعضاء المجلس على أن الاهتمامات الأمريكية فى البترول السعودى عظيمة لمنع الاضطرابات الداخلية والتدخل الأجنبى لحماية المصالح القومية لأمريكية فى احتياطى البترول السعودى ثم بين مركز الملك المالى واطلعهم على خريطة موضح عليها النفقات الأخيرة وتقدير العجز ، وقد أشار الى النتائج التى يمكن أن تتبع الفشل فى الاهتمام بهذا العجز ، وقد أيد ممثلوا الجيش والحربية هذا الموقف بشدة ووافق أعضاء الشيوخ الذين اشتركوا فى الاجتماع على أن لأمر يتطلب عمل شىء • وبعد ذلك بين تشيسون الخطوط العريضة للطرق

(34) Diplomatic papers. 1945 Vol. VIII.

The Sec if War (STIMSON) to the Acting Sec of State. Wash.

9 - May - 1945.

الاربعة المقترحة وهى كما يلى : قرض مضمون — قرض غيرمضمون — منحة — شراء البترول فى الأرض[٣٥] ثم عقد اجتماع مع الرئيس ترومان فى أواخر مايو وبعد مناقشة الأهمية الاستراتيجية للسعودية وافق على السير فى نفس خطة الرئيس السابق روزفلت ، والاستمرار بتقديم المساعدات للسعودية •

وفى ٣١ مايو أرسل الوزير الأمريكى فى جدة رسالة الى وزارة الخارجية أكد فيها على رغبة الملك ابن سعود السابقة فى أن يقوم الوزير الأمريكى « ايدى » بزيارة الرياض فى حوالى ٩ يونيو لمناقشة مشروعات الجيش ومشروعات التعاون الأخرى وطلب منه الحصول على معلومات تامة بشأن المساعدة الاقتصادية والمالية التى تعتزم الولايات المتحدة تقديمها لأنه يرغب فى مناقشة كل الأمور سواء كانت عسكرية أو اقتصادية[٣٦] ولذلك طلب الوزير المفوض من الخارجية الامريكية امداده بالتعليمات والمعلومات قبل موعد الزيارة أى قبل ٩ يونية ولكن وزارة الخارجية الأمريكية اعتذرت عن تقديم المعلومات الخاصة بالمعونة الأمريكية الاقتصادية والمالية المقترحة للسعودية ففى ذلك الوقت كانت قد حدثت بعض التطورات الجديدة بشأن مطار الظهران ولذلك طلبت من الوزير المفوض تأجيل الزيارة والاعتذار لابن سعود بأنه نظرا لأن بعض الأمور تتطلب البحث فى واشنطن[٣٧] فانه مضطر الى تأجيل الزيارة وبالتالى لا يستطيع أن يعطيه التزاما نهائيا بشأن حجم مساعدة ١٩٤٥ •

---

(35) Memorandum of Conversations by the Assistant Sec. of State (ACHISON) 17 - May - 1945.

(36) The Minister in S. Arabia (Eddy) to the Sec of State - Jeddah - 13 - May - 1945.

(37) Diplomatic papers. 1945. vol. VIII.
The Actisg Secretary of State to the Minister in Egypt Wash 5 - June - 1945.

ويلاحظ أن الوزير المفوض كانت لديه بعض المخاوف فقد أوضح للخارجية الأمريكية أن لجوء ابن سعود الى ارامكو للحصول على قروض ليثبت اقتصاده ستكون له نتائج أقل اضرارا للسعودية منها لامريكا حيث سيتأكد عندئذ ابن سعود أن أرامكو هى الأصل والمفوضـــية هى الظل وان استمرار الملك فى الحصول على القروض منهم سيساهم فى تدهور مركز الحكومة الأمريكية نسبيا(٣٨) .

وهذا الموقف يجىء كاستطراد طبيعى لتطور ونمو العـــلاقات الامريكية ، أما بالنسبة للقاعدة فرغم تغيير خطط النقل وتناقص الحاجة الى القاعدة فان ثمة أسباب حيوية ترتبط بالمصالح الامريكية تكمن وراء اصرار الولايات المتحدة على انشاء القاعدة الجوية ، وقد رأت الادارة الامريكية أهمية اعطاء المشروع قوة دفع أكبر ولذلك يجب عرضه على الرئيس الامريكى على أساس أن اقامة القاعدة ضرورة قومية ، فاذا تم الحصول على موافقته يبدأ العمل فى المشروع(٣٩) .

وكانت وزارة الحربية الأمريكية ترى أن الحصول على المطـــار ستكون له فائدة فى زيادة كفاءة تشغيل خط القاهرة ــ كراتشى وأن

---

(٣٨) كانت السلطات السعودية تريد القيام بكثير من المشاريع مثل امداد المياه والكهرباء ولذلك ارادت التأكد من انها ستحصل على المساعدات الأمريكية ويذكر الوزير الامريكى المفوض فى رسالة الي وزير الخارجية الأمريكية فى ٢٤ يونيو ١٩٤٥ أن القائم بأعمال وزير الخارجية السعودية سأله عن مدى قيام الحكومة الامريكية بمساعدة السعودية فى القيام بهـــذه الاصلاحات ، وأخبره أن المهندسين البريطانيين فى الفترة الأخيرة قدمـــوا مقترحات ولكن السلطات السعودية تفضل أولا العمل بمعـــاونة الولايات المتحـــدة .

Diplomatic papers 1945 vol. VIII.

The Mininster in S. Arabia (Eddy) to the Sec of State Jeddah 24 - June - 1945.

(39) The Acting Sec. of state to the Minister in S. Arabia (Eddy) 15 - June - 1945.

مدى الفائدة يتناسب تناسبا طرديا مع سرعة اكماله ، وأن التطورات في حرب الباسيفيك قد يزيد كثيرا القيمة الحربية للمشروع ومع حقيقة أن التخطيط العسكرى الأمريكى فى ذلك الوقت يشير الى أن الحاجة العسكرة للمطار فى الظهران متناقصة ، الا أن الادارة الحربية كانت مستعدة أن تتقدم ببناء المطار طالما أن هذا العمل فى الصالح القــومى الامريكى ، وكان رأى الخارجية أيضا أنه لصالح القومية الامريكية بناء المطار مع تسهيلات أخرى وموجز القول هنا أن هناك اتجاها قويا نحو ضرورة انشاء القاعدة الجوية • وربما يكفى هنا لتبيان جانب من مواقف الادارات الا وهو المتعلق بموقف وزارة الخارجية والدوافع التى جعلتها ترى أهمية لاستمرار فى انشـــاء القاعدة والتى جاءت على النحــو التـــالى :

١ ــ حقول البترول والتى كانت تبشر بأنها أحسن حقول العالم ، كانت فى ذلك الوقت فى أيدى شركة أمريكية واستمرار الترخيص فى أيدى أمريكية يعطى أحسن الآمال بأن بترول السعودية سيكتشف تجاريا بأعظم سرعة وعلى أوسع نطاق معطيا دخلا سيساهم فى تحسين الحالة الاقتصادية السعودية واستقرارها ، وأن المصالح الامريكية فىالسعودية بالاضافة الى البترول ستؤدى الى تقوية التكامل السياسى فى السعودية خارجيا وأن بناء مطار فى الظهران بسرعة يستخدم أولا للاغــراض الحربية ولكن بعد ذلك للاستخدام المدنى سيكون مظهرا قويا للمصلحة الأمريكية •

٢ ــ يعد استخدام هذا المطار للاغراض الحربية مصدر قــوة عظيمة للطيران المدنى الأمريكى بعد الحرب كمرحلة ممكنة متوسطة على الطريق للهند وكوسيلة للنقل الجوى من والى حقول البترول المملوكة أو الواقعة تحت سيطرة أمريكا فى السعودية والبحرين ويسهل جدا تطوير وتنمية العلاقات الوثيقة بين الحكومة الأمريكية والحكومة السعودية •

٣ ــ أما فما يتعلق بآخر التطورات المتعلقة بتناقص أهمية المطار فانه بعد أن تمت المباحثات مع ابن سعود فان ابلاغه أن الحكومة

الامريكية قررت أن لا تقيم المطار فانه من المحتمل أن ذلك سيجعله يشعر أن السياسة الامريكية بشأن السعودية متذبذبة كما سيزيد عدم ثقة الحكومة السعودية بشأن المدى الذى يمكنه الاعتماد على أمريكا(٤٠) •

على انه أيا كانت طبيعة الأسباب المحركة لموقف ادارات الدولة فان الرئيس ترومان وافق على انشاء القاعدة فى الظهران • وقد أبلغت الخارجية الامريكية وزيرها المفوض فى جدة بهذا القرار وكان ذلك بتاريخ ٢٨ يونيو ١٩٤٥(٤١) وفى ذلك الوقت كانت وزارة الخارجية الامريكية تحاول دفع قرض التنمية للسعودية بدون انتظار تخطيط برنامج معونة مالية طويلة المدى كما جاء فى رسالة وجهها ممثل وزير الخارجية الى الوزير الامريكى المفوض فى السعودية ، وقد طلب منه أن يبلغ الملك أن بنك الاستيراد والتصدير وافق من حيث المبدأ على قرض تنمية مشروعات مثل امداد المياه والطاقة الكهربائية والطرق شرط عمل ترتيب لضمان رد المبلغ ، كما طلب منه أن يؤكد للملك ابن سعود أن هذه الأموال ليست هدايا بل قروض سترد(٤٢) • ومن الواضح اذن أن ضرورات دعم المصلحة والأمن القومى الأمريكى كانت تتطلب عدم التأخير فى موضوع القروض •

---

(40) Diplomatic papers - 1945 vol. VIII.

The Acting S. of state. Wash. 26 1945 .

(41) The Acting Sec. of state to the Mininster in S. Arabia (Eddy) Wash 28 - June - 1945.

(42) The Acting Sec. of state to the Minister in S. Arabia 27 - June - 1945.

موقف ابن سعود من البعثة العسكرية :

ثم يجيء التطور الآخر المفاجيء حين رفض الملك ابن سعود فى ٥ يوليـــو ١٩٤٥ خدمات البعثة العسكرية الأمريكية مفضـــلا — كما جاء فى رسالة القائم بأعمال القنصل الامريكى فى الظهران أن يكون التعاون الخارجى لتنمية السعودية عن طريق وكالات مدنية ولكن لا يؤثر هذا الاتجاه على اتفاقية السعودية للسماح باقامة مطار فى الظهران • وكان قرار الملك رفض المساعدة العسكرية الأجنبية فى اقتصاده الداخلى يقوم على ثلاثة أسباب كما جاءت ضمن رسالة القائم بأعمال القنصل الأمريكى فى الظهران وهى :

(أ) الانتقادات التى توجه من جانب المعارضين المتعصبين •

(ب) المضايقة التى يسببها أعداءه الهاشميين •

(جـ) اعتراض الانجليز على بعثة عسكرية لا يشتركون على الأقل بنصفها(٤٣) •

وأيا كان وجه الحقيقة فى هذه الأسباب أو التحليلات فالحقيقة أنه قد يعتبر هذا الموقف اخفاقا مؤقتا للسياسة الأمريكية فى الســـعودية ومن جهة أخرى نرى كيف أن الشكوك ساورت السلطات الامريكية بشأن دور بريطانيا فى التأثير على ابن سعود فى اتخاذ هذا الموقف ولا شك أن دوافع موضوعية ملحة كانت وراء قرار ابن ســـعود ، وفى محاولة النفاذ الى صميم الموقف شرح الوزير المفوض الامريكى فى جـــــدة الملابسات التى أحاطت بالموضوع فى تقريره المؤرخ فى ٨ يوليـــو ١٩٤٥ فكان يرى أن جوهر رد الملك بشأن موقفه من خدمات البعثة العسكرية

---

(43) The Vice Conasul at Dahrun (Sands) to the Sec of state Dahrun 5 - July - 1945.

الامريكية كان قرارا غير بات لرفض الخدمات ، وكان قرارا استعرضه شفويا لكي ينطبق على أى بعثة عسكرية أجنبية سواء كانت أمريكية أم لا • وان ابن سعود أوضح احتياجات السعودية وظروفها الخاصة فى محاولة منه — كما يرى الوزير المفوض الأمريكى لاحاطة رفضه خدمات البعثة باطار ايجابى ، ويضيف الوزير المفوض فى تقريره أنى مقتنع أن الملك مخلص وعلى صواب فى توقعه للنقد العنيف من المعارضين والمتعصبين اذا قامت بعثة عسكرية أجنبية كبرى بخدمات كبيرة داخل البلاد فهو ما زال موضع نقد فى الوقت الحاضر بسبب الامتيازات التى منحها للاجانب المقيمين فى بلاده وأن الأحداث الأخيرة فى سوريا ولبنان[٤٤] تنبىء بمطالبة عربية عامة لاجلاء كل الجنود الأجانب من البلاد العربية وتجعل الوقت الحاضر أكثر صعوبة بالنسبة له ، أما المطار فهو كما أوضح — ابن سعود مسألة مختلفة تماما ، فهو للجهد الحربى لحلفائه العسكريين ويمكن بهذا تبريره ثم ان الأفراد العسكريين الأجانب سيكونون محصورين فى منطقة الظهران — رأس تنورة وهى أبعد مكان عن المدن المقدسة ومن الشيوخ المعارضين اللذين يعتبرون أن الجندى الأجنبى ما هو الا عدو معتدى • وقد أوضح ابن سعود فى البيان الذى أصدره بهذا الشأن أن بريطانيا ستعترض على البعثة وقد اعتبر الوزير المفوض الأمريكى أنه ليس من الحكمة أن يسأل الملك عن هذه النقطة التى لم يفصلها وهل استشار بريطانيا فاعترضت أم أنه — الملك — يتنبأ فقط باعتراضهم ويضيف الوزير أنه يميل نحو الرأى الأول « المحزن » ففى « الشتاء الماضى كانت هناك عدة دلائل على أن الملك

---

(٤٤) شهدت سوريا ولبنان الكثير من الاضطرابات والنزاعات سواء بين بريطانيا وفرنسا أم بين الاحتلال الفرنسى والوطنيين ففى دمشق انتهى أمر الصراع الى قيام فرنسا بقصف دمشق جوا فى ٢٩ مايو ١٩٤٥ ، كما شهدت لبنان اضطرابات كثيرة بسبب التدخل الفرنسى مما دفع بريطانيا الى التدخل بتوجيه انذار الى فرنسا فقد كانت تتطلع الى أن تحل محل فرنسا فى لبنان وسوريا .

حول هذا الموضوع انظر : د. صلاح العقاد ، المشرق العربى المعاصر، الانجلو المصرية ١٩٧٠ ، ص ٩٤ — ٩٧ .

مستعد لأن يحرر نفسه من الرقابة البريطانية والتعامل معنا باستقلال شرط أن يتأكد بالطبع من استمرار الاستقرار الاقتصادى والامـداد باحتياجاته الأولية ولكن فى الأونة الأخيرة يبدو أن الملك أصـبح يعتقد بأنه مهما كانت الولايات المتحدة قوية وصديقة فان بريطانيا ما زالت تحكم وتسود فى الشرق الأوسط وتتصرف حيث يوافق فقط الآخرون »،

ثم ينتقل الوزير المفوض الامريكى الى أنه علم من مصدر موثوق منه أن القائم بأعمال زير الخارجية السعودية قال للمقربين منه فى لجنـة الجامعة العربية فى القاهرة « أن الأمريكيين أصدقاؤنا ونحن نحبـهم ولكن بريطانيا هى القوة التى نتعامل معها » ويعلق ايدى فى رسالته بما يلى « وســواء تحت النفوذ البريطانى أم لا فانه يبدو أن الحكومة السعودية مقتنعة بالعودة الى الاقليمية والى مجال نفوذ بريطانى مقبل فى الشرق الأوسط ، وأن تدخل بريطانيا فى سوريا ولبنان احتل ذروة الجدال وأن فشلنا فى ضمان موافقة بريطانيا على الاتصال اللاسلكى البرقى المباشر بين السعودية والولايات المتحدة وعـدم مقدرتنا على الامداد بدولارات أو أن نبيع مقابل عملة محلية ، واقرارنا بأنه يجب أن يكون هناك عناية كبيرة ووقت طويل لضمان تأييد الكونجرس للتعاون الاقتصادى الطويل المدى مع السعودية ، قد رجح الكفة مرة ثانيـة لصالح بريطانيا كقوة عسكرية وسياسية يمكن الاعتماد عليها بالنسـبة لسعودية ، ويكمل الوزير المفوض « انى لا أعتقد اننى أبالغ فى الانتعاش المفاجىء فى المكانة البريطانية وفى الحقيقة قال لى الملك صراحة أن بريطانيا ستفلس وتنهزم بدون الولايات المتحدة ويستطرد الوزير • ولكن يبدو أنه ــ ابن سعود ــ مقتنع أن بريطانيا التى تتصرف مباشرة على حدوده والتى تتحكم فى مداخل ملكته وموارد معيشه يجب استرضاؤها حتى بالرغم من أنه يضحى بفوائد بعثة عسكرية من الولايات المتحـدة الامريكية وأن بريطانيا تحمى أمن السعودية السياسى والقـومى من العدوان ومن ناحية أخرى أتوقع أن الملك يعترف بأنه ليس من المعقول أن يطلب من امريكا أن تمده باحتياجات معيشة بلاده وأن تتعاون فى

تنمية موارده القومية اذا كانت بريطانيا ستستخدم حق الفيتو عندما نريد واذا وجدنا طريقة لكى نتساوى مع بريطانيا كضامن فعال لاقتصاد السعودية حينئذ نتوقع أن نبعـــد نهائيا هذا الفيتـــو البريطانى على مقترحات أمريكا فى الســـعودية ، ومن ناحية أخـــرى بالرغم من كل استثماراتنا فى البلاد فان بريطانيا على ما أعتقد تتمتع بمزايا سياسية أكثر من أمريكا »(٤٥) •

وهكذا فقد اعتبرت السلطات الامريكية موقف ابن سعود نكسة فى العلاقات الامريكية السعودية وعودة للنفوذ البريطانى وهذا الاعتقاد يكفى لتبيان التغيير الذى طرأ على العلاقات لسعودية الامريكية ولكن كما سنرى فقد كان مؤشرا مؤقتا •

لم يكن من الغريب اذن أن يثير موقف ابن سعود من خدمات البعثة العسكرية الامريكية وزارة الخارجية الامريكية التى جاء ردها المرسل الى الوزير الامريكى فى جدة شديد اللهجة ويشير الى مخاوفها ، فقد جاء فيه « ان قرار الملك ابن سعود بشأن المقترحات المتعلقة بالبعثـــة العسكرية يثير الدهشة وذلك نظرا لأنه سبق وطلب مرات عديدة أن يقوم الجيش الامريكى ببناء الطرق وتدريب الطيارين الســـعودين ، وأن خوف الملك من رد الفعل المعاكس داخل بلاده موضع تقدير ولكن غير مقنع ، نظرا لأن الملك يضغط على حكومته منـــذ مدة تزيد على عامين للموافقة على جعل الجيش الامريكى يقدم خدمات يرفضها هو الآن ، اذ لدى الولايات المتحدة والجيش الامريكى امكانيات تقديم هذه الخدمات مجانا ومن ثم يصبح رفض الملك هذه المساعدات بمثابة انتكاسة للسياسة الامريكية والتى يمكن ارجاعها فيما يبدو الى الضغط البريطانى » • ثم طرحت وزارة الخارجية عدة تساؤلات منها ما هو تأثير الغاء هـــذه

---

(45) Diplomatic papers 1945. vol VIII.
The Minister in S. Arabia (Eddy) to the Sec of state Jeddah. 8 - July - 1945.

المساعدة على استقرار الحكومة السعودية وعلى تأمين المصالح الامريكية ؟ ومن الذى شيشغل مطار الظهران عندما تأخذه السعودية بعد انتهاء الحرب مع اليابان ؟ ان الغاء البعثة يعنى عدم تدريب الطيارين والفنيين لاستلام المطار ، فالحكومة السعودية عليها أن تعتمد على الفنين الأجانب وأن ذلك يعنى أن الحكومة الامريكية تبنى مطارا فى وسط احتياطى بترول « امريكى » كبير لتجد أنه يعمل تحت سيطرة دولة أخرى غير السعودية ، وأيضا ما هى الضمانات التى لدى الحكومة الأمريكية والتى تؤكد أن الحكومة السعودية الحالية أو المستقبلية تستطيع أن تحافظ على النظام اذا لم تبنى طرق ولم تحسن القوة الجوية والجيش » ؟ كانت هذه هى تساؤلات وزارة الخارجية الامريكية التى طلبت من وزيرها فى جدة ارسال تقرير مفصل يغطى النقط والتساؤلات التى أثارها الرد ويعطى أدلة على المناورات البريطانية[٤٦] .

وموجز القول بأن هذا الموضوع يعطى الدليل والصورة الواضحة عن المنافسة البريطانية الامريكية فى الحصول على مزيد من الامتيازات فى السعودية ، هذا وقد أكد رد الوزير المفوض الامريكى على رسالة وزارة الخارجية أن رفض الملك ابن سعود لبعثة التدريب الجوى الحربى الامريكية كانت بتأثير الضغط البريطانى ، بالاضافة الى الشعور الوطنى العربى « القومية العربية » عند الملك وموقف المتعصبين داخل المملكة العربية السعودية فقد أثر ذلك كله على موقف الملك الذى يرغب فى الابقاء على الأراضى المقدسة محررة من أى صبغة أجنبية . هذا ويشير الوزير المفوض الامريكى أن طلب الملك ابن سعود كان دائما لتدريب الطيارين فى الولايات المتحدة ، ولم يقبل أبدا اقتراح بعثة طيران امريكية فى السعودية كما أنه ليس لديه ما يؤكد بشكل مطلق أن الحكومة

---

(46) Diplomatic papers. 1945 vol. VIII.

The Acting Sec. of State to the Minister in S. Arabia (Eddy) Wash 13. - July - 1945.

السعودية ستحافظ على النظام فى المستقبل سواء بواسطة شق الطرق أو بغير ذلك ، ويدخل فى هذه القضية عامل آخر يتعلق بموقف بريطانيا التى لا تريد أن تبنى الولايات المتحدة الجيش السعودى أو القوات الجوية السعودية وأنها ــ بريطانيا ــ تفضل أن تقوم فى المستقبل « بانقاذ البلاد » اذا انتشرت الفوضى وعدم النظام فيها « كما انقذوا سوريا ولبنان • وكان رأى الوزير المفوض ايدى أنه لا فائدة من اظهار عدم الرضى للملك على موقف فهو ــ الملك ــ « يتوقع أن يكون للولايات المتحدة تأثير أكبر على بريطانيا كضامن وحليف رئيسى ، ولكنه لا يرى الدليل على النفوذ الامريكى وحالما تعلن المساعدة التكميلية للسعودية لعام ١٩٤٥ وتحرير المساعدة الامريكية لأول مرة من القيود البريطانية المشتركة فعلى الولايات المتحدة أن تؤكد تأمين المطار وذلك بأن تشترط فى المفاوضات أنه عند رجوع المطار الى الحكومة السعودية فان جميع الفنين الأجانب الذين يعملون فيه يجب أن يكونوا أمريكيين لأن أمريكا هى التى بنت المطار بأموالها وأفرادها » •

أما فيما يتعلق بموضوع المناورات البريطانية فقد « أوضح الوزير أنه لا يوجد لديه الدليل على مناورات بريطانية أبعد من بيان الملك الذى سبق شرحه ولكن السخط البرطانى للمفاتحات الامريكية مع السعودية بشأن خطوط جوية مدنية والمعارضة بشأن الاتصالات اللاسلكية ومظاهر الغيرة من مساعدات الاعارة والتأجير الحربية والمالية كل هذا يحكى قصة واحدة أن بريطانيا تعارض وستعارض أى نشاط أمريكى فى السعودية والذى يعطى للولايات المتحدة مظهر أسبقية سياسية أو عسكرية وأضاف أن بريطانيا تسمح لنا بأن نخفف عنهم عبء الأمداد ولكنها لن تتخلى عن أن يكون لها صورة حاسمة وموقف وقوة الفيتو ، وانى آمل أن لا تشترك فى اغاثة أو امداد مشترك مرة ثانية ولكن بدلا من ذلك نربط مساعداتنا الاقتصادية المستقلة بخيوطنا نحن بدلا من خيوط بريطانيا » ، ولذلك ولكى نماثل نفوذ بريطانيا السياسى فى السعودية نحتاج الى ما يلى :

١ ـــ خطة مالية للاموال التى لا تقبل الرد مثل شراء البحرية لاحتياطى البترول فاذا كان اهتمامنا القومى حقيقة استراتيجى فاننا بالتأكيد نستطيع أن ندفع ثمنا أعلى من بريطانيا ونفعل ذلك بدولارات تصرف فقط لسلع وخدمات أمريكية •

٢ ـــ اتفاقية مع بريطانيا وعلى أعلى مستوى تعترف بالمصالح الأولية الامريكية فى الاقتصاد السعودي ، وبيان صريح من الحكومة البريطانية يعبر عن ترحيبهم بكل أعمال التشييد التى تقوم بها الولايات المتحدة للمساعدة فى تنمية السعودية(٤٧) •

وهكذا نلاحظ أن المظهر الغالب على موقف بريطانيا كان الرفض الصريح المباشر أحيانا ، وغير المباشر أحيانا أخرى • والحقيقة حينما نبحث العناصر التى أثرت على العلاقات السعودية الامريكية يجب أن نركز الانظار على عنصر حاجة ابن سعود للمساعدات المالية التى حتى ذلك الوقت لم تكن قد أرسلت ، خاصة وأن ابن سعود كان قد أرسل خطابا الى الرئيس الامريكى ترومان أشاد فيه بموقف الرئيس السابق روزفلت من تقديم المساعدات للسعودية وطلب ابن سعود فى رسالته أن تساعد الحكومة الامريكية بلده لاجتياز الأزمة المالية والتى لا تزال تعانى منها بسبب ظروف الحرب وانتشار الجراد كذلك ومن الملاحظ أيضا أن ابن سعود ذكر فى رسالته أنه يعلم أن السبب فى تأخير أرسال المعونة هو عدم موافقة الكونجرس عليها لتأخر عرض الأمر عليه(٤٨) •

---

(47) Diplomatic papers 1945 vol VIII.

The Minister in S. Arabia (Eddy) to the Sec of State - Jeddah - 15 - July - 1945.

(48) King Abdul - Azizlibn Saud of S. Arabia to president Truman - July - 1945.

وعلى أى حال فقد بدأت تتضح معالم المتغير فى برنامج المساعدات المالية الأمريكية للسعودية ، فقد وافق الرئيس الأمريكى ترومان على قانون تخصيص مساعدة بموجب الاعارة والتأجير بمبلغ خمسة ملايين دولار فى برنامج المعونة المشتركة للسعودية بالاضافة الى برنامج مساعدة تكميلى بعشرة ملايين ريال وسلع قيمتها ثلاثة ملايين دولار(٤٩) ولقد تم تسليم مذكرة بشأن برنامج المساعدة التكميلية الى المسئولين السعوديين فى أواخر يوليو ١٩٤٥(٥٠) .

وترتيبا على ذلك فقد نشطت وزارة الخارجية الأمريكية فى الاسراع بارسال تعليماتها الى وزيرها فى جدة لكى يقابل الموظفين السعوديين لانهاء المحادثات التفصيلية بشأن مطار الظهران وعقد الاتفاق(٥١) خصوصا وأن الرسالة المشتركة البريطانية الامريكية بشأن مساعدات السعودية قد تم الاتفاق عليها وتم تسليمها الى الحكومة السعودية(٥٢) . ومن واقع هذه التطورات فقد حرصت وزارة الخارجية الامريكية أيضا على أن تتأكد من أن السعودية لن تترك أمر تشغيل المطار بعد انتهاء الحرب بيد قوة ثالثة لا توافق عليها الحكومة الامريكية ولهذا السبب فقد جاء اقتراح الخارجية الامريكية حول أهمية معرفة ما مدى امكانية قيام منظمة الطيران الغربى وعبر القارات بابرام عقد مستقل مع ابن سعود ، يشترط أن تقوم المنظمة بتشغيل المطار عندما يعود الى السعودية

---

(49) The Acting Sec of State to the Minister in S. Arabia. Wash 16 - July - 1945.

(50) The Minister in S. Arabia (Eddy) to the Sec of State- Jeddah 30. July. 1945.

(51) Diplomatic papers 1945 vol. VIII.

The Acting Sec of State to the Minister in S. Arabia (Eddy) Wash 12 - July - 1945.

(52) The Acting Sec of state to the Minister in S. Arabia (Eddy) 16 - July - 1945.

أو أن يتضمن العقد توصية ملزمة بأنه عندما يعود المطار الى السعودية فان كل المفنيين الأجانب الذين يعملون فى المطـــار يجب أن يكـــونوا أمريكيين ، ولكن سرعان ما نبه القائم بأعمال وزير الخارجية الأمريكية الى أن الادارة الامريكية لا ترغب فى هذا الشرط الملزم لأنه كما يقول ـ كسياسة عامة ـ « نحن ضد الترتيبات الخاصة بالمرشد الوحيد مثل التى توجد فى العراق لصالح بريطانيا »(٥٣) .

كان رأى الوزير الامريكى المفوض فى جدة بأنه لا يعتقد أنه فى الامكان الاسراع فى العقد بشأن العمليات المدنية فى المطار فى الوقت الحاضر لأن الحكومة السعودية ليس لديها أى خبرة فى الطيران التجارى ولذلك فسترغب فى دراسة أى اقتراح يقدم لها وتقارن بالعقود فى بلاد المجاورة كما أشار القائم بأعمال وزير الخارجية السعودية الى أنه أيا كانت الأسباب المحركة للموقف السعودى فان الوزير المفوض يعتقد بأن ثقة السعودية فى الكفاءة العالية للولايات المتحدة وأمن طيرانهـــا يضمن للولايات المتحدة تشغيل المطار بعد الحرب ، وسيكون هذا الأمر أول مشروع كبير تعاونى بين الحكومتين وسيؤدى أكثر من هذا الى اقامة مصالح خطيرة فى المستقبل فى السعودية ، كما ذكر الوزير المفوض بأنه لا يعتقد أن الملك ابن سعود سيفضل قوة ثالثة لتشغيل المطار . ولذلك فانه يعرض أن يبلغ الملك أثناء المفاوضات أن الادارة الامريكية تفهم أن الولايات المتحدة قامت ببناء المطار للسعودية لكى يؤول اليها وليس لكى تحصل عليه قوة ثالثة لتشغيله(٥٤) .

وفى أواخر يوليو أرسل الوزير المفـــوض فى جـــدة الى وزارة

---

(53) The Acting Sec of State to the Minister in S. Arabia (Eddy) Wash 21 1945.

(54) Diplomatic papers 1945 vol VIII.

The Minister in S. Arabia (Eddy) to the Sec of state. Jeddah. 23 July 1945.

الخارجية الامريكية رسالة مفادها أن الملك وادارته يفضلون تأجيل مناقشة حقوق الطيران المدنى ، وكما أوضح الوزير بأنه لا يعترض على ارسال اتفاقية نقل جوى ثنائية وعقد ادارة مطار جوى فى نفس الوقت شرط أن العقد العسكرى لا يكون معتمد عليها أى على الاتفاقية الثنائية وعقد الادارة ، لأن هذا الربط يؤدى الى أخير انتهاء المفاوضات بل قد يؤدى الى فشلها •

فالعقد العسكرى ممكن تقديمه وله فرصة طيبة للقبول السريع ولكن العقود المدنية ستدرس دراسة مطولة قبل الرد عليها ، ولا شك أن بريطانيا قد حصلت على وعد من الملك باستشارتها قبل منح الولايات المتحدة أى حقوق طيران مدنى •

وقد أوصى الوزير المفوض بوجوب توقيع العقد العسكرى قبل عيد الفطر المبارك وقبل الاستعدادات لموسم الحج كما أن أى تأخير سيلقى الشك على حقيقة الحاجة للمطار الجوى لظروف الحرب وهذا السبب هو الذى من أجله وافقت بريطانيا والملك على انشاء القاعدة[٥٥] • وفى هذا المجال يجدر بنا أن نشير الى أن الادارة الامريكية كانت تريد عمل عقد منفصل مع الملك بشأن تشغيل وصيانة مطار الظهران عندما تنتهى سيطرة الجيش الامريكى عليه بعد انتهاء الحرب •

اتفاقية القاعدة :

وأيا كان وجه الحقيقة فى الأسباب الداعية الى اقامة القاعدة حتى بعد انتهاء الحرب ، فقد ظلت هناك اعتبارات حيوية جعل أمر اقامتها ضرورة أمنية للولايات المتحدة فالسعودية تمتلك احتياطيا نفطيا ضخما وهى احدى بلدان الخليج العربى الذى يشكل أهمية كبيرة

---

(55) The Minister in S. Arabia (Eddy) to the Secretary of state Jeddah 26 - July - 1945.

للاسطول الامريكى والخليج العربى أيضا له أهمية كبيرة بالنسبة لأى مواجهة مع الاتحاد السوفيتى[٥٦] وبالتالى فان للقاعدة فوائد عظيمة بالنسبة للولايات المتحدة فى وقت وجدت فيه المملكة العربية السعودية أن مصلحتها هى الأخرى تكون فى توطيد الصداقة مع الولايات المتحدة التى تتمتع بمركز قوى فى ذلك الوقت سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية ، خاصة انها — السعودية — كانت غير مطمئنة لطبيعة العلاقات البريطانية الهاشمية فى الاردن والعراق ، ولا يمكن أن نتجاهل أن ميل بريطانيا فى تلك الفترة الى الحكومات الهاشمية كان أيضا بسبب طبيعة العلاقات السعودية الأمريكية ، ولكن وعلى أى حال فان السعودية تعلم أن استقرارها أمر مهم للمصالح الامريكية .

وهكذا فى الخامس من أغسطس ١٩٤٥ وقع القائم بأعمال وزير الخارجية السعودية « يوسف ياسين » على نص مشروع الاتفاقية ، وبموجبه يتم اقامة وتشغيل القاعدة بواسطة الجيش الامريكى أثناء فترة الحرب ضد اليابان وان تستمر القوات المسلحة الامريكية فى استخدام القاعدة مدة ثلاث سنوات بعد توقف الحرب . وأما فيما يتعلق بالتفاصيل فانه وبناء على اقتراح أمريكى لا تزيد مساحة القاعدة عن ٥ × ٥ أميال وموقعها تقريبا عند خط الطول ٢٠° — ٢٠° شمالا وخط العرب ١٠° — ٥° شرقا داخل منطقة الدمام وسيقيم فى القاعدة (٥٠٠) شخصا ولكن يتم بناؤها لكى تسع (٢٠٠٠) شخصا . وستقيم الحكومة الامريكية مطارا للطوارىء على أرض سعودية عبر خط الطول ٥٦° — ٢٩° تقريبا شمالا وخط العرض ٧ ١/٢ — ٤٥° شرقا أما الطريق الجوى الذى من أجله تقام هذه المنشآت فيمتد من القاهرة الى الظهران عن طريق معان فى الاردن وحفر الباطن فى السعودية .

وعند انقضاء فترة الثلاث سنوات التالية لانتهاء الحرب ضد اليابان

---

(٥٦) د. خليل مراد ، المرجع السابق ص ١٦٧ — ١٦٨ .

فان الولايات المتحدة ستحول هذه المنشآت فى حالة جيدة الى الحكومة السعودية لتشغيلها وصيانتها والتحكم فيها ولكن لا تحول الحكـــومة السعودية هذه المسئولية الى قوة ثالثة •

وخلال الفترة التى تكون فيها القاعدة فى ايدى القوات الامريكية المسلحة ستكون كل المواد التى فى فواتير الشحن الامريكية من والى السعودية معفاة من الضرائب والعوائد والجمارك والقيود وهذا الاعفاء يسرى على الامدادات والمواد الغذائية لكل أفـــراد الجيش الامريكى والعمليات المرتبطة بالقاعدة ولا تخضع للضرائب أو التعويض عنها أو سدادها للحكومة السعودية(٥٧) •

ويجب أن نلاحظ أن المحور الذى تركزت حوله تحفظات الملك ابن سعود تتعلق بسيادته وسلطته فقد أصر على أن يرتفع العلم السعودى على المواقع الداخلية وعلى مطار الهبوط الاضطرارى وفى حالة الطوارىء وكان رأى الوزير الامريكى المفوض أن هذا لاصرر سيقوى من أمن وكفاءة هذه لمواقع لأن رجال القبائل الذين يقيمون بالقرب من هـــذه المواقع سيحترمون مركزا للملك ولن يعتبروا وجود أفراد الجيـــش الأمريكى بمثابة احتلال للبلاد •

ووافق الملك على أن تكون سيادة الجيش الامريكى على الأفـــراد غير السعوديين داخل حدود القاعدة الجوية فقط • بينما أصر على وضع مذكرة اضافية تبين أنه اذا دعت الحاجة الى انهاء اتفاقية القـــاعدة الجوية قبل نهاية الثلاث سنوات التالية للحرب فان تشغيل وصـــيانة القاعدة تتحول الى الحكومة السعودية •

واذا انتقلنا الى بحث الاجـــراءات الأخرى مثلا تلك المتعلقـــة

(57) Diplomatic papers - 1945 vol VIII - Enclosur 1

The Amarican Minister in S. Arabia (Eddy) to the S. Arabian Asting Minister foreign affairs (Yassin) 5. 1945.

بالتسهيلات العادية للتسلية والمتعة الشخصية فقد كان رأى الحكومة الامريكية أنه يجب أن يقدمها الجيش الامريكى لافراده وللعاملين فى القاعدة كما يحدث بالنسبة لكل القواعد الأمريكية • لم تعترض الحكومة السعودية على البند الخاص بشراء الطاقة الكهربائية والذى يمنح الحكومة الامريكية حق شراء الطاقة الكهربائية والغاز الطبيعى أثناء شغلها للقاعدة الجوية من شركة البترول الامريكية العربية بأسعار يتفق عليها بين المشترى والبائع ، وفى حالة ما اذا كانت الحكومة السعودية لا تستطيع فى الوقت الذى تؤول اليها مسئولية القاعدة أن تضمن الاتفاق مع شركة البترول العربية الامريكية بامداد الطاقة الكهربائية فان حكومة الولايات المتحدة الامريكية تمدها بمولدات كافية لضمان التشغيل المستمر للقاعدة كما أوضحت الادارة الامريكية للسلطات السعودية أن اتفاقيات أخرى مفصلة بشأن اجراءات اقرار العدالة التى تتضمن رعايا أكثر من دولة ، والجمارك وتنظيمات جوازات السفر كل ذلك سيخضع لمذكرات اضافية • اما فيما يتعلق بالاستخدام المدنى للمطار والموارد التى بمقتضاها قد تحصل الحكومة السعودية على معدات وتركيبات غير ثابتة والمتبقية فى القاعدة الجوية عندما يتركها الجيش الامريكى فستتم مناقشتها مستقبلا •

هذا ، وقد عينت الحكومة الامريكية القائد العام للقوات المسلحة الامريكية فى منطقة أفريقيا والشرق الأوسط مسئولا عن عملية اقامة القاعدة والمنشآت والتركيبات اللازمة لذلك[٥٨] •

هذا وقد أوضح الوزير المفوض الامريكى « ايدى » أنه حسب الاتفاق فان القوات الامريكية ستستخدم القاعدة حتى بعد انقضاء فترة الحرب مع اليابان بثلاث سنوات ولكن اذا اكتشفت الحكومة الامريكية

(58) Diplomatic papers - 1945 vol VIII. Enclosure 1 - The American Minister is S. Arabia (Eddy) to the S. Arabian Acting Minister for foreign affairs (Yassin) 5 - 1945.

فى تاريخ مبكر قبل نهاية الثلاث سنوات أنها ليست فى حاجة الى القاعدة عندئذ ستترك القوات المسلحة الامريكية للحكومة السعودية أمر تشغيل وصيانة القاعدة[٥٩] وفى السادس من أغسطس بعث يوسف ياسين القائم بأعمال وزير الخارجية السعودية بموافقة حكومته على هذه البنود[٦٠] وقد علق الوزير المفوض الامريكى على الاتفاقية « بانها تحفظ كل الحقوق الامريكية ، وتشمل كل الامتيازات التى استطعنا أن نحصل عليها وهى أكثر مما كنا نتوقع الفوز به »[٦١] .

وهكذا وعلى الرغم من أنه لم تعد هناك حاجة ماسة الى القاعدة ولم يعد لها علاقة بالمجهود الحربى ضد اليابان ، كما تشير الوثائق الامريكية الا أن الولايات المتحدة استمرت فى اقامتها وانتهى العمل بها فى سنة ١٩٤٦ ، وكلف انشاؤها ٤٥ مليون دولارا[٦٢] . وقد تضاعفت أهميتها بعد انتهاء الحرب منذ ابتداء الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتى كذلك ازدادت أهميتها لاعتبار آخر يربط ببريطانيا التى لم تعد قادرة على تحمل مسئولية النفقات العسكرية فى الشرق الأوسط[٦٣]

---

(59) The American Minister in S. Arabia (Eddy) to the S. Arabia Acting Minister for foreign Affairs.

(60) Enclosur 2 - The S. Arabian Acting Misister for Foreign Affairs Yassin to the American Minister in S. Arabia Eddy Ria - 6 - - Aug - 1945 .

(61) The Minister in S. Arabia (Eddy) to the Sec. of state- Jeddah. 8. Aug. 1945.

(٦٢) د. خليل مراد ، المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٦٣) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، الانجلو ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣١٨ .
عبد العاطى محمد أحمد : الدبلوماسية السعودية فى الخليج والجزيرة العربية ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، ابريل ١٩٧٩ ، العدد ٣٥ ، القاهرة ، ص ٣٨ .
انظر تفاصيل هذه الاتفاقية فى : أمين سعيد ، تاريخ الدولة السعودية الثانية ، المجلد الثانى ، بيروت ، ص ٢١٧ — ٢٢٧ .

لقد عقدت اتفاقية « تعديل اتفاقية مطار الظهران » فى ٢ فبراير ١٩٤٦ ثم اتفاقية لتنظيم استعمال العسكرية الامريكية للمطار فى ٢٣ يونيـــو ١٩٤٩ ثم اتفاقية مطار الظهران الأخيرة فى ١٨ يونيو ١٩٥١[٦٤] وهذه الاتفاقية تنظم عملية استخدام « القاعدة » مقابل تقديم معونات للجيش السـعودى •

الخاتمــــة :

وعلى الرغم من أن المملكة العربية السعودية قد أصبحت من أغنى دول العالم ولم تعد بحاجة الى المعونات المالية الامريكية ، فانه ليس من العسير الوقوف على أسباب نمو وتطور العلاقات السعودية الامريكية المستمر منذ الخمسينات فموقع السعودية الاستراتيجى تزايدت أهميته والنفط السعودى الذى أصبح من أهم عوامل حرص الولايات المتحدة على تنمية وتطـوير علاقاتها مع المملكة العربية السعودية • وهنـاك بالاضافة الى هذا الكثير والكثير من المصـالح المشتركة ، فالحـكومة السعودية حريصة على ارساء الامن والحكم وتحقيق التنمية فى مختلف لمجالات وبالنسبة لها فان استمرارية علاقاتها مع الولايات المتحدة من أهم عوامل تحقيق هذه الأهداف •

---

(٦٤) خير الدين الزركلى : شبه الجـزيرة العربية فى عهـد الملك عبد العزيز ، ص ٦٨٦ ، الجزء الثانى ، بيروت ١٩٧٠ .

المصـــادر

أولا ـ وثائق منشـورة

وثائق وزارة الخارجية الامريكية

1. U.S. Department of State Relating to the Foreign Relatioss - The British co monwealth, The Near East and Africa 1941 vol III.

   Washington U.S.G.P.O. 1959.

2. U.S. Department of State - papers Relating to the Foreign Relations.

   The Near East and Africa, 1942 vol. IV.

   Washington U.S.G.P.O. 1963.

3. U.S. Department of State - papers Relating to the Foreign Relations of the United States - Diplomatic PaPers 1943.

   The Near East and Africa. Volume IV.

   Washington U.S.G.P.O. 1964.

4. U.S. Department of State - Foreign Relations of the united States Diplomatic papers.

   The Near East and Africa. 1945 vol. VIII.

   Washington U.S.G.P.O. 1969.

ثانيـا ـ المراجـع

١ ـ أمين سـعيد : تاريخ الدولة السعودية الثانية ـ المجلد الثانى ـ بيروت ١٩٦٤ .

٢ ـ بنوميشـان : عبد العزيز آل سعود سيرة بطل ومولد مملكة ، نقله الى العربية عبد الفتاح ياسين ، بيروت دار الكاتب العربى، ١٩٦٥ .

٣ ــ د٠ خليل على مراد : تطور السياسة الامريكية فى منطقة الخليج العربى ١٩٤١ ــ ١٩٤٧ ، مطبعة جامعة البصرة ، ساعدت جامعة بغداد فى النشر ــ رسالة دكتوراه ــ ١٩٧٩ ــ ١٩٨٠ ٠

٤ ــ خير الدين الزركلى : شبه الجزيرة العربية فى عهد الملك عبد العزيز، بيروت ، مطابع دار القلم ١٩٧٠ ٠

٥ ــ د٠ صلاح العقاد : الحرب العالمية الثانية ، الانجلو ، القاهرة ١٩٦٥ ٠

٦ ــ ــــــــــــ : المشرق العربى المعاصر ، الانجلو ــ القاهرة ١٩٧٠ ٠

٧ ــ عبد العاطى محمد أحمد : الدبلوماسية السعودية فى الخليج والجزيرة العربية ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الاهرام ، القاهرة ابريل ١٩٧٩ ٠

٨ ــ محمد العيدروسى : العلاقات العربية الايرانية ١٩٢١ ــ ١٩٧١ ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ١٩٨٥ ٠

٩ ــ د٠ مصطفى عبد القادر النجار : تاريخ الخليج العربى المعاصر ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ــ معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٧ ٠

ثالثــا ــ الدوريات

١ ــ الأهداف الخفية للولايات المتحدة الامريكية من وراء دخولها الحرب العالمية الثانية ، د٠ نورى السامرائى ، مجلة كلية الآداب جامعة البصرة ، العدد ٩ ، السنة السابعة ، ١٣٩٤ ــ ١٩٧٤ ٠

٢ ــ التمثيل الدبلوماسى والقنصلى الامريكى فى المملكة العربية السعودية ، د٠ نجاة عبد القادر الجاسم ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت ، العدد التاسع والثلاثون ، السنة العاشرة ، شوال ١٤٠٤ ــ يوليو ١٩٨٤ ٠

التطور التاريخى للسياسة الفرنسية
فى أعالى النيجر

دكتور/ نصر الدين رشوان حسن

واجهت فرنسا فى خلال السبعينات من القرن التاسع عشر بعض الضغط لأن تدفع بوزارة البحرية ، المسئولة عن شئون المستعمرات ، الى تبنى سياسة توسعية فى غرب أفريقيا ، فى حين أن الاتجاه الغالب فى فرنسا كان نحو اعطاء أسبقية أولى فى سياســتها الخارجية الى استعادة قوتها ونفوذها فى أوروبا بعد هزيمة ٧٠ — ١٨٧١ ، كما أن كثيرين من الفرنسيين أظهروا اتجاها معاديا تماما لأى سياسة توسعية • وكانت وزارة الخارجية تتبنى الاتجاه الأخير وتصر على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع بريطانيا كنقطة بداية نحو استعادة مكانة فرنسا على المستوى الدولى[١] •

وقد شهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر اتجاها نحو اقامة المشروعات الكبيرة عبر القارات لخدمة التجارة والتوسع الاستعمارى ، وبالنسبة لفرنسا فقد كانت تسعى الى اقامة خط سكة حديد بين سان لوى والنيجر يمكنها من التوغل بفاعلية فى أسواق غرب أفريقيا ، لكن اقامة مثل هذا الخط تتطلب تأمينه باخضاع المناطق التى يمر بها واقامـــة الحصون فيها • وكان هناك اعتقاد فى فرنسا بضرورة أن تسبق بريطنيا

---

(1) HARGREAVES : Prelude to the Partition of West Africa pp. 198, 9.

الى هذه المنطقة فى حين أن البريطانيين فى سيراليون كان اهتمامهم بأعالى النيجر متواضعا ، وهذا يعنى من جهة أخرى أن فرنسا ستعفى نفسها من حرج مواجهة مشكلات دولية حادة • كذلك فلن تكون هناك معارضة داخلية كبيرة حيث أن التقدم فى هذه المناطق لا يتطلب ارسال قوات كبيرة من فرنسا نفسها على عكس الحال بالنسبة لغزو مصر أو تونس • ومما أغرى الداعين للاستعمار للاستمرار فى هذا الاتجاه أن كليمنصو المشهور بمعارضته للاستعمار لم يتعرض لدعاة الاستعمار الذين كانوا دائمى الاشادة بما أسموه الأعمال البطولية لعدد محدود من الفرنسيين الذين يعملون وسط شعوب « بربرية ومتعصبة » • وكان من حسن حظ هؤلاء أن تولى وزارة البحرية الفرنسية فى عام ١٨٧٩ الاميرال جويجبيرى (Jauréguiberry) حاكم السنغال السابق[٢] •

وقد مهد الجو لتقبل الاتجاه نحو الاستعمار بعض الجغرافيين والناشرين الفرنسيين الذين كانوا يواصلون الحديث عن مزايا الحصول على المستعمرات وكان من أشهر هؤلاء لوروى بوليو Leroy - Beaulieu ولكن مع ذلك ظل الاتجاه العام لدى الفرنسيين غير عابىء بهذه الدعوة واستمر الحال على ذلك حتى عصر بداية التكالب والمنافسة بين الدول الأوروبية للحصول على المستعمرات[٣] •

وقد تميزت السياسة الخارجية الفرنسية خلال الثمانينات بالتضارب بين وزارة الخارجية ووزارة البحرية التى كانت تضم ادارة خاصة بشئون المستعمرات ، وازداد هذا الصراع حدة بانشاء سكرتارية دائمة ومسئولة عن ادارة وتوسيع المصالح الاستعمارية الفرنسية ، وتزايد نفوذ هذه السكرتارية حتى أصبحت فيما بعد نواة لقيام وزارة للمستعمرات • وعلى أى حال فان وزارة البحرية بالتضافر مع السكرتارية

---

(2) HALLET : Africa since 1873, pp. 267 - 8.

(3) HARGREAVES : op. cit., p. 200.

المذكورة عملت على تدعيم مطالب فرنسا ازاء النيجر أكثر مما فعلتـه وزارة الخارجية الفرنسية التى كانت على دراية أكثر والمام أعمـق بحقيقة العلاقات المعقدة مع بريطانيا فى الكثير من المسائل المتعلقـة بمشكلات الساحل[٤] •

وكان من العوامل المؤثرة فى سياسة فرنسا قلة الاعتمادات المالية المخصصة من قبل الجمعية الوطنية الفرنسية فى الثمانينات للتوسـع الاستعمارى ، وقد أدى هذا الى اعتماد المسئولين الفرنسيين فى تقرير سياستهم على خبرة عدد من المسئولين فى ادارة المستعمرات أو على المعلومات التى يحصل عليها مكتب
(Bureau du Haut - Fleuve et du Niger)
الذى أنشىء فى عام ١٨٨١ • وكان لفرنسا قنصل نشـيط فى براس (Brass) على نهر النيجر يدعى انطوان ماتى Antoine Matéi عمل على الحصول على معاهدات من زعماء هذه المنطقة ولمـا علم بذلك المسيو (Duclerc) وزير الخارجية الفرنسية عام ١٨٨٣ وكان حديث عهد بالوزارة ، أحال الأمر برمته الى جوريجبيرى وزير البحرية الذى أقر ماتى على خطته وزوده بعدد من التعليمات والمبادىء لمراعاتها فى المعاهدات التجارية التى يوقعها مع الزعماء الافريقيين فى نهرى النيجر وبنوى (Benue) [٥] •

كانت سياسة فيديرب (Faidherbe) حاكم السنغال السابق فى الستينات تهدف الى أبعاد أسواق السودان الغربى عن أيدى بريطانيا واتبع فى ذلك سياسة تهدف الى أبعـاد التكولور عن أعالى السـنغال واحتلال وادى السنغال ـ النيجر والاستيلاء على باماكو • كذلك فان بريير دى ليـل (Briére de L'isle) حاكم السنغال اللاحق كان يهدفه

---

(4) NEWBURY : The map of Africa by treatey, vol. 11, p. 16.

(5) NEWBURY : Ibid, pp. 18 - 20.

أيضا الى اقامة امبراطورية رسمية فى السودان الغربى باقامة خط من الحصون يصل الى النيجر اعتمادا على العمل العسكرى وحاول اخراج فرنسا عن السياسة التى التزمت بها حتى بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهى سياسة التدعيم والاقتصاد والسلام (Consolidation, economy and peace) وذلك بسبب ما نتج عن الحروب السبعينية ورغبة فرنسا فى عدم الدخول فى أية ارتباطات مالية خارج حدود فرنسا يمكن أن تؤثر على استعداداتها العسكرية وأمنها فى أوروبا ذاتها(٦) •

وفى عهد فرسينيه (Freycinet) الذى تولى رئاسة الوزارة الفرنسية فى ديسمبر ١٨٧٩ ظهر التحول واضحا نحو الرغبة فى التوسع واعتبر أن من مهام وزارته أن تحول أنظارها الى خارج الحدود وأن تبحث أية فتوحات سلمية يمكن أن تقوم بها(٧) •

وبالفعل أقام جوريجبيرى قيادة عسكرية خاصة فى سنة ١٨٨٠ تولاها بورنى ديسبورد (Borgnis Desbordes) وهو ضابط مدفعية مشهور بعنفه ، لم يلتزم ديبورد بالسياسة السليمة السابقة بل أعلن أن الغزو السلمى للنيجر ليس الا خرافة ، ولابد من غزوه عسكريا ، وفى فبراير ١٨٨٣ وصل الى باماكو وأقام فيها حامية عسكرية • وكان الوضع حول باماكو يتمثل فى وجود دولة أحمدو التكولورية فى الشمال ، ودولة سامورى فى الجنوب والشرق ، وفى الغرب فى المنطقة الواقعة بين السنغال وجامبيا كان هناك زعيم دينى جديد هو محمدولامين الذى بدأ عهدا من الفتوحات وبدأ يهاجم المواقع الفرنسية فى باكل (Bakel) وكان الأمر يتطلب من فرنسا اتباع سياسة تستطيع مواجهة هذا الموقف

---

(6) NEWBURY : The development of French Policy in the Lower and Upper Niger, p. 259.

(7) NEWBURY : op. cit., p. 262.

لكن الجمعية الوطنية الفرنسية رفضت تخصيص مزيد من الأموال للحملات العسكرية وعاد دييورد الى فرنسا وتبعه خلفاء أقل منه اندفاعا(٨) •

كان من الواضح أن جوريجبيرى لم يلتزم بالسياسة السلمية لرئيس الوزراء وصديقة فرسينيه وكان يهدف فى الحقيقة الى السيطرة السياسية لا التوسع التجارى أو الاقتصادى ومع ذلك فقد التزم أمامه من الناحية الرسمية بأنه يرغب فى الاشتراك فى الحركة العامة التى تحمل الدول الأوروبية الى قلب أفريقيا لتفتح فيها أسواقا جديدة لتجارتها(٩) •

جاء جايينى (Callieeni) خلفا لدييورد ، وكان بريبردى ليل قد سبق أن أرسله فى ١٨٨٠ فى مهمة الى احمدو لتوقيع معاهدة صداقة وتجارة معه وكان الهدف من هذه المهمة هو اعطاء التكولوريين شعورا زائفا بالأمن مما سهل احتلال وادى السنغال — النيجر •

ومن ثم فان جايينى عندما تولى قيادة منطقة السنغال — النيجر لم يكن جديدا على المنطقة • كان جايينى يتميز بثقافته الواسعة ويختلف كلية عن زملائه من الضباط الفرنسيين فى نظرته للمشكلات المتعلقة بالادارة الاستعمارية ، وكان لا يخالجه أدنى شك فى مسئولية بلاده التى ألزمت بها نفسها فيما أسمته بالمهمة الحضارية (Mission Civilisatrice) وكان لا يؤمن بالاندفاع فى الغزو بل يرى ضرورة أن تؤكد فرنسا وجودها فى أى منطقة اذا ما غزتها • ولهذا اعتبر الحصول على المعلومات مسألة حتمية • وكان يقول ان الضابط الذى يستطيع أن يضع خريطة بشرية (Ethnographic map) للمنطقة التى يتولاها انما يسير بخطى ثابتة نحو اقامة السلام الكامل فيها •

---

(8) HAUET : cit., p. 269.

(9) NEWBURY : French Policy, p. 262.

« Prendre part au mouvement genément général qui de L'Afrique pour y ouvrir de neuveaux debouchés à leur commerce ».

وقد أوصى جابينى خليفته أرشينار (Archinard) بقوله علينا أن ننظر الى هؤلاء الزعماء ويقصد أحمدو زعيم التكولور وساموري — على أنهم قوم يجب أن يختفوا من مسرح الأحداث فى أقرب وقت • وهذا الهدف يتحقق بالخديعة وبالتسلل وليس بالصراع المباشر • وقد نجحت السفرات الدبلوماسية التى أرسلها الى هذين الزعيمين فى اقامة تعايش وفى قبول الحماية الفرنسية • وبينما كان جابينى ينادى بالسلام كان يساعد أعداء أحمد وساموري بتقديم الهدايا من السلاح • واعتبرت سياسته سياسة ثورية لأنه لم يعمل على اقامة العلاقات مع الحكام بل اهتم باقامة الاتصال بالجماهير التى كان يرى أن مصالحها تتفق مع مصالحهم ، والتى هى على استعداد لتفهم هذه النظرة فيما لو أخذت فرنسا على عاقها أن توضح هذا الأمر لهم •

وعندما غادر جابينى السودان فى عام ١٨٨٨ سلم الى من يخلفه مساحة من الأراضى وقد تدعم عليها نفوذ فرنسا • ورغم أنها لم تتضمن فتوحات جديدة كبيرة الا أن الضباط الفرنسيين استطاعوا القيام برحلات كشفية ، ومن أهمها رحلة الكابتن بنجيه (Binger) عام ٨٨ — ١٨٨٩ حيث اكتشف المنطقة الواقعة بين أعالى النيجر ونهر الفولتا •

لكن أرشينار خليفته لم يتبع سياسته بل سار على سياسة ديبورد وكان ضابطا طموحا ، وكان حسن الحظ اذ أن فرنســا فى ذلك الوقت ، ١٨٨١ ، اتخذت سياسة ايجابية نشطة بخلاف تلك التى كانت سائدة فى منتصف الخمسينات • استبعد أرشينار سياسة جابينى التى كانت تقضى بالانتظار حتى تنهار مملكة التكولور بعد موت أحمدو ، وحصل على اذن من باريس فى عام ١٨٩٠ بمهاجمة سيجو (Segu) عاصمة التكولور ثم نيورو (Nioro) المدينة الثانية فى ١٨٩١ • وفى عام ١٨٩٨ هرب أحمدو شرقا مع بعض من أتباعه وتوفى وهو فى طريقه الى سوكوتو Sokoto • اتجه أرشينار بعد ذلك — مخالفا التعليمات الرسمية —

الى مهاجمة ساموري ، الذى كان فى وضع أفضل من أحمدو وكانت لديه قدرة أكبر على الصمود فى وجه الهجوم الفرنسى[١٠] •

وكانت السياسة الفرنسية فى غرب أفريقيا قد أخذت قدرا كبيرا من التدعيم ، فى عام ١٨٨١ عندما قام جامبتا Gambetta بانشاء وزارة جديدة للتجارة والمستعمرات[١١] كما أن احتلال بريطانيا لمصر فى عام ١٨٨٢ كان له أثر عميــق على الاتجاه العام للعــلاقات البريطانية ــ الفرنسية كما أنه سهل اتخاذ سياسات معادية لبريطانيا بصورة أكثــر سفورا ، ولكن هذه السياسات كانت تهدف الى تدعيم مركز فرنســا فى غرب افريقيا وليس طرد بريطانيا من مصر[١٢] •

تميز غزو فرنسا لغرب أفريقيا بالطابع العسكرى أكثر مما تميزت به بريطانيا ، وفى أعالى النيجر بصفة خاصة تميز العسكريون الفرنسيون بحرية العمل كما لاحظنا ذلك فى العرض السابق • واهتم الفرنســيون بمساحة الأرض أكثر من اهتمامهم بنوعيتها • وكما قال (Brunscbwig) فان غزو غرب أفريقيا أتاح فرصا كبيرة للترقية والنياشين للعسكريين ، لكن هؤلاء العسكريين بحكم تكوينهم غير صالحين لمفاوضات السلام[١٣] • كانت فرنسا مقيدة باستراتيجية شاملة تقضى بربط نقاطها الســاحلية بالأراضى التى حصلت عليها فىالسودان وأن تحتل من النيجر القدر الذى يوصلها الى ميناء يتصل بالمنطقة الصالحة للملاحة من نهر النيجر حتى المحيــط •

اما بريطانيا فقد كانت زاهدة فى الحصول على مستعمرات وذلك

(10) HALLET : op. cit., pp. 268 - 270.

(11) NEWBURY : Fresch Policy, p. 268.

(12) NEWBURY : Ibid, pp. 268 - - 271.

(13) BRUNSCHWIC, Henri : Mythes et realités de l'imperialism colonial Francais, 1871 - (Paris, 1960), pp. 163 - 170.

طوال السنوات العشر التالية لمؤتمر برلين (٨٤ — ١٨٨٥) ولم تتبع بريطانيا سياسة ايجابية في أفريقيا الا فى عهد جوزيف تشمبرلين فى عام ١٨٩٥ عندما كان وزيرا للدولة لشئون المستعمرات ، واعتبر الغــزو العسكرى بديلا عن الحصول على معاهدات • والى ما قبيل ذلك الوقت كانت طلبات التدخل المسلح من جانب الاداريين أو التجار البريطانيين تقابل بالرفض • ومع أن تشمبرلين كان على استعداد للموافقة عــلى استخدام القوة الا أنه كان حريصا على أن تكون له اليد العليــا على القادة العسكريين ، فى حين كان العسكريون الفرنسيون عادة يملــــون سياساتهم على حكوماتهم • وبذلك فان المناطق التى طالبت بها بريطانيا هى المناطق التى كان يعمل فيها تجارها بصورة نشطة أو تلك المناطق التى رأوا فيها ربحا فى المستقبل • وبينما كان العلم يسبق التجارة بالنسبة لفرنسا ، فان التجارة كانت تسبق العلم بالنسبة لبريطانيا أو أن العــلم كان يوجه الى حيث ينبغى له ، ونتج عن ذلك أن استولت بريطانيا فى غرب أفريقيا على مساحة أقل ولكنها أكثر غنى[١٤] •

وفيما يتعلق بما أشيع فى الدوائر الفرنسية عن التهديد البريطانى لأعالى النيجر فان المسئولين البريطانين لم يبدوا اهتماما كبيرا به بل أنهم أبــدوا دهشـــة لمـــا قرأوه فى الجريــدة الرســمية الفرنســية (Journal Officiel) عن السياسات الفرنسية ونظروا اليه بحسد من أن الحكومة تستطيع أن تحصل على موافقة برلمانية على هذه المشروعات الطائلة التكاليف • ولكن عندما تحدثت احدى الصحف الفرنسية عن السعى الى أسواق بلاد الهوســا عن طريق السنغال ، رد صــمويل رو (Samuel Rowe) حاكم سيراليون بأنهم سيصلون الى بلاد الهوسا عن طريق لاجوس قبل أن يصل اليها الفرنسيون بأمد بعيد ، الا أنه رأى الخطر الحقيقى فى احتمال أن يعوق استيلاء فرنسا على بعض المناطق

---

(14) CROWDER : West Africa under Colinial Rule, pp. 69 - 70.

القريبة ، قوافل تجارة سيراليون من الوصول الى النيجر أو أن يحد من اتساعها فى المستقبل •

وفى منتصف الثمانينات شهدت منطقة أعالى النيجر سكونا من جانب كل من بريطانيا وفرنسا على السواء ، ففى مارس ١٨٨٥ ترك جول فيرى (Jules Ferry) رئاسة الوزارة الفرنسية عقب هزيمة فرنسا فى الهند الصينية • ولم يكن هناك أحد فى فرنسا يستطيع أن يطلب تخصيص نفقات لحملات عسكرية لهذه المنطقة ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تواجه مقاومة شديدة من الزعماء الوطنيين الافريقيين ، حيث أن استيلاءهم على باماكو فى ١٨٨٣ قد جعلهم وجها لوجه أمام مناضل عنيد فى أعالى النيجر هو ساموری ، زيادة على ذلك فان لجوء القوات الفرنسية الى استخدام السخرة والعمل الاجبارى دون أجر قد أثار عليهم مشاكل داخلية فى فرنسا[١٥] •

لقد سبب ساموری للفرنسيين الكثير من القلق بسبب اتجاهه الى الحاكم البريطانى فى سيراليون عارضا عليه قبول الحماية البريطانية فى مقابل ضمان امداده بالأسلحة النارية • ولما خشى الفرنسيون أن تقع منابع نهر النيجر تحت سيطرة البريطانيين بعثوا بالرسل الى ساموری فى عامى ٨٦ ، ١٨٨٧ وزعموا فى كل مرة أنهم حصلوا على توقيعه على معاهدات بقبول حمايتهم • وبصرف النظر عما دار فى هذه المحادثات فان ساموری بالتأكيد لم يكن ينتوى التفريط فى استقلاله وسيادته ، لكن الحكومة البريطانية أقرت بهذه الاتفاقيات بهذا المفهوم ولم تتدخل عندما قررت فرنسا فى النهاية أن تكسر شوكة هذا الزعيم العنيد •

---

(15) HARGREAVES : op. cit., p. 339.

كان اهتمام بريطانيا فى الحقيقة منصبا على الجزء الأدنى من نهر النيجر ابتداء من بوسا (Boussa) حتى المصب وهى المنطقة الصالحة للملاحة ، والعمل على ابعاد الفرنسيين عن هذا الجزء الهام وبالتالى ابعادهم عن الوصول الى قلب بلاد الهوسا •

ولم يقلل من اهتمام الدولتين بالملاحة فى نهر النيجر النصوص التى أقرتها الدول الأوروبية فى مؤتمر برلين ، والتى تقضى فى المادة ٢٦ من الفصل السابع من اتفاق مؤتمر برلين الموقع فى ٢٦ فبراير ١٨٨٥ بحرية الملاحة فى نهر النيجر بكل فروعه ومخارجه للسفن التجارية لجميع الدول على قدم المساواة فيما يتعلق بنقل البضائع والأشخاص[١٦] • ولا شك أن مرد اهتمام هذه الدول أن النصوص القانونية ليست أكثر من حبر على ورق فى حالة قيام المنازعات الدولية وأن أوضاع القوة الحقيقية والواقعية هى التى تفرض نفسها فى النهاية فى تسوية المنازعات ، كما أن بريطانيا وفرنسا كان كل منهما حريصا على أن يكون الجزء الأدنى من نهر النيجر طريقا للوصول الى الداخل والسيطرة على هذه المناطق الهامة التى تتميز بكثافة سكانية تفوق فى تعدادها مجموع عدد السكان فى غرب أفريقيا كلها وبالتالى أهميتها كسوق تجارية لبضائع هذه الدول •

وبالنسبة للنزاع فى أعالى النيجر وأواسطه فلقد بدا لبعض الوقت فى عام ١٨٩٢ احتمال حل النزاع بين انجلترا وفرنسا على الحدود بين مناطق النفوذ غرب وجنوب أعالى النيجر وأواسطه • واقترحت اللجنة المشكلة لهذا الغرض حلا وسطا بتقسيم المنطقة المتنازع عليها وفقا لخط يبدأ من ساى (Say) على نهر النيجر متجها جنوبا بغرب الى بندوكو (Bonduku) على نهر الفولتا ، فما يقع شمال هذا الخط وغربه يكون لفرنسا وما يقع جنوبا بشرق يكون من نصيب بريطانيا • لكن فرنسا

(16) HERTSLET : The map of Africa by treaty, p. 481.

رفضت الاتفاق وكان لتجدد الخلافات بين الدولتين حول النيل أثره فى اعاقة الاتفاق على النيجر •

وكعادة البريطانيين فى تحقيق أهدافهم من خلال طرف ثالث ، طلبت بريطانيا من ألمانيا فى سنة ١٨٩٣ أن توقف أية محاولات جديدة للفرنسيين بمد مطالبهم شرق بحيرة تشاد ، وقد وافقت بريطانيا فى المعاهدة التى وقعتها مع ألمانيا فى تلك السنة على أن يمتد ظهير الكميرون الألمانى شمالا الى بحيرة تشاد ، كما يتضمن أن تشمل منطقة النفـــوذ الألمانية كل حوض نهر شارى الممتد من بحيرة تشاد شرقا حتى الحدود الغربية للسودان المصرى • وكان هدف البريطانيين من اطلاق يد الألمان فى هذه المناطق الشاسعة من وسط غرب أفريقيا منع الفرنســيين من الوصول الى أعالى النيل من أعــالى النيجر والكنغــو • وقد احتـــج الفرنسيون بأن هذا الاتفاق يقضى بقيام مناطق نفوذ بريطانية وألمانية شاسعة تحول بين القواعد الفرنسية فى الجزائر والســنغال وأعالى النيجر وقواعدها فى الكنغو • كما أن هذا الاتفاق سيقضى على آمال الفرنسيين فى ربط محمياتهم فى غرب أفريقيا بمحمياتهم على ساحل البحر الأحمر •

أصبحت المناوشات على الحدود الشــمالية من منطقة النفــوذ البريطانية على النيجر جزءا من النزاع الأكبر حول أعالى النيــل • ومن ثم فان المطالب التجارية لشركة النيجر (Niger Company) البريطانية خدمت بصورة غير مباشرة المصالح العليا لبريطانيا والمتعلقة بأمن مصر • لكن فرنسا قلبت سريعا خطط بريطانيا باتفاقها (فرنسا) مع ألمانيا فى مارس ١٨٩٤ عندما قبل الألمان تسليم منطقة نفوذهم فى الكميرون بالتالى الى فرنسا ، وبذلك فتحوا الطريق مرة أخرى الى أعالى النيل • ولقد كان من العلامات على ضعف اهتمام بريطانيا نســبيا بغرب أفريقيا أن وزارة الخارجية البريطانية كان عليها فى سنة ١٨٩٣ أن تعتمــد على

اثارة ألمانيا للتحرك ، تماما كما اعتمدت على تحريك البرتغال فى مسألة الكنغو قبل ذلك بعشرة أعوام[١٧] .

أخذت الصراعات بين انجلترا وفرنسا فى غرب أفريقيا تزداد حدة فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ولم تفلح الاتفاقيتان المعقودتان بين الدولتين فى ١٠ أغسطس ١٨٨٩ ، ٢٦ يونية ١٨٩٢ فى استمرار الوفاق بين الدولتين ، ويقول الفرنسيون أنه بالرغم من الاتفاق بينهما على تخطيط الحدود على الورق الا أن المندوبين البريطنيين كانوا يثيرون فى مجال التنفيذ الواقعى الكثير من العقبات . وأصبحت الخلافات بين قوات الدولتين فى أفريقيا متوقعة والمصادمات محتملة ، وقد وقعت احدى هذه المصادمات بالفعل بين قوات الدولتين قرب وائيما (Waima) فى ٢٣ ديسمبر ١٨٩٣ عندما أطلقت قوة فرنسية بقيادة الملازم مارتيز (Maritz) النار على قوة انجليزية كانت تظن أنها تابعة لساموري ، وعندما تدارك الطرفان الخطأ كان اثنى عشر فردا من كلا الجانبين قد لقى حتفه وكان من بينهم الملازم الفرنسى مارتيز والكابتن الانجليزى لندى (Lendy) . وبعد ذلك بثلاثة شهور تكرر وقوع حادث مماثل فى المنطقة نفسها فى سامو (Samoh) . ولم تؤثر مثل هذه الحوادث على العلاقات بين البلدين ، واعتبرت من الأمور التى لا يمكن تفادى وقوعها فى مثل هذه المناطق المجهولة[١٨] .

وحتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر حققت الحملات العسكرية والمفاوضات والبعثات الفرنسية الى السودان الغربى ـ بصرف النظر عن الصراع بينها وبين انجلترا ـ عدة نتائج من وجهة نظر فرنسا تتمثل فى تمكنها من القضاء على دولة التكولور ودولة ساموري ، والاتصال المباشر بالشعوب التى كانت خاضعة لهاتين الدولتين ، وزيادة

---

(17) RCBINSON : Africa and the Victorians, pp. 391 - 392.

(18) DARCY : France et Angleterre, p. 276.

مساحة السودان الفرنسى بحوالى ٦٥٪ من مساحه فى خلال السنوات الثلاث من ٩٠ — ١٨٩٣ ، وفرض الحماية الفرنسية على دولة تيبا (Tieba) وفوتا جالون وكونج والموسى ، وربط السنغال والانهار الجنوبية والسودان بساحل غينيا ، وتقليص حجم مستعمرتى جامبيا وسيراليون الانجليزيتين وغينيا البرتغالية وتوجو الالمانية وجمهورية ليبيريا بحيث أصبحت هذه جميعا دولا ساحلية دون أن تكون لها مطالب متعلقة بالظهير القارى (Hinterland) [١٩] •

والواقع أن كلا من فرنسا وبريطانيا كان يجمعها اعتقاد مشترك فى شرعية الغزو العسكرى تحت دعاوى مختلفة ، لكن الواقع يؤكد أنهم فرضوا نظم حكم أشد قسوة من نظم الحكم الوطنية وأدى الغزو الى ازهاق الكثير من الأرواح • وقد قوبل الغزو بمقاومة من القوى الوطنية والدويلات القائمة فى ذلك الوقت خاصة تلك التى يحكمها زعماء مسلمون والذين اعتبروا فرصة حكم البعض فى نظرهم معناه الخضوع لغير المؤمن وهو أمر غير مقبول ، وهذا يفسر شراسة المقاومة التى واجهت فرنسا فى تلك المنطقة[٢٠] • وهى مقاومة لها وزنها واعتبارها فى مواجهة الأسلحة الحديثة وعدم التكافؤ بين الطرفين وان كان القواد الفرنسيون يميلون دائما الى المبالغة فى حجم القوات الافريقية التى يواجهونها حتى يكون لهم التقدير لدى السلطات فى باريس وليكون ذلك طريقا لهم الى الترقى[٢١] •

كان فى مقدور الدويلات الافريقية أن تكون أكثر فاعلية فى مواجهة الغزو الفرنسى ، ولكن عوامل الخوف والشك والمنافسة كانت تسيطر على

---

(19) ARCHINARD : Le Sénégal et le Soudan Français, p. 233.

(20) CROWDER : op. cit., pp. 71 - 72.

(21) UKPABI : Wost Africa and Europe in military confrontation, p. 106.

العلاقات بين هذه الدويلات بعضها والبعض الآخر وتداركت فى وقت متأخر الخطر المشترك الذى يهددها وسعت الى تجميع قواها لمواجهة الغزو الأجنبى •

ومن الأمثلة على ذلك العلاقات بين ساموري ثوري وتيبا ، وكانت علاقات سيئة بسبب اختلاف أطماع كل منهما وقد أدى هذا الاختلاف الى مواجهات عسكرية ، اذ قام ساموري بحملة ضد سيكاسو عاصمة دولة تيبا استمرت عدة شهور وخسر فيها الطرفان خسائر ضخمة فى الأرواح وفشل الحصار وعاد ساموري أدراجه •

وعمل حكام التكولور على ازالة الخلافات بين ساموري وتيبا وأدخلوهما فى تحالف معهم وكان هذا التحالف قائما على أساس الاعتراف المتبادل باستقلال كل منهم وسيادته على أرضه ، واقتصر التحالف على التضامن في وجه الغزو الفرنسى لبلادهم • وتعد سياسة حسن الجوار التى قامت بينهم بعد التحالف دليلاً على امكان التعاون بين هذه الممالك الاسلامية برغم اختلاف انتماءات هذه الدويلات من حيث الطوائف الدينية •

وقد ساهم المغاربة بتقديم خدماتهم الى هذه الدويلات ، وكانت خدمات كبيرة تتناسب مع مهنة التجارة التى يحترفونها فى مختلف أنحاء غرب أفريقيا ، وكان الفرنسيون يخشون نفوذهم كمندوبين سياسيين لكل من التكولور وساموري • وقد ذكر أرشينار أحد القواد الفرنسيين أسمى اثنين منهم ممن كانت لهم مكانة عند كل من أحمدو زعيم التكولور وساموري وكان كلاهما من كبار التجار فى السودان الغربى وقد أتاح لها ذلك معرفة واسعة بأحوال المنطقة • وقد تظاهروا بالود للفرنسيين وأبدوا عدم اهتمام أو اكتراث بشئون السياسة مما جعل بعض الفرنسيين يعتبرونهم أصدقاء لهم ولم يكتشفوا حقيقتهم الا مؤخرا •

فوجيء الفرنسيون كذلك بتحول زعيم كان من أصدقائهم هو تيبا حاكم كندوجو (Kénédougou) وكان معروفا بعدائه لكل من ساموري وأحمدو • كما أن حركات المعارضة لامبراطورية التكولور التي كانت تغذيها فرنسا اكتشفت أنهم وامبراطورية التكولور نفسها كانوا ضحية لغدر فرنسا وهذا ما أدى الى خلق نوع من المصالح المشتركة بين التكولور والعناصر المناوئة لهم ، وكان دافعهم للتعاون دافعا مشتركا وهو المحافظة على كيانهم الخاص وشخصيتهم الثقافية وهو ما كان يحركهم فى الماضى ضد التكولور •

من جهة أخرى فان تعاون هذه العناصر مع التكولور لم يكن يعنى قبولهم للاسلام أو الاعتراف بشرعية سلطة التكولور عليهم ، والتغيير بالنسبة لهم فى الاستراتيجية لكن الهدف لم يتغير(٢٢) •

وبالنسبة للتكولور فان أهدافهم مختلفة عن أهداف هذه العناصر ، وبالتالى فان التعاون بينهما لم يتوقع له أن يستمر الا كما يستمر التهديد الفرنسي لكل منهما •

انضم تيبا للتحالف عندما اكتشف أن الفرنسيين يستخدمونه كأداة لتدعيم نفوذهم الاستعماري فى السودان الغربى ، ولانقاذ دولته سارع الي الاستجابة لجهود التكولور للتوفيق بينه وبين ساموري وكان ساموري أيضا راغبا في الوصول الي تسوية حتى يتفرغ لمواجهة التهديد الفرنسي لدولته • وهكذا تدعمت المصالحة بينهما بفضل التهديد الفرنسي والدبلوماسية الذكية التي استخدمها أحمدو حاكم التكولور • وقام التحالف أيضا بين ساموري ودولة فوتاجالون ضد فرنسا كرد فعل للتوسع الاستعماري الفرنسي • فمنذ عام ١٨٧٩ تعرض ساموري لضغط شديد من الفرنسيين كما أن اقامة المواقع الفرنسية في الأنهار

---

(22) OLORUNTIMEHIN : Anti - French coalition of African states and groups in the bestern Sudan, p. 9.

الجنوبية ـ شمال دولة غينيا حاليا ـ ونشاطهم على حدود فوتاجالون نفسها جعلها تحس بعدم الأمان • وكان ساموري قد وسع حدود دولته فى ذلك الوقت لتصل الى حدود فوتاجالون وقد تبين له هو وامام فوتاجالون أن لهما قضية مشتركة ضد الفرنسيين ومن ثم فان الزعيمين أقاما منذ ٧٩ ـ ١٨٩٣ علاقات ودية بينهما وتعاونا ضد الفرنسيين •

فى الفترة السبقة لعام ١٨٨٩ كانت العلاقات بين التكولور وساموري وتيبا قائمة على أساس حسن الجوار ، وأدى التفاهم القائم بينهم الى أن يكونوا حلفاء أقوياء بالرغم من مكائد المسئولين الفرنسيين وقد نجح الفرنسيون فى الماضى فى تقديم أنفسهم على أنهم حماة تيبا ضد ساموري بل وحاولوا تدبير العداوات بين تيبا والتكولور حتى يتمكنوا من استغلال الموقف لمصلحتهم • ولم تفلح الجهود التى بذلها الفرنسيون فى ٨٨ ، ١٨٨٩ للوقيعة بين التكولور وتيبا • وهذه النقطة جديرة بالملاحظة اذ أن التكولور استطاعوا أن يفوتوا على الفرنسيين تدبيرهم ومكائدهم واستطاعوا أن يحافظوا على النوايا الطيبة بينهم وبين تيبا وهذا ما جعلهم فى موقف يسمح لهم باستخدام مساعيهم الحميدة فى التوفيق بين تيبا وساموري وأن يدخلوا كليهما فى التحالف ضد فرنسا[٢٣] •

واصل الفرنسيون محاولاتهم لتدمير دولة التكولور بوقف امدادات السلاح عنها وتدمير نظامها الدفاعى ؛ وفى عام ١٨٨٩ دمروا كونديان وكان الهدف من وراء ذلك افساد العلاقات بين ساموري والتكولور • أملى هذا على التكولور أن يدركوا أكثر من أى وقت مضى الحاجة الملحة لضرورة التعاون مع التحالفات القائمة ضد الفرنسيين • ولتحقيق هذا الهدف أرسل أحمدو الرسل الى ساموري وامام فوتاجالون وعدد آخر من زعماء المنطقة[٢٤] •

---

(23) OLORUNTMHIN : op. cit., p. 13.
(24) OLORUNTIMEHIN : op. cit., p. 14.

وأدى تجدد الهجوم الفرنسى ضد ساموري والدول الواقعة فى سنجامبيا الى التعجيل بمحاولة اقامة جماعة متآلفة من بين العناصر العديدة المعادية لفرنسا • وجاء الهجوم الفرنسى عقب فشل المناورات الدبلوماسية التى قامت بها فرنسا فى فبراير ومارس ١٨٨٩ بهدف تحييده حتى تطلق يدهم فى تدمير دولة التكولور •

وتعاونت كل الجماعات فى تنفيذ مخطط محاربة الفرنسيين • ومع بداية عام ١٨٩٠ كانت الجماعة المعادية لفرنسا تضم التكولور وفوتاجالون وفوتاتورو وريب والجولوف وساموري • جمعت كل هذه القوى حشدا كبيرا من القوات يقدر بعشرة آلاف رجل ، لكن التأييد الذى كانت فرنسا تجده بين حلفائها الافريقيين جعل المهمة صعبة وهذا ما حدا بأحمدو أن يحاول عزل هؤلاء الافريقيين عن فرنسا • ولهذا أرسل أحمدو رسلا الى تيبا حاكم كندوجو للتوفيق بينه وبين ساموري، وفى نفس الوقت بعث أحمدو برسل آخرين الى كانكان لمصالحة العناصر المناوئة لساموري معه •

ولكن رغم نجاح التآلف فى كسب المزيد من الأنصار لقضيته ظل الموقف دقيقا وخطيرا اذ أن تيبا والبمبرة والعناصر المعادية للتكولور استمروا فى تعاونهم مع الفرنسيين الذين يعتبرونهم أصحاب الفضل فى الحفاظ على استقلالهم ضد ساموري والتكولور • واستمر هؤلاء فى التعاون مع الفرنسين حتى عام ١٨٩١، وفى نفس الوقت وسع الفرنسيون حملاتهم ضد التكولور فى كارتا وضد ساموري وتعاملوا بوحشية مع قوات الاتحاد ومؤيديه وأعدموا كل من ثبت لديهم قيامه بأعمال لصالح هذا الاتحاد • وكانوا يشكون فى كل مسلم ويعتبرونه مملوءا بالتعصب ولم يسلم من هذا الاتهام مترجمهم ذاته ، وكان هذا الموقف المتطرف يهدف الى التخويف واجبار الجميع على الخضوع والاستسلام •

كان الفرنسيون يخشون كذلك ــ كما سبقت الاشارة ــ المغاربة

الذين انضم بعضهم « لأجهزة المخابرات » التابعة للزعماء الافريقيين فى حين اشترك البعض الآخر فى الحملات العسكرية ضد الفرنسيين • ومنذ تبين للفرنسين حقيقة موقف المغاربة فى قيامهم بهذا الدور المزدوج أصبح القواد الفرنسيون يعاملونهم بوحشية وقسوة على أنهم جواسيس• وقد أبدى أرشينار أسفه لعدم القيام بحملات عسكرية انتقامية ضد المغاربة لأنه يصعب تتبعهم فى الصحراء ولكن يمكن ضربهم عن طريق وقف تجارة الرقيق فى السودان الغربى والتى تعتبر مادة أساسية فى معاملاتهم التجارية • وهو سلاح مشهور يستخدمونه فقط ضد أعدائهم لأنه يضر بالطرفين على سواء • لذلك اعتبر الفرنسيون أن أفضل سلاح ضد المغاربة هو تجريد الحملات العسكرية ضد قوى الاتحاد التى يحاربون معها[٢٥] •

وبالرغم من جهود قوى التحالف الا أن الفرنسين وحلفاءهم كانوا يحرزون انتصارات عليهم • وعندما استولى الفرنسيون على كارتا وسيجو توقع البمبرة أن يعيدوا اليهم هذه الأرض بعد تحريرها ، وكان البمبرة يتعاونون مع الفرنسيين على هذا الأمل لكن الفرنسيين صدوهم بطريقة جافة مما جعلهم يتبينون أن الفرنسيين قد استخدموهم لمصلحتهم الخاصة — وبذا أدركوا أن الفرنسيين أسوأ من أعدائهم من الافريقيين لذلك انضموا الى قوى الاتحاد ضد فرنسا وظلوا يحاربونها حتى سقوط دولة التكولور •

وقد مر بالتجربة نفسها تيبا حاكم كندوجو الذى كان قد تعاون مع الفرنسيين من أجل تدعيم مركزه فى مواجهة سامورى ، وفى تعاونه هذا كان يدعم عن غير قصد المشروعات الاستعمارية الفرنسية فى السودان الغربى • لذلك استجاب تيبا للمحاولات الديبلوماسية للتكولور التى بدأت فى ١٨٩٠ وانتهت بالمصالحة مع سامورى الذى أوقف بالتالى

---

(25) OLORUNTiiMEHIN : op. cit., p. 17.

حملاته ضد كندوجو • وقد جمع الزعيمان قواهما فى محاربة الفرنسيين واستمر تيبا على ذلك حتى توفى عام ١٨٩٣ — وبانضمامه للتحالف كانت كل القوى الافريقية داخلة فى الاتحاد •

واجه الاتحاد محنة قاسية بسقوط امبراطورية التكولور ووفاة تيبا فى ١٨٩٣ ، واستمر ساموری فى حروبه ضد الفرنسيين حتى عام ١٨٩٨ وكان يساعده بابمبا (Babemba) شقيق تيبا واستمر التعاون بينهما الى النهاية التى كانت فى عام ١٨٩٨ وبسقوط ساموری التهمت فرنسا كل العناصر الباقية سواء داخل الاتحاد أو خارجه[٢٦] •

كان بين الصعوبات التى واجهها الاتحاد عدم الانسجام السياسى والاقتصادى الذى يفرق بين شعوب السودان الغربى وعدم تناسق الأهداف الخاصة بكل جماعة • كان الاتحاد قائما على أساس خليط من الرغبة فى الأستقلال ومعاداة الاستعمار والمحافظة على المصالح التجارية والتضامن القبلى والدينى • وليس من السهل ايجاد الوفاق بين هذه الفئات المختلفة فى الاتحاد • وبالنسبة لمعظم المنظمين للاتحاد كان الاعتبار الأول ، الحاجة للمحافظة على استقلالهم ليس ضد العدو المشترك فحسب بل ضد كل منهم الآخر • وحتى هذا الهدف لم يمكن تحقيقه بسبب تساقط الأقاليم المختلفة فى مواجهة الغزو الفرنسى • ويرجع الفضل فى نجاح الفرنسين الى استغلالهم الماهر للخلافات بين عناصر لاتحاد ، ولكن يأتى فى مقدمة الأسباب بطبيعة الحال تفوق السلاح الفرنسى •

---

(26) OLORUNTIMEHIN : op. cit., p. 26.

المراجـــع

1. ARCHINARD, Colonel L. : Le sénégal et le Soudan Français (Alfred Rambaud (ed.) : La France Coloniale), Armand Colin (Paris, 1893).

2. Crowder, Michael : West Africa under colonial rule, Hutchinson (Lonon, 1968).

3. Darcy, Jean : France et Angleterre, cent années de Rivalité colonial, Perrin (Paris, 1904).

4. HALLET, Robin : Africa since 1873, Vol. II, Heinemann Educational Books, (Ibadan, 1975).

5. HARGREAVES, John D. : Prelude to the partition of West Africa, Macmillan (London, 1966).

6. HERTSIET, E. : The map of Africa by treaty, Vol. 11, Frank Cass. (London, 1969).

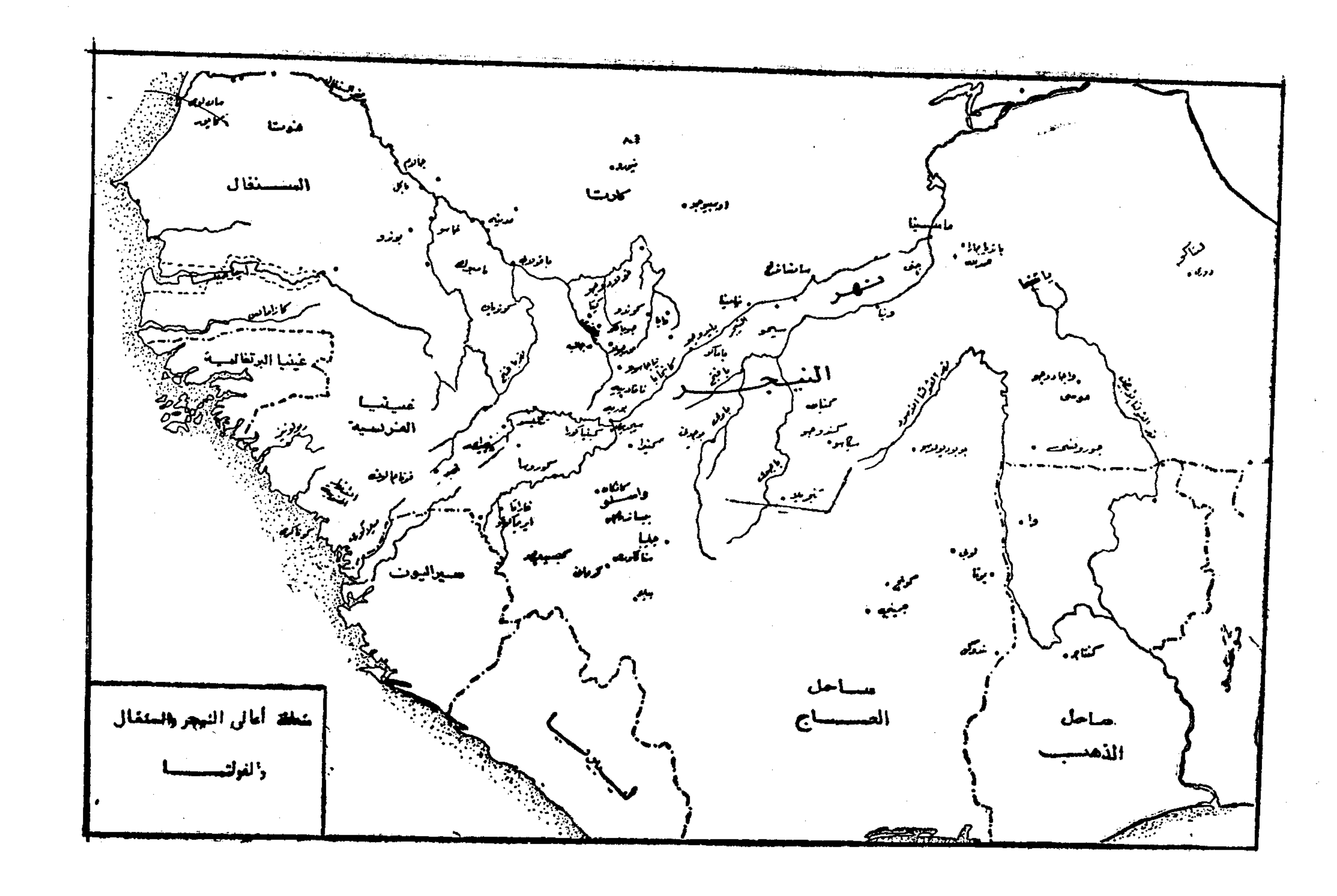
7. NEWBURY, C. W. : The develompent of French Policy on the Lower and Upper Niger, 1880 - 1898, The Journal of Modern History (Chicago), Vol. XXXI, March - December 1959.

8. NEWBURY, C.W. & KANYA - FORSTNER, A.S. : French Policy and the origins of the soramble for West Africa, Journal of African History (London), X, 2 (1969).

9. OLORUNTIMEHIN, Olatunji : Anti - Frenc - n coalition of African states and groups in the Western Sudan, Jounal of West African Studies, University of Ife (Nigeria) New Series, No. 3, April 1970.

10. ROBINSON, R. & Others : Africa and the Victorians, the official mind of imperialism, Papermac (London, 1970).

11. UKPABI, S.C. : West Africa and Europe in military confrontation, Journal of the Historical Society of Nigeria (Ibadan). Vol. VI, No. 1, December 1971.


خريطة أعالي النيجر والسنغال والفولتا
فوتا
السنغال
كاورتا
غينيا البرتغالية
غينيا الفرنسية
نهر
النيجر
سيراليون
ساحل العاج
ساحل الذهب

الدلالات التاريخية
لأسماء المحــلات العمرانية
مع التطبيق على محافظة القليوبية

الدكتور أحمد محمد عبد الله حميد
كلية الآداب ببنها

مقـــــدمة :

موضوع أسماء المحلات العمرانية (Toponymy) من الموضوعات الجغرافية البكر ، التى تحتاج الى توجيه الجهود لدراستها • ومن ثم ، فالبحث الحالى مجرد القاء الضوء على دلالات اسماء بعض المحــلات العمرانية المصرية ، بغية اعطاء صورة اجمالية عن الهيكل العام لدلالات تلك الأسماء • أما الدراسة التفصيلية فمن الصعب الالمام بها هنا ، لأن احدى غايات هذا العمل هى : تقديم وتوضيح بعض النقاط التى يمكن أن تكون عناصر لموضوعات يتناولها الباحثون فيما بعد فى دراساتهم بصورة أعمق •

لذا ستقتصر الدراسة فى البحث الحالى على :

دلالات أسماء المحلات العمرانية فى محافظة القليوبية :

ودراسة أسماء الأماكن فى مصر — وهى أساسا مسئولية الجغرافى بالتعاون مع المؤرخ ، فضلا عن اللغويين — لم تتقدم بعد كثيرا ، على نحو ما فعلت مثيلاتها فى غرب أوروبا ، خاصة بريطانيا وفرنسا ، حيث طفرت الى علم كامل قائم بذاته ، بالغ النشاط والحيوية • وما زلنا نفتقد

خريطة كاملة تفصيلية لجميع أسماء الأماكن محققة فى مصر ، توزع مصنفة بحسب اصولها التاريخية سواء فرعونية أو كلاسيكية أو قبطية ، أو عربية • (٣٣ : ٢١٧ — ٢١٩) •

وأسماء المحلات العمرانية ذات أهمية خاصة فى دراسة أصول التوزيع وانتشاره ، وكذلك فى دراسة ملامح المحلات العمرانية القديمة ، والصفات المميزة لها • ولكن يجب الحذر ، لكثرة اختلاط الأسماء ومسخها (٢٢ : ٣٥٨) • وفى أسماء الأماكن مثلا ، من القواعد العامة انها محافظة بطبعها ، غائرة الجذور فى التاريخ القديم ، ولا تقتلع بسهولة وان تحولت بالتحريف (١٩ : ٤٧٥) •

ولا تكاد توجد فى العالم محلات عمرانية ، ظفرت بتعاقب جملة من الأسماء عليها قديما وحديثا — كما يرى فى المحلات العمرانية المصرية • وذلك بسبب ظاهر ، وهو توالى الفتوح والاستعمار على مصر ، ومحاولة كل مستعمر ، وخصوصا : اليونان والرومان ، اطفاء الجذوة الوطنية ، والنعرة القومية ، فى مصر ، التى كانت تفاخرهم : بآثارها ، وحكمتها ، وتاريخها • فحاول اليونان والرومان طمس المعالم المصرية ، وتضييع معالم أسماء المحلات العمرانية المصرية ، وخلق أسماء جديدة ، فيها رطانة يونانية ورومانية ، لعل مصر تنسى على مر الزمن : أسماء مدنها ومجد تاريخها •

ومن أسباب التحريف فى أسماء المحلات المصرية ، ذلك الخطأ الظاهر بسبب سوء النقل وعدم العناية فى كتابة النبرات ، وتحويلها فى الأسماء العربية الى حروف ، ثم وضع النقط الفوقية أو التحتية بدل بعضها ، كما يتبين عند مقارنة أسماء القرية الواحدة بعضها على بعض • ويكتب العرب أسماء الاعلام المعروفة لهم دون نقط ، أو لعلهم ينسون كتابتها ، أو يغيرون مواضعها (٢٣ : ١٥٣) •

ولكن على الرغم من هذا ، فان الأسماء المصرية عادت الى الظهور ، وان كان قد أصابها بعض التحريف أو المسخ أو التحويل أو الترجمة ، ولكن هناك وسائل لتصحيحها واعادتها الى أصولها ، لأن هذه الأسماء بالغة العراقة فى القدم •

وتعد معاجم البلدان لكى تمد القارىء بما يمكن أن يسمى : المفاتيح العملية للبلدان ، واستعمال أسـمائها للتعرف على مواقـع البلدان ، ومعالمها ، وأنشطتها وآثارها • والمعاجم مفيدة بيد أنها غالبا ما تتباين فى طريقة التنظيم أو الترتيب أو تكون قاصرة عن تقـديم المعلومات المطلوبة •

وللوصول الى حقائق دلالات أسماء المحلات وأدق الفاصيل ، فقد رجع الباحث الى العديد من المصادر والمراجع القديمة والحديثة ، على نحو ما هو مبين فى نهاية البحث •

وسيقتصر البحث على :

الدلالات التاريخية لأسماء المحلات العمرانية :

بدراسة ترتيب ظهور المحلات العمرانية بمحافظة القليوبية ، حسب ورودها فى المراجع العلمية يمكن تفسير الدلالات التاريخية لأسـماء المحلات العمرانية ، وفقا للمراحل التاريخية الأربع التالية :

* المحلات العمرانية القديمة : أى التى ترجع الى العهد الفرعونى وما قبل الفتح الاسـلامى •

* المحلات العربية : ويقصد بها المحلات التى ترجع الى عصـر الولاة العرب وحتى نهاية الدولة الفاطمية •

* المحلات من عهد الايوبيين الى الحملة الفرنسية : وهى المحلات التى ترجع الى عهد الدول : الايوبية ــ المملوكية ــ العثمانية ــ وحتى الحملة الفرنسية •



المحلات العمرانية الحالية شكل رقم (١)
محافظة القليوبية

* المحلات العمرانية الحديثة : وهى المستجدة منذ عصر محمد على وحتى الوقت الحاضر •

(أ) المحلات العمرانية القديمة :

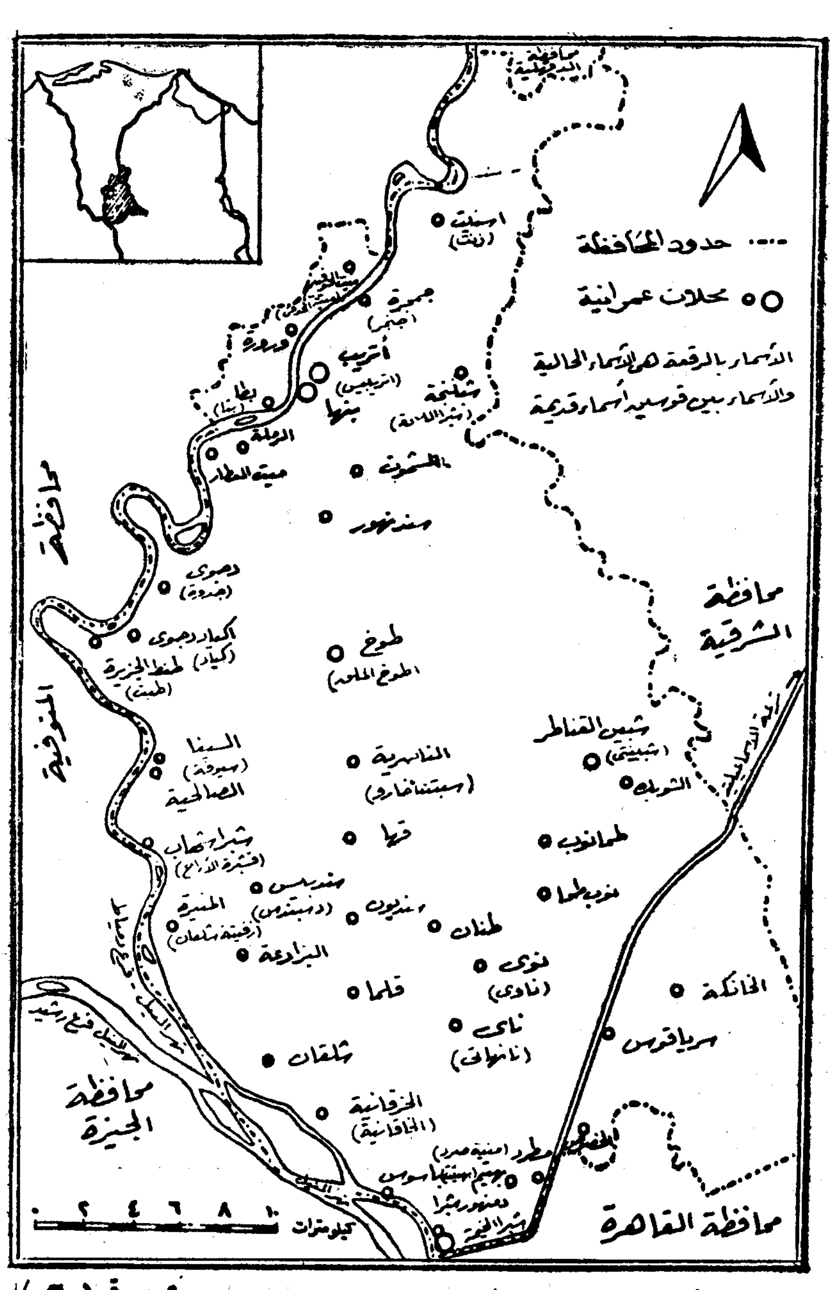
بالرجوع الى الشكل رقم (٢) واستعراض أسماء المحلات العمرانية فى محافظة القليوبية : منذ بدء ظهورها فى العصر الفرعونى ، وعلى العهدين اليونانى والرومانى حتى بداية الفتح العربى لمصر ، يشاهد أن كثيرا من تلك المحلات القديمة لا تزال تحتفظ : بمواقعها ، وأسمائها ، ومنهـــا :

١ ـــ **أتريب :** يقول جوتييه (٣١ ، جـ ٦ : ٥٨) ان اسمها المصرى المدنى :(Hat - hir - Abt) ومعناها (قصر اقليم الوسط) ، واسمها الدينى (Ka-Kim) ، أى (مدينة الثور الأسود) وهو معبود أهلهـــا ، واسمها اليونانى (Athribis) والاشورى (Hatterib) والقبطى (Atrebi) ومنه اسمها العربى (أتريب) •

ويصف متن مصرى مدينة أتريب بأنها : « أهم المدن فى وســـط الدلتا ، على الفرع الأوسط للنيل ، وهى المركز الرئيسى الذى يؤدى الى البلاد الأجنبية (١٨ : ٣١) • وكان لأتريب شأن عظيم فى الاسرة الثامنة عشرة (١٩ ، جـ١ : ٤٦٤) •

وكغيرها من المحلات العمرانية المصرية ، تعرضت (أتريب) خلال بعض فترات الاحتلال الأجنبى الى تغيير اسمها ، فقد أصبح (ليميـــر اشاك آشور) عندما عين عليها (نابو شزيانى) بن « نخـــاو » من قبل « آشور بنيبال » ، (١٩ ، جـ ٦ : ٥٥٦) ولكن عندما تخلصت مصر من الاستعمار الاشورى كان قد عاد الى أتريب اسمها المصرى •

وكانت أتريب قاعدة للقسم العاشر من الوجه البحرى فى عهـــد الفراعنة (١٨ : ٣١) ، وكانت قاعدة ابرشية حتى القرن الثامن الميلادى•



شكل رقم (٣)

المحلات العمرانية القديمة
بمحافظة القليوبية

وقد بدأ خراب مساكنها من القرن السابع ، ويعرف محلها اليوم باسم (تل اتريب) ، وأحواض : (اتريب الشرقى رقم ١٥ ، والبحرى رقم ١٦، والغربى رقم ١٧) بشمالى زمام مدينة بنها (٢٧ : ١٨) واستنزفت مكونات تل اتريب ، وقامت على أرضه المساكن والمنشآت الحديثة •

ولاحياء اسم اتريب أطلق اسمها على موضعين : نصف اتريب ، وكانت عزبة من توابع ريف مدينة بنها ، وهى اليوم ضمن زمام شياخة بنها الجديدة ، اما نصف أتريب الآخر فهو عزبة أخرى هى اليوم جزء من مبانى قرية (كفر مويس) •

وأتريب هذه ، غير اتريب المندرسة ، من الأخميمية (٢٦ : ١١) ، وكانت تسمى باليونانية أيضا (Athribis)ومحلها اليوم آثار (أدريبة) ، بمحاجر الجبل الغربى ، بأراضى ناحية ونينة ، جنوب غربى سوهاج بنحو ستة كيلو مترات •

٢ — **بنهـا** : بنها وأتريب اسمان لمحلتين قديمتين متجاورتين فى الموضع • فبنها من القرى القديمة ، ذكرها جوتييه فى قاموسه ، فقال ان اسمها المصرى (Per - Neha) والقبطى (Banaho) ومنها اسمها العربى (بنهـا) •

واسم بنها المصرى (بنها) بالكسر ، ويتكون من مقطعين : (بى) ومعناها : بيت أو حظيرة ، و(نهـا) ، ومعناها شجر الجميز ، وكان له شأن يذكر عند قدماء المصريين ، فكانوا يصنعون منه التوابيت والأثاث والتماثيل • ويحتمل أن تكون (بى) أداة التعريف ، و(نها) جميزة ، فيكون معنى بنها : الجميزة ولها مثيل وهى الجميزة التى بمركز السنطة (٢٧ : ٢٠ — ٢٣) من محافظة الغربية •

وقد تضمنت هدية المقوقس الى النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) عسلا من عسل بنها ، وأعجب به الرسول صلى الله عليه وسلم فدعا فى

عسل بفها بالبركة (٥ : ٤٨ ـ ٥٢) ، ويقول ياقوت ان اسمها (بنها العسل) ، (١٢ : ٥٠١) • ويقول صاحب مراصد الاطلاع (٦ : ٢٢٦) ، بنها : من قرى مصر ، والناس اليوم (على عهد صاحب المراصد المتوفى سنة ٧٣٩هـ ـ ١٣٣٨م) يفتحون أولها ، منها أجود عسل مصر • ولا يزال العامة لليوم ينطقونها بالفتح •

وعندما ترجم العرب أسماء بعض المحلات العمرانية المصرية الى اللغة العربية ، كانوا يضيفون الى الاسم المصرى القديم ترجمته العربية، ومدينة بنها ترجمتها بالعربية : العسل ، فعرفت باسم بنها العسل (٢٨ : ٣٤٠) ، ويذكر على مبارك (١٠ ، جـ ٩ : ٨٨) أن بنها بلدة عامرة من قبل الاسلام •

٣ ـ شبرا الخيمة : اسمها الأصلى وهو المصرى القديم (شبرو)• ويرى محمد رمزى أن (شبرو) محرفة عن (جبرو) وهى كلمة قبطية معناها : الكوم أو التل (٢٧ : ١٣) ذكرها اميلينو فى جغرافيته باسم (Shoubra Rahimeh) وقال ان اسمها العربى هو : شبرا رحمة ، والقبطى (Prohibo) •

ذكرها ابن حوقل (٣ : ١٣٣) باسم (شبروألاو) ، قال : كثيرة الأهل ، غزيرة السكان ، بها : حمام ، وجامع ، وقاض ، وعامل ، ولها كورة جليلة • وفى باب (شبرا) يذكر ياقوت فى مشتركه (١١ : ٢٦٧ ـ ٢٦٨) أن شبرا ٥٣ موضعا ، جميعها من قرى مصر ، وانه لا يعلم أن هناك قرى سميت بهذا الاسم خارج مصر ، مما يوحى بأن الكلمة ذات أصل مصرى قديم ، يقال انها تعنى المزرعة (٢١ : ١٥) •

٤ ـ طوخ : من القرى القديمة ، وردت فى قوانين ابن مماتى ، وفى مشترك ياقوت وفى التحفة (١ : ١٢) طوخ مجول ، لقربها من قربة مجول ولتمييزها من مسمياتها المتعددة • ويشير ياقوت فى المشترك (١١ : ٢٩٦) الى أن طوخ أربعة عشر موضعا ، وجميعها من أعمال مصر•

وطوخ ، اسمها المصرى القديم ومعناه : الملقة (الملقة والملق ما اتسع من الأرض) وكان يطلق عليها (طوخ الملق) أى باضافة الترجمة المعربية للى الاسم (٢٧ : ٣٤٠) ، ولما اختيرت حاضرة لمركز طوخ سنة (١٨٩٦) اشتهرت وانفردت باسم طوخ بين سمياتها بغير مميز .

٥ ـ **شبين القناطر** : قرية قديمة ، ذكرها اميلينو فى جغرافيته باسم (Schebenti) مع أسماء : أتريب وناتهاتى (ناى الحالية) وناوى (نوى الحالية) وابليل (تل بليم بحيرة المنزلة) أوردها ياقوت فى مشتركه باسم : شبيين : من قرى الحوف بمصر (١٦٠ : ٢٧٦) ولأجل تمييزها من شبيين التى فى المنوفية وردت فى قوانين ابن مماتى وفى تحفة الارشاد باسم شبيين القصر من أعمال الشرقية (٣٧ : ٣٥) ووردت فى التحفة السنية (١ : ١١) باسم شبين القصر (باسقاط الياء التى بعد الشين) ولكنها فى الانتصار شبيين (بيائين) (٤ ، جـ ٥ : ٤٩) .

ويذكر ابن اياس (٣٠ : ١٥٣) انها عرفت باسم شبين القناطر لأنها اشتهرت بالقناطر التى أنشأها عندها (على بحر ابى المنجا) الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٥ م) ولكنها حتى سنة ١٨٧٣ ظلت مسجلة فى الدفاتر باسم شبيين القصر ، ولأنها كانت معروفة على لسان العامة باسم شبيين القناطر فقد قيد زمامها منذ ذلك التاريخ باسمها الحالى ، وقد تكون (القصر) هى الترجمة العربية لكلمة (شبيين) .
ومن المرجح أن شبين القصر استمدت اسمها من أطلال حصن تل اليهودية القريبة منها (٣٠ : ٧ : ٥٠) .

٦ ـ **سرياقوس** : ذكرها أميلينو فى جغرافيته فقال : ان اسمها القبطى (Siriaqous) ويرجح محمد رمزى انها كانت فى بدء تكوينها عزبة أنشأها Ciryaqous الذى كان واليا على قسم أتريب فسميت باسمه (٣٧ : ٣٥) .

٧ ـ **باسوس** : ورد اسمها (باسوس) (Pasose) فى الأوراق الديموطيقية فى عهد (بطليموس الثانى) ـ و (باسوس) اسم شخص

ورد فى عقد نقل ملكية حقل ، على انه المزارع خادم (حور) المسمى (حارباتزيس) بن (باسوس) و(تابكيس) • فباسوس هو الأب وتابكيس هى الأم ، (١٩ ، جـ ٥ : ١٠٥ – ٦١٤) وربما كان باسيبوس صاحب أملاك ، وقد يكون اسمه قد أطلق على قرية (باسوس) •

ففى العصر الاغريقى الرومانى فتحت مصر أبوابها على وجه خاص لشعوب الأغريق والرومان وشعوب البحر المتوسط العديدة • ولقد اندمج الاغريق فى الحياة المصرية بسرعة ، وبمرور الزمن تمصر الكثير منهم واقبل المصريون فى العصر الهلينستى (الاغريقى المتأخر) على اللغة الاغريقية ، وعلى كتابة لغتهم المصرية القديمة بالحروف الاغريقية ، وتسمى اللغة المصرية المتأثرة بالاغريقية باللغة القبطية (٢٥ : ٢٨٧) •

وفى تلك الفترة تبنى المصريون الأسماء الاغريقية للاشخاص وللمحلات • وتبدو معظم هذه الأسماء وقد اتخذت الشكل اليونانى المنتهى عادة بالمقطع (OS) • غير أن هذا لا يعنى انها جميعا يونانية الأصل ، بل كان بعضها – على العكس – مصرى الأصل ، استعاره اليونان بالمقابل وحرفوه الى قالبهم ذلك • وعلى أى الأحوال فان تلك الفترة هى التى تفسر تلك الأسماء التى انحدرت الى مصر بعد ذلك محرفة • كما تشاهد اليوم بين أشخاص الأقباط وفى أسماء المحلات وتبدو غير مفهومة الأصل والمعنى بغير ذلك (١٦ : ٢٨٤) • فمثلا من أسماء الأشخاص : استيفانوس ، باسيليوس ، منقريوس ، مرقص ، ارمانيوس ، فلتاؤوس ، وساويرس ، ومن أسماء المحلات العمرانية (فى نطاق محافظة القليوبية) : اتريبيس (اتريب) – سندبيس – سرياقوس وباسوس •

ثم بالعودة الى الشكل رقم (٢) واستعراض أسماء المحلات العمرانية فانه يبقى بشأن المحلات القديمة نقطتان :

* **النقطة الأولى** : وردت بعض القرى ذات الدلالة التاريخية للعهد الفرعونى وحتى الفتح العربى ، وورد ذكر بعضها فى المراجع التاريخية دونما شرح لدلالات أسمائها ، ومن تلك القرى :

* قهـا : عندما زار (بيعنخى) (٧٥١ ق ٠ م — ٧١٦ ق ٠ م) اتريب ، ضرب جلالته خيمته فى الجنوب من (كاهنى) (قها الحالية) ، الواقعة شرق مقاطعة اتريب (١٩ ، جـ ١١ : ٢٩ ، ٥٣) •

وذكر جوتيه قرية فى قاموسه باسم (Kahani) من قرى القسم الشرقى من قسم اتريب • كما ذكر جوتييه قرية أخرى باسم Qah - Hor وقال انها مدينة مصرية تقدس عبادة الاله هوريس ، ومن المرجح أن يكون هو الاسم القديم لمدينة قهـا •

* بهتيـم : وجد بها تمثال (بدون رأس للملكة نفرتارى) زوج (رمسيس الثانى) (١٩ ، جـ ٦ : ٤١١) ، ومكتوب على ظهره ثلاثة سطور رأسية ، مذكور فى أولها : المحترم لدى حاتحور صاحبة (حتب حيم) ، وقد تكرر هذا الاسم مما يدل على أنه اسم قرية ، ويحتمل أن يكـون هو الاسم المصرى القديم لقرية بهتيم •

وورد فى الانتصار (٤ ، جـ ٥ : ٤٥) أن بهتيت (بهتيم) من المدن القديمة وبها كيمان وآثار قديمة •

* نوب طحا : وجد فى هذه القرية محراب صغير (غير كامل) باسم الملك (بسمتيك الأول) (١٩ جـ ١٢ : ٧٧) • اسمها الأصلى نوب، وردت فى الانتصار (٤ ، جـ ٥ : ٥٠) باسم نوب طحا ، لتمييزها عن نوب طريف (٤ ، جـ ٥ : ٦٨) التى بمركز السنبلاوين •

* سنديبس : وردت فى كتاب فتوح مصر (٥ : ١٤١) ضمن قرى الحوف الشرقى باسم (دسبندس) وفى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) حرف اسمها الى (سنديبس) لسهولة النطق •

وغير تلك القرى ، هناك : أسنيت ، اكياد دجوى ، الشبموت ، الشوبك ، الناصرية ، (الفؤادية سابقا وقبلها باسم الخراولة) ، طنان ، ناى (نانهاتى) سندنهور ، سنديون ، شبلنجة ، وجميع تلك القرى لم يرد بالمراجع تفسير لدلالات أسمائها .

* النقطة الثانية : وردت أسماء بعض المحلات التالية تاريخها للقرى السابق ذكرها هنا — حسب ورود ذكرها فى المراجع العلمية — ولكن صيغ أسمائها تشير الى أنها فرعونية النشأة . ومن هذه القرى : بطا ، جمجرة ، دجوي ، شبرا شهاب ، شلقان ، طنط الجزيرة ، أجهور ، مجول والقلزم .

ولعل تلك المجموعة الأخيرة من القرى لم تكن ذات شأن يجعلها ترد فى المتون المصرية القديمة ، أو لعلها كانت عزبا أو توابع لقري أخرى أعظم شأنا منها ، بحيث تحجب شهرة القرى الأعظم ذكر القري الأقل شأنا .

(ب) المحلات العربية :

ويقصد بها المحلات العمرانية التى ترجع الى العصر العربى الأول (عصر الولاة) وحتى نهاية الدولة الفاطمية (٦٤١ م — ١١٧١ م) .

فعندما فتح العرب مصر ، تركوا مظاهر الحضارة المادية كما هى ، بل إن اللغة القبطية ظلت لغة الدواوين الرسمية أمدا طويلا ، حتى القرن الثانى عشر الميلادى . ولم تصبح اللغة العربية اللغة الرسمية للبلاد ، أو لغة الغالبية العظمى للمصريين ، الا بعد خمسة قرون من بدء الفتح العربى (٢٥ : ٢٨٨) .

وكان الحكم المدنى لمصر على العهد العربى — على وجه الاجمال — على عهده الأول ، لم يتغير فيه شىء . اذ كان العرب رجال حرب وسيف ،

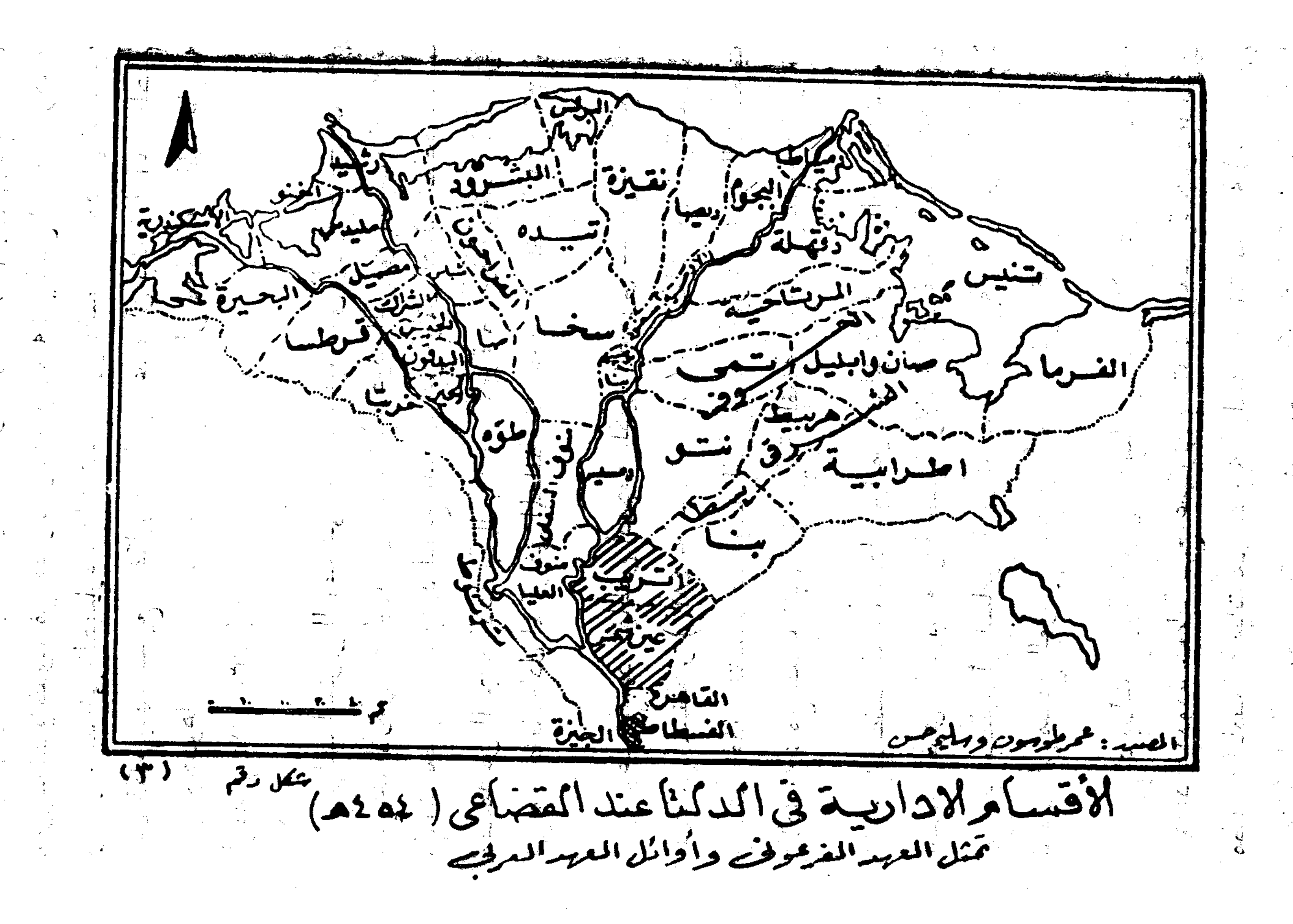
ولم يتعودوا حكم البلاد ، ولم يحذقوا فنونه ، ولم يكن بينهم نظام معروف قد يتخذونه فى مصر ، أو يدخلون منه شيئا فى ادارة أمورها • ومصر عريقة فى الحضارة ، ذات نظام مقرر مشعب • بيد أن العرب أهل ذكاء وفهم سريع ، فكان فى استطاعتهم أن يتناولوا أعنة الحكم التى وجدوها دونهم ، ويديروا بها الأمور على ما كانت سائرة عليه قبلهم (١٤ : ٣٣٠) •

ولما استولى العرب على مصر ، اطلقوا على الوجه البحرى اسم (أسفل الأرض) وعلى شرق الدلتا : (الحوف الشرقى) شكل رقم (٣)• وكانت مصر – منذ عهد الفتح العربى الى أوائل الدولة الفاطمية – مقسمة من الوجهة الادارية الى ثمانين كورة صغيرة ، وكانت الكورة فى مساحتها تعادل المركز فى المحافظة فى الوقت الحاضر (٢٦ : ٣١)•

وعلى العهد الفاطمى أدمجت الكور الصغرى – فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٨٣ هـ – ١٠٨٩ م) – فجعلت ٣٢ كورة كبيرة ، واستمر هذا التقسيم على وجه التقريب – تدور فى فلكه التقسيمات الادارية ، مع حذف قليل ، أو زيادة طفيفة ، حتى الوقت الحاضر •

وقد حشد العرب عددا كبيرا من التراجمة : القبط واليونان ، لحصر أسماء القرى المصرية • وقد أبقى هؤلاء التراجمة على أسماء القرى المصرية بحالها أو أضافوا اليها ترجمتها العربية ، أو حرفوه قليلا ليصل الى مسمع العربى ، وغيروا أسماء بعض القرى •

وقد بدأت الموجة العربية الاسلامية غزوا لا هجرة ، وقد بدأته بأعداد محدودة كعملية فتح عسكرى بحت ، وكغزوة جنودها ذكور مطلقة ، أقامت كحاميات مدن حربية أساسا • وكانت سياسة (عمر) هى الحفاظ على التقليد العسكرى للجند ، بعيدا عن الزراعة والأرض ، بينما



شكل رقم (٣)

الأقسام الادارية فى الدلتا عند القضاعى (٤٥٤هـ)

تمثل العهد الفرعونى وأوائل العهد العربى

كان (عمرو) هو واضــح تقليد (الارتباع) (*) كنوع مــن الرحلة البشرية ، ينتقل به العرب كل ربيع الى الصحراء ومراعيها ، حفاظا على تقاليد البدو والبــداوة .

وقد نزل العرب منذ الفتح العربى بشرق الدلتا ، ومنه الجزء الذى تشغله محافظة القليوبية الحالية . فمنذ أن دخل الجيش العربى الفاتح مصر ، أخذت بعض القبائل العربية تنزح اليها لاستيطانها . وقد قدم بعضهم مع عمرو بن العاص ، وجاء البعض بعد ذلك . وتكاثرت القبائل العربية ، وكان لأهلها شوكة ، وراحوا يختلطون بالأهلين . وقد نزل العرب فى أول الأمر فى الثغور والفسطاط لا يبرحونها الا باذن القائد . وكان الناس يجتمعون بالفسطاط فاذا حضر الربيع ، خطب عمرو بن العاص الناس ، فقال « قد حضر الربيع ، فانصرفوا . فاذا حمض اللبن ، واشتد العود ، وكثر الذباب فحى على فسطاطكم . ولا أعلمن ، ما جاء أحدكم قد أسمن نفسه ، وأهزل جواده » (٥ : ١٤٢) .

وكان اذا جاء وقت الربيع واللبن ، كتب لكل بربيعهم ولبنهم الى حيث أحبوا . وكانت القرى التى يأخذ فيها عظمهم : منوف ، ودسبندس (سندبيس) وأهناس ، وطحا (**) وكان أهل الرأية متفرقين . وكانت عدوان تأخذ فى بوصير ، وقرى عك التى يأخذ فيها عظمهم وبوصير ، ومنوف ، ودسبندس ، واتريب . وكانت فهم تأخذ فى : أتريب ، وعين شمس ، ومنوف . وكانت حضرموت تأخذ فى : ببا ، وعين شمس ، وأتريب ، وآل يسار بن ضنة فى أتريب . وكانت المعافر تأخذ فى : أتريب وسخا ، ومنوف ، وكان لغفار ايضا مرتبع بأتريب (٥ : ١٤١) .

(*) الارتباع هو ما يسمى الآن بالهجرة الفصلية (Trance humance) وهو شىء معروف عند كل الرعاة من عرب واسبان وصقالبة ، ويعرف فى صعيد مصر بالتصييف أو التربيع .

(**) طحا المقصودة هنا هى (طحا الاعمدة) من مركز سمالوط بمحافظة المنيــا وليست (طحانوب) من محافظة القليوبية .

وقد توالى استيطان العرب بالهجرة من الجزيرة العربية الى مصر . ويذكر المقريزى أن (عبيد الله بن الحبحاب) — عامل هشام بن عبد الملك على خراج مصر (١٠٥ — ١٢٥هـ — ٧٢٤ — ٧٤٣م) استأذنه فى الحاق نفر من قبيلة (قيس) بمصر ، فوافق هشام ، على الا ينزلوا بالفسطاط فأنزلهم ابن الحبحاب فى الحوف الشرقى ، وفرقهم فيه (٩ : ٢٣ — ٢٦) .

وفى ولاية (الحر بن يوسف) على مصر ، كتب عبيد الله بن الحبحاب ، صاحب خراجها الى هشام ابن عبد الملك ، بأن أرض مصر تحتمل الزيادة ، فزاد على كل دينار قيراطا ، فانتقضت عامة الحوف الشرقى ، فبعث اليهم (الحر) بأهل الديوان فحاربوهم ، فقتل منهم بشر كثير . وكان ذلك سنة سبع ومائة هجرية (٧ : ٧٣) .

وقد ظلت تلك السياسة سارية ونافذة قرن كامل عقب الفتح ، وبعده فقط بدأ التحول الى الزراعة والاستقرار بالتدريج . غير أن عملية الوفود قد تحولت الى هجرة : واسعة النطاق مختلفة النوع . فقد أخذت مجموعات وبطون من القبائل العربية تنزح الى مصر أولا فى موجات محدودة ، ثم أصبحت موجات زاحفة . فقدم مصر فى العهد الأموى اثنتا عشرة قبيلة من : قريش ، وقيس ، وجهينة ، والأزد ، وحمير ، ولخم .

وعلى الجملة ، فمنذ الفتح والى نهاية الدولة الفاطمية ، كان قد تراكم بمصر عدد كبير من القبائل العربية ، يعدده المقريزى فى قوله : « ولما قدم الغز صحبة أسد الدين شيركوه الى مصر ، كان بأرض مصر من العرب : طالحة ، وجعفر ، وبلى ، وجهينة ، ولخم ، وجذام ، وشيبان ، وعذرة ، وطئ ، وسنبس ، وحنيفة ، ومخزوم (٨ : ٢٣ — ٢٤) » . وكان لجذام اقطاعات فى : هربيط ، وتل بسطة ، ونوب ، وأم رمادة (كفر رمادة) .

والعصر العربى الأول فى مصر — الذى امتد زهاء قرنين ونصف قرن — كان العصر البطولى فى تاريخ نزوح القبائل العربية وتدفقها .

فكل حاكم عربي كان يستحضر معه أو يستدعى أهله وعشيرته ، وكانت كل قبيلة تقطع اقطاعات من الأراضى البور أو الزراعية لاستغلالها ، خاصة على أطراف الدلتا ، فى الحوف الشرقى والغربى ، وأيضا فى قلب الدلتا أو بطن الريف • ولقد كان هذا كله عاملا جوهريا فى الاتجاه نحو الاستقرار والتحول من الرعى الى الزراعة (١٦ : ٢٩٩ - ٣٠٠)

وشرق الدلتا بخاصة - وبمحافظة القليوبية على الأخص - على أطراف الصحراء وحواف المدن ، يغص اليوم بأسماء الأماكن المستمدة من تلك القبائل • وكان ياقوت يذكر القبائل العربية فى بعض القرى والمواضع ، والتى قد تنسب اليها •

والقليوبية بالذات ، معروف عنها من قديم كثرة العائلات الاقطاعية الكبيرة ذات النفوذ والثروة من ذوات الأصول العربية ، والتى هى فى الواقع سلالة القبائل البدوية التى أقطعتها الدولة فى الماضى أراضى زراعية شاسعة لكى تستقر ، وتكف عن الترحل واثارة المتاعب لها •

وتعكس نطاقات الهوامش الدلتاوية أسماء الأماكن • وفى الهامش الصحراوى للقليوبية يشير العنصر العربى الى الاستقرار ، وكثير من المحلات يلتصق بحد الصحراء مباشرة •

واذا كان حصر الأماكن الأكثر أهمية أو شهرة ، وارجاع أسمائها الى أصولها فالحصر صعب ، أما فى حالة القرى وسائر المواقع الصغيرة فانه مستحيل • ولقد كتب كل من اميلينو ومحمد رمزى فى هذا وحده قاموسا جغرافيا كاملا • فكثير جدا من أسماء القرى المصرية قد لا يجد له معنى مفهوما بسهولة ومهما امتد الخيال يتعذر تصور أصول عربية له ، وفى الوقت نفسه لن نخطىء رنينه الفرعونى ومقاطعه الهيروغليفية • (١٧ : ٥٧٣) •

ويمكن تصنيف أسماء المحلات بحسب المقاطع الدالة فيها على التأثير العربى ، الى فئات كما يوضحها الشكل رقم (٤) وفيما يلى : عرض لدلالات أسماء بعض تلك المحلات العربية .

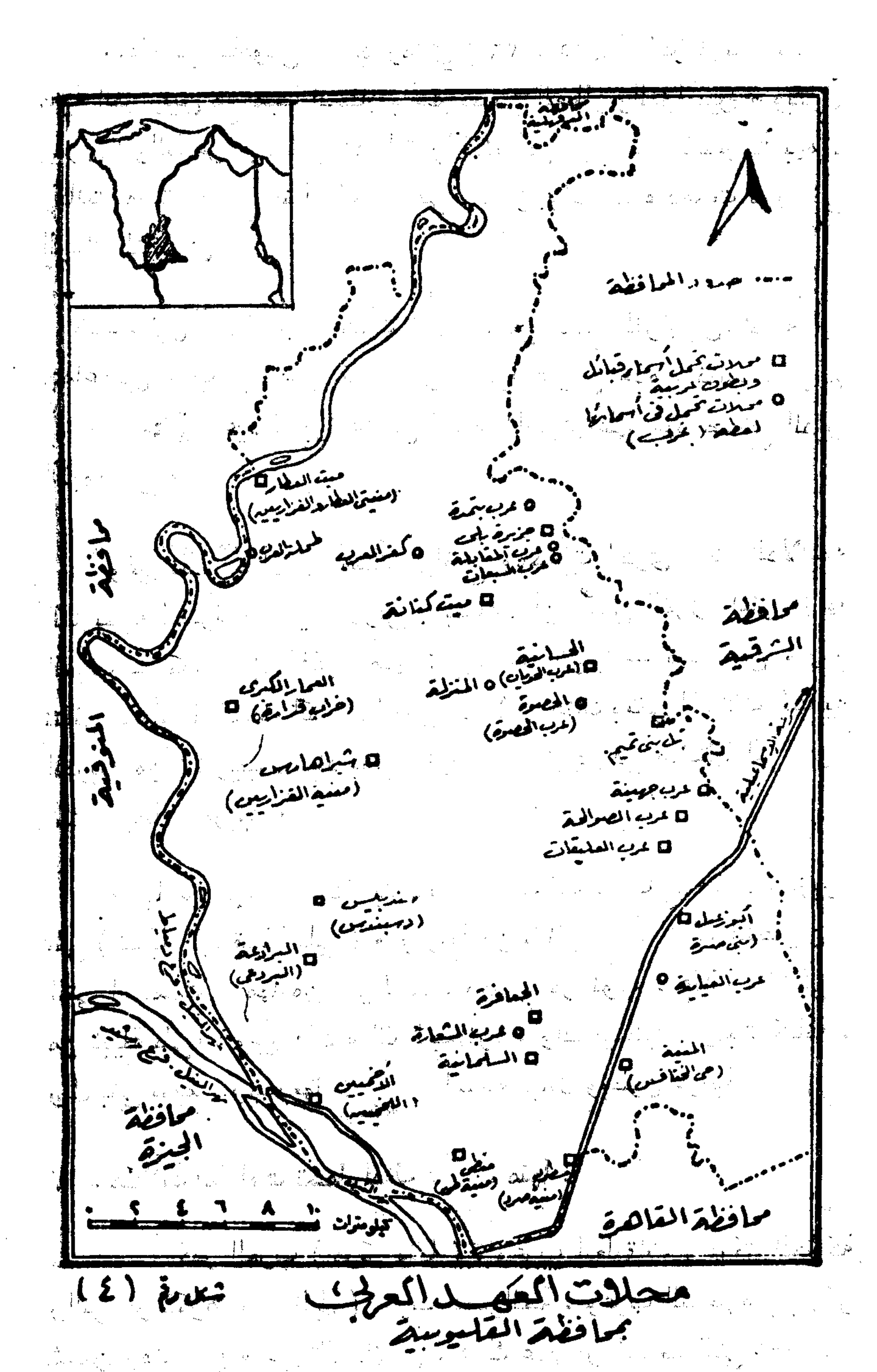
١ ــ محلات تحمل أسماء قبائل عربية : ومنها :

* عرب العليقات : يشير عقيل (٣٨ : ١١٩ ــ ١٢٠) الى أن عرب العليقات هاجروا من سيناء فى أنحاء متفرقة من مصر فى أوائل القرن الثامن عشر . وبينما يؤكد عرب عليقات سيناء صحة هذه القرابة ، تذهب روايات عليقات النوبة انفسهم الى أن العليقات الأول هاجروا الى مصر أيام الحجاج ، ثم انقسموا الى سبع شعب (رايات) : واحدة بجبل الطور ، وأخرى بأبو زعبل بالقليوبية ، واثنان بوادى العرب بالنوبة ، وخامسة فى بلانة ، وسادسة فى أدندان ، والسابعة فى السودان . ويؤكد نعوم شقير (٢٩ : ١١٢) هذه القرابة بقوله : والمشـــهور أن عليقات سيناء ، والعليقات القاطنين فى مديريتى القليوبية وأسوان ، من اصـــل واحد .

* عرب جهينة : جهينة مـــن أول العرب الذين دخلوا مصر ، أرسلهم عمر فى وادى النيل ، غير أن بعضهم أقام فى الصـــحراء . وهناك قبائل من جهينة سكنت الشرقية والقليوبية ــ كما يشير عبد المجيد عابدين (٨ : هامش ٦٨ : ٣٢ ، ٣٣) .

* العمار الكبرى : من القبائل التى نزلت بمصر : فزارة . نزل جماعة منهم بالصعيد وجماعة اخرى بضواحى القاهرة ، فى قليوب وما حولها ، وبهم عرفت البلدة المسماة بخراب فزارة ، كما جاء فى البيان والاعراب (٨ : ٤٩) . واليـــوم تعرف خراب فزارة باســم العمار الكبرى (*) .

(*) سيلى حديث اكثر تفصيلا عن العمار ، ص ٣٦٠ .



شكل رقم (٤) محلات العهد العربي بمحافظة القليوبية

وجاء فى قاموس محمد رمزى (٢٦ : ٤٣٥) ذكر قرية باسم : منية الفزاريين مع ميت العطار باسم منيتى العطار والفزاريين • ويقول رمزى : والظاهر ان سكان هذه القرية كانوا من عرب فزارة فعرفت بهم، وكانت مشتركة مع منية العطار فى السكن والزمام فادمجت معها فى الروك الناصرى •

كذلك، فان شبرا هارس كانت قديما تسمى: منية الفزاريين، نسبة الى جماعة من عرب قبيلة فزارة ، نزلوا شبرا هارس هذه ، فنسبت اليهم (٢٧ : ٤٥) وأعيد لشبرا هارس اسمها المصرى على عهد صلاح الدين الايوبــى •

وغير تلك المحلات ، هناك مواضع ومحلات اخرى ذات الدلالـة التاريخية للفترة العربية الأولى ، يشاهد أن بعض القرى التى نزلها العرب ــ كما سبق الذكر ومنها : نوب ــ أتريب ــ سنديس ، ولم تتأثر اسماؤها بأسماء القبائل العربية ، الا أن هناك بعض المحلات الحالية القريبة من : أتريب، سنديس ، نوب ، قد ترجع فى منشئها الىأصول تلك القبائل العربية •

فقريبا من أتريب هناك : بتمدة (كانت تعرف بعرب بتمدة) ، وجزيرة بلى (نسبة الى قبيلة بلى) • وقريبا من سنديس ، هنالك اللخميين ، التى استمدت اسمها من بنى لخم ، وقريبا من نوب ، هناك : منطى ، من قبيلة طىء ، وغير ذلك هناك الجعافرة ، والسليمانية ، وميت كنانة ، وتل بنى تميم ، وجميعها تشير الى اسماء قبائل وبطون عربية •

٢ ــ محلات اسماؤها تحمل لفظة عرب : منها :

كفر العرب (مركز بنها) ، وعرب العليقات (مركز الخانكة والتى مر ذكرها منذ قليل) وعرب الصوالحة ، وعرب الشعارة (بمركز شبين القناطر) • غير تلك القرى ، هناك عدد من العزب التى تحمل فى

اسمها لفظة عرب ، (كما يتناهد من الشكل رقم ٤) ويلاحظ ان مواقع تلك العزب قريبة من المحـــلات التى سبق ذكرها فى مواطن ارتبـــاع القبائـــل •

٣ — محلات تحمل اسماؤها الفاظ : أبو ، بنى ، أولاد • وهى :

* أبو زعبل : كانت فى منشئها تسمى : القصيـــر • ثم سميت باسم : بنى صبرة نسبة الى بنى صبرة بن نضرة بن غطفان بن سعد بن عساس بن حرام بن جذام (٢٨ : ٣٢) • وعرفت باسم : (أبو زعبل) فى تاريخ ١٨٠٩ ، وربما كان بنو صبرة قد سكنوها فسميت باســـمهم (٢٦ : ٩٧) •

ويذكر صاحب مراصد الاطلاع (٦ : ٦٦٦) ناحية باسم زعبل ، فيقول « موضع قرب المدينة » وقد يرجع بنو صبرة الى هذا الموضع ، فاستعاروا اسمه لمحلتهم المصرية •

* تل بنى تميم : يتناقل الاخباريون من أهالى تل بنى تميم أنه أثناء قدوم الجيش العربى لفتح مصر ، حدثت معركة بين اهالى المحلة التى كانت قائمة فى الموضع الذى اتخذته قريتهم ، سقط فيها عدد من الشهداء المسلمين ، وهدمت مبانى القرية وصارت تلا من التراب • وكان من بين المصابين صحابى هو « تميم الدارى الأنصارى » وكانت اصابته فى المعركة شديدة لم تمكنه من الاستمرار مع الجيش الاسلامى الزاحف الى بابليون ، فأقام فى خيمة على التل المتخلف ومعه بعض بنيه ، « عثمان » وطاب لهم المقام وأنشئوا مساكن لهم ونمت قريتهم وصارت تعرف باسم « تل بنى تميم » •

وعثمان ابنه ، اختلى للتعبد فى الموضع الذى دفن فيه فيما بعد ونمت حول ضريحه محلة صغيرة قريبة من تل بنى تميم ومن توابعها وهى المسماة « خلوة سيدى عثمان » •

جـ ـ دلالات أسماء المحلات العمرانية على الفترة من الدولة الأيوبية الى الحملة الفرنسية ١١٧٣/١٨٠١م :

قدم صلاح الين مصر فى ١٢ الف فارس من الاكراد والأتراك فى وقت ضعف فيه شأن العرب • ويقول المقريزى فى اشارة موحية : « اعلم أن العرب الذين شهدوا فتح مصر ، قد أبادهم الدهر ، وجهلت أحوالهم أكثر أعقابهم » (٨ : ٣)

ويذكر ابن اياس ، نقلا عن ابن وصف شاه ـ أنه لما تولى الأمير أحمد بن طولون على مصر أخذ فى أسباب عمارة قرى مصر وعمارة جسورها وقناطرها وحفر خلجانها وسد ترعها ، فاستقامت احوال الديار المصرية أيامه ، بعد ما تلاشى أمرها الى التراب (٢ : ٢٦) •

وعلى عهد الدولة الايوبيةأجريت عدة مساحات: ففى عهد الملك الناصر صلاح الدين اجريت مساحة عامة سنة ١١٧٧م فيما سمى بالروك الصلاحى ، أخرجها ابن مماتى فى كتابه « قوانين الدواوين » • ثم اجريت مساحة اخرى فى عهد حسام الدين لاجين سنة ١٢٩٨م فيما عرف بالروك الحسامى (١٩ ، جـ ١ : ٨٧) • ثم عملية مساحة عامة سميت بالروك الناصرى سنة ١٣١٢م • الذى تجددت كتابة نسخته الأصلية مرة ثانية ١٣٧٥ م فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين ابن قلاوون ، ثم تجددت مرة ثالثة وهى الأخيرة ـ فى عهد الملك الأشرف قايتباى سنة ١٤٧٧ فى صورة كتاب : « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » لابن الجيعان •

وتم تقسيم البلاد واسعة الزمام الى نواح جديدة كان يطلق عليها : كفر كذا •• فكفر كذا ••• موجود من عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون قبل سنة ١٣١٢ •

وعلى العهد العثمانى أجريت مساحة فيما عرف بالترابيع (٩٣٠ ـ ٩٣٣هـ / ١٥٢٣ ـ ١٥٢٦م) • وحيث كان الغرض الأسمى من احصاء

القرى والمساحات الزراعية هو جباية الخراج ، كان عمال المساحة والخراج لا يهمهم تصحيح أسماء البلاد التى درست ، بل كانوا يطلقون اسم القرية الدارسة على أحد توابعها من الكفور أو العزب ، فاذا خلت من ذلك كله كانوا يطلقون على زمامها – أى ، ارضها الزراعية – عبارة : « غيط من غير حيط » ، أى أرض زراعية من غير سكن (٢٦ : ٦ ، ٧) •

ومن دراسة أسماء قرى محافظة القليوبية فى الفترة من الدولة الايوبية الى الحملة الفرنسية (١١٧٢ – ١٨٠١م) يلحظ على أسماء محلات تلك الفترة أن :

* بعض المحلات التى غير العرب أسماءها أعيدت لها أسماؤها المصرية القديمة •

* ظهرت محلات جديدة : مستجدة أو حادثة بدل المندرسة ، تحمل أسماء جديدة مثل كفر كذا ، منشأة ••

* محلات حرفت أسماؤها •

١ – المحلات العمرانية التى أعيدت اليها أسماؤها المصرية القديمة:

تستقطب أسماء المحلات العمرانية المصرية الحية حاليا فى قطبين اثنين أساسا : قطب سالب متنح فرعونى ، وقطب موجب سائد عربى • ولقد يتم تحريف الأسماء الفرعونية الى العربية من خلال الأشكال الاغريقية ، ولكن هذه قلة محدودة • والأكثر شيوعا هو أن يتم ذلك من خلال الأشكال القبطية التى ليست الا صورة معدلة من الأصل الفرعونى ، وبهذا تعد القبطية وحدها حلقة الوصل الحقيقية بين القطبين الأساسيين: الفرعونى والعربى • ويبقى أن من خلف الواجهة العربية السائدة بين أسماء المحلات العمرانية المصرية تبرز القاعدة أو الأرضية الفرعونية المتنحية •

والواقع أيضا أن بعضا من الأسماء التى تبدو لنا لأول وهلة عربية بحتة ، ليست الا تعريبا لجذور فرعونية (١٧ : ٥٩٧) .

وسبقت الاشارة الى أن العرب فى أول أمرهم كانوا قد عربوا أسماء القرى المصرية فقالوا : بنها العسل ، طوح الملق ، أو حرفوا بعض الأسماء لتصل الى سمع العربى ، أو غيروا أسماء بعض المحلات .

ولكن صلاح الدين الايوبى أمر باعادة الأسماء المصرية القديمة لقراها ، مثل :

* أكياد دجوى : وردت فى نزهة المشتاق للادريسى باسم : منية الشاميين على أنها على الضفة الشرقية لفرع النيل ، يقابلها على الضفة الغربية (طنت) ، (طنط الجزيرة) ، وفى الروك الصلاحى أعيد اليها اسمها المصرى القديم ، وهو كياد ، ولقربها من دجوى ، ولتمييزها من شريكاتها فى الاسم عرفت باسم : أكياد دجوى .

* شبرا شهاب : ذكرها الادريسى تحت اسم : قشيرة الابراج ، وفى التحفة وردت (شبرا الأبراج) أى أعيد اليها اسمها المصرى القديم: شبرا . وفى العهد العثمانى عرفت باسم : شبرا شهاب ، نسبة الى الشيخ شهاب صاحب المقام الذى كان بها فى ذلك الوقت (٣٧ : ٥٦) .

* شبرا هارس : عرفت فى العهد العربى الأول باسم : منيـة الفزاريين ، نسبة الى جماعة من بنى فزارة سكنوها فعرفت بهم ، وقد أعيد اليها اسمها المصرى القديم ، شبرا هارس (٣٧ : ٤٥) .

٢ ــ المحـلات العمرانية التى نشأت تحت مسـميات جديدة :

بمراجعة الشكل رقم (٥) يشاهد بين أسماء المحلات العمرانية عدد منها يحمل اسم : كفر كذا ، متبوعا باسم علم ، (شخص أو قرية) .

ومعنى الكفر ، ما بعد من الأرض عن الناس فلا يمر به أحد . أو

هى القرى الثانية عن الأمصار ، وفى هذا دلالة على تبعية الكفور للقرى ، وانما تمثل أطراف الزمام الزراعى ، حيث تقوم محلات مؤقتة ، ثم تتحول بعد فترة الى قرى مستقلة (٢٠ : ٣٧٢) •

والكفر أقدم المصطلحات التى استخدمت للدلالة على مستوى سكن أصغر من القرية • وكان المصطلح فى بداية استخدامه يدل على القرية — كما يشير ياقوت الى ذلك (١١ : ٢٧٢) اذ يقول : وأكثر ما يتكلم بهذه الكلمة (كفر) أهل الشام ، فانهم يسمون القرية : الكفر ، وقد أضيف كل كفر الى رجل ، ويراد بالكفر « القرى النائية عن الأمصار » (٢١ : ١٨) •

وفي اللغة : الكفر : الأرض البعيدة عن الناس ، القرية ، وهى من كفرا بالسريانية ، ومعناها قرية أو مزرعة أو حقل ، أو هى عربية « التراب يغطى ما تحته » أى بقعة من الأرض عالية نوعا (٣٤ ، جـ ٦ : ٤٦١) وكلمة كفار عبرية •

ولكن الكلمة تطورت عندما انفصلت بعض الأسر عن القرى الأصلية ، وأسست لها سكنا غير بعيد عنها ، وأطلق على هذه المحلات الصغيرة الجديدة اسم القرية الأصلية مصدرا بكلمة كفر •

ومن الكفور التى ترجع الى تلك الفترة (١١٧٢ — ١٨٠١ م) فى نطاق محافظة القليوبية يشاهد :

* كفر الحارث : نشأ فى زمن خلافة عمر بن عبد العزيز (٦٣ — ١٠٢ هـ — ٦٨٢ — ٧٣٠ م) وبذا فيكون هذا هو أقدم محلة مصدرة بكلمة كفر فى محافظة القليوبية •

* كفر الشوبك : فصل عن الشوبك فى تربيع سنة ١٥٢٦ (٢٧ : ٤٠) •

* كفر شبيين : هو من الكفور ، ورد فى التحفة (١ : ١١) مع شبيين القصر (القناطر) وفصل عنها سنة ١٨١٣ (٢٧ : ٤١) .

وبالعودة الى الشكل رقم (٤) يُشاهد عدد من المحلات الناشئة تحت أسم جديد مصدرة بكلمة : منشأة أو منشية وزاوية وخلوة وحصة ، ومنهـا :

* المنشأة الكبرى : والمنشأة الصغرى : الكبرى منهما اسـمها الأصلى منشية عز الملك وتعرف من قديم على ألسنة الجمهور باسـم المنشية الكبرى ، وأما الصغرى فاسمها القديم تروط طسفة (١ : ٢٧) وكانت تعرف بالمنشية الصغرى لتمييزها من طاروط التى بمركز الزقازيق.

* منشية بنها : اسمها الأصلى المنشأة ، ويقال لها منشية بنهـا لأنها كانت من توابع بنها ، وفصلت عنها سنة ١٩١١ (٢٦ : ٢٧) .

* زاوية بلتان : أصلها من توابع بلتان ، وفصلت عنها سنة ١٨٤٢ (٢٧ : ٥٠) .

* خلوة سنهرة : وأصلها من توابع سنهرة ، وفصلت عنها سنة ١٩٣٧ (٢٧ : ٥٠) .

* الحصة : كانت من توابع نجهطر (مشـتهر) ، وردت فى التحفة (١ : ١٠) باسم حصة المعنى وعرفت من سنة ١٨٤٢ باسـمها الحالى (الحصة) (٢٧ : ٤٢) .

والمشاهد أن : منشأة كذا أو منشية كذا حديثة وتدل على محلة فصلت من محلة أكبر أو بدأها أو أنشأها أحد الأعيـان أو الوجهاء (١٦ : ٢١٩) .

٣ ــ **المحلات التى حرفت أو غيرت اسماؤها :** من دراسـة أسماء المحـلات العمرانية بمحافظة القليوبية ، شوهد أن القـرى المندرسة جميعها كان بينها كفور وعزب يسكن بها القائمون بأعمال الزراعة فى

أراضيها ، فأصبحت تلك الكفور والعزب علما على القرى المندرسة تحمل اسمها القديم ولهذا السبب حذفت أسماء كثيرة من سجل التحفة ، وظهر بدلا منها قرى مستحدثة ، قد يظن انها مستجدة ، فى حين أن وحدتها المالية قائمة • وفى كثير من الأحيان يذكر الاسم القديم مع الحديث لسهولة الارشاد ، فيقال :

* تروط طسفة المعروفة بالمنشية الصغرى (١ : ٢٧) •
* بلقس ومجيحة كفرها وهى كوم الهوى (١ : ٦) •

واذا تداخل زمام القريتين معا ، فيقال :

* الحراز مع القلزم (١ : ٨) •
* زفيتة شطنوف وبهادة كفرها (١ : ١٠) •

وعلى العهد العثمانى حرفت أسماء بعض المحلات ، وخاصة تلك التى كانت تحمل اسم : منية كذا ، فعرفت باسم : ميت كذا ، كما سيرد ذكره •

(د) دلالات أسماء المحلات العمرانية الحديثة :

ويقصد بها المحلات التى نشأت منذ عصر محمد على الى اليوم • وكان لتحريف الكتب المخطوطة أثر كبير فى تحريف أسماء القرى ، خاصة وأن أسماء القرى فى الواقع أسماء من لغات وأجناس عديدة ، تولت حكم مصر فى عصور مختلفة من التاريخ ، وخليط من أسماء معبودات وكلمات قبطية وفارسية ويونانية ورومانية وأسماء قبائل عربية وغير عربية •

وقد انتهت كل هذه الأسماء بما فيها من : تحريف وتصحيف ، وتغيير وابدال واغفال الى كتاب دواوين محمد على سنة ١٨١٣ فنقلوا هذه الأسماء من مصادرها القديمة محرفة ومصحفة ومشوهة ، الى

سجلات تاريخ محمد علي، ثم نشرتها الحكومة بحالتها التي وصلت اليها، ومنها أسماء قبائل عربية ، كانت غير مستهجنة في عصرها ، منذ تكوين القرية الأولى ، لكنها أصبحت لا تتمشى مع روح العصر ، بل أصبحت على النقيض أداة للتشهير ، مثل: طسفة بني حرام (المنشية الصغرى حاليا) ، حي الخنافس (المنايل حاليا) •

وقد وافقت الحكومة أهل هذه القرى على تغيير اسمها بما يطابق روح العصر في حالتين علمتين : أثناء عملية فك الزمام ، وأثناء التعداد وحصر السكان (٢٦ : ١٦) •

وبنظرة على الشكل رقم (٥) ودراسة أسماء المحلات في الفترة منذ عهد محمد على الى اليوم (١٨٠٥ الى ١٩٨٥) تلاحظ عدة أمور : منهـــا :

١ ــ كثرة المحلات المستحدثة وشيوع تسمية بعضها مصـــدرا بكلمة كفر : ففي تاريخ سنة ١٨١٣ وحده فصل ٢٧ قرية جديدة ، سمى ٢٥ منها مصدرة بكلمة كفر والقريتان المستحدثتان المنفصلتان الأخريان هما : (البقاشين ــ الحسانية) • بل ان قرى محافظة القليوبية التي ترجع الى الفترة من عهد محمد على الى اليوم وعددها ٦٣ قرية يلاحظ أن منها ٤٥ قرية تحمل اسم (كفر كذا) •

وبتزايد عدد السكان نمت تلك الكفور عمرانيا ، وتضخم بعضها • ومن الدراسة الميدانية ومراجعة السجلات والمصادر العلمية فقد تبين أن هناك أربعة مستويات من المحلات العمرانية التي تحمل في صدرها (كفر ــ كفور) في نطاق محافظة القليوبية (شكل رقم ٥) •

* فقد يكون الكفر مجاورا لناحية ، ومع النمو العمراني يصبح الكفر : حيا أو شياخة ضمن المحلة ، كما يشاهد في : كفر مناقر ، الذي أصبح أحد أحياء مدينة بنها ، أو قد ينضم كفران في محلة واحدة ، مثل



شكل رقم (٥١)

قرى الكفور بمحافظة القليوبية

كفر رمادة وكفر الترجمان ، وكفور عامر ورضوان (كفر الشيخ عامر وكفر رضوان اسماعيل) أو قد يضم الكفر الى محلة لا تحمل اسم كفر ، مثل : مرصفا وكفر أحمد حشيش ، وميت كنانة وكفر شومان •

* لا تزال بعض الكفور من مستوى العزب (توابع للقرى) ، مثل : كفر شومان (من توابع ميت كنانة) ، كفر الشرفا (من توابع دجوى) وكفر سليمان الور (من توابع تل بنى تميم) ، وكفر السبيل (من توابع حلابة) •

* هناك ستون كفرا أو كفورا من مستوى القرية (الشكل رقم ١)•
* بعض الكفور وصلت الى مستوى المدينة ، ويمثلها هنا : كفر شكر •

فقد تكون كفر شكر سنة ١٨١٣ بفصله بزمام من أراضي نواحي: اسنيت وطسفا وميت الدريج وينسب الى منشئه الحاج شكر ابراهيم ، من أعيان قرية أسنيت ، حيث نشأ هذا الكفر فى أرضها (٢٨ : ٢٦٧) وبالقرار الوزاوى رقم ٣٣ لسنة ١٩٦٤ انشىء فى محافظة القليوبية مركز جديد باسم مركز كفر شكر بفصل مجموعة من القرى من مراكز: بنها — ميت غمر — منيا القمح • وتحولت قرية كفر شكر الى مدينة باسم : مدينة كفر شكر ، بالقرار الجمهورى رقم ٨٣٦ لسنة ١٩٧٠ (٣٤ : —)•

وبالقليوبية بعض الكفور وهى أقدم فى النشأة من المحلات والكفور الحديثة ، ومنها كفر أبو زهرة ، كفر الولجا ، كفر طحلة ، كفر منصور (بمركز طوخ) ، كفر جمعة ، كفر شبين ، كفر شرف الدين ، وجميعها لها أصول تمتد الى ما قبل العهد العثمانى ولكنها كانت تحمل أسماء مغايرة لاسمائها الحالية ، فعلى سبيل المثال :

* كفر الولجا : ورد فى قوانين ابن مماتى ضمن ناحية : الولجتين من أعمال الشرقية • وفى الروك للناصرى فصلت كل ولجة منهما عن الأخرى فوردت فى التحفة (١ : ٢٣) باسم : ولجة على وهى هذه ، والثانية باسم : ولجة عمران من أعمال الشرقية • وفى تاريخ ١٨١٣

وردت كل منهما باسمها الحالى : الولجا وكفر الولجا ، وكانتا تابعتين لمركز منيا القمح ، وقد فصلت منه كفر الولجا وضمت لمركز كفر شكر عند أنشائه فى سنة ١٩٦٤ •

* كفر جمعة : ورد فى وقف السلطان الاشرف برسباى (٨٤١ هـ — ١٤٣٧ م) ، باسم : منيل أبو جمعة ، وفصلت باسمها الحالى فى تاريخ سنة ١٨١٣ (٢٧ : ٥٨) •

والعادة فى الكفر أن يكون بجوار بلدته الأصلية مثل : كفر شبين ، وكفر طحلة ، وكفر العمار ، وكفر بطا ، وكفر الشموت • وقد يفصل تقسيم المراكز بين القرى وكفورها ، فالحصافة بمركز شبين القناطر وكفرها بمركز طوخ ، والدير بمركز طوخ وكفرها بمركز شبين القناطر • والحصة بمركز طوخ وكفرها بمركز بنها ، وسندوة بمركز الخانكة وكفرها بمركز شبين القناطر • بل : الولجا بمركز منيا القمح (محافظة الشرقية) وكفرها بمركز كفر شكر (محافظة القليوبية) •

ومن تنويعات الكفر الأقل حدوثا (كفور) يوجد بالقليوبية :

* كفور عابد : أصلها من توابع طوخ باسم : كفر عابد صبيح ، فصل عن طوخ سنة ١٨٤٣ ، وكان يشترك مع فى الزمام الزراعى قرية أخرى باسم : خلوة عبد النبى فضمت القريتان معا (كفر عابد صبيح وخلوة عبد النبى) وسميتا معا (كفور عابد) (٢٧ : ٥٢) •

* كفور عامر ورضوان : كفر الشيخ عامر ينسب الى الشيخ عامر ساكن الضريح الذى بهذا الكفر — وكان هذا الكفر من توابع كفر على شرف الدين • كذلك كان كفر رضوان اسماعيل من توابع كفر على شرف الدين وفصل عنه سنة ١٨٥٣ ، ونظرا لتداخل أراضى تلك الكفور الثلاثة فقد ادمجت كلها فى وحدة ادارة واحدة باسم كفور أسنيت لمجاورتها لناحية أسنيت ، وذلك سنة ١٩٠٣ ، وعندما فصل كفر

شرف الدين ، فصل بعده كفر الشيخ عامر وكفر رضوان اسماعيل سنة ١٩٣٥ وكونا معا ناحية واحدة باسم كفور عامر ورضوان (٢٧ : ٣٥) •

٢ ــ محلات استبدلت أسماؤها للاستهجان أو للتيمن :

عندما كانت تزيد سطوة الحكام ، أو يثقل الشعب بالضرائب كانت تحدث انتفاضات من الأهالي للمقاومة فتضطر الحكومة الى قمع الثورات، أحيانا بالعنف لدرجة قد تلجأ فيها الى هدم القرى واطلاق اسمها على مكانها الذى يصبح حوضا زراعيا ، وأخف العقوبات التى توقعها الحكومة ، وخصة على العهد العثمانى ــ هى اطلاق اسم مستهجن على المحلة • وعندما تتبدل الأحوال ، وتزول الأسباب يطالب الاهالى باستعادة الاسم الأصلى أو استبدال إسم جديد بالإسم المستهجن •

وقد تكون أسماء المحلات فى وقت ما مألوفة ولكنها فى وقت آخر تصبح مستهجنة ، فيطالب الأهالى باستبدالها • وقد تكون الأسماء الجديدة على سبيل التيمن •

* العمار الكبرى : سبقت الاشارة اليها (ص ٣٤٩) على انها نسبت الى جماعة من فزارة سكنوها فعرفت بها • ولما خربت عرفت باسم : خراب فزارة • وردت به فى التحفة (١ : ١٠) • وللتخلص من اسم : خراب فزارة أطلق عليها أهلها اسم العمار ، للتيمن ، فوردت به فى خريطة الحملة فى تاريخ ١٨١٣ ، ولما فصل منها كفرها ومنشيتها عرفت من سنة ١٨٥٨ باسم العمار الكبرى (٢٧ : ٤٣) لتتميز من توابعها •

* الجعافرة : وردت فى الانتصار وفى التحفة مع بلقس ، فيقول ابن دقماق (٤ ق جـ ٥ : ٤٥) بلقس وكوم الهوى كفرها ، ويقول ابن الجيعان (١ : ٦) بلقس ومجيحة كفرها وهى كوم الهوى • وفى تربيع ١٥٢٦ كوم الهوى وهى كفربلقس • كذلك وردت فى دليل ١٨٦٩ • ولما كان سكان هذه القرية من عرب الجعافرة ــ كما سبقت الاشارة ــ الذين

استوطنوا تلك الجهة ، فقد انتهزوا فرصة تاريخ سنة ١٨١٣ وسموها الجعافرة ، للتخلص من كوم الهوى (٣٧ : ٣٢) •

* الناصرية : هذه القرية استبدل اسمها عدة مرات : فهى قديما كانت تسمى (الخرلولة) ووصلت به عن شبرا هارس فى تاريخ ١٨١٣ • ولاستهجان اسم الخرلولة ، طلب أهلها تغيير اسمها وتسميتها الفؤادية تيمنا باسم الملك فؤاد الأول ، وتم ذلك بقرار من وزارة الداخلية سنة ١٩٣٢ (٢٧ : ٤٩) وبعد قيام الثورة سميت منشأة شبرا هارس ، وأخيرا تغير اسمها الى الناصرية تيمنا باسم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وذلك بالقرار الجمهورى رقم ١٦٧٤ بتاريخ ٢٦/٨/١٩٦٤ (١٣ : ٤) •

* منشأة بنهـا : اسمها الأصلى المنشية ويقال لها منشية بنها ، لأنها كانت من توابع بنها ، وفصلت عنها سنة ١٩١٢ وتيمنا باسم الملك فاروق غير اسمها الى الفاروقية سنة ١٩٤٠ ، (٢٧ : ٢٧) وبعد الثورة أعيد اليها اسمها القديم محرفا الى منشأة ومسندا الى بنها فوردت باسم : منشأة بنهـا •

* المنيرة ومنشأة الكرام : كانت كل منهما تسمى : زفتا أو زفيتة ، منسوبة الى قرية مجاورة لتمييز كل منهما عن الأخرى وعن زفتى التى بالغربية ، فالمنيرة كانت تسمى زفيتا شطنوف (١٢ : ٤٣٤) ، وفى تربيع ١٣٥٦ عرفت باسم زفيتة شلقان المجاورة لها ولتمييزها عن زفيتة مشتول المجاورة لمشتول السوق • ولاستهجان اسم زفتا وزفيتة ، طلب سكان كل من القريتين استبدال اسمها ، فأخذت زفيتة شلقان اسم المنيرة من سنة ١٩٣٤ (٢٧ : ٥٤ ، ٥٥) أما زفيتة مشتول فقد استبدل اسمها الى منشأة الكرام سـنة ١٩٤٧ ، على أن زفتـا مشتول كان اسـمها السـابق « منا مشتول » كما وردت فى قائمة ابن الجيعان •

* كفر طحلة : كانت قديما تسمى (باخة) ونسبت اليها طحـلة المجاورة لها ، كما ورد التحفة (١ : ٣٥) ، ولاستهجان كلمة (باخـة) قيد زمامها فى تاريخ سنة ١٨١٣ باسم كفر طحلة (٢٦ : ٢٤) •

* حلابة : من القرى القديمة ، كانت تسمى قتلانة ، وردت به فى الانتصار (٤ ، جـ ٥ : ٥٠) محرفا باسم : قلاية وكفورها ، ثم وردت فى التحفة (١ : ١٣) ضمن كفور قلما ، قال : قلما وكفورها بما فيها قتلانة • وفى العهد العثمانى غير اسمها لاستهجانه ــ الى حلابة وهو اسمها الحالى ، الذى وردت به فى تاريخ سنة ١٨١٣ (٢٧ : ٥٥) •

* منية السباع : فى أيام الدولة الفاطمية غضب عامل الخراج على أهل منية السباع ، فأمر بتسميتها منية الخنازير ، تحقيرا لهم •

لذلك وردت بهذا الاسم فى السجلات ففى التحفة مثلا (١ : ٤٣) قال ابن الجيعان : منية السباع وهى منية الخنازير ، وحرف اسمها الى ميت خنازير فوردت به فى تاريخ سنة ١٨١٣ •

وقد أعيد اليها اسمها الأصلى وهو منية السباع بدلا من اسمها المستهجن وذلك فى سنة ١٩٣٠ (٢٧ : ٢٦) ، الا أنه لوحظ أثناء الدراسة الميدانية أن بعض كبار السن بالقرية لا يزالون يقولون انهم من (ميت الحلاليف) •

ومن الجدير بالملاحظة أن فصل القرى من اقليم والحاقها بآخر ، أو فصل قرى مستجدة كانت توابع لقرى أخرى ، كان يتم بمرسوم ، واستمر ذلك حتى ١٩٠٦ عندما أجريت مساحة عامة لأكثر جهات مصر • ومن ذلك التاريخ صار ذلك بقرار من وزارة الداخلية • الا أنه ابتداء من سنة ١٩٦٠ وبدء تطبيق نظام الادارة المحلية أصبح فصل القرى وتعديل الأسماء يتم بقرار جمهورى •

قائمة المصادر والمراجع

أولا ــ المصــادر :

١ ــ ابن الجيعان (شرف الدين يحيي بن المقر) ، ١٨٩٨ ، التحفــة السنية باسماء البلاد المصرية ، القاهرة ، الكتبخانة الخديوية .

٢ ــ ابن اياس (محمد بن أحمد) ، ١٩٦٠ ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، القاهرة ، دار الشعب .

٣ ــ ابن حوقل (أبو القاسم محمد) ، ١٩٧٩ ، كتاب صورة الأرض ، بيروت ، دار مكتبة الحياة .

٤ ــ ابن دقماق (ابراهيم بن محمد) ، (د. ت.) ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ج ٤ ، ج ٥ ، بيروت ، دار الافاق الجديدة .

٥ ــ ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) ، ١٩٢٠ ، فتــوح مصر وأخبارها ، ليدن ، مطبعة بريل .

٦ ــ البغدادى (صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحــق) ، ١٩٥٤ ــ ١٩٥٥ ، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، الطبعة الأولى ، تحقيق على محمد البجاوى ، بيروت ، دار المعرفة .

٧ ــ الكندى (أبو عمر محمد) ، ١٩٠٨ ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بيروت .

٨ ــ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) ، ١٩٦١ ، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعــراب ، الطبعة الأولى ، تحقيــق عبد المجيد عابدين ، القاهرة ، عالم الكتب .

٩ ــ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) ، ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨ ، الخطط المقريزية ، القاهرة دار الشعب .

١٠ ـ على مبارك (١٨٨٧ ، ١٨٨٨) ، الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءا ، القاهرة ، مطبعة بولاق الاميرية .

١١ ـ ياقوت الحموى ، ١٩٤٦ ، المشترك وضعا والمفترق صقعا ، تحقيق وستنفلد ، ليبزج .

١٢ ـ ياقوت الحموى ، ١٩٥٧ ، معجم البلدان ، خمس مجلدات ، بيروت ، دار صادر .

ثانيا ـ المراجع :

١٣ ـ الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء ، ١٩٧٨ ، النتائج النهائية لتعداد سكان الريف لسنة ١٩٧٦ ، تعداد سكان الريف ، محافظة القليوبية ، مرجع رقم ٩٣ ـ ١١١٥٢ ـ ١٩٧٨ ، القاهرة .

١٤ ـ الفريد ج. (بتلر) ، ١٩٤٦ ، فتح العرب لمصر ، الطبعة الثانية ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .

١٥ ـ جمال حمدان ، ١٩٧٠ ، شخصية مصر (الكتاب الوسيط) ، القاهرة ، عالم الكتب .

١٦ ـ جمال حمدان ، ١٩٨١ ، شخصية مصر ، المجلد الثانى ، مصر البشرية ، القاهرة ، عالم الكتب .

١٧ ـ جمال حمدان ، ١٩٨٤ ، شخصية مصر ، المجلد الرابع ، القاهرة ، عالم الكتب .

١٨ ـ سليم حسن ، ١٩٤٤ ، أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .

١٩ ـ سليم حسن ، ١٩٥١ ـ ١٩٥٩ ، مصر القديمة ، ٢٠ جزء ، القاهرة ، دار الكتب المصرية .

٢٠ ـ عبد العال عبد المنعم الشامى ، ١٩٧٣ ، مصر عند الجغرافيين العرب فيما بين القرنين الثالث والتاسع الهجرى ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

٢١ ـ عبد العال عبد المنعم الشامى ، ١٩٨١ ، مدن مصر وقرارها عند ياقوت الحموى ، الطبعة الأولى ، الكويت ، الجمعية الجغرافية الكويتية .

٢٢ ـ عبد الفتاح محمد وهيبة ، (د. ت.) ، جغرافية العمران ، الاسكندرية ، منشأة المعارف .

٢٣ ـ كارستن نيبور ، ١٩٧٧ ، رحلة الى مصر ، ترجمة مصطفى ماهر ، القاهرة ، المطبعة العالمية .

٢٤ ـ مديرية أمن القليوبية ، ملف التغيرات الادارية ، بيانات غير منشورة .

٢٥ ـ محمد السيد غلاب ، ١٩٧٤ ، تطور الجنس البشرى ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو .

٢٦ ـ محمد رمزى ، ١٩٥٣ ، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الأول ، البلاد المندرسة ، القاهرة ، دار الكتب المصرية .

٢٧ ـ محمد رمزى ، ١٩٥٤ ، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الثانى ، الجزء الأول ، مديريات شرق الدلتا ، القاهرة ، دار الكتب المصرية .

٢٨ ـ محمد فاتح عقيل ، ١٩٥٩ ، بعض الظاهرات الجغرافية فى بلاد النوبة المصرية ، فى (المحاضرات العامة) ، القاهرة ، الجمعية الجغرافية المصرية .

٢٩ ـ نعوم شقير ، ١٩١٦ ، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ، القاهرة ، مطبعة المعارف .

٣٠ ــ نوال محمد عبد الله ، ١٩٧١ ، العمران فى الحافة الشرقية للدلتا، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية البنات ، جامعة عين شمس•

٣١ ــ ابن فارس (أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا) ، ١٩٧٧ ، الصاحبى ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ، دار احيـــاء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى) •

(32) Boinet A., (1899) : Dictionnaire Geographique de L' Egypte, Le Caire.

(33) Gauthier. H., (1924) : Dictionnaire des Noms Geographique contenus Textes Hierogliphques. 6 Vols. Le Caire.

(34) Lozach, J. & Hug, G., (1930) : L'Habitat Roural En Egypte, Le Caire, La Socité de Geographie d'Egypte.